إشراقات نورانية من

أَخْبَارِ الأَنْبيَاءِ والأولياءِ والحُكماءِ

وشرح لأِسْماءِ اللهِ الحُسْنى

مَوَاعِظ وَحِكَمٌ

إشراقات نورانية من

أَخْبَارِ الأَنْبيَاءِ والأولياءِ والحُكماءِ
شرح لأِسْماءِ اللهِ الحُسْنى
مَوَاعِظ وَحِكَمٌ

تأليف

نس-يب أس-عد الأس-عد

إشراقات نورانية من أَخْبَارِ الأَنْبيَاءِ والأولياءِ والحُكماءِ

َشرح لِأَسْماءِ اللهِ الحُسْنى -ـ َمَوَاعِظ وَحِكَمٌ

تأليف: نسيب أسعد الأسعد

الطبعة الأولى: ٢٠٠٦.

عدد النسخ:١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

التدقيق اللغوي: عبير سليم عقل

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
مؤسسة رسلان للطباعة النشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ــ دمشق ــ جرمانا
هاتف:٥٦٢٧٠٦٠ ــ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء

شُرْعَةُ الحَيَاةِ أَنْ تَسيْرَ نحو الأمَام

شُرْعَةُ الأرْواحِ أَنْ تسْمُوَ نحو التَّمام

وَحَقُّ المَرْءِ أَنْ يشكرَ مَنْ كانَ لَهُ المُعينَ والإلهَام

وإني إذ أضعُ هذا المؤَلّفَ بينَ الأيادي

أوَد أن أقدِّمَهُ هديّةً:

لـكُلِ عقْلٍ متفتِّحٍ بالحقيقة، متبصِّرٍ بأنوارِ الطريقة

ولـكُلِّ قَلبٍ غَمَرَهُ نورُ الحقِّ

ففاض يهدي ويبني جسوراً بينَ الأَنام.

وَلِـكُلِّ خَفْقَةٍ وزَفْرةٍ وشهقَةٍ حَملتْ لرُوحي مِن رُوْحِهَا السَّلام.

نسيب الأسعد

لَيْتَ شِعْري كم بَحَثْتُ..

وَكَمْ وَرَاءَ أسْرارِهَا اِنْجرفْتُ..

عَصِيَّةٌ حقيقةُ الوُجودِ

وَكلَّما ازددتُ معرفةً أدركْتُ أنّي قد جَهِلْتُ..

نسيب الأسعد

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلام على أنبيائه الأكرمين نجوم الدّجى وأنسام الرجا، وعلى أوليائه الصـادقين العابدين، وحكماء الزمان المنتجبين مَنْ حملوا راية الإيمان في قلوبهم وسـلكوا درباً نحو الحقيقة، ساروه بالزهد والعبادة، ومهّدوه بالقيام والصلاة فنالوا الوصول والسعادة.

ومرةً ثانيةً يقودني يراعي نحو المعرفة التي طالما وقفتُ في محرابها، وسرتُ في ممرّاتها وقطفتُ من رياضـها ألتمسُ أخباراً مختصرـةً عن أنبياء الله ورُسُـلِهِ (صـلواتُ المُهيمن عليهم) لم يكنْ هَمُّنا التوسُّع في قصصهم التي كثرَتْ في كُتُبٍ كثيرةٍ ولكنَّا آثرنا الاهتمام بأبرز أخبارهم وفق ما جاء في كُتُب الله عزّ وجلَّ قرآنه وإنجيله وتوراته، وعَرَضـنا من خلالها عبْرَةً لمَنْ وُسِـمَتْ نفسُـه بالاعتبار، وَصَـفَتْ روحه بعشق الجَّبار.

وكان هدفنا الأوَّل من هذا الكتاب ذِكْرَ قصـص الأولياء العابدين العارفين، وما حملتْه هذه القصـص من ضـياء وموعظة، ولكنَّا لمَّا ذكرنا أخبار الأنبياء لم نشـأ تقديم القصـص على الأخبار التي جاءت مختصرـة نافعة، ومِنْ ثم تركنا الباب مشرـعاً أمام قصـص الأولياء وذكرنا أهم الشـخصـيات الصوفية، ولم نذكرها كلّها لاستحالة ذلك، وإنما كان شعارنا: من كلّ بستانٍ زهرة، ومن كلّ قصةٍ عبرة. وكان لنا من الحكماء الذين سُطِّرَتْ أقوالهم في صفحات من النور وقفةٌ نرسم من خلالها مختصراً من قصـصـهم التي مهّدت لأقوالهم المنشـودة لما فيها من عبرةٍ وموعظةٍ لقلوبٍ امتلأتْ حبّاً بالله قبل الخوف من عقابه والطمع في ثوابه.

وثم تركنا المجال لشرـح البسـملة وما فيها من أسرار ربّانية وألغاز إلهية وشرح أسـماء الله الحسنى التي لا يعلم عددها إلا الله، وإذا قيل أنّ أسماء الله الحسنى

تسـعةٌ وتسـعون اسـماً فذلك كلام ليس دقيقاً، ولا للصـواب رفيقاً بل هي من علم الله الواحد القهّار، حاولنا شرح هذه الأسماء بقدر ما منَّ الله علينا من توفيقه، لغوياً وشرعياً وعرفانياً معتمدين على الله أولاً، وبعض كُتبِ الأئمة المحقِّقين ثانياً، وعرضـــنا ما فيها من أسرار وألغاز ومنافع كانت وما زالت عصَّيةً على عقول الكثيرين وأذهان السائلين وبصائر الغافلين.

ثم تقدّمنا في بحثنا هذا بذكر مواعظ وحِكَم صـيْغَتْ على لسـان الله تعالى، تدعو الإنسـان إلى التذلُّل للخالق، والتذكّر دائماً أننا لا نغيب عن ناظريه لحظة، ولا يخفى عنه من أمورنا الدقائق. وذكرنا بَعْدَ ذلك حكماً متفرّقة حاولنا جمع بعضـها ونسـجها في سـجادة صـلاة أرواحنا للقادر المقتدر الباسط القابض أرواحنا.

حاولنا بإذن الله تعالى وحمده أن نقدّم للقارئ الكريم كتاباً ليس جديداً في محتوياته وإنّما نادراً في شـكل موضـوعاته واتّسـاق غاياته أردنا أن نفتح قلوباً وعقولاً لشـباب تركوا الكتاب برُمَّتِهِ في زمانٍ صـارت الحياةُ فيه ألعاباً وبرامج حاسـوبية فما بالكم في كُتب الأئمّة وأخبار العابدين، أردنا أن نُضَـاءَ بأخبارهم لنُضيء لغيرنا دروبهم. وهذه الموضوعات غنيّة جامعة لنفوس للمعرفة جائعة وفي محراب المعرفة راتعة، فيها ما يمتّع القلب وينعش الروح ويقودها نحو الحقيقة. سـائلين المولى أن يجعل هذا الكتابَ شـفيعاً لنا يوم نقف بين يديه، وتُسـألُ كلّ نَفْسٍ عمّا قدمت، والحمد لله وحدهُ الذي هدانا دربَهُ وما كنا لنهتدي لولا أن هَدَانا، ومَنْ يهدي الله فلن تجد من يضـلَّهُ. الحمد لله حمد العارفين دربه، والشاكرين نِعَمَه والصابرين على قضائِه، ونسألُه أن يوفّقنا فيما نسعى وننشُد بِمَنِّهِ علينا لا باستحقاقٍ لدينا، فما زلنا مُقصّرين وهو الرحمن الرحيم الغفور لعباده الأوّابين.

وباسم الله نختم كلامنا...   وباسم الله نبدأ كتابنا......

نسيب الأسعد

٢٠٠٤/٧/١٨

الباب الأول

أخبار الأنبياء

١ - خَبَرُ النَّبِيِّ هَابِيْلَ (عليه السلام)

هو هابيل بن آدم (**عليه السـلام**)، أوَّل أبناء آدمَ أبي البشرـ ويعني اسـمُ هابيل: الشرـيفُ الكاملُ الأرجحُ، وُلِدَ في اليوم الرابع من الشـهر مع أختٍ له في بطن واحد، ثمّ وُلِدَ قابيل مع أختٍ له، ولكي يتمّ تكاثر البشرـ ويسـتمرّ جنسـهم أمر اللهُ سـبحانه وتعالى آدمَ أن يعتبرَ كلَّ بطن أخوةً حيث كان يُولّدُ في كلّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى، ولمّا كانت الأنثى التي وُلِدَتْ مع قابيلَ جميلةً، لم يرضَ أن يزوّجها لأخيه هابيلَ، وقال: أنا مَنْ سـأتزوّج بها. حاول النبي هابيلَ (**عليه السـلام**) مَنْعَهُ عن معصـيةِ أمْرِ اللهِ بقوله: ما أمرَ اللهُ بهذا. فتنازعا لوالدهما ليُحلَّ بينهما الخلافَ، فقال آدم لهما: قرِّبا للهِ قرباناً، فإني لا أريد بينكما الفتنة والخلاف فمنْ قَبِلَ الله قربانَه يُتبع رأيُه.

ثمَّ إنّهما مَضَـيا إلى المذبح يتوسّـلانِ إلى الله تعالى قبول القربان، وقدَّم هابيل (**عليه الـسلام**) أجودَ وأفضـلَ ما عنده من الخراف التي كان يرعاها، فقَبِلَ اللهُ قربانَه لِطيْبِ نفْسِـهِ، وصِـدْقِ طَوِيَّتِهِ، وقدَّمَ قابيلُ زروعاً فاسدةً وخضراواتٍ غيرَ جيدةٍ، لأنَّ نفسَهُ كانت تعاف تقديم الخير، فلم يقبل اللهُ تعالى قربانه. فلمّا رجَعَا إلى أبيهما قال لهما: ما كان من خبركما؟ فأخبراه بالخبر، فهنَّأَ آدمُ (عليه السـلام) هابيلَ على قبول قربانه ونفسِـه الطيّبةِ الصـادقة، وعزّى قابيل على رَفْضِ قربانه، وقال له: يا بُنيَّ! تُبْ إلى ربّك واطلبْ منه أن يغفر لك ويسـامحكَ. لكنَّ قابيل اللعين كانت نفسُـه مليئةً بالشرِّ فنوى شرّاً لأخيه وأضـمر أن يقتلَه، حسـداً له، وحُبّاً بالدنيا. فأتى قابيلُ إلى هابيل (عليه السـلام) فوجده سـاجداً في محرابه يصـلّي للهِ خاشـعاً متعبِّداً، فضربـه بحَجرٍ على رأسـه وقَتَلَهُ[1]. وقد كانت هذه أوّلَ جريمةِ قتْلٍ بين البشرـ وكان دمُ هابيل (عليه السـلام) أول دمٍ يراق بين أبناء آدم، فاحتار قابيل وقد رأى ما فعلته يداه ماذا يفعل، فحَمَلَ أخاه على ظهره، وسـارَ به لا يدري كيف يتصرّف، حتى أرسـلَ اللهُ سبحانه

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير الدمشقي ـ المجلد الأول ـ الجزء الأول ـ ص /١٢٥ /.

طائرَين، فقام أحدهما بقَتْلِ الآخر ثمَّ جعَل يحفُر الأرض، ورمى بالطائر المقتول ودَفَنَه ورَدَمَ فوقه الترابَ، فتعلّم قابيلُ ممّا رأى، فقام بدَفْنِ أخيه في الأرض، وسار تائهاً في الأرض. وكان قَتْلُ هابيلَ بجبل قا سيون، وهو جبل مُشْرِفٌ على دمشق من جهتها الشمالية، وفيه مغارات وكهوف ا ستخدمها العُبَّاد والصالحون فيما بعد للعبادة والاعتزال. وقيل أنّ الأرض لمّا شربت من دم السيد هابيل (عليه السلام) تبدَّلَ لونها وتغيَّرت بهجتُها، وتغيّرت أشجارها وأنهارها.

وكان مدفنُه على جبل عالٍ لا ماء فيه ولا شجر، فأنْبَتَ الله سبحانه وتعالى حولَ مدفَنِه ثلاث سنديانات وفجَّرَ عينَ ماءٍ عَذْبَةٍ ما تزال إلى يومنا هذا، وقد بُني فيما بعد حول قبره ضريحٌ يُزَار، ويُتَبارك به. وقِيْلَ أنّ آدمَ عليه السلام لمّا عَرَفَ خبرَ مَقْتَلِ هابيلَ (عليه السلام) قالَ بعضَ العباراتِ بلُغَتِهِ التي فَطَرَهُ الخالقُ عليها، وقِيْلَ في مضمونِ ما قالَهُ بعضُ الأبياتِ ولا يُعرفُ قائلُها:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ بُكَاؤُهَا

دَمْعُ العَيْنِ مِنْهَا يَسِيْحُ

وَمَا لِي لاَ أَجُودُ بسَكْبِ دَمْعٍ

وَهَابيلُ تَضَمَّنَهُ الضَّرِيْحُ

وَلَسْتَ بمَيِّتٍ بَلْ أَنْتَ حَيٌّ

وَقَابيلُ الشَّقِيُّ هُوَ الطَّرِيْحُ

عَلَيْهِ السُّخْطُ مِنْ رَبِّ البَرَايَا

وَأَنْتَ عَلَيْكَ تَسْلِيمٌ صَرِيْحُ

وهذا ما انتهى إلينا من خبرِ السّيِّدِ الطاهرِ هابيلَ عليه السلام، والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كل شيءٍ قديرٌ.

٢ ـ خَبَرُ النَّبِيِّ نُوْحَ (عليه السلام)

عاش نبي الله نوح عليه السلام، بعد وفاة أبي البشر آدم عليه السلام بما يقارب المئتين والخمسين سـنة، وبقي لفترة طويلة جدّاً يدعو الناس إلى عبادةِ الله عزَّ وجلَّ وتوحيده، لكنَّهم لم يستجيبوا لدعوته، واستمرَّ رغم معاندتهم وطغيانهم في الدعوة لترك ما هم عليه من عبادة الأفلاك والأصـنام، إلاَّ بعض منهم آمنوا بدعوته وبربِّه الواحد القهَّار.

وكان أوَّلُ من آمَنَ به امرأةً يقال لها «عَمْرَة»، فتزوّجها نوح (عليه السلام) وأنجبت له ثلاثة أولادٍ هم: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافثٌ، ثمّ تزوّج بامرأةٍ أخرى آمنت به فولدت له ولدين هما: بَاكُوس وكَنْعَان.

وبقي نوح (عليه السلام) يدعو قومه أكثر من ثلاثمئةٍ وخمسين عاماً، ورغم ذلك لم يستجب له إلاّ قلّة من الناس، وبقي الأكثريةُ كافرين يعبدون الأصـنام، ويسيرون وراء أهوائهم إلى أن أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح أنّه لن يؤمنَ به من قومه إلاَّ مَنْ قد آمَنَ به[1]، وأنّ الله سبحانه أراد إهلاك مَنْ على سطح الأرض، الذين فاضت شرورهم، وأمَرهُ أن يبني سفينة له ولقومه وينتظر الإشارة.

ولمّا لم يكن نوح يعرف ما هي السفينة (الفُلْك)، أوحى له الله سبحانه شكل الفُلْك، وطريقة صُنْعه، فبدأ نوح (عليه السلام) بغرس الأشجار، وانتظر أربعين سنة حتى كَبُرَتْ وضخمت، وقومه يمرّون به ساخرين هازئين بعد أن كَفَّ عن دعوتهم عندما علم أنَّه لن يؤمن به أحد آخر مجدّداً. ثم بدأ نوح (عليه السلام) يقطع الأشجار، وانتحى مكاناً بعيداً عن قومه، وعن شاطئ البحر كما أمره الله سبحانه وشرع في بناء

(١) قال تعالى(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ {٣٦} وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ {٣٧}) هُود

الفُلْك. وكان كلّما مرّ به أحد من الكافرين يسخر من عمله في بناء الفلك وفي بعده عن شاطئ البحر، لكنّ نوحاً كان يُعْرِض عن أقوالهم ويصبر ويتحمّلُ.

ولكنْ ما لم يتحمّله نوح من قومه الكافرين إقدامهم على جعل السفينة قبل أن تكتمل مرحاضاً يلقون بها قاذوراتهم ونجاستهم، واستمرّوا على ذلك مدّة طويلة ونوح ينهاهم وهم لا يستجيبون له، فتوقف نوح عن عمله ونادى ربَّه شاكياً: «رَبِّ أَنْتَ تَرَى وتَعْلَمُ مَا يَفْعَلُون، فَخُذْ بيَدِي عَلى القَومِ الظَّالِمِيْنَ». فأنزل الله سبحانه عليهم وباءً شديداً شوَّه أجسادهم، وتقرَّحت جلودهم، فصاروا يعانون من هذا الوباء الذي لم يجدوا له علاجاً، وقد أُصيب به رجالهم ونساؤهم وأطفالهم وحتى مواشيهم وحيواناتهم، ونجا منه فقط الذين آمنوا بنوح ودعوته، وقد حَدَث أنّ كلباً مريضاً مثلهم دخل السفينة وعلقت به النجاسة فشفي من مرضه، فلمّا شاهدوا ما حصل أقبلوا على قاذوراتهم ونجاستهم التي وضعوها في السفينة يدهنون بها أجسادهم حتى شفوا من مرضهم وتوافدوا من كل الأمكنة حتى فرغت السفينة، وعادت نظيفة أكثر ممّا كانت. ثم أوحى الله سبحانه لنوح أن يكمل إتمام الفُلْك ويسرع لأنّ غضب الله سبحانه وعقابه على القوم الكافرين قد اقترب.

فعمد نوح إلى استئجار عمّال يساعدونه مع أولاده الثلاثة سام وحام ويافث، وتخلّف كنعان لأنّه لم يكن مؤمناً بدعوة والده، وأمّا باكوس فكان قد توفي قبل فترة من بناء السفينة.

ولمّا انتهى نوح من بناء السفينة العظيمة كانت آيةً من الضخامة والإعجاب، فقد كان طولها ما يقارب الألف ومئتي ذراع، وعرضها ما يقارب الستمئة ذراع، أما ارتفاعها فكان ثلاثين ذراعاً، وجعل لها باباً في عرضها. وبناها على ثلاث طبقات: طبقة للناس وهي العليا، وطبقة وسطى للأنعام والدواب، والسفلى للهوام[1] والوحوش. وفجّر الله سبحانه عيناً من القار[2] بجانب السفينة وأوحى لنوح أن يطلي

(١) الهوام: الحيوانات والطيور البريّة كالإبل والغزلان وغيرها ......
(٢) القَارُ: الإسفلت. أحد منتجات البترول الثقيلة ، كما يوجد في الطبيعة متشرّبة به الصخور

خشـــب الســـفينة به. ولما اقترب موعد الطوفان أمر الله ســبحانه نوحاً أن يحمل معه من كل مخلوق زوجين، فقال نوح متسائلاً: وكيف أصنعُ بالأغنام والذئب وغيرها؟ فقال تعالى: (مَنْ ألقى بينها العداوة قادرٌ على أن يؤلِّفَ بينها حتى لا يَلْحَق الضعيفَ ضررُ القوي).

فوضـع نوح السـباع مع فرائسـها المعتادة في الطبقة السـفلى، وألقى الله سـبحانه على السـباع الحمّى فجعلها تنشـغل بنفسـها عن فرائسـها، ثم أدخل نوح أهله وأولاده ومَنْ آمنَ به، فكانوا ثمانين شخصاً، باستثناء ابنه كنعان الذي رفض دخول السفينة مع المؤمنين فقال له نوح: «يا بُنيَّ اركبْ معنا ولا تكنْ مع الكافرين، لأنّ كلّ منْ سيتخلَّف عن السفينة سيغرق».

فقال كنعان محتقراً كلام أبيه: ســآوي إلى جبل يعصــمني الماء. فقال له نوح: «يا بُنيّ لا عاصـمَ اليومَ من أمرِ الله إلاَّ مَنْ رُحِمَ، فإنْ تؤمنْ بالله وتأتِ إلى السفينة وتركبْ معنا فهو خيرٌ لكَ». لكن كنعان لم يستمع لكلام والده، وصعد تلّةً اعتقد أنّها تنقذه من غضب الله. وكان دخول الناس إلى السفينة بأمر من نوح عند الإشـــارة التي تلقّاها من ربّ العالمين، وهي فوران التنّور المُعدّ لصــنع الخبز بالماء[1]، وهذه عبرة للناس قبل أن يحلّ أمر الله، ولكن هيهات أن يستجيب الكافرون ويتّعظوا ويعتبروا...!

ولمّا بدأتِ الســماء تمطر أمطاراً غزيرة، وتفجرّتِ العيون من الأرض أخذت المياه تزداد وتكثر بسرعة عجيبة، وبقيت الحال على ما هي عليه أربعين يوماً، وقد وصلت المياه إلى السفينة التي كان نوح قد وضـعها على سـفح تلّة بعيدة عن البحر، ولمّا بَدأ الماء يرتفع وكنعان خارج السـفينة، وأيقن نوح هلاك ابنه رغم ما فعله كنعان معه، بالكفر والعصـيان، رغم ذلك راح نوح يســتعطف ربَّه ويتوسَّل إليه أن ينقذ ابنه، لكنَّ الله سبحانه كان يعلم بالسرائر فلم يقبل رجاءه، وقال له: يَا نوحُ

---

(١): قال تعالى:(حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ {٤٠}). هُود ـ

إنَّه ليْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إنَّه عملٌ غيرُ صَــالحٍ. فاســتغفر نوحٌ ربَّه وترك ابنه يلاقي مصــير الكافرين أمثاله.

و سارتِ السفينة على سطح الماء، في أمواجٍ كالجبال، وارتفع الماء فوق كل شيء، وغطَّى الجبال، ونوح (**عليه السلام**) وأصحابه المؤمنون في السفينة آمنون، يحمدون ربّهم ويشكرونه على نعمته عليهم. واستمَّرت السـفينة في بحر الماء حتى لم يبق مخلوق على الأرض على قيد الحياة. ثمّ أمر الله سبحانه الأمطار فتوقّفت، والينابيع توقّفت عن تفجّرها، والسفينة على سَيْرِها لا يوقفها عائقٌ، وكان نوح إذا أراد أن يوقف السـفينة عن السـير يقول: «باسـمِ اللهِ مَرْسَـاهَا» فتقف، وإذا أرادها أن تسـير يقول: «باسْـمِ اللهِ مَجْرَاهَا»[1] فتجري، ولما مضى على السـفينة مدّة سـتّة أشـهرٍ وعشَرـة أيامٍ أمر الله سبحانه وتعالى الأرضَ بأن تشرب ماءها الذي بعثت به العيون، وأمر السماء أن تمسك عن المطر[2]، فأخذت الأرض تسترد كلّ المياهِ، والمياهُ التي هطلت من السماء تجمّعت و صارت بحاراً وأنهاراً، وأمر الله سبحانه نوحاً أن يترك السفينة تسير كيفما تشاء. ثمّ أمر الله سبحانه السفينة فاستقرّت على جبل الجوديّ[3]، وانتظر نوح أربعين يوماً ثمّ فتح باب الفُلْك وأرســل الغراب ليســتطلع حال الأرض فعاد الغراب سريعاً فعلم أنّ الماء لم يجفّ بعد، ثم أرســلَ حمامة فعادت، ثمّ أرســلها بعد عشرـة أيّام فعادت وهي تحمل في فمها ورقة زيتون فعلم أنّ الماء نقص وظهرت رؤوس الأشـجار. ثمّ انتظر مدة وأرسل جميع الطيور فم تعدْ. ثمّ أوحى الله سبحانه إلى نوح أن ينزل من السفينة وقال له:

((قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)). {٤٨} (سورة هود)

---

(١) : قال تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْـمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَـاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {٤١}) . هُود.

(٢) : قال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَـمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِـيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤٤}) . هُود ـ

(٣) يقعُ جبلُ الجوديّ شمال الموصل جنوب تركيّا .

فنزل الجميع وصـاروا يعمرون البلدان، وبعد نزولهم مباشرة ابتنى كلُّ رجل منهم لنفسـه بيتاً، وكانوا ثمانين رجلاً فسُمّيت البلدة (ثمانين) وهي تقع حتى الآن في الموصل شمال العراق، وقد اتّخذها نوح مقرّاً له يزرع الأرض ما تبقى من حياته التي دامت بعد الطوفان خمســمئة عام[1]، بينما تفرّق أولاده وتكاثرت الناس ومضــوا كل في اتجاه. ولما حانت ســاعة الحق، وأقبل مَلَك الموت على نوح وجدَهُ جالساً في الشمس، فألقى الملاك السلام على نوح، فردّ نوح السلام، وقال له: ما جاءَكَ؟ فقال: جئت لأقبض روحك.

فقال له: أتدعُني أتحوّل من الشمس إلى الظلِّ؟

فقال له: نعم فتحوّل نوح، ثم قال له: يا ملك الموت كأنّ ما مرّ بي من الدنيا، وهذه الســنين المئات التي عشــتُها لا تماثل تحويلي من الشــمس إلى الظلِّ، فامضِ لمَا أُمرتَ به. فقبض الملكُ روحه الطاهرة إلى بارئها.

عليه صـلوات الله وسـلامه، وأمّا قبره فهو في المسـجد الحرام، ومنهم من يقول أنّ قبره في بلدةٍ تسمّى: (كَرَك نوح) في البقاع اللبناني وبني فوقه جامع، كما ذكر ابن جرير والأزرق. وقد وَرَدَ ذِكْرُه في آيات القرآن الكريم في أكثر من سورة:

((وَنُوحـاً إِذْ نَـادَى مِن قَبـلُ فَـاسْــتَجَبْنَـا لَـهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{٧٦}وَنَصَرْنَـاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَــوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٧٧})). (الأنبياء)

(١) عاش نوح قبل الطوفان (٣٥٠) عاماً، واستمرّ (١٠٠) سنة في صنع الفلك، وبعد الطوفان (٥٠٠) سنة، فيكون مجموع ما عاشه (٩٥٠) سنة، وقد ورد ذلك في سورة (العنكبوت) الآية رقم /١٤/:(فَلَبَثَ فِيْهُم أَلفَ سَنَةٍ إلاَّ خمسِينَ عَاماً فَأخذهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالمُون) .

((إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {١} رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً {٥} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَاراً {٦})) سـورة نوح

وكذلك في الآيات (١٧) (٢٧).

وفي سورة (هود) الآيات (٣٦) (٤٠)(٤١)(٤٤).

وجاء ذكر نوح في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح (٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩).جاء في الإصحاح الثامن من سـفر التكوين: (وحدثَ بعد أربعين يوماً أنّ نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها، وأرسـل الغراب. فخرج متردّداً حتى نشفتِ المياهُ عن الأرض، ثم أرسل الحمامةَ من عندهِ ليرى هل قلّتِ المياهُ عن وَجْهِ الأرض....).

وهذا ما انتهى إلينا من خَبَرِ نَبِيِّ الله نُوْح عليه السلام مَعَ الطُّوفَان الذي غمرَ وَجْهَ البسيطة.

والحمد لله وحده لا شريك له، له الحمد ولهُ الملكُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير.



٣ - خَبَرُ هِرْمسَ الهَرَامِسَةِ(عليه السلام)

إن شـخصـية نبيّ الله هرمس المثلث العظمة، فيها كثير من الغموض كونها شـخصـية عالمية، تُعرفُ بعدّة أسـماء، وأخذت صـفاتٍ شـتّى، منها شـخصـية الإله وخاصـة عند اليونانيين، أو النبيّ أو الطبيب أو الفيلسـوف والعالم. وما تزال شـارة الطبابة (صـولجانٌ تلتفُّ عليهِ أفعَتان) تُعرفُ باسـم: صـولجان هرمس. والفُرْسُ يدَّعُون أنّه وُلِدَ في بلاد فارس في الألف الثالثة قبل الميلاد ويسـمّونه (أنبجهذ)، واليهود قالوا أنّه وُلِدَ في بيت المقدس ويسمّونه (أَخْنُوخ)، والمصريّون القدماء قالوا أنّه وُلِدَ في الألف الرابعة قبل الميلاد في مصر، ويسمّونه (أمحُوتيب)، والبابليّون ينسبونه لهم، واليمنيّون عدّوه من أجدادهم، واليونانيّون اعتبروه من آلهتهم وسـمّوه (هرمس الهرامسـة) أو (هرمز) ويعني (عالِم العلماء)، والمسـلمون قالوا أنّه يتّصـل بالنسـب بالنبيّ محمد عليه الصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ ويسـمّونه النبيّ إدريس (عليه السلام) لكثرة دراسته في كتب الله. وورد كذلك ذكره في القرآن الكريم:

((واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِـدِّيقاً نَّبِيّاً {٥٦} وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً{٥٧})) سورة مريم

((وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّـابِرِينَ {٨٤} وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ {٨٥})) سورة (الأنبياء)

وجاء في كتاب (جَامِعُ البيانِ) للطبري: (... سأل ابنُ عباس كعباً عن تفسير الآية /٥٧/ من سورة مريم، ومعنى قوله تعالى: ((وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً))

فقال كعب: أمّا إدريس فإنّ الله تعالى أوحى إليه إنّي رافعٌ لك كلّ يومٍ مثل عمل جميع بني آدم، فأحبَّ أن تزداد أعماله بعد أن عَلِمَ بدنوّ أجلهِ فأتاه خليل من الملائكة فقال له إدريس: إنّ الله أوحى إليّ كذا وكذا فكَلِّمْ لي ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه، ثمّ صعد به إلى السماء، فلمّا كان في السماء الرابعة، تلقّاهم مَلَكُ الموتِ منحدراً، فكلمَ الملاَكُ مَلَكَ الموتِ في الذي كلمه فيه إدريس،فقال ملك الموت: ياللعجب بُعثت أقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلتُ أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو على الأرض...؟!. ثمّ قبض روحه في السماء فذلك قول الله تعالى: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً)

وذكر اليعقوبي في تاريخه أنّ أخنوخ بن يارد هو إدريس النبي وأنّه بعد بلوغه الستين، وُلِدَ له متوشالح، وأنّه أخبر أولاده بأن الله معذِّب الأمّة عذاباً عظيماً ليس فيه رحمةٌ وأنّه أوصاهم بأن يخلصوا عبادة الله ويستعملوا الصدق واليقين وأنّه مات بعد أن عاش /٣٠٠/ سنة. وقد سمّي إدريس لكثرة ما كان يدرس كتب الله. وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خطّ بالقلم.

وذكر الشهرستاني المتوفي سنة /٥٤٨ هـ/ في كتابه المِلَل والنِحَل أنّ هرمس (**عليه السلام**) من الأنبياء الكبار، وأنّه إدريس وهو الذي وضع أسماء البروج والكواكب السيّارة، ورَتَّبها في بيوتها، وأثبت لها الشرف والوبال[1]، والأوج والحضيض، والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجعة والاستقامة.

وقد دعا إلى دين الله، وقال بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح والصلاة والصيام والزكاة والطهارة من الجنابة وأنّه حرّم لحم الحمار والكلب، وحرّم الخمر، وأمر بالقرابين.

---

(١) الشّرَفُ : مصطلح فلكي ويعني وُجود الكواكب في أعلى منزل لها.
الحضيضُ : كذلك يعني أدنى منازل القمر. والأوج : أعلى منازل القمر.
المناظرُ : يعني التساوي والتقابل.
الوبال : يعين الفساد وسوء العاقبة

وهرمس أوأمحوتب قيل عنه أنّه هو الذي بنى الأهرام العظيمة بنواحي مصر، وهي من غرائب العِبَر وعجائب الدهر، حيث أنّ ألوفاً من السنين قد مرّت وهي ثابتة في مكانها، راسخة في وجه الدهر والناس، وعجزت الملوك والجبابرة عن معرفة ما بداخلها، أو اقتحامها أو هَدْمِهَا، وذُكِرَ عن الخليفة العباسي المأمون أنه قد جمع لأجل هَدْمِهَا وفتحها أعداداً كثيرةً من العمّال والحجّارين، وضاعف لهم النفقات حتى يفتحوا أحدها، لأنّه اعتقد أنّ فيها كنوزاً وذهباً، وقِيل عنه أنّه تكلّف ألفَ أوقيةٍ ذهباً، وَكُلُّ مَا وَصَل إليه هو جُرْنٌ مملوءٌ بالذهب مغطّى بلوح من الرخام مكتوبٌ فيه: (عَمَّرنَا هَذَا الهَرَمَ في أَلْفِ يَوْمٍ، وَيَحْتَاجُ هَدْمُهُ لأَلْفِ يَوْمٍ وَالهَدْمُ أَسْهَلُ مِنَ العِمَارَةِ، وَجَعَلْتُ في جِهَاتِهِ مِنَ المَالِ بِقَدْرِ ما يُصْرَفُ عَلَيْهِ لِهَدْمِهِ والوُصُولِ إِلَيْهِ، لا يَزِيْدُ وَلاَ يَنْقُصُ) وعندما أُخِذَ ما في الجرن للمأمون، ووُزِنَ ما فيه وجده ألف أوقية، بمقدار ما أنفق ليحصل عليه فكفَّ عن عمله خائباً.

والأهرام الثلاثة التي تقع غربي نهر النيل، منها ما يجاوز دَوْرُهُ الألف ذراع[1]، وعلوّه خمسمئة ذراع، وكلّ حجر من حجارته طوله مساوٍ لعرضه ويبلغ ثلاثين ذراعاً، وارتفاعه عشرة أذرع. وهناك أهرام غير هذه الثلاثة أكبر وأعظم، وأكبرها هو هرم (خَفْرَع) ودَوْرُهُ ثلاثة آلاف ذراع، وعلوّه سبعمئة ذراع، وهو في مدينة (مَنَف) القديمة، وكلّ حجر من حجارة هذا الهرم طوله خمسين ذراعاً وتبلغ زِنَتَهُ سبعة أطنان.

ومن هذه الأهرام أيضاً هرم عظيم كأنّه جبل يقع مع هرم أصغر منه على الجانب الغربي من فسطاط مصر، وهما من عجائب العالم، حيث أن ارتفاع الهرم الأكبر[2] يبلغ ألف ذراع مَلَكِي، والذراعُ الملكيُ يعادل ستة أذرع معهودة، والهرم الأصغر ارتفاعه ألف ومئتي ذراع عادي بذراع البنائين، وهما مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع وما على وجه الأرض أعظم بناءً، ولا أحسن هندسة، ولا أطول بقاءً ولا أرفع سَنَاً من هذه الأهرام.

(١) الذراع العادي: مقياس استخدمه العرب وهو ما يعادل (٧٠ سم).
(٢) الهرمُ الأكبرُ: هو هرم (خوفو) ومعناه بالهيلوغرافية (جَلَّ جَلاله).

وبعض الأهرام مبنيّة بحجارة من الصــوّان الأحمر المنقّط الشــديد الصــلابة الذي لا يؤثّر فيه الحديد إلاّ بالزمان الطويل، ومن عجيب بنائِها ودقّتِهِ وَضْـعُ الحجر على الحجر بهندام بحيث لا يوجد بينها مدخل إبرة أو شــعرة. وَوُجِدَ مكتوب على هذين الهرمين بالخط المصرــي القديم: (بُنِيَ هَذَانِ الهَرَمَانِ، والنَّسْرُـ وَاقعٌ فِي السَّرَـطَانِ) ولمّا حسـب علماء الفلك ذلك الوقت إلى الهجرة النبويّة الشرـيفة وجدوا أنّها تساوي سبعة آلاف ومئتين وعشرين سنة ميلاديّة.

وقيل أن هرمس (أمحوتب) عليه الســلام لمّا عزم على بنائها لم يكن يريد جعلها قبراً لفرعون أو لغيره، وإنّما كتاباً ظاهراً مُغْلَقاً يسطّر فيه جميع العلوم والمعارف والحكمة الإلهية. وقد أمر باستخراج الرصــاص من بلاد المغرب، وَقَطْعِ الأحجار الهائلةِ الضــخمةِ، ولكي يمكن نقل الأحجار العملاقة أعطى العمّال صــحائف مكتوب عليها اســم الله الأعظم وأقســامُ وأَيْمانٌ عظيمةٌ، فكان العمال يضــعون الصــحيفة على الحجر، ثمّ يســمّون باســم الله تعالى، ويدفعونه، فيغدو بتلك الدفعة مقدار رماية السهم، ثمّ يعيدون الصحائف عليها ويدفعونها حتى تصل للمكان المحدّد بغير حَمْلٍ أو مشقَّةٍ. وإذا وصل الحجر يثقبونه ويجعلون في وسطه محوراً من الحديد قائماً، ثمّ يركّبون عليه حجراً آخر مثقوب الوســط ويدخلون القطب فيه جميعاً، ثمّ يُذاب الرصــاص ويُصَــبُّ في القطب وحول الحجر بهندامٍ وإتقانٍ، إلى أن كملت. ثمّ هندســها من كلّ جانب حتى تحدّدت أعاليها ثمّ ملأها بالآلات الحســنةً والجواهر النفيسة والسلاح الفاخر، من الحديد الذي لا يصدأ[1]، والزجاج الذي لا يُكْسَر ولا ينطوي، والطلاسم الغريبة وأصناف العقاقير المفردة والمؤلَّفة والسموم القاتلة.

وفي الهرم الشرــقي الكبير (خُوْفُو) وَضَــعَ أصــناف الأوقات الفلكية وثمّ وَضَــعَ كون الكواكب الثابتة[2] وما يحدث في أدوارها وقتاً وقتاً، وعمل فيها من التواريخ والحوادث التي مضــت والأوقات التي ينظر فيها ما يحدث، وكلّ من يلي مصر إلى

(١) الحديد الذي لا يصدأ هو الفولاذ.
(٢) كَوْنُ الكواكب الثابتة : هو المجموعة الشمسية.

آخر الزمان. وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه الساخنة والباردة والمدبَّرة بصنعة محكمة، وجعل في الهرم الملوّن[١] أحبار[٢] الكهنة ضمن توابيت من صوّان أسود، ومع كلّ كاهن مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل في وقته. وكل ما كان من أحداث وويلات وحروب وما يكون من أوّل الزمان إلى آخره، ورُقِّم عليها أصناف العلوم العظيمة، كعلم السيمياء[٣] والكيمياء والهيئة والحساب والهندسة والمنطق والطب والفلسفة. ولم يترك عِلماً من العلوم إلاّ زَبَرَهُ[٤] ورسمه على جدران الهرم الداخلية، وهي معلومة لِمَنْ يفكُّ أقلامهم ويفهم رموزهم[٥]، وكذلك أنواع الحرف والصناعات صوّرها على اختلاف أصنافها، ورسم على الجدران صُنّاعاً، كلُّ صانع في صناعته، وبيده الأخرى صناعة غيرها دلالة على وجوب تعلّم المرء أكثر من صنعة في حياته.

وقد ورد ذكر أخنوخ (هرمس) في التوراة، في سفر التكوين الإصحاح الخامس، الفصل ١٨ و ٢٥: ((وَعَاشَ يَارد مِئَةً واثنتَيْنِ و سِتِّينَ سَنَةً، وَوَلَدَ اَخْنُوخ، وَعَاشَ اَخْنُوخ خَمْسَاً و سِتِّينَ سَنَةً، وَوَلَد متوشالح، وَسَارَ أَخنُوخ مَعَ اللهِ بَعْدَمَا وَلَدَ متوشالح ثلاثمئة سَنَةٍ، وَوَلَدَ فيها بَنِيْنَ وبَنات فَكَانت كُلُّ أَيَّام اَخنُوخ ثلاثمئة وَخمْسَ وَسِتِّيْنَ، وَسَارَ مَعَ اللهِ وَلَمْ يُوجَدَ بَعْدَ لإِنَّ الله أَخَذَهُ)).

وكذلك ورد ذكر في الإنجيل، حيث جاء في رسالة القدّيس يهوذا في عدد١٤ـ١٦: ((وَقَدْ تَنَبَّأَ عَنْ هَؤُلاَءِ أَيضَاً أَخنُوخُ السَّابِعُ بَعْدَ آدَمَ قَائِلاً: هُوذا قد جاء الرَّبُّ في رَبَواتٍ قَدِّيْسِيَّةٍ، ليَضَعَ دَيْنُونَةً على الجميع ويُعاقِبُ جَمِيعَ فُجَّارهم على جَمِيْعِ أعمالِ فُجُورهم الَّتي فجَرُوا بها وعلى جميع الكلماتِ الصَّعْبَةِ الَّتي تَكَلَّمَ بها عَلَيْهِ خُطَاةٌ فُجَّارٌ)).

---

(١) الهرم الملوّن : هو هرم مَنْقَرع وهو مبني من الصوّان الأحمر المنقّط .
(٢) أحْبَارٌ : مفرده: الحِبْرُ وتعني العالم الصَالح .
(٣) عِلمُ السِّيمَياءِ : هو علم يهدف إلى تحويل الحجارة وغيرها إلى ذهب .
(٤) زَبَرَهُ : وَتَعْني كَتَبَهُ وَ أَتْقَنَ صَنْعَتَهُ .
(٥) وَمَا يزالُ الهَرَمُ الأكبرُ (خوفو) مُغْلَقَ الأسْرَار أَمَامَ جَمِيْعِ الذّين حَاولوا اقتحامهُ فَصُدُّوا بنُورٍ عَظيم وَعُطِّلَتْ آلاتُهُمْ الحديثة ولم يعرفوا السبب.

وكان هرمس الهرامسة (أمحوتيب) من أنبياء مصر الذين دَعُوا إلى توحيد الله ورفضوا كل مظاهر عبادة الأصنام التي كان الفراعنة يعتقدونها أو جعل الفرعون إلهاً أو نصف إله. وقيل في الأهرام وعجائبها كثير من الأشعار، ومنها:

أُنْظُرْ إلى الهَرَمَيْنِ وَاسْمَعْ مِنْهُمَا،،
مَا يَرْوِيانِ عَنِ الزَّمانِ الغَابِرِ
لَمْ يَنْطِقَا بِالخَبَرِ إلاَّ الذي،،
فِعْلَ الزَّمانِ بَأوّلٍ وَآخَرِ
خَلِيليّ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ بُنْيَة،،
تُشَاكِلُ في إتْقَانِهَا هَرَمْي مِصْرِ
بَناهُ وهَنْدَسَ أرْكَانَهُ سَيّدٌ،،
عَالِمٌ مُثَلّثُ الحِكْمَةِ هِرْمِسُ الفَخْرِ

وهذا ما انتهى إلينا من خبرِ هِرمِس الهَرامِسَة المثلّث الحكمة أخنوخ وإدريس سلام المهيمن عليه، والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كل شيءٍ قديرٌ.



٤ - خَبَرُ نَبِيِّ اللهِ صَالِحَ (عليه السلام)

أرســل الله ســبحانه وتعالى النبي صــالحاً إلى ثمود وهو منهم، وثمود قبيلة عربية من العرب البائدة عاشت في أرض عاد التي أهلكها الله لكثرة شرورها بعد أن أرسل لهم النبي هود فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به وبدعوته. وكان النبي صـالح (**عليه الســلام**) من أشرف بيوت ثمود نَسَـباً، مَنَحهُ الله الحِلْمَ والعقلَ والحكمة، فصــار يدعو قومَه ثموداً إلى عبادة الله ويحضّــهم على التوحيد، ونهاهم عن عبادة الأصـنام، لكنّهم لم يسـتمعوا إليه، وأنكروا نبوّته وَهَزِئُوا بدعوته وزعموا أنها بعيدة عنه، فصـار صالح (**عليه السلام**) يذكّرهم بصلته بهم، وأنّهم أهله وأنّه يريد خيرهم في الدنيا والآخرة. لكنهّم كانوا يرفضون ويمتنعون عن تصديقه، ويرفضون ترك الأصنام التي ألفوا آباءهم يعبدونها، ناسين ما حلّ بعاد لكفرهم.

وعندما وجدوه مسـتمرّاً بدعوته لهم، عرضـوا عليه أن يترأسـهم، لكنه رفض، وقال أنّه لا يقصـد من وراء دعوته نفعاً، ولا يطمع بجاهٍ أو مال وإنّما يطمع في نجاتهم من غضـــب الله وعقابه. لكنهم اسـتكبروا وزادوا في طغيانهم وعنادهم وقالوا لصـالح: إنَّكَ قد جُننت وضـاع صَـوَابك وما نظنُّ إلاّ أنّ أحداً قد سَلَّط عليك شيطانه، أوْ عَمِل فيكَ سِحرَهُ فأَصبحتَ تَهْرِفُ بما لا تفقه، فلستَ إلاَّ بَشَرَاً مثلنا، وما أنت بأفضلِنا وأشرفنا نسباً، وفينا من هو أحقّ منك بالنبوّة.

وعندما رأى القوم ثباته على دعوته خافوا أن يسـتجيب الناس له ويذهبوا إليه في كلّ شيء يلمُّ بهم، ويطرقون بابه كلّما وقعت بهم واقعة، فطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ يتبيّنون بها صِــدْقَ دعوته، ومعجزةٍ ظاهرةٍ تصدّق رسالته.

فأوحى الله سبحانه أنّه مُرسِلٌ لهم ناقةً عظيمةَ الجسم مميّزةَ الشكلِ، تخيف أنعامهم وإبلهم، لا تشربُ إلاَّ في يومٍ معلومٍ مهما اشـتدّ بها العطشُ. فأخبر صـالح (**عليه الســلام**) قومه بآية الله ومعجزته الظاهرة لهم وقال:

«هذه ناقة الله أرســـلها آيةً لكم، لها شُرْب في يوم محدّد، تحمي الماء خلاله وتمنع أنعامكم من وِرْدِهِ، ولكم شرب يوم معلوم، فذروها تأكل في أرض الله، وحاذروا من أذِيَّتِها وإلاَّ نالكم عذاب الله الشديد».

وكان الناس في تلك الفترة لم يعهدوا رؤية ناقة تســتأثر بمائهم يوماً كاملاً، تمنع غيرها من البشر والأنعام من الشرب، فخافوا منها، وخاف سادتُهم تصديق الناس لصالح لوضوح برهانه.

وقد مكثت الناقة بين قوم ثمود فترة وهي على تلك الحال من وِرْدِ الماء يوماً والامتناع عنه بقية الأيّام، وداوم صالح على دعوة الناس لدين الله وعبادته وترك الأصنام، واستطاع أن يستميل كثيراً من الناس الذين صدَّقوا دعوته وأيقنوا صحّة نبوّته وخاصةً بعد آيةِ الله التي أرسلها إليهم واضحة بيّنة صادقة.

وكان صالح (**عليه السلام**) يدعو قومه، ويبشّر الذين آمنوا به بنعيم الله وجنّته الخالدة، ثمّ أوحى الله سبحانه له بأنّ شخصاً من شباب ثمود شديد البأس ذا جرأة وقسوة، كثيرَ الظلم، لا يحجم عن معصــية أو منكرٍ، ســوف يُقدِم على قتل الناقة التي أرســلها الله وســوف يكون ذلك نهاية قومه الكافرين ويكون مصيرهم كمصير عاد الكافرين.

فأخبر صالح قومه بما أوحى له الله، فخاف القوم وصاروا يقتلون كلّ غلامٍ يولد عندهم خوفاً أن يكون هو قاتل الناقة بعد أن يكبر فيكونُ هلاكُهم على يديه. وعندما وُلِدَ قدارٌ بن ســـالفٍ وهو ابن أحد ســادات القبيلة المرهوبي الجانب لم يســتطع الناس قَتْله، فَنَما وكبر على القســوة والبطش وخافَ الجميع منه لمكانة والده وجدّه، ولمّا نَظَرَهُ صـــالحٌ وما فيه من صـــفات عرف أنّه قاتل الناقة الذي وصـفه له ربّه فصـار يكثّف جهوده بدعوة قومه لترك عصـيانهم وكفرهم عسى يحيدوا عن طغيانهم قبل وقوع الوعد الصادق بهم.

ومن الجانب الآخر كان ســادة ثمود الكافرون يحرِّضــون الناس على النبي صــالح لإبطال دعوته والابتعاد عنه، وشرعوا بالتآمر على قَتْلِ الناقة التي أرسلها لهم

الله سـبحانه تصـديقاً لنبيّه، لكنّ كثيراً من الناس خافوا الإقدام على قتلِ الناقة لما رأوا فيها من هيبةٍ وعظمةٍ، إضافة لتحذير صالح لهم ممّا سيصيبهم من عذابٍ خافوا من وجوده.

وكان الشيطانُ حليفَ أولئك السادة الطغاة الذين عاهدوه، وساروا دربه، وانقادوا لأمره، وزيّن لهم الشيطان (لعنه الله) عن طريق إحدى فتيات ثمود الحسناوات وهي (صَدُوق بنتُ المُحَيا) التي عرضـت الزواج على مَنْ يقتل الناقة، وعن طريق إحدى العجائز التي عرضـت على قَدَارِ بْنِ سَـالفِ ابنتَها الجميلة للزَّواج بها مقابلَ قَتْلِ الناقةِ.

فلبّى مَصْدَعُ بن مَهرج دعوةَ صدوق بنت المحيا،وا ستجاب قدار بن سالف دعوة تلك العجوز، وسار الاثنان يبحثان بين شباب القبيلة عمّنْ يساندهما في مهمتهما، فاستجاب لهما سبعة شبّان آخرون، ثمّ سـار التسـعةُ حيث ترد الناقة، وانتظروها حتَى رجعت من ورُودِها فكَمَنَ لها مَصْـدع ورماها بسَـهْمٍ في سـاقها، وأسرع قدار فعَرْقبها[1] فسـقطت الناقة ثمّ بادر فطعنها في عنقها وأقبل الباقون فأنشبوا فيها سيوفهم فماتت. ثم عادوا إلى قومهم يحملون لهم بُشْرَاهُم بقتل الناقة وما دَرُوا أنهم يحملون لهم الهلاك والفناء، رغم أنّ القوم استقبلوا التسعة استقبال المنتصرين العائدين من الحرب. ولمّا جاءهم صـالح كي يحذّرهم من عقاب الله لارتكابهم المعصـية والإقدام على قَتْلِ الناقة قالوا له سـاخرين هازئين: يا صـالحُ أين عقاب ربّك. فها نحن قَتَلنا ناقته، فأين الوعد إن كُنْتَ من المرسلين؟

فقال لهم: لقد جلبْتُم على أنفسكم الهلاك بكفركم، وها أنتم تلاقون مصيرَ عَادٍ، فما هي إلاَّ أيّام ثلاثة تتمتّعون بها حتّى يحلّ بكم عذابُ الله.

لكنهم لم يثوبوا إلى رشـدهم ولم يخافوا من وعيده مثلما لم يسـتجيبوا له بدعوته، وتمادوا في سخريتهم بأن سألوه أن يعجّل لهم بالعذاب إن كان صادقاً. إلاّ أنّ صالحاً ذا الهمة العالية كان مازال يأمل أن يعود قومه عن كفرهم وأن

(١) عَرْقَبَ النَّاقَةَ: أي عَرْقَلَهَا عَن المَسِيْرِ بوضع عَصَاً أو نحوها بينَ أرجُلِهَا.

يستجيبوا لدعوته ويطلبوا غفران الله وعفوه، ولكنْ هيهات أن يلينَ الصخر في الماء، وهيهات أن تلينَ قلوبٌ قاســيةٌ لدعوة الحق والإيمان. وقد زادوا في تكبّرهم أن أضــمروا الشّر والهلاك، لنبيّ الله الذي دعاهم للحق، فأرادوا قَتْلَه ظنّاً منهم أنّ ذلك يعصُمهم من العذاب، لأنّ صالحاً كان قد قال لهم لمّا سألوه التعجيل بالعذاب بعد قَتلِ الناقة: إنّكم سوف تصبحون يوم الخميس ووجوهكم مسودَّة، وتصبحون يوم الجمعة ووجوهكم مصفرّة، ويوم السبت تكون الصاعقة التي سينزلها ربّ العزّة بكم.

وكان عَقْرُ النَّاقةِ وقتلُها يوم الأربعاء، فلمّا رأوا وجوههم اسودّت في صبيحة الخميس، واصفرّت صباح الجمعة أدركوا أنّ العذاب سيحلّ بهم، سَعُوا إلى صالح يريدون القضاء عليه وقَتْله ظنّاً منهم أنّ ذلك ينجيهم من العذاب والعقاب، لكنّ الله للظالمين بالمرصــاد، فردَّ كيدهم إلى نحرهم، وأنقذ نبيَّهُ، إذ أوحى له بما يدبّره الكفار له، فخرج صــالحٌ هارباً منهم، حتّى لحق بقبيلة يُقال لهم (بنو غنم)، فنزل على سـيّدهم وأخبره بقصّــته فأخفاه، ورغم أنّ الكفار بحثوا عنه بحثاً محموماً لكنّهم لم يعثروا عليه، فراحوا يعذّبون أصحابه كي يرشدوهم إلى مكانه فلم يُفلحِ الكفّارُ في مسعاهم.

ولَمّا كان يوم السبت، وكانوا يسمّونه (شَبَارَ) أنزل الله بالكافرين عقابه تصديقاً لوعده، وانتصاراً لنبيِّهِ، فأخذتْهم الصاعقةُ ولم تستطع قصورهم وحصونهم حمايتهم من عذاب الله، فباتوا على الأرض جاثمين هامدين، ولم يبقَ منهم إلاّ مَنْ آمَنَ بربِّه، فَقَدْ أنجاه من العقاب، ولا يظلم ربّك العباد، وإنّما كانوا لأنفسهم ظالمين ولمّا رأى صالح (عليه السلام) ما حلّ بقومه وديارهم تولّى عنهم والأسى يملأ قلبه، ولكن هذا هو جزاء الله العادل للكافرين المشركين فغادرهم إلى فلسـطين مع أصـحابه، وعاش فيها حتّى جاء أجله عليه سلام الله وصَلَواته. وقد ورد ذِكْر نبي الله صالح وناقته في القرآن الكريم:

((وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ {٦١} قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ {٦٢} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {٦٣} وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ {٦٤} فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ {٦٥} فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{٦٦})). سورة (هود)

وهذا ما انتهى إلينا من خبرِ نَبِيّ الله صَالِح عليه الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مع قومه ثمود وإِرْسَال ناقة الله إليهم برهاناً صادقاً. والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كل شيءٍ قديرٍ.

٥ - خَبَرُ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيْمَ (عليه السلام)

إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء، وهو ابن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح (عليه السلام).

وُلِدَ ببابل، ثم ارتحل قاصداً أرض كنعان، فأقام بحرّان، وكان أهلها يعبدون الكواكب والأصنام. وقد آتاه الله سبحانه رشده منذ صغره، وبعثه رسولاً إليهم لكنّهم كذّبوه ولم يصدّقوه.

وكانت أوّل دعوته لأبيه الذي عبد الأصنام، لأنّه أحقّ الناس بالنصيحة[1]. فقال له والده: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنتهِ وترجع لأرجمنّك. ولكن إبراهيم تابع دعوته لأبيه بألطفِ العبارات وأحسنِ الإشارات، يريد أن يبيّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام. فاستغفر إبراهيم لوالده بعد أن رفض قبول دعوته، ولمّا وجده عدوّاً لله تبرّأ منه.

وقد كسَّرَ إبراهيمُ أصنام قومه وآلهتهم، وأبقى كبيرَ أصنامهم وعلّقَ الفأسَ (أو القَدُّوم)، فلمّا جاء القوم ورأوا ما حلَّ بأصنامهم وكان بعضُهم قد عرف نيَّة إبراهيم بتحطيم الأصنام أثناء خروجهم إلى خارج مدينتهم لبعض أعيادهم، فلمّا أحضروه و سألوه عن فعلته قال: ا سألوا كبير أ صنامكم فهو الذي دفعني لتلك الفعلة.

فقالوا له: قد علمتَ يا إبراهيم أنها لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟

---

(١) (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً {٤٢} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً {٤٣} يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً {٤٤} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً {٤٥}) سورة مريم.

فقال لهم: كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها، لا تتكلّمُ ولا تستطيع حتّى الدفاع عن نفسها ولا حمايتكم، ولا تجلبُ لكم نَفْعَاً ولا تملكُ لكم ضرّاً؟

وعندما لم تبقَ لهم حُجَّة حاولوا قَتْلَهُ بأن كبَّلوه وجمعوا حَطَباً عظيماً لمدّةٍ طويلةٍ، ثمّ أشعلوا النار، ووضعوا إبراهيم في كفَّة المنجنيق الذي صنعه لهم لأوّل مرَّة وبأمرٍ من الشيطان (لعنه الله) رَجل من الأكراد يُقال له (هَزَن) وكان إبراهيم (**عليه السلام**) يقول وهم يكتِّفونه: «لاَ إِلَه إلاَّ أَنتَ، سُبْحَانَكَ لَكَ الحَمْدُ ولَكَ المُلْكُ لا شَرِيكَ لَكَ». وعندما قذفوه نحو النار قال: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيْل» وذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) عن ابن جرير قوله: (لمّا قُذِفَ بإبراهيم إلى النار، عرض له جبريل (**عليه السلام**) في الهواء فقال: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال إبراهيم: أمّا إليكَ فَلاَ. وقِيْل جعل مَلَكُ المَطَر يقول متى أؤْمَر فأرْسِلُ المَطَرَ. لكنّ الله كان أسرع فقال ربّ العزّة: يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.)[1] فلما صار إبراهيم وسط النار تحوّلت في داخلها إلى روضةٍ خضراءَ، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، وهو لا يخرج إليهم.

ويذكر ابن عسكر عن أبي هريرة أنّ أحسن كلمة قالها تارح لمّا رأى ولده على تلك الحال من إنقاذ الله له: (نِعْمَ الرَّبُّ رَبُّكَ يا إبراهيمُ) وإن أم إبراهيم (بونا بنة كربنا بن كرثى) نظرت إلى ابنها فنادته: «يا بُنيّ إني أريد أن آجي إليك فَادْعُ الله أن ينجيني من حرّ النار حولك) فقال: نعم. فأقبلت إليه لا يمسّها شيء، فلمّا وصلت إليه عانقته وقبّلته ثم عادت. وقد مكث إبراهيم في النار أربعين يوماً وقال حينها: «مَا كانت أيامٌ لي أطيبَ عيشاً من التي كنت في وسط النار، وَوددتُ أنّ عيشي وحياتي كلّها مثلها».

ولمّا خرج إبراهيم من النار لم يقترب منه القوم، إذ أدركوا أنّ الله يحميه ويحفظه. ثمّ أُمِرَ إبراهيم أن يذهب لأرض بابل ليدعو ملكها الكافر ويُقال له

---

(١) قال تعالى:(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ {٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ {٦٩}) سورة الأنبياء.

(النمرود بن كنعان بن كوش بن ســام بن نوح) وكان قد ملك الدنيا رغم كفره، وقد اســتمرّ في مُلْكِهِ أربعمئة ســـنة فَطَغا وتجبَّر وتكبَّر. فلمّا دعاه إبراهيم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حملهُ الجهلُ وطولُ الأملِ على إنكار الله وادّعاء الربوبية. وعندما قال له إبراهيم مُحَاجِجَاً إياه: «إنّ ربّي يُحيي ويميت». ردَّ النمرود (لعنه الله): «وأنَا أحييْ وأُميتُ»، فأمر النمرود جنوده فأحضرـــوا رَجُلَيْن فأَمَرَ بِقَتْلِ أحدهما، وإطلاقِ سراح الآخر. فقال لإبراهيم متفاخراً: لقد أحْيَيتُ واحداً وأَمَتُّ آخراً. وظنَّ النمرود أنّه اســـتطاع أن يتغلب على إبراهيم في حجتّه، لكنّ الله أوحى لإبراهيم فقال للنمرود: «إنّ الله يأتي بالشـــمس من المشرـــق، فَأْتِ بها من المغرب». وهنا بُهِتَ النمرود وعجز عن الإجابة، فتركه إبراهيم بعد أن أظهره أمام الناس بعجزه عن خلق بعوضـــة رغم تبجُّحهِ وادّعائه، ثم أرســـل الله ســـبحانه إلى ذلك النمرود المتكبّر مَلكاً يأمره بالإيمان فأبى مرّة واثنتين وثلاث وقال له: اِجْمَعْ جُموعَكَ وَأَجْمَعُ جموعي، فجمع النمرود جيشـــه وجنوده وقت طلوع الشـــمس، فأرســـل الله عليهم ذُباباً وبعوضـاً بحيث لم يَرُوا عَيْنَ الشـمس وسـلّطها عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتها عظاماً بادِيةً ودخلت واحدةٌ في منخر النمرود فمكثت في منخره أربعين ســـنة عذَّبَهُ الله تعالى بها، فكان يضرـــب رأســه بالجدران من شـدّة الألم، ولم يسـتطع كل الحكماء والأطباء علاجه حتى مات وأراح الله الناس من ظلمه. وقد عاش إبراهيم الخليل(**عليه السلام**) قرابة المئتي سنة، مات ودُفِن بقرية حبرون مع زوجته سارة، في مغارة اشتراها. ()

وهذا ما انتهى إلينا من خبرِ نَبِيّ الله وَخَلِيْلِهِ إِبْرَاهِيْمَ عليه الصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ مع قومه والنمرود الظالمين. والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كل شيءٍ قديرٍ.



٦ - خَبَرُ النَّبِيِّ إِسْمَاعِيْلَ الذَّبيح (عليه السلام)

إ سماعيل بن إبراهيم عليهما ا لسلام نبي من أنبياء الله ا لصالحين وهو جدّ العرب العاربة، ورَدَ خَبَرُه وأُمُّه (هاجر) في آيات القرآن الكريم، وهو الابن ا لذبيح ا لذي افتداه ربُّه بكبش ســـماوي، وحاولت اليهود حَسَـــداً وحِقْدَاً على العرب أن تدّعي أن الابن الذي أَقْدَمَ إبراهيم على ذبحه امتثالاً لأمر ربِّه هو اســحق ابنه الثاني وهذا ادّعاءٌ باطل ومن الســهل بمكان دَحْضُــهُ من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي العربي محمّد (صلى الله عليه وسلم)**.**

وجاء في ســورة (الصَّــافَات)[1] **خبر إســماعيل** (عليه السلام)**، حيث يذكر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السـلام أنّه لمّا هاجر من بابلَ إلى كنعانَ سـأَلَ رَبَّهُ أن يَهَبَ له ولداً يحمل اسـمه، وكانت زوجته (ســارة) لم تنجب له أولاداً. فقالت ســارة لإبراهيم: أدخل على جاريتي المصرــية (هاجر). فتزوّجها فحملت منه، فصــارت ســارة تشــعر منها بالغَيْرةِ، واتَّهمَتْها عند إبراهيم بالتكبّر والترفّع لأنّها تحمل مولوداً لإبراهيم وهي لا.**

فقال لها افعلي بها ما شئتِ كونَه كان يحبُّ زوجته سارة أكثر من جميع نساء الأرض وقد كانت سارة جميلة باهرة الحُسْن، فلّما سَمِعَتْ هَاجَرُ ما قال

---

(١) قَالَ تَعالى:(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَـيَهْدِينِ {٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّــالِحِينَ {١٠٠} فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ {١٠١} فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ {١٠٢} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ {١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ {١٠٤} قَدْ صَـــدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِــنِينَ {١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ {١٠٦} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ {١٠٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ {١٠٨} سَــلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ {١٠٩} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِــنِينَ {١١٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ {١١١} وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ {١١٢} وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ {١١٣})

إبراهيم لســارة خافتْ، فهربت فظهر لها مَلَاكٌ وقال لها: «لا تخافي يا هاجرُ فإنّ الله ســبحانه جاعل هذا الغلام الذي حَمَلْتِ به أمّةً عظيمة تنطق بالحق والخير». وأمرها بالرجوع وبشّرـها بأنّها سـوف تلدُ ابناً وتسـميه (إسـماعيل) ومعناه (سـمع الله دعاء خليله) وسـوف يكون سـاعياً في إطفاء الفتن، وإحْلالِ الوِئَام بين الناس، ويملك جميع بلاد إخوته. فشـــكَرَتْ هَاجَرُ الله عزَّ وجلَّ على الذي منحها وعادت فوجدت إبراهيم يبحثُ عنها محموماً فأخبرته بما حَدَثَ فحمدَ ربَّه وتلطَّف بمعاملتها وطَلَبَ من سارة كذلك. ثمّ أنّ هاجر ولدت لإبراهيم عليه السلام ابنه البكر (إسماعيل) وكان له من العمر ستّ وثمانون سنة. ثمّ وبعد ثلاثة عشر عاماً أوحى الله لإبراهيم يبشّره بإسحق من سارة فخرّ سـاجداً لله، فقال له ربّه سـبحانه: « قد اسـتجبتُ لكَ في إسـماعيل وباركتُ عليه وكثّرته ونمَّيتُهُ كثيراً ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعلُه رئيساً لشعبٍ عظيمٍ».

وكان أمر الله تعالى لإبراهيم أن يأخذَ إسـماعيل وأمَّه هَاجَرَ عندما كان إسـماعيل طفلاً رضـيعاً، ويسكنهما في بلادٍ قَفْرٍ عند البيت الحرام، (حيث سيوحي الله تعالى لإبراهيم بعد سنوات طويلة أن يبني البيت الحرام هو وإســماعيلُ ولدُه، لذلك كان أمرُ الله أن يأخذ إبراهيمُ هاجر وابنه إلى المكان المحدّد) فوضـعها عند دوحة فوق زمزم وليس بمكّة يومئذ أحد وليس بها ماء، ووضـع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسَـــقَاءٌ فيه ماء ثمّ قَفَل إبراهيم منطلقاً، فتبعته هاجر ثمّ قالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا حسيس؟ فلَمْ يُجبْها، فلمّا ألحَّتْ عليه قائلةً: هل أمركَ الله بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً فهو لن يضـيّعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه رفع يديه ودعا ربّه قائلاً: يا ربّي وإلهي إنّي أســكنتُ زوجتي وابني في هذا الوادي المُقْفِر، فاحفظْهم بحفظِكَ واشملْهُم برحمتِكَ واجعلْ قلوبَ الناسِ تهوي إليهم وارزقهْم رزقاً حَسَناً إنّكَ أنت السميعُ المُجِيْبُ[1].

---

(١) قال تعالى:(رَّبَّنَا إِنِّي أَسْــكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّـلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ {٣٧}) سورة إبراهيم .

ثم جعلت هاجر ترضع طفلها وتشرب من الماء وتأكل من التمر حتى نَفَذَ ما عندها، فعطشت وعطش ابنها، فجعلت تنظر إليه يتلوّى، فلم تدري كيف تصنع، فجعلت تركض فوجدت تلّة في الأرض قريبة منها واسمها (الصفا) فقامت عليها فلم تجد أحداً يساعدها أو ماء يروي ظمأ ابنها، فنزلت عن الصـفا ونزلت الوادي وركضـت تجاه تلةٍ أخرى اسـمها (المروة) فقامت عليها ونظرت فلم تجدْ شـيئاً، ويروي ابن جرير أن إبليس (لعنه الله) كان يُظهِرُ لهاجر صــورةَ الماء فوق الصــفا فلمّا تركض نحوها تختفي، فيظهرها فوق المروة فتركض نحوها فتختفي، ويظهر السراب فوق، وهكذا سـبع مرّات حتى تعبت وَأيسَــتْ، وفي آخر مرّة وهي مجهدة متعبة سـمعت صـوتاً فقالت: صَـهْ. تحادث نفســها، ثم تسـمّعت فسـمعت أيضـاً ذات الصـوت، فقالت: قد أُسـمِعْتُ، فإنْ كان عندَك غوَاث فَهَيَّا. فإذا هي بالملاك عند موضــع زمزم، فبحث بعَقْبِهِ حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضـــه وتقول زِمْ زِمْ، ثم جعلت تغرف من الماء وتسقي طفلها.

ثم كانت إرادةُ الله أن مرّ قومٌ من جُرْهُمَ ولمّا وجدوا عندها الماء طلبوا منها النزول عندها، ولم يكن يعرف وجود الماء في تلك البقعة من الأرض، فوافقت، وتكاثر الناس عند زمزم وشــبّ إســماعيل بينهم وتعلّم لســـانه لغتهم لكنه نطقها بالفُصــحى الســـليمة، فكان بذلك أوّل من نَطَقَ بالعربية الفصيحة.

وكان إبراهيمُ يزور هاجرَ وإســـماعيل من فترةٍ لأخرى يطمئن عليهم، ثمّ أوحى الله ســـبحانه لإبراهيم أن يذبحَ ابنه إســـماعيل اختباراً له، فامتثل إبراهيمُ لأَمْر الله وســـارع إلى طاعته، ثم عَرَض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسْراً، وكان إسماعيل حينها في التاسعة من عمره، فقال إسماعيل (عليه السلام) منفّذاً أمر الله ووالده: يا أبت افعل ما أمرك الله به و ستجدني صـابراً منفذاً مُحتَسِـباً. ولمّا تمدّد إسـماعيلُ للذبح، وقد ألقى إبراهيم وَجْهَ إسـماعيل على الأرض كَيْلاَ يشاهده أثناء ذبحه فيضعفُ، و سمّى باسم الله، تشهّد الولدُ المطيع للموت، ولمّا هَمَّ بذبْحِهِ، (وقيل أنّه وضعَ السكينَ على عنقه وشرع بالذبح وسال بعضُ الدم) نودي

إبراهيم من ربّه: يا إبراهيم قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك وإقدامك على ذبح ولدك. وقد جعلنا فداء ولدك ذَبْحَ كبشٍ أبيض أعين أقرن.

نظر إبراهيم فرآه مربوطاً في ثبير[1]، فذبحه وقدّم قرباناً لله الذي ارتضاه منه عن ولده الذبيح إسماعيل عليه السلام[2]

وهذا ما انتهى إلينا من خبرِ نَبِيّ اللهِ إِسْمَاعِيْلَ الذَّبيح عليه سلام الله ورحمته. والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كل شيءٍ قديرٍ.

⊠⊠⊠⊠⊠⊠

(١) ثبير : اسم جبل بين مكة ومِنى، يُرى على يمين الداخلِ إلى مكة من مِنى.
(٢) : مات إسماعيل وله من العمر مئةٌ وسبعٌ وثلاثون سنةً، ودُفن بالحُجْرِ مَعْ أمِّهِ هاجر .

٧ - خَبَرُ النَّبِيِّ يُوْسُفَ الصِّدِّيقِ (عليه السلام)

هُو يوسفُ بنُ يعقوبَ بنُ اسحَق بنُ إبراهيم (عليهم السلام)(*)، كانَ أصغَر إخوتهِ، لذلك أحبَّه أبوه كثيراً، ودَلّلَهُ ممّا جعلَ إخوته يحقدون عليه، وكان قد رَوَى حُلُماً لإخوته فَحَسَـــدُوْهُ وخافوا على مكانتهم منه وروى حلماً آخر لأبيه حيث قال له أنّه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له[1] فطلب منه أبوه ألاّ يخبر أحداً بهذا الحلم لأنّه ســيثير حقد إخوته عليه[2]، وهذا ما كان بعد أن اسـترقوا السـمع عمّا أخبر به يوسـفُ والدَه. فأضـمروا له الشرّ وأرادوا الخلاص منه، وكان آنذاك في السابعةَ عَشْرة من عمره، وعندما كانوا يرعون الأغنام، ويوسف معهم، قالوا أنّهم محتاجون للماء، ثم أنزلوا يوسف إلى البئر بعد أن أخذوا قميصه، وقطعوا الحبل به، ثمّ رأوا قافلة قادمة من بني إسماعيل فاختبؤوا، ومرّ عندها رجالٌ تُجَّارٌ من بني مِدْيَانَ فأخرجوا يو سف وباعوه للإ سماعيليين بعشرين من الفضة، وغادر الإسماعيليون إلى مصر.

وعندما رجع الإخوة إلى البئر ولم يجدوا يوســف، لم يعرفوا ما يفعلون أو يقولون لأبيهم، فمزّقوا ثوبه، ثم غَمَسُـوهُ بِدَم تَيْسٍ ذَبَحُوهُ وأخذوا القميص لوالدهم يعقوب النبي وقالوا له: إنَّ الذئب أكلَ يو سفَ. فمزّقَ يعقوب ثيابه، وو ضع مِسْحَاً[3] على جسمه وناح وبكى على ابنه أيّاماً كثيرة، ورفض أن يقبل العزاء به حتّى يهلك ويموت.

(*) البداية والنهاية لابن كثير

(١) (٢) قال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُــفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَــرَ كَوْكَباً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـاجِدِينَ {٤} قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّـيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٥}) سورة يوسف.

(٣) المِسْحُ:الثوبُ المصنوع من الوبر أو الشَّعر، وهو ثوبُ الرُّهبان .

وفي هذه الأثناء كان يوسف قد بِيْعَ إلى رئيس الحرس الخاص بفرعون واسمه (فوطيار) فعاش يوسفُ في بيتهِ حيث كان الله سبحانه معه، فحلَّتِ البركةُ على البيت بسببه، وحدث بعد ذلك أن انتقل يوسفُ إلى بيت فرعون فبقي فيه زمناً، إلى أن حاولت امرأة فرعون واسمها (زُلَيْخا) أن تغريه ليرتكب الإثم، فهو كان جميل الطلعة، بهيَّاً، حَسَنَ الخَلْقِ والخُلْقِ، فرفض عَرْضَهَا وقال لها: لن أ صنع هذا الشرّ العظيم، وأخطئ إلى الله. وعندما حاول الهرب من أمامها شدّته من ثوبه فتمزّق، فحقدت عليه ونوتْ أن تُلْحِقَ به الموت، فصرخت وعندما اجتمع من في القصر وزوجها، قالت كاذبةً: إن هذا الشاب حاول أن يرتكب الفاحشة معي، وقد هرب عندما صرختُ وترك ثوبه الممزّق هنا، فغضب سيد المنزل وأمر بسجنه، فَسُجِنَ وكان رئيس السقاة، ورئيس الخبازين في السجن لغضب الفرعون عليهما، ومرّت فترة على يوسف وهو في السجن، ثمّ حَدَثَ أن رأى رئيس السقاة ورئيس الخبّازين كلّ منهما حُلُمَاً في ليلةٍ واحدة، وعندما قصَّا على يوسف ما رأَيَا، فسَّر لهما الحلمين، وكان تفسير الحُلمين: أنّ رئيس الخبّازين سوف يقتله فرعون ويعلقّ رأسه على خشبة تأكله الطيور، ورئيس السقاة يعفو عنه وينجو. وهذا ما حدث حقّاً.

ثمّ حَدَثَ بعد مدة طويلة أنّ فرعون رأى حلماً أخبرهُ لجميع المفسّرين والمنجّمين ليفسّروه له ففشلوا، ثمّ تذكر رئيس السقاة الذي عاد لعمله ما فعله يوسف في السجن، وكيف فسّر له حُلْمَهُ وحُلم رئيس الخبّازين، فأخبر فرعونَ بأمر يوسف الذي مازال مسجوناً، فكان أن أرسل فرعون بطلب يوسف فأُخرِجَ وأُحْضِرَ بين يديهِ، فقال فرعون: قد رأيتُ حُلْماً وليس مَنْ يفسّره لي، وسمعتُ أنّك تقدر على تفسير الأحلام؟ فقال يوسف (**عليه السلام**): لي القدرة على التفسير بعون الله وحده، وهي نعمة من الله مَنَّ بها عَلَيَّ، فماذا رأيتَ؟ فقال فرعون: إنّي حَلُمْتُ أنّي كنتُ واقفاً على شاطئ نهر النيل، فرأيت سبعَ بقراتٍ طالعةً من النهر، سمينة اللحم، حسنةَ الصورةِ، فَأَرْتَعْتَ[1] في روضةٍ، ثم رأيت وراءها سبع بقراتٍ مهزولةً، قبيحة الصورة، رقيقة اللحم، فأكلت البقراتُ الرقيقةُ والقبيحةُ البقراتِ السبعِ السمينة. ثم رأيتُ

(١) أَرْتَعَتْ : يُقال رَتَعَتِ الماشِيَةُ إذا جاءت وذهبتْ في المرعى وأكَلَتْ وَشَرِبَتْ مَا شاءت.

حُلُماً آخر: فقد رأيتُ سبعَ سنابلَ طالعةً في ساقٍ واحدة ممتلئة وحسنة المنظر، وبعدها رأيتُ سبعَ سنابلَ يابسةً ضعيفةً، فابتلعتِ السنابلُ الضعيفةُ السنابلَ الممتلئةَ الحسنةَ، فقال يوسفُ (عليه السلام): الحُلمان لهما المعنى نَفْسُه، الله سبحانه أراد أن يخبركَ ما هُوَ صانعٌ فالبقراتُ السبعُ السمينةُ مِثْلُ السنابلِ السبعِ الممتلئةِ، وهي تعني أنّ سبعَ سنين من الخير والغلال الوفير ستمرُّ على البلادِ ويَشْبَعُ الناسُ، ثم تأتي بعدها البقراتُ السبعُ الضعيفةُ أو السنابلُ السبعُ اليابسةُ، وتعني سبعَ سنواتٍ من القحط والجوع في كل أرض مصر، فينسى الناسُ الشبَعَ السابقَ لشدّة القحط والجوع الحاصل. وأمّا تكرار الحُلم مرّتين، فذلك لأنّ الله سبحانه مقرِّرٌ الأمر، وسيفعله بسرعةٍ. وبعد أن فسّر يوسف (عليه السلام) الحُلْمَيْن لفرعون، اقترح عليه تكليفَ رجلٍ بصيرٍ حكيم، يجعله قيِّماً على أرض مصر، حيث يخزّنُ خُمْسَ غلال الأرضِ في سنواتِ الخير، احتياطاً لسنواتِ الجوع السبعِ. فأُعْجِبَ فرعونُ بيوسفَ ورأيه، وقال له: (لن نجدَ رجلاً حكيماً، يخافُ اللهَ، واللهُ يحبُّه أكثرَ منك).

ثمّ عَيَّنَ فرعونُ يوسفَ قيِّمَاً على كلّ أرض مصر، وأعطاه خَاتِمَهُ وجَعَلَ كلمَتَهُ بَعْدَ كلمةِ الفرعون، يأمرُ وينفّذ الجميع أوامرهُ، وزوَّجَهُ من (أَسْـنَات) ابنة كبير الكُهَّان، وكانَتْ جميلةً طائعةً لربِّها وزوجِهَا، وكانَ يوسف آنذاك في الثلاثين من عمره، فأنجبت له ابنان قبل سنواتِ الجوع، فأسمى الأوَّلَ (مُنَسِّي) لأنّ الله سبحانه أنساهُ كلّ تعبه، والثاني (أفرايم) ومعناه الخير المثمر، لأن الله سبحانه جعلهُ مُثمِرَاً في أرض غربته وذُلّه بعيداً عن أهلهِ وأرضهِ.

وقد حدث ما قاله يوسفُ فجاءت السبعُ سنين المثمرةُ، حيث انتشرت الخيراتُ وزادت الغلَّةُ، فصار يوسف يخزّن القمحَ الكثيرَ، حيث لم يعد هناك مُتَّسَعاً لتخزينه. ثمّ كَمُلَتْ سنواتُ الشبعِ السَبْعُ، وبعدها جاءتْ سبعُ سنوات الجوع، فانتشر القحطُ والجوع في جميع البلدان ما عدا أرض مصر التي نجت بفضل حكمة يوسف، فقد أخرج القمحَ المُخَزَّنَ ووزَّعهُ على المصريين بأسعارٍ زهيدةٍ.

ويذكر ابن جرير أنّ نبي الله يوسف كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى ليلاً ولا نهاراً، وكان يستطلع خبر أبيه يعقوب في أرض كنعان، وبينما هو يمشي في بعض

أزقّة مصرـ وإذ بأعرابي راكب بعيرَهُ، وهو يقول: حمدتُ ربّي وهو الحميدُ، يبدي الخَلْقَ ويُعيدُ، ليس له ضدٌّ ولا ندٌّ عنيدُ، يفعلُ في خلقه ما يشاء وما يريدُ(*).

فلمّا سـمع يوسـف (عليه السلام) هذا التحميد من الأعرابي، علم أنه غريبٌ وليس من المصرـيين، فأقبلَ عليه وسلَّمَ وقال له: من أيّةِ بلادٍ أنتَ؟ فقال: من بلاد كنعان، من مراعي نبيِّنا يعقوب.

فلمّا سـمع يوسـف خبر أبيه وبلاده، صـاحَ صـيحةً عظيمةً، وخرَّ سـاقطاً إلى الأرضِ. وعندما رأى الأعرابي ذلك نزل عن جمله وأقبل إليه، ورفع رأسَـــه عن الأرض وجعل يمســـحُ الترابَ والدموع عن وجهه حتى أفاق من غشوته، ثمّ قال له:

يا مليحَ الخَلْقِ والخُلْقِ، أيحلُّ لك أن تفعل هذا بنفسك؟

فقال له: لمَّا ذكرتَ بلادي التي في الغربة رَمَتْني، لم أتمالك نفسيـــ فبالله عليك يا أعرابي هل تعرف النبيَّ يعقوب؟

فقال: وكيفَ لا أعرفه وهو نبيُّ الله بن اسـحق بن إبراهيم خليل الله سـبحانه، وبه نتوسّـلُ إلى الله.

فقال يوسف: بالله عليك! في أيّ حالٍ تركْتَهُ، وكيف وَجَدْتَهُ؟

فقال: قد انحنى ظهرُهُ، واحترقَ كَبِدُهُ، وتضعضعت أركانه قبل أوانه، وقد تركَ الأهل والأوطان، وبنى له بيتاً في تلّ كنعان، وســمّاه بيتَ الهموم والأحزان، يبكي وينوح فيه على قرّة عينيه يوســف الصّــدّيق، اختُطِفَ من بين يديه ولم يعلم أين هو؟ وعندما ســمع يوســف (عليه الســلام) كلام الأعرابي زاد حزنه، وعلا نحيبه، وقال: يا ليتَ أمّي لم تلدني، يا ليت الســباعَ أكلت لحمي، ومزّقت جلدي، ولا أصاب أبي وحبيب قلبي ما أصابه من أجلي.

فَرَقَّ قلبُ الأعرابي وجعل يبكي معه، فقال له يوســف: يا أعرابي أُحمِّلُكَ أمانةً، وأُودعكَ وديعةً، وأدعو لك دَعْوَةً تنالُ بها خير الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى

(*) البداية والنهاية لابن كثير..

فقال الأعرابي: وما هي يا مليح الوجه واللسان واليد؟

فقال يوســـف: إذا وصــــلتَ إلى تلِّ كنعان، فاذهب إلى باب يعقوب في هدأة من الليل، حيث يجيء وقت قيام الأنبياء لتهجّدهم لربِّ الأرض والسماء. فمتى سمعت بكاءه وأنينه وتضرّعه لخالقه و سيّده فناديه بقولك: السلامُ عليكَ أيّها المكظوم المهموم، لَكَ البشارة بقُرَّةِ عينكِ يوسف الصّدّيق. وإذا سألك عن الخالِ الذي على خدّي فقُلْ له: قد مَحَتْهُ الدموع.

فقال الأعرابي: أنتَ يوسفُ الصدّيق ابن نبي الله يعقوب..؟! يا شوق الأرض للسماء، وشوق العين للنور والضياء، وشوق يعقوب لخير الأنبياء. ثمّ ركب جَمَلَهُ وودّعه، وسار حتّى وصل أرض كنعان فلاقاه أولاده فرحين برؤيته وهمُّوا أن ينزلوه عن جملهِ، فقال لهم: والله لا أنزلُ عندكم حتّى أوصلَ رسالة يوسف الصدّيق إلى أبيه يعقوب عليهما السلام.

فلَمَّا نامتِ العيونُ، وأظلمَ الليلُ، وقامتِ الأنبياءُ لتهجّدها، تقدّم الأعرابي من خيمة يعقوب وتسمّع، فإذا به يبكي ويئنُّ. فنادى الأعرابي: يا نبيَّ الله! البشارةَ، البشارةَ.

فقام يعقوب وأراد الخروج فسَقَطَ، ثمّ قامَ فسقطَ، وكانَتْ عندهُ ابنةٌ فقامَتْ وأمسكَتْهُ على يده، وأخرجته حتى أوصلته إلى الأعرابي، فقال يعقوب (**عليه السلام**): يا أعرابي، بماذا تبشّرني؟

فقال: أبشّرك بحبيب قلبك ونور عينك، وفرحة مهجتك يوسف الصدّيق. فلمّا سمعَ يعقوبُ البشارة وكلامَ الأعرابي، سقطَ على الأرضِ مَغْشِيّاً عليه، فلمّا أفاق قال: يا أعرابي أين رأيتَ ابني يوسف؟ فقال: في مصر وهو جالس على أحسن حال يصلُ إليه إنسان. فقال:

صِفْهُ لي. فقال: قد أوصاني أن أقولَ لكَ إذا سألتني عن الخال الذي على خدّه، أنّ الدموع قد مَحَتْهُ.

فقال يعقوب: يا ولدي وقرّة عيني إن كنتَ فقدت الخالَ بالدموع، فأنا فقدتُ العيون التي كنتُ أراكَ بها.

يا أعرابي: لا أجد ما أكافئكَ به، فبالله عليك تقدّمْ ودعني أقبّل عيوناً رأتْ حبيب قلبي، وقرّة عيني يوسف.

فجعلَ يعقوب يقبّل عين الأعرابي ويقول: أهلاً وســهلاً ومرحباً بعيون رأتْ حبيبي، هي عيون لا تمسُّها النار بإذن الله تعالى، ماذا تطلبُ مني يا أعرابي، فكلّ ما تطلبه هو لك؟

فقال: أريد أن تدعو الله لي أن أكون رفيقك في الجنّة، وأن تهونَ عليَّ سَــكَرَاتِ الموتِ وعذابَ القبرِ. فدَعَا له يعقوب بذلك وزاد في الدعاء له.

وقيل أنّ يوسف لمّا وزع على المصريين القمح(*)، وصارَ الناسُ يتوافدون على مصر لشراء القمح، أرسل يعقوب أولاده لشراء القمح من مصر، قبل أن يكون له خبر يوسف في مصر من قِبَلِ الأعرابي، فقدم أبناء يعقوب العشرـة على يوســف وقالوا له: نحن أبناء رجل واحد من أرض كنعان، وجئنا نشــتري قمحاً. ولم يعرفوه وهو عَرَفَهُمْ فأراد أن يعطيهم عِبْرَةً لما فعلوه معه[1]. فقال لهم: اذهبوا وعودوا صــباحاً لأخذ القمح. وكان قد أوصى أحد العبيد بوضــع كأس من الذهب في أحد الأكياس الخاص بهم، فلمّا جاؤوا صــباحاً وجدوا أكياســهم جاهزة، ففرحوا بأنّهم حصــلوا على القمح في هذه المجاعة. لكنّ يوسف وقبل أن يغادروا المدينة أرسل خلفهم عبداً يقول لهم: لماذا جازيتم شراً عوضاً عن خير، أليس ذلك الكأس الذي أخذتموه هو الذي يشرب به سيّدي ويتفاءل؟ فقالوا: حاشا أن نفعل ذلك، والذي يوجد الكأس في كِيْسِهِ يموتُ، وكُلُّنا نصبح عبيداً لسيّدكَ.

(*) التوراة سفر التكوين ـ الإصحاح ٤٠ ـ ٥٠

(١) قَالَ تَعَالَى: (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُــفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ {٥٨} وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ {٥٩}) يوسف

فلمّا عادوا إلى يوســف وفتح كلّ واحدٍ كيســه بدءاً من الكبير وانتهاءً بالصــغير، فوُجِدَ الكأس (الطَّاسُ) في كيس بنيامين. فقال يوســف: لمن هذا الكيس؟ فإنّي لا أرى صــاحبه. فقالوا: هو لأخينا الصــغير بنيامين، وقد بقي عند أبانا يعقوب وهو يخاف عليه كثيراً لذلك لم يجعله يأتي معنا. فقال يوســف: لا أعطيكم القمح حتى يأتي أخوكم الصــغير. وعندما لم يجدوا بُدّاً من الأمر، عادوا لأبيهم وقالوا له: لقد مُنِع القمح عنّا حتى نذهب بأخينا بنيامين معنا. فقال يعقوب: هل ســيكون مصــيره كمصير يوسفَ من قَبْلِهِ. وعندما أقسموا له بالحفاظ على أخيهم سمح لهم. ولمّا عادوا ليوسف قال لهم: أنا لن أكونَ ظالماً لكم، ولذلك يمكنكم العودة وأخذ القمح، ولكنّ بنيامين ســيبقى. فقال يهوذا كبيرهم: ســيدي إنّ أبانا يعقوب النبي كان قد تزوّج غير أمّنا وأنجبَ منها ولدين، فأمّا يوســف فقد افترســه الوحش، ولم يبقَ لوالدنا غير بنيامين الصــغير، فإن فَقَدَهُ يموت بعده، وأرجو أن ترفق بحال والدنا وهو شــيخ كبير فَقَدَ بصَرــهُ بفَقْدِ يوســف، وأنا أبقى بدلاً منه وأكون لك عبداً أخدمكَ طول حياتي.

وعندما رأى يوسـف إصرار إخوته على عدم التفريط بأخيهم الصـغير، لم يملكْ نفسـه من الحزن فصرخ: أخرجوا كلّ إنسان عني، فخرج كلّ الحرس والعبيد، وبقي إخوته، ثم تقدّم إليهم وقال: طالما أنّكم تحبّون أباكم وتخافون عليه كلّ هذا الخوف، وتحبّون أخاكم الصغير وتخافون عليهم، فلمَ قتلتم أخاكم يوسف؟ ثم أطلق صوتَه بالبكاء وقال:

أنا أخوكم يوسف. فلم يستطع الأخوة الإجابة، ثم صار يذكر أسماءهم واحداً تلو الآخر، ثم قال لهم: لا تخافوا لأنّكم بعتموني إلى مصرــ فهي مشــيئة الله، ولولا ذلك لمات خَلْقٌ كثيرون من القحط والجوع، لقد أرســلني الله أمامكم كي يجعل لكم بقيّة في الأرض، والله ســبحانه قد جعلني على هذه الحال من الرِّفْعَةِ والشــأن في بيت فرعون. أسرعوا وعودوا إلى أبي وقولوا له: لقد جَعَلَ الله يوســف ســيّداً في مصرــ وهو يقول لك، انْزِلْ إلى أرض مصرــ بكلِّ بنيكَ وأهلك وماشــيتكَ لأنّ القحط ســيبقى لخمس سنين أخرى.

ثمّ قَبَّلَ جميع إخوته وبكوا بكاءً عظيماً، ولمّا عرف فرعون خبر يوســف وإخوته طلب أن يُعطى الأخوةُ عرباتٍ وزَاداً، ليحمل بنو يعقوب متاعهم وحاجاتهم، وبعدها ارتحل يعقوب وبنوه إلى أرض مصر، وعاش يوسف مع قومه في أفضل الأراضي التي منحهم إيّاها فرعون.

وسبحان الذي يهدي لنوره مَنْ يشاءُ، يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ.

وقد عاش يوســف مئة وعشرـين ســنة، ورأى أبناء (أفرايم) ابنه للجيل الثالث، وأولاد ماكير بن مُنَسِّي. ثم دَنَتْ ساعةُ الحقِّ فقال لإخوته: ها أنا أموتُ، ولكن الله سيفتقدكم، ويصعدكم من هذه الأرض. ومات فحنَّطوه ووضعوه في تابوت في مصر. وقد ورد ذكر النبي يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، حيث جاءت قصّتُه في سورة (يُوْسُفَ) وعددُ آياتها مئةٌ وإحدى عشْرةَ آيةً، إذ أنّ الله تعالى يقول:

((الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {١} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ {٣} ......لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ {٧} إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ {٨} اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ {٩}..... قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {٩٧}))

وجاء ذكر يوسف (**عليه السلام**) وقضّيته مع إخوته في التوراة في سفر التكوين من الإصحاح السابع والثلاثين حتى الإصحاح الخمسين.

وهذا ما انتهى إلينا مِنْ خبرِ نَبِيّ اللهِ يُوْسُفَ الصّدِّيقِ عليه سلام الله ورحمته.

والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

٨ ـ خَبَرُ النَّبِيِّ أَيُّوبَ (عليه السلام)

هو نبيّ الله الصــابرُ المحتســبُ الأَوَّابُ أيوبُ بنُ مَوْصَ بنُ زَرَاحَ بنُ العَيْصِ بنُ اســحاقَ بن إبراهيم الخليل (**عليه السلام**)، وجدّته لأمّه هي راعوثا بنت لوط (**عليه السلام**)، كان يعيش في أرضِ عَوْص (أَرْضِ البُثَيْنَةَ من أرضِ جَبَلِ العَرَبِ)، كان كاملاً بالأخلاق مســتقيماً، يتَّقي اللهَ ويحيدُ عن الشرّ ــ ودَرْبِهِ، وكان اللهُ قد رزقه ســبعةَ أولادٍ وثلاث بناتٍ وخيرات كثيرةً تُعَدُّ بالآلاف من المواشي والأغنام والجمال والأراضي والخَدَمِ والحَشَمِ[1]. وكان أن طَلَبَ الشيطان (لَعَنَهُ اللهُ) من الله سبحانه أن يُجرِّبَ عبده أيوب، ليُثبت أنَّه ما يعبُدُ ربَّه ويتَّقِيْه إلاَّ لأنَّ الله ســبحانه قد أعطاه كلّ ما يريدُ من الخيرات والنِّعَم والأولاد والصحَّةِ. فقال الشيطان (لَعَنَهُ اللهُ) لله سبحانه وتعالى: (أليس أيوب يعبدكَ ويتَّقيكَ لأنَّكَ منحته بركتكَ؟ ولو أنَّك تركتَ يدكَ عنه ومنعته بركتك لوجدته يُجدِّف[2] ويكفر).

فقال الله سبحانه مع عِلمهِ المُسْبَقِ بما كان وسيكون: هو لك، كُلّ ما في يديهِ من أملاكٍ وأرزاقٍ هو بين يديك، ولكن إليه لا تقرب ولا تمد يدك. فقام الشيطان من ساعته ونزل إلى أيوب وذهب إلى مراعيه حيث المواشي بالآلاف فأَمَاتها جميعاً، وإلى الأراضي والأشــجار فأيبســها وإلى الخدم والعبيد لم يُبْقِ منهم إلاَّ واحداً ذهب إلى أيوب وأخبره بما حَصَــلَ. فقال أيوبُ: الحمد لله الذي أعطى ودَفَع، والحمد لله الذي أخذَ ومنَع، عرياناً خرجتُ من بطن أمي وعرياناً أعودُ إلى الأرض. ثمّ أنَّ أيوبَ سَجَدَ لله وشكَرَهُ وَحَمَدَ نِعَمه وقال: فليكُنْ اسمُ الله مُبارَكاً ممجَّداً.

فَاغتاظَ الشيطان (لَعَنَهُ اللهُ) لصَبرِ أيّوب و شدّة إيمانه، فَطَلَبَ من الله سبحانه أن يُطْلِقَ يدَهُ على أولاد أيّوب، فأعطاهُ، فنزل الشيطان إلى المنزل حيث يسكن

---

(١) الحَشَمُ للرَّجُلِ: خَاصَّتُهُ الذِّيْنَ يَغْضَبُوْنَ لِغَضَبِهِ ولِمَا يُصِيْبُهُ مِنْ مَكْرُوْهٍ، عَبِيْدَاً كانوا أو أهلاً .

(٢) جَدَّفَ بالنِّعْمَةِ: كفر بها .

أولادُ أيّوب وبناتُه، فهدم عليهم أركان البيت فماتوا جميعاً، وعندما عَلِم أيّوب بما جرى لأولاده قال صابراً محتسباً: الحمد لله الذي أعطى وأخذ، فليكُنْ اسمُه مُبارَكاً ممجَّداً. فزاد غيظ الشيطان من صبْرِ أيّوب وتسليمه بقضاء الله سبحانه وإيمانه الشديد. فطلب أن يعطيه على أيّوب نفسه إذ لم يَعُدْ يملك شيئاً إلاّ صحّته وجسمه، فأعطاه. فنزل الشيطان (لَعَنَهُ اللهُ) إلى أيّوبَ وضَرَبَ جَسَدهُ بقَرْح رديء سيّءٍ انتشر من أخمص قدمه إلى قمّة رأسه، فصار جالساً بين رماد وحجارة منزله هو وزوجته (رَحْمَة) يحكّ جلده بحجرٍ لشدّة ما كان يعاني من الآلام والأوجاع حتّى أنّ الدُّوْدَ صار يخرج من التقرّحات و أيّوب صابرٌ محتَسِبٌ مؤمِنٌ بقضاءِ اللهِ وقدره، يقول: الحمد لله في السرّاء والضرّاء، نحمده إذ كُنّا في خيراته وأرزاقه نَنْعَمُ ونَسْلَمُ، ونحمده إذ نحنُ في مِحْنتِهِ وبلائه نألمُ ولا من رحمتهِ وعفوهِ نسأمُ.

وقد عانى أيّوب وزوجته الكثير من الفقر والجوع، وكانت زوجتُه (رحمة) تحملُه في قُفّةٍ تجوبُ به المناطقَ وتطلبُ من الناس الطعام، لكنَّ الشيطان (لَعَنَهُ اللهُ وخَزَاه) كان يسبقهم إلى كلِّ مكان يقصدونه فيحرّض الناس عليهم فلا يعطونهم الطعام، وحَدَثَ ذات مرّة أن قصَدَت رحمةُ بيتاً تطلبُ طعاماً وشراباً لزوجها، فرفضت صاحبة البيت أن تعطيها إلاّ بعد أن تعطيها ظفيرةً من شعرها، فوافقت مرغمةً مع علمها أنّ أيّوب لن يقبلَ بذلك، وعندما وصلت إليه ورأى ما حلّ بشعرها رفض تناول الطعام وطلب منها أن تعود وترجع الظفيرة، فرجعت، وفي هذه الأثناء أرسلَ الله سبحانه لأيّوب ملكين بصورة رجلين، فلمّا وصَلا ألقيا السلام على أيّوب، فردّ عليهما وقال: اِجْلِسَا واعذراني أن لم يعدْ عندي ما أقدّم لكما، فالحمدُ لله الذي أعطى والحمد لله الذي منع. فقالا له: طوبى لك يا أيّوب الصابر، نحنُ رُسُل ربِّ العزّة إليكَ، لقد نجحت في بلائك، وكان إيمانُك وصبرُك نجاتك. خذْ هذه التفّاحة وكُلْهَا، وهذا الماء فاغتسِلْ به، فَهمَّ أن يقسِمَ التفاحة نصفين، فقالا: كُلْهَا وحِصَّةُ رحمة موجودةٌ. فما أن أكلها واغتسل بالماء حتى شفي بإذن الله وعاد كما كان صحيحاً شابّاً معافى فحمد ربَّه على نِعمته. ثم أعاد الله سبحانه على أيّوب ما كان عنده من أرزاقٍ مضاعفة فصار عنده أربعة عشر ألف من الغنم، وستّة آلاف من

الإبل، وألف فدّانٍ من البقر، وعوّض عليه في أولاده فرزقه ســـبعة أولاد وثلاث بنات جميلات يضرب المثل بجمالهن. وعاش أيّوب مئةً وأربعين سنة، ورأى أولاد بنيه إلى أربعة أجيال، ومات شبعان من عمره رحمة الله عليه، وما زال قصرـه حتى يومنا هذا موجود في بلدة (قَنَوات) في جبل العرب يُزَارُ من الناس. وقد وَرَدَ ذكر نبي الله أيّوب في القرآن الكريم في آيات كثيرة. إذ جاء في قوله تعالى:

((وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّـــنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣} فَاسْـــتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَـــفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ {٨٤})) سورة الأنبياء

((وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ {٤١} ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَـــلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ {٤٢} وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ {٤٣} وَخُذْ بِيَدِكَ ضِـغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَـابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ {٤٤})) سورة الأنبياء

ووَرَدَ ذِكْرُ النبي أيوب (**عليه الســلام**) في التوراة في سِـفْرٍ كاملٍ يحمل اسـمه مكوّنٍ من اثنين وأربعين إصحاحاً. جاء في الإصحاح الأول:

(كَانَ رَجُلٌ فِي أَرْضِ عَوْصَ اسْـــمُه أيّوبُ، وَكَانَ هَذا الرَّجُلُ كامِلاً مُسْـــتَقِيْمَاً يتَّقِي الله ويَحيْدُ عَنِ الشَّرِّ....)

وهذا ما انتهى إلينا مِنْ خبرِ أيّوبَ النَبِيّ وَصَبْره عَلى بَلْوَاه.

والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



٩ - خَبَرُ النَّبِيِّ لُوْطَ (عليه السلام)

لوط عليه الســلام هو رســول الله تعالى إلى المؤتفكات[١]، المدن التي قلبها الله تعالى على قوم لوط، وتقع قُرْبَ البحر الميّت. ولوط هو ابنُ أخِ إبراهيم الخليل(**عليه السلام**).

وقد أرســـله الله إلى شَـــعْبِ هذه المُدُنِ الذي كفر بالله وطغى، ولم يترك موبقاً إلاَّ واقترفه، ليدعوهم لِتَرْكِ ما هم عليه من الكفر والمعصـــية، وعبادة الله الواحد الأحد ويحذّرهم من غضـــبه وعقابِه، فما آمَنَ منهم ســـوى ابنتيه، والأولى اســـمها: (ريثاعا) وهي جدّة النبي شـــعيب (**عليه السلام**)، والثانية واسمها (راعوثا) وهي جدّة النبي أيوب (**عليه السلام**)، وأمّا زوجته فلم يتمكّن الإيمانُ من قلبها وإنّما أخفت ذلك وبقي الشـكُّ يراودها. واسـتمرّ لوطٌ يدعو قومه لفترةٍ طويلةٍ دونَ فائدةٍ، فقدْ كانَ الكُفْرُ مغروســـاً في قلوبهم ودمائهم وعقولهم، وكانَ الشـــيطان (لَعَنَهُ اللهُ) قد اتّخذ منهم أولياء، فلمَّا يَئِس لوط (**عليه السلام**) منهم ومن استجابتهم لدعوته وللإيمان نادى ربَّه قائلاً: ربِّي انصُرــني على القوم الظالمين المُفْسِــدِين. فاسـتجاب الله سـبحانه لدعائه، وبَعَثَ إليه أربعة من الملائكة في صورةٍ بشريةٍ، فلمَّا أقبلوا على لوط ورَآهم بهذه الصورةِ الجميلةِ اغتمَّ غمّاً شديداً، وخاف عليهم من شرّ قومه وفسادهم، وقال: إنّ هذا اليومَ لَعَظيمٌ، أرجو أن يصيّره الله على خيرٍ.

وقد أقبل الملائكة على لوط وهو يحرث أرضه يريد زراعتها، وكان جبريل عليه السلام كأنَّه الثلجُ بيا ضاً، وعليه و شاحٌ من الدرّ المنظوم وهو برّاق الثنايا[٢]، أجلى الجبين، وأ سنانه حَبْك مثل المرجان[٣]. فخاف لوط على ضيوفه، ولم يكن

---

(١) المُؤْتَفِكَاتُ: هي المدنُ التي قَلَبَها اللهُ ســبحانه على أهلها، وهي كثيرةٌ مِنها سَــدُوم وعامورة (مدن قوم لوط)، وعادُ (مدينة قوم هود) وثمودُ (مدينة قوم صالح).

(٢) الثَّنايا: الأضراسُ الأربعُ في مُقَدِّمِ الفَمِ، اثنتانِ في الأعلى، واثنتان في الأسفلِ .

(٣) وأجلى الجبين : ناصعُ الجبين . والأسنَانُ الحَبْكُ : الأسنانُ المنتظمةُ المتراصّةُ.

يعرف أنهم ملائكة الله أرسلهم لخلاصه وعقاب المُفْسِدين، وكانوا قد أتوا بصورة الأضياف إلى لوط، وكان قوم لوط يقصدون الأضياف بالفاحشة، وكان من دينهم رَسْمُ الوَشْمِ على كافّةِ أنحاء أجسادهم بصُوَرٍ شيطانية، قبّحهم الله من قومٍ.

ثمّ مضى لوط راجعاً من حَرْثِهِ، والنِّيْرُ على كتفه، ومعه الضيوف (الملائكة) وهو يفكر كيف سيحميهم من شرّ قومه، فساروا حتى دخلوا منزله خِفْيةً، وأغلقَ لوطٌ البابَ خوفاً من شرّهم لكنّ القوم عَلِمُوا بأمر الأضياف، فأقبلوا على دار لوطٍ وكسروا الباب ودخلوا عليه، فقالوا: لقد عرفنا أنّ لديكَ ضيوفاً فسلِّمْنا إيّاهم.

فقال لوط: إنّ هؤلاء ضيوفي فلا تفضحوا واتّقوا الله وغادروا. ثمّ إنّه وقفَ على الباب وقال: لا أسلّمكم أضيافي دون أن تذهبَ نفسي وتمرّوا فوق جسدي، أو يأتيني أمرٌ ولا أقدرُ أن أدفعه. فتقدّمَ بعضُهم ولَطَمَ لُوْطَاً على وجهه، وأخذ بلحيته ودفعه على الباب، فقال عليه السلام:

إلهي وخالقي، خُذْ بحقّي من قومي الكفّارِ، وإلْعَنْهُم لَعْنَاً وبيلاً[1] وتوجّه نحو الأضياف وقال لهم: (إنَّ لي بكم قوّةً، أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ). فعندها وَثَبَ جبريلُ عليه السلام إلى البابِ وطَمَسَ على أعينِ القومِ، فلم يعودوا يبصرون شيئاً، ولم يهتدوا إلى الخروج حتى أخذ بأيديهم الذين أتوا بعدهم. وقال جبريلُ (**عليه السلام**): (يا لوطُ! إنّ ركنَك لشديدٌ، وإنّا رسُل ربِّكَ إليكَ، لن يصلوك ما دام الله معك، فَسِرْ بأهلِكَ بقِطَعٍ من الليل أنت وأهلكَ، ولا تلتفتْ أحدٌ منكم وراءه مهما سمعَ أو حَدَثَ).

وفي هذه الأثناءِ كانَ قومُ لوطٍ قد غادروا بيته غاضبين قائلين: إنّ في بيت لُوطٍ أسحَر قومٍ في الأرضِ. فَصَبْرَاً يا لوطُ حتى نُصبحَ ونُريكَ ما سنفعله بك وببناتكَ.

فمضى لوط من داره ومعه زوجته وابنتيه ومتاعه في الوقت الذي حدّده له جبريلُ (**عليه السلام**) دون أن يشعر به أحدٌ، واستمرّ يمشي دون توقّف، ولمّا برز عمودُ الصباح، صَاحَ جبريلُ (**عليه السلام**): يا بِئْسَ صباحُ قومٍ كافرين وصاحَ مَنْ مَعَهُ من الملائكة مثل

(١) اللَّعْنُ الوَبِيْلُ: الشّديدُ والمُهْلِكُ والمُمِيْتُ.

صـيحته. ثم أدخلَ يدَه تحت المدائنِ ورفعها نحو السـماء بجبالها ودورها ومزارعها وأشـجارها وأنهارها، وقَلَبها إلى الأرض وقالَ:

فلَّما جاء أمر ربّكَ جعلنا عاليها سـافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سـجّيل[1]. وجعل يخرج من تلك المدائن دخانٌ أسـودُ مُنْتِنٌ. وكان لوط يسـيرُ مع أهله وقد أمرهم ألاّ ينظروا خلفهم مثلما أمره جبريل (عليه السـلام) إلاّ أنّ زوجة لوط لم تسـتطع إلاّ أن تنظر لترى ما حلّ بالمدائن فأصـابتها الرجفة[2] وهمدت في مكانها، فتركها لوط وتابع مع ابنتيه، إلى حيث شاء الله أن يمضوا.

وقد بَقِيَتْ آثارُ تلكَ المدائنِ حتَّى الآن، وقد تحَوَّلت إلى بحيرةٍ تُسَّـمى (المُنْتِنَةُ)، وهي المعروفة بيومنا هذا باسـم (بحيرة لوط) (البحر الميت) بين الكرك والقدس، وماؤها شـديد الملوحة، فلا يعيش فيها سمك أو أيّة مخلوقات بحرية. وقد قيل في هذا الخبر شعرٌ يقولُ:

حُـقَّ الـفَـخَـارُ لِـمَـنْ لَـهُ جِـبْرِيْـلُ
يَـأْتِي وَمَـعَـهُ يَصْـدُرُ الـتَّـأْوِيْـلُ

عَـلَـتْ مَـكَـانَـتُـهُ فَـعَـزَّ مَـكَـانُـهُ
وَتَـأَكَّـدَ الـتَّـنْـزِيْـهُ والـتَّـفْضِـيْـلُ

مَـلِـكُ المُـلُـوكِ أَعَـزَّهُ فَـجَـمِـيْـعُ مَـنْ
يَـلْـقَـاهُ فِي هَـذَا الـوُجُـودِ ذَلِـيْـلُ

---

(١) قَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَـافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِـجِّيلٍ مَّنضُـودٍ {٨٢}) هود

(٢) قَالَ تَعَالَى:(قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِـيبُهَا مَا أَصَـابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّـبْحُ أَلَيْسَ الصُّـبْحُ بِقَرِيبٍ {٨١}) هود

قَالَ تَعَالَى : (وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَـلِينَ {١٣٣} إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ {١٣٤} إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ {١٣٥}) الصّافات

وقد ورد ذكر النبي لوط في أكثر من ســـورة في القرآن الكريم، فقد جاء خبره في ســـورة هود، والصَافات، ص، الأنبياء. حيث قَاَلَ تَعَالَى:

((وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ {٧٤})) (الأنبياء)

وهذا بعض ما انتهى إلينا مِنْ خبرِ لُوْطَ النَبِيّ عليه السلام.

والحَمْدُ والشّــكرُ للمَلِكِ العَلاَّم، قاهر الفاســقين، وَرَبّ الأَنام، وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



١٠ - خَبَرُ النَّبِيِّ موْسى (عليه السلام)

النبي موسى كليم الله ســبحانه، هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن ا سحق بن إبراهيم (**عليه السلام**)، أر سله الله سبحانه ليخلّص بني إسرائيل من ظلم فرعون لهم، وأرسل معه أخاه هارون يساعده كونه كان فصيحاً بليغاً[١].

وكان خبر ولادته، أنّ فرعونَ أمَرَ بقَتْلِ كلّ مولود ذكر لبني إسرائيل لأنّ عَرَّافِيْهِ أخبروه بأنّ رجلاً سـيخرج منهم ويكون هَلاَكُ مُلْكِ فرعونَ على يديه، لكنّ الله سـبحانه نجّاه[٢] وجعله يربى وينشـأ في كنف عدوه فلما صـار موسى (**عليه السـلام**) شـاباً أرسـله الله إلى فرعون يدعوه لعبادة الله، لكنَّ فرعون أبى واســتكبر وتجبّر، وقد أيَّد الله ســبحانه موسى بمعجزاتٍ كثيرة لكنَّ فرعون كَفَر بها كُلَّها، وعندما عَجِزَ فرعون عن مُجَابهة آيَات الله على يدي موسى قَبِلَ أن يخرج بنو إسرائيل مع موسى بعد أن أرسلَ الله عليه وعلى قومه مرضاً لا علاج له وفَقَدَ بهِ اِبْنَهُ. فلَمَّا وَافَقَ عَلَى خروجِ بني إسرائيل دَعَا له موسى ربَّه فشفاهُ وقومه من المرضِ.

وَكانَ من خبر موسى عبور البحر إذ انشقَّ له، وأطبقَ على فرعون الذي عَاوَدَ كفرَه وتجبّره، وقد خلّصَ الله الناس من فرعون وشرّه.

وكان ذاتَ مرّة أنّ موسى قامَ خطيباً بالنَّاس فَسُــئِلَ: أيُّ النَّاس أعلمُ؟ فقالَ: أنا. فَعَتِبَ الله سبحانه عليه إذ لم يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ، فأوحى إليه: أنَّ لي عَبْدَاً بمجمع

---

(١) قَالَ تَعَالَى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً {٥١} وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً {٥٢} وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً {٥٣}) مَرْيَم .

(٢) قَالَ تَعَالَى:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ {٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ {٨}) القَصَص.

البحرين[1] هُوَ أعلمُ منك. فقال موسى: رَبِّ وكيفَ لي به؟ فقال له: تأخذُ معك حُوْتَاً ميْتَاً فَأينما فَقَدْتَ الحوتُ(٢) فهو هناك. ففعل موسى ما أمره الله سبحانه وأخذَ معه حُوتاً وسار معه فتاه يوشع بن نون حتى وصَلاَ شاطئ البحر الأحمر، ولمّا وصَلاَ صخرةً كبيرةً شعَرا بالتَعَب فوضَعَا رأسيهما فناما، فأحيا الله سبحانه الحوت في الزنبيل[3] ثم اضطرب فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سَرَباً، فأمسك الله سبحانه الماء عن الحوتِ في جَرْيِهِ، فصارَ الماءُ حوله مِثْلَ الطَّاق. فلمَّا استيقظا نَسِيَ يوشع أن يخبر موسى بخبر السمكة العجيبة، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما فلمّا كان الغدُ، سأل موسى فَتَاهُ عن السمكة ليتناولاها بعدما شعَرا بالجوع والتعب (يذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية أنّ يوشع شاهَدَ الحوتَ يسقط في البحر فتعجّب من أمره، فقال لا أوقظه وعندما يستيقظ أخبره، فلمّا استيقظ موسى جعل الشيطان يُراوِد رأس يوشع حتى نَسِيَ أن يخبر موسى) [4].

وعندما لم يَجِدَا الحوت عادا أدراجهما يقصّان أثرهما حتّى انتَهَيا إلى الصخرة فَوجَدا الخَضِرَ عليه السلام جالساً على ثوبٍ أخضرَ فوق الصخرة فَسَلَّمَ عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأنَّى بأَرضِكَ السلامُ؟ أنت موسى بن عمران؟ قال: نعم. أتيتُكَ لتعلّمني ممّا عُلِّمْتَ رشداً. فقال الخضر: أما يكفيكَ أنّ التوراةَ بيديكَ، وأنّ الوحيَ يأتيكَ يا موسى! إنّ لي عِلْماً لا ينبغي لكَ أن تعلَمَه، ولكَ عِلْمٌ لا ينبغي لي أن أعْلَمَهُ. فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً لا أعصي لك أمراً. فقال الخضِرُ: إنْ تتبعني ومهما شاهدتَ من أمري عجباً فلا تسألني حتى أخبرك بأمره. قال موسى:

---

(١) : مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ : مَكَانُ الْتِقَاءِ خليْج إيلات فَرْعَيْ البَحْرِ الأحمرِ .
(٢) الحُوْتُ : السَّمَكَةُ الكَبِيْرَةُ الضَّخْمَةُ، وَيُطْلَقُ عَلى السَّمكِ عَامَّةً
(٣) الزنبيلُ : القُفَّةُ مِنْ جِلْدٍ أو غَيْرِه.
(٤) قَالَ تَعَالَى:(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً {٦١} فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً {٦٢} قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً {٦٣}) الكهف

هو كذلك إن شـــاء الله. ثمّ انطلقا يمشـــيان على ســـاحل البحر، فمرَّت ســـفينة فكلَّمهم أن يحملوهم، فعَرفوا الخضرــ (عليه الســلام) فحملهم بغيرِ عطاءٍ وبقي يوشــع على الســاحل، فلمّا ركبا السفينة قلعَ الخضرُ (عليه السلام) من ألواح السفينة لوحاً بالقَدُّوم فقال موسى (عليه السلام): عجبَاً ما فعلتَ، قومٌ حملونا بغير مقابل فتخرم سفينتهم؟ فقال له: ألَمْ أقل لكَ ألاَّ تسألني، إنّك لن تستطيع معي الصبر. فقال موسى: لا تؤاخذني فقد نَسِيْتُ[1]. فجاء عصفور فوقع على حَرْفِ السفينة فنقرَ في البحر نَقْرَةً، فقال الخَضِرُــ ما عِلْمي وعِلْمُكَ وعِلْمُ الخلائق كلّها في عِلْم الله إلاّ مثل ما نقَّص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بَصُرَ الخَضِرُ بين الغِلْمانِ غلاماً يلعب، فأَخذ رأسَــهُ بيدهِ فاقتلعَهُ فقتَلَهُ، فصَرــخ موسى مُنكِرَاً ما رأى: أقتلتَ نفســاً بغير ذنبٍ أو وَجْهِ حَقٍّ؟ فقال له: ألم أقل لك أنك لن تســـتطيع معي صـــبراً. فقال موسى: إن ســـألتُكَ عن شيء بعدها فلا تصحبني.

ثمّ سارا حتى وَصَلا قرية فطلَبا من أهلها الطعام فلم يعطوهما، فذهَبَا إلى أطرافها فوجدا جداراً يكادُ يَسقطُ، فأقامَهُ الخَضِرُ بيده، فقال موسى عَامِداً: قومٌ أتيناهم فلم يعطونا ولم يضيّفونا فتصلح لهم جداراً، لو أنّك أخذتَ أجراً على هذا لكنّا اشترينا به طعاماً. فقال له الخَضِرُ: هذه ثالثُ مرّةٍ تسألُ دون أن أخبركَ، و سوف يكون فراقٌ بيني وبينك. وقبلها سأخبرك بتفسير ما لم تستطع أن تصبرَ عليه دون سؤالٍ... فَاعْلَمْ أنّي لا أفعلُ شيئاً إلاَّ من وحي الله سبحانه. فأمّا السفينةُ التي رأيتني خرقتُها، فإنّ لهؤلاء الرجال ملك يأخذُ كل ســفينةٍ جيدةٍ غَصْــبَاً، فأَردتُ أن أجعلها ذاتَ عَيْبٍ فيتركها، فإذا جاوزوه أصـلحوها وانتفعوا بها، وأمّا الغلامُ فقد كان كافراً ظالماً، وأبواه مؤمنان فخشـينا أن يحملَهما حبُّهُ على أن يتبعاه على كفره، والله سبحانه سوف يعوّضهما عنه خيراً أولاداً بَرَرَةً مؤمنين، وأمّا الجدار

---

(١) قَالَ تَعَالَى: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْـتَطِيعَ مَعِيَ صَـبْراً {٧٢} قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِـيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً {٧٣}) الكهف

فقد كان لغلامين يتيمين في المدينة، وقد خبّأ والدهما قَبْلَ أن يموتَ كنزاً لهما حتى يكبرا ويسترجعاه، فلو سقطَ الجدارُ لَعَثَر النَّاسُ على الكنز وَضَاعَ على الغلامين. فهذا هو خبر ما لم تستطع أن تصبر عليه. ثمّ أنّ الخَضِر عليه السلام تركه وانصرف عنه[٢].

وقد ورد خبر موسى مع الخَضر عليهما السلام في سورة الكهف من الآية (٦٠) حتى الآية (٨٢)، وورد خبر موسى في أكثر من ســورة، كَسُــورةِ (مَرْيَم)، (القَصَــصُ). كما ورد خبره في التوراة في سِــفْرِ الخروج، رغم أنّ خبره مع الخضر (**عليه السلام**) لم يُذكر كونه يظهر تسرّع موسى وقلّة صبره، وهذا ما يحاول اليهود إخفاءهُ وعدمَ ذِكرهِ.

هذا بعض مِنْ أخبارِ نَبِيّ الله وكَلِيمِه موسى عليه السلام.

والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة على خير المرسلين وآله أجمعين.

---

(٢) قَالَ تَعَالَى:(أَمَّا السَّــفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـــاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً {٧٩) الكهف

١١ - خَبَرُ الخَضِر (عليه السلام)

لقد اختُلِفَ في اسم الخَضِر ونسبتهِ ونبوّته وحياته. حيث يذكر ابن عَسَاكر أنَّ الخَضِر ابنُ آدمَ لِصُلْبِهِ ونُسِئَ له في أجَلِهِ حتى يكذِّبَ الأعورَ الدجَّالَ. ويذكر أبو حاتم السجستاني أنّ الخَضِر (**عليه السلام**) هو: خضرون بن قابيل بن آدم (وهذا كلامٌ موقوفٌ عِنْدَنا كَوْن المصادر جميعها لم تذكر أنَّ قابيل تزوّج وأنجبَ)، ويذكر ابن قتيبة أنّ اسم الخَضِر هو: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

أمّا ابن اسحق فيذكر أنَّ آدم (**عليه السلام**) لمَّا حضرته الوفاة أخبر بَنِيْه أنَّ الطوفان سيقعُ بالنّاس وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسَدهُ معهم في السفينةِ وأن يدفنوه في مكانٍ عيَّنَهُ لهم. فلمّا كان الطوفان حملوه معهم، فلمَّا هبطوا إلى الأرض أمَرَ نوح بَنِيه أن يذهبوا ببدن آدم فيدفنوه حيث أوصاهم، فقالوا: إنَّ الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة. فحرّضهم وحثَّهم على ذلك وقال: إنَّ آدم (**عليه السلام**) دَعَا لِمَنْ يلي دفنه بطول العمر. فلم يزل عندهم جَسَدُهُ حتى كان الخَضِر الذي تولىّ دفنه، وأنجز الله وعده، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيَا.

وقالَ البخاريُّ أنَّ الخَضِرَ ـ لَقَبٌ له لأنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بيضاء فإذا هي تهتزُّ من خلفه خضراء. وكان الخَضِرَ ـ (**عليه السلام**) نبيَّاً أعطاهُ الله سبحانه عِلْماً لم يختصّ به مَنْ قَبْلَه ولاَ مَنْ بعده. ولِمَكَانَتِه وعلمه الذي عَلَّمه إياه الله سبحانه أوحى الله سبحانه لنبيّه موسى (**عليه السلام**) أن يطلبَ الخَضِرَ ليزدادَ علماً. فَصَحَبه وأجرى الله سبحانه على يدي الخَضِرَ من الآيات البيّنات المذكورة في سورة الكهف الآيات من /٦٦/ حتّى /٧٠/. ولمَّا أراد موسى أن يفارق الخَضِرَ قال له: أوصني، فقالَ الخَضِرَ عليه السلام: «كُنْ نفّاعاً ولا تكُن ضرّاراً، كُنْ بشّاً شاً ولا تكنْ غضباناً. اِرجعْ عنِ اللّجاجةِ ولا تمشِ في غير حَاجةٍ، وَلا تضحكْ إلاَّ من عَجَبٍ. يا طالبَ العِلْمِ إنَّ القائلَ أقلُّ ملامةٍ من المستمعِ، فلا

تُملّ جُلَســاءكَ إذا حادثتَهم، واعلمْ أنَّ قَلْبَكَ وعاءٌ فانظرْ ماذا تحشــو بهِ وعاءَكَ، واغرِفْ من الدنيا وانبذْهَا وراءكَ فإنَّما ليســتْ لكَ بدارٍ، ولا لكَ فيها محلُّ قرارٍ. وإنَّما جُعِلَتْ بُلغةً لِلْعِبَادِ والتزوّد منها ليومِ المَعَادِ. وَرُضْ نفسكَ على الصَّـبْرِ تخلصْ من الإثمِ. يا موسى! تفرَّغْ للعلمِ إنْ كُنْتَ تريده فإنَّما العلمُ لمَنْ تفرَّغَ لهُ... يا موسى تعلَّمْ ما تعلَّمْتَ لتعملْ بهِ، ولاَ تعلَّمه لُتحدِّثَ بهِ فيكونُ عليكَ بَوَاره ولغيركَ نوره. واجعلِ الزهدَ والتقوى لباسَك والعلمَ والذِّكرَ كلامَكَ، واستكثرْ منَ الحَسَنَاتِ فإنَّكَ مُصيبٌ السيئاتِ فإنَّ ذلك يُرضي ربَّكَ، واعمل خيراً فإنَّكَ لا بدَّ عاملٌ سوءاً. قد وَعظْتُ إنْ حَفِظْتَ».

وقال أبو نعيم الأصبهاني: «بينما الخَضِرُ يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجلٌ مُكاتبٌ، فقال: تصدّق عليَّ باركَ الله فيكَ. فقالَ الخَضِرُ: آمنتُ باللهِ ما شاءَ الله من أمرٍ يكونُ، ما عندي من شيءٍ أعطيك إيَّاه. فقال المسكينُ: أسألُكَ بوجه الله أمّا تصدّقت عليَّ، فإنِّي نظرتُ إلى السماءِ في وجهكِ ورجوتُ البركةَ عندكَ؟ فقال الخضر هلمّ معي إلى السوق وبعني وانتفع بثمني. فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم. لقد سألتني بأمرٍ عظيمٍ، أما أنّي لا أخيِّبك بوجه ربّي. ثمّ سار أمامه إلى السوق فباعه بأربعمئة درهم. فمكثَ عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيءٍ، فقال له: إنَّكَ ابتعتني التماس خيرٍ عندي فأوصني بعملٍ. قال: أكرهُ أن أشقَّ عليكَ إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ. قال: ليس يشقّ عليَّ. قال: فانقُلْ هذه الحجارة، وكان لا ينقلها دون ستّة أنفارٍ في يومٍ، فخرج الرجلُ لبعض حاجاته ثم انصرف ولمّا عاد بعد ساعةٍ وجدَهُ قد نقل الحجارة. فقال: أحسنتَ وأجملتَ وأطقتَ ما لم أرك تطيقَهُ. ثم عرض للرجل سفرٌ فقال: إني أحسبُك أميناً فاخلفني في أهلي خلافةً حسنةً.

قال: فأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشقَ عليك. قال: ليس تشقّ عليّ. قال: فاضربْ من اللِبْنِ لبيتي حتى أقدِمَ عليكَ. فمضى الرجلُ لسفرِهِ، فرجَعَ وقد شُيِّدَ بناؤه. فقال:أسألكَ بوجه الله ما سبيلك؟ وما أمرك؟ فقال: سألتني بوجه الله، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية، سأخبرك، أنا الخَضِرُ الذي سمعتَ به. سألني مسكينٌ صدَقةً ولم يكنْ معي شيءٌ فأمكنتُهُ من رقبتي فباعني. فقال الرجلُ: آمنتُ بالله، شققتُ عليكَ يا نبيَّ الله ولم أعلمْ، فاطلبْ ما تشاء. فقال: أحبُّ

أن تخلي سـبيلي فأعبد ربّي. فخلّى سـبيله فقال الخَضِرُـ: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجّاني منها...».

ويذكر ابن الجوزي في كتابه (عُجَالةُ المنتظِر في شرح حَال الخَضر):

«كان الخَضِرُـ وإلياس أخوين، وكان أبوهما ملكاً، فقال إلياس لأبيه إنَّ أخي لا رغبة له في المُلْك، فلو أنَّك زوّجته لعلّه يجيء منه ولد يكون الملكُ له. فزوّجه أبوه بامرأةٍ حسناء بِكْرٍ، فقال لها الخَضِرُ: إنِّي لا حاجة لي في النسـاء، فإنْ شـئتِ أطلقتُ سراحك، وإنْ شـئتِ أقمتِ معي تعبدين الله عزَّ وجلَّ وتكتمين عليَّ سرّي؟ فقالت: نعم. وأقامت معه سنة، ثم دعاها الملكُ فقال لها: إنّكِ شابّةٌ وابني شابٌّ فأين الولَدُ؟ فقالت: إنّما الولدُ من عند الله إن شـــاء كان، وإن لم يشـــأ لم يكنْ. فأمره أبوه فطلّقها، وزوّجه بأخرى ثيّباً قد وُلِدَ لها. فلمّا زُفّت إليه قال لها كما قال للتي قبلها، فأجابت إلى الإقامة عنده، فلمّا مضـت السـنةُ سـألها الملكُ عن الولد فقالت: إنَّ ابنَكَ لا حاجة له بالنسـاء. فلمَّا طَلَبَهُ هَرَبَ. ثمّ حَدَثَ أن كانت زوجتُهُ الأولى تعبد الله في بعض النواحي، فمرَّ بها رجلٌ فسـمعتْهُ يقول (بسـم الله) فقالت: أنَّى لكَ هذا الاسم. فقال: إنّي من أصحاب الخَضِر. فتزوّجته فولدت له أولاداً، ثمّ صارت هذه المرأةُ ماشــطة ابنة فرعون التي ذكرها الرســول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الذي رواه ابن عباس عن أُبي بن كعب (أنَّه لمّا أُسْرِيَ به وَجَدَ رائحةً طيّبةً، فقال: يا جبريلُ ما هذه الرائحة الطيّبة؟ فقال: هذه ريحُ قبر الماشـطة وابنتها وزوجها). وكان من خبر ماشـطة ابنة فرعون أنّها بينما هي يوماً تمشّطها إذ وَقَعَ المشط من يدها فقالت (بسم الله)، فقالت ابنة الفرعون: أتعنين أبي؟ فقالت: لا. ربّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ هو الله فأعلمتْ أباها، فأمَرَ بنُقْرَةٍ من نُحاسٍ فأُحْمِيتْ، ثمّ أمر بها فأُلقيت فيها، فلمّا رأتْ ذلك رجَعَتْ إلى الخلف لأنّها كانت تحمل طفلها الصغير، فقال لها ابنها: يا أمّاهْ اصبري فإنَّكِ على الحقِّ، فألقَتْ نفسَها في النار فماتت رحمها الله.

ويذكر ابن عساكر عن سفيان الثوري عن علي بن أبي طالب (كرَّمَ الله وجهه): أنّه بينما كان عليّ بن أبي طالب يدخل ليطوف بالكعبة ليلاً، فإذا برَجُلٍ متعلِّقٍ بأســتار الكعبة وهو يقول: يَا مَنْ لا يشغلُه سَمَعٌ عن سَمَعٍ، ويا مَنْ لا يَغْلِطُهُ

السائلونَ، ويا مَنْ لا يتبرّم بإلحاح المُلِحِّين ولا مسألة السائلينَ. ارزقني بَرْدَ عَفْوِكَ وحلاوةَ رحمتِكَ. فقال له عليّ: يا عبدَ اللهِ أعِدْ دعاءَكَ هذا. قال: أوَقَدْ سـمِعْتَهُ؟ قال: نعم. قال: فادْعُ به في دبر كلّ صلاة، فوالذي نفس الخَضِرُ بيده، لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لَغَفَرَ لكَ أسرع من طرفة عينٍ.

وقد ذُكر أن الله سبحانه مَنَحَ الخَضِرَ عُمراً طويلاً لا يعلمه إلاّ الله، وهو ينتقل في الأرض من مكان لآخر[1] لذلك كثرت المقامات التي تُزارُ باسم الخَضِر، وفي البلدة التي أسكنها مقام لنبي الله الخَضِر عليه السلام يُزار من الناس للتبرّك به.

وهذا ما وَصَلَنَا مِنْ خبرِ نَبِيّ الله الخَضِرُ عليه السلام.

والحمد للهِ ربِّ العَالمين إله الأوّلينَ والآخرينَ، وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



(١) يُعْرَفُ الخَضِرُ لَدَى النَصارَى بالقدّيس جُوْرجيُوس، وَهُوَ الّذي يَقْتُلُ التِّنِّينَ رَمْزَ الدَّجَّالِ الذي سَيْظهَرُ في آخر الأوْقاتِ، وَهُمْ يُصَوِّرُونَهُ على شكْلِ فَارِسٍ فَوْقَ جَوَادِهِ، يَطْعَنُ التِّنِّينَ بِرُمْحِهِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةً خَضْرَاءَ. و الخَضِرُ عند المُوحّدين هُوَ أَوَّلُ الحُدُوْدِ الخَمْسَةِ « العَقْلِ » عليه السَّلاَمُ.

١٢ - خَبَرُ النَّبِيِّ ذي الكَفَلِ (عليه السلام)

زعَم قومٌ أنّه ابن أيّوب حيث ورد ذكره في سـورة الأنبياء[1]، وسـورة ص بعد قصـة أيوّب، وقد ذكر مع الأنبياء فهو نبي الله عليه الصلاة والسلام، رغم أنّ آخرين زعموا أنّه رجلٌ صالحٌ لا نبي.

وكان ذو الكَفِل قد تكفّل بني قومه أن يكفيهم أمرهم من المشـورة والنصـح ويقضيـ بينهم بالعدل لما أمر الله سبحانه وتعالى.

وذكر أبو حاتم السجستاني: لمّا كبر اليسـع جمعَ قومه وقال لهم: سـوف أسـتخلف فيكم رجلاً صالحاً يعمل لكم ويحكم بينكم بالعدل، فَمنْ يقوم بأمورٍ ثلاثةٍ أستخلفُهُ، حيث يصوم النهار، ويقوم الليل ولا يغضـب. فقام ذو الكفل وقال: أنا لما تريد. وكانَ ذو الكفل صـغير الجسـم، فقير الحال بين قومه، فقال له اليسـع: أنت تصـوم النهار وتقوم الليل ولا تغضـب؟ قال نعم: فردّ اليَسْـعُ قومه ليوم آخر، فلمّا جَمَعهم ثانيةً و سأل مثلهم، قام ذو الكفل فقال: أنا. فقال اليسع: لك ذلك. فلمّا كان النهارُ قامَ إبليسُ (لَعَنَهُ اللهُ) وقال لأتباعه: عليكم بذي الكفل، أبعدوه عن غايتِهِ، ولا توصـلوه مقصَـدَهُ. فأعياهم ذلك ولم ينجحوا في ردّه عن صـومهِ وقيامهِ، ولم يفلحوا في إغضـابه. فقال لهم إبليسُ (لَعَنَهُ اللهُ): دعوني وإيّاه. فأتاه في صـورة شـيخٍ كبيرٍ فقيرٍ في وقت قيلولة ذي الكفل التي لا ينام غيرها ليلاً ولا نهاراً يريد من ذلك أن يحرمه القيلولة في النهار ليجعله ينام ليلاً، فدقَّ البَابَ، فقال له: مَنْ هذا؟ فقال شـيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. ففتَحَ له البابَ فدخَلَ، فجعلَ يقصُّ عليه أخباراً وأحاديث كاذبة كثيرة، يريد بذلك أن تمرَّ فترة القيلولة. فلمّا مَضَتْ قال ذو الكفل له: إذا جاء الغدُ

---

(١) قَالَ تَعَالَى: (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ {٤٨}) سورة ص

قَالَ تَعَالَى أيضـاً : (وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّـابِرِينَ {٨٥} وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ) الأنبياء

ورأيتَنِي قد جلســـتُ بين القوم فأتني آخذُ لك بحقّكَ. فذهبَ إبليسُ (لَعَنَهُ اللهُ)، وعندما أخذ ذو الكفل مجلسَـــهُ لم يَأتِهِ فلمّا عاد لبيته ليأخذَ القيلولة. دُقَّ البابُ فقال: مَنْ؟ فقال: الشـــيخُ الكبيرُ المظلومُ. ففتح له، فقال له: ألم أقلْ لكَ أن تأتِني في المجلس لآخذ لكَ حقَّكَ؟ فقال له: إنهّم أخبثُ قومٍ إذا عرفوا أنّك قاعِدٌ، قالوا نعطيك حقَّكَ، وإذا قمْتَ جحدوني. وبقي لعنه الله يماطل في الكلام ويزيد فيه ويعيد حتّى مضـــت القيلولة. كلُّ هذا وذو الكفل لم يَنَمْ ليلتين ونهارين، فقال ذو الكفل: آتني صـــباح غدٍ آخذ لكَ حقّك. وفي اليوم الثالث لم يذهب إبليس (لَعَنَهُ اللهُ) إلى مجلس ذي الكفل وإنمّا انتظر وقت قيلولته، وبعد أن عاد ذو الكفل إلى منزله وقد شقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعَنَّ أحداً يقرب هذا الباب حتّى أنام قيلولتي فإني قد تعبتُ. فلمّا أخذَ مكانه للنوم جاء إبليس (لَعَنَهُ اللهُ) في صـــورة الشـــيخ. فقال له الحاجب: مهلاً لا تدخل عليه. وعندما لم يســـمح له بالدخول غادر، والتفَّ حول البيت ونظر من كوّة في البيت ثمّ دخل منها، فدقَّ الباب من الداخل، فاســـتيقظ ذو الكفل وصـــاح للحاجب: ألَمْ آمرك أن لا تســـمح لأحدٍ بالدخول عليّ؟ فأجابه الحاجب من وراء الباب: أمّا من قبلي فوالله لم يدخل أحد، فانظر من أين دخل. فقام ذو الكفل للباب فوجده مغلقاً من الخارج كما أغلقه، والشيخ معه في البيت، فعرفه فقال: أنت يا عدو الله! فقال: نعم لقد أعييتني في كلّ شيءٍ ففعلتُ ما ترى لأغضبنك. فطَرَدَهُ ولَعَنَهُ، ومن ثمّ تسلَّم ذو الكفل شؤون الناس بعد وفاة اليسع وبما تعهَّد به له وبقي حتّى مات رحمة الله عليه.



١٣ - خَبَرُ النَّبِيِّ دَاودَ (عليه السلام)

هو داود بن إيشار بن عويد بن عابر بن سلمون...... بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل (عليه السلام). ولمّا تمكّن من قتل جالوت زعيم العماليق الفلسطينيين عند مرج الصفر، أحبّه بنوا إسرائيل والتفّوا حوله فخاف طالوت مَلِكُ بني إسرائيل ووالد زوجة داود على ملكه، فحاول الإيقاع به وقتلهِ، لكنّه نجا بأمر الله وحراسته.

وعمل داود في الدروع الحديدية وبرع في صـــناعتها، وكان يعمل كل يوم درعاً ويبيعها بســـتّة آلاف درهم. وقد وهَبهُ الله سـبحانه صـوتاً رخيماً جميلاً، فكان إذا ترنَّمَ بِقِراءة كتابه (الزبور)[1] الذي أنزله الله تعالى عليه في شـــهر رمضـــان وفيه المواعظ والحكم، كان إذا ترنّم يقفُ الطيرُ في الهواء يردّد بترجيع صوته ويسبّح بتسبيحه، وقد أعطاه الله سبحانه مُلكاً عظيماً وحكماً نافذاً[2].

ومما يروى من أخباره أنّ رجلين تداعَيَا إليه في بَقَرٍ ادّعى أحدهما على الآخر أنّه اغتصـــبها منه. فأنكر المدّعى عليه، فأرجأ داود (عليه السلام) أمرهما إلى الليل، فلمّا كان الليلُ أوحى الله سبحانه إليه أن يقتلَ المدّعي، فلمّا أصبح قال لهما: لقد أوحى إليّ أن أقتل المدّعي فيكما، وأنا قاتله لا محالة، فأخبرني بما ادّعيته على هذا الشـــخص. فقال المدّعي: والله يا نبي الله إنّي لمحقّ فيما ادّعيتُ عليه، ولكنّي كنتُ قد قتلتُ والده غدراً قبل مدّة. فأمر داود (عليه السلام) بقتل المدّعي.

ويروي ابن كثير الدمشقي عن ابن جرير عن وهب بن منّبه فيقول: لمّا كَثُرت الشرورُ، وشهاداتُ الزورِ في بني إسرائيل، أُعطي داودُ سلسلةً لفَصْلِ القضاء،

---

(١) قَالَ تَعَالَى:(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّــلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً {٥٥}) سورة الإسرءِ

(٢) قَالَ تَعَالَى:(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ {٢٠}) سورة ص

فكانت ممدودةً من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهبٍ، فإذا تشاجر الرجلان في حقّ فمن كان منهما على حقّ تدلَّتْ السلسلة إليه وأمّا الآخر فلا يستطيع الوصول إليها، فلم تزلْ كذلك حال السلسلة حتّى أودع رجلٌ عند آخر لؤلؤةً، فلمّا طلبها منه أنكرها عليه، فذهَبَ ليقاضيه عند النبي داود (عليه السلام) فأمرَ بذهابهما إلى السلسلة فلمّا عرفَ الجاحدُ المنكرُ للؤلؤةِ الخَبَرَ، عَمَد إلى عكّازٍ جوَّفها وأَوْدَعَ فيها تلك اللؤلؤةَ، فلمَّا حضَرا عند الصخرة تناوَلَ المدّعي السلسلة فأمسكها، فلمَّا قيل للجاحد خذها بيدك، عمد إلى العكَّاز وفيه تلك اللؤلؤة، وقال: اللّهمَّ إنّك تعلم أني دفعتُ اللؤلؤة إليه وكان قد أعطى العكّاز للمدّعي ليمسكها له، ثم تناول السلسلة فنَالها، فاحتار الناسُ بالذي قد حصلَ لأنّ المدّعي والمدّعى عليه تناولا السلسلة فلم يعرفوا الصادق منهما، ثمّ رُفِعَتْ السلسلة من بينهم ولم تعدْ موجودة.

وأمّا خبرُ وفاته رحمةُ الله وصلواته عليه، فقد ذكر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم)قال: كانَ داود عليه السلام فيه غِيْرَةٌ شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلا يدخل على أهله أحد حتّى يرجع. قال فخرج ذات يوم وغُلِّقت الدّارُ، ثمّ أقبلتْ امرأته تطلع فِنَاء الدار فإذا رجلٌ قائم وَسْط الدار. فقالت لِمَنْ في البيت من أين دخل هذا الرجلُ، والدارُ مغلقةٌ؟ والله لنفتضحَنَّ بداود. فجاء داود فإذا الرجلُ لا يزال قائماً وسط الدار، فقال له داود: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا أُمنع من الحجاب. فقال داود: أنتَ والله إذن مَلَكُ الموتِ، مرحباً بأمرِ الله، ثم مكثَ حتّى قُبِضَتْ روحه، فلمّا غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنه طلعت عليه الشمسُ، فقالَ سليمانُ ابنه (عليه السلام) للطير: أظلِّي يا طيْرُ على نبيّ الله داود. فأظلَّتْهُ حتّى أظلمت عليه الأرض. فقال سليمانُ للطيرِ: اقبضي جناحاً. ولمّا حضرَ الناسُ جنازته وكانوا أكثر من أربعين ألف راهب جلسوا في الشمس، نادى سليمان الطيرَ أن تظلّلَ الناس من الشمس لشدّة ما أصابهم من الحرّ، فتراصّ بعضها إلى بعض حتى استمسكتِ الريحُ فكاد الناس أن يهلكوا غمّاً، فصاحوا إلى سليمان فطلب من الطير أن تنتحي عن ناحية الريح، فكانت الناس في الظلّ وتهبّ

عليهم الريح وقد عاش داود مئة سـنة، وحكم خلالها أربعين سـنة. وذُكِرَ داود في آيات القرآن الكريم في أكثر من سورة. فقد جاء في قَولِه تَعَالَى:

((وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْـلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ {١٠} أَنِ اعْمَلْ سَـابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَـالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ{١١})) سورة سَبَأ

وفي قَولِه تَعَالَى:

((فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَه مِمَّا يَشَـاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَـدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{٢٥١})) سورة البقرة

وهذا بَعْضٌ مِنْ أخبارِ نَبِيّ الله دَاوُدَ عليه الصَّلاَةُ السَّلاَمُ.

والحمد للهِ ربِّ العَالَمِيْن في كلِّ دَهْرٍ وَحِين.



١٤ - خَبَرُ النبِيِّ سُليمانَ بن دَاودَ (عليه السلام)

هو نبي الله سـليمان بن داود (**عليه السـلام**)، ورث النبوّة والمُلْك بعد والده داود، وقد كان يَعْرِفُ ما تتخاطب به الطيور بلغتها ويعبّر للناس عن مقاصـــدها وإرادتها بأمر الله[1]. وقد ذُكِرت قصته مع ملكةِ سَبَأَ بلقيسَ في القرآن الكريم في سورة النمل. ويذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أنّ الطيور كان رأس كل منها مقدَّمون، يُقدِمون بما يطلب منهم، ويحضـرـــون عنده بالتناوب، وأمّا الهدهد فقد كانت وظيفته أن يفتّش عن الماء في بقاع الأرض، إذا احتاجوا للماء في القفار والصحارى وكان للهدهد قوة أن ينظر إلى باطن الأرض، فإذا دلّهم عليه حفروا عنه فيجدونه.

وحصـل ذات يوم أن طلب سـليمان الهدهد فلم يجده ولم يحضرـ عنده، فتوعده بعذاب إذا لم يعطِه حجّة تنجيه من هذه الورطة. وقد غاب الهدهد غيبة قصيرة فلما قَدِمَ قال لسُليمان:

إنّي اطَّلَعْتُ على ما لم تَطّلِعْ عليه، وقد جئتُكَ بخبرٍ صـــادِقٍ عن امرأةٍ تحكم ببلاد اليمن وهي بلقيس بنت الـسيرح الهدهاد. ويقال أن والدها تزوج بامرأةٍ من الجن[2] فأنجب بلقيس، وهذه المرأة تحكم البلاد ولها عرش عظيم مزخرف بالجواهر واللآلئ والذهب وكل ما يُبهر العينَ من الحُلِيّ. وقومها كفّار يعبدون الشـــمس من دون الله، فأرســـل ســـليمان كتابه إلى بلقيس يدعوها وقومها إلى طاعة الله وطاعة رســـوله ونبيّه والخضـــوع لملكه وســـلطانه، وأن يقبلوا عليه ســـامعين طائعين دون معاندة أو مراودة.

---

(١) قَالَ تَعَالَى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ {١٦}) سورة النمل

(٢) يُقالُ أنّ المرأةَ التي تزوّجَها والدُ بلقيس هي مِنَ الجِنْ واسمُها ريحانة بنت السّكن .

فلمّا حمل الطير الكتاب لها، ودخل قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها، ووقف ناحيةً قصّيةً ينتظر ما يكون من جوابها. فقامت وجمعت وزراءها وأكابر دولتها للتشاور معهم[1]، فأخذت الكتاب وقرأت عليهم أنّه من سليمان بن داود، وأنّه بسم الله الرحمن الرحيم، وقرأتْ ما فيه، وأنّهم عليهم أن يأتوه طائعين خاضعين لسلطانه. فشاورتهم في الأمر وتأدّبتْ معهم في الخطاب وهم سامعون. فأجابها بعضهم: نحن لنا من القدرة والقوّة على القتال والجلاد فإذا أردت منّا ذلك نحن نقدر عليه. وفوضوا الأمر إليها لتختار ما فيه صالحهم وصالحها.

وقد علمت أنّ سليمان مَلِكٌ قوي لا يُغَالَب ولا يُمانَع ولا يُخالَف، وأنَّه لو غَلَبَ على هذه المملكة لم يخلص الأمرُ إلاَّ للمصيبة والشدّة. لذلك أرسلت هديةً إلى سليمان من أثمن وأجمل جواهرها، تريد بذلك أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها وتضمن بقاءهم سالمين مع الحفاظ على دينها ودينهم الفاسد، ولم تعلم أنّ سليمان لا يقبل منهم هدية وهم على كفرهم ماضون، وأنّه قادر بجنوده الذين وَهَبَهُ الله إياهم أن يتغلَّبَ عليها وعلى جنودها. فلمَّا وصل رسول بلقيس إلى سليمان مع الهدايا النفيسة قال له بحضور الناس: ارجع بهديتك التي قَدِمْتَ بها، فإنّ عندي ممَّا قد أنعم الله عليَّ، وأسداه إليَّ من الأموال والتحف والذهب والرجال، ما هو أضعاف هذا، وخيرٌ ممّا تفخرون به. وإنّي سأبعث إليكم بجنودٍ لا تستطيعون دفاعهم ولا نزالهم، ولأخرجنَّكم من بلدكم أذلَّةً صاغرين.

فلما عاد الرسول إلى بلقيس بما كان، بادرت وقومها إلى السمع والطاعة حيث أقبلت بلقيس مع بعض حاشيتها إلى سليمان. وبينما هي في الطريق طلب سليمان (**عليه السلام**) من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس. فقال أحد الجان: إنّي أحضره لك قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان المجلس يبدأ أول النهار وينقضي عند

(١) : قَالَ تَعَالَى: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ {٣٢} قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ {٣٣} قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {٣٤}) سورة النحل

الغروب. وقال آخر وكان ذا قوّةٍ وعزيمةٍ من الجان المؤمنين: إني آتيكَ به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك[1].

فلمّا أُحضِرَ العرش حمد ربّه وقال: هذا من فضل ربّي عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو الكفر. فأمر أن يُغيَّر حلي العرش ويُنكرَ لها بصفاته ليختبر فهمها وعقلها. فلمّا وصلت قال سليمان لها: أهكذا عرشك؟ فقالت كأنّه هو. لأنّها استبعدت أن يُجلَبَ لها عرشها من اليمن بهذه السرعة وقد تركته خلفها على غير هذه الصورة. ولأنّها كانت كافرة بالله عابدة للشمس لم تصدّق أنّه عرشها.

وكان سليمان قد أمرَ الجنّ قبل وصول بلقيس ببناء صَرْحٍ من الزجاج وجعل في ممّرهِ ماءً ووضع فوقَه زجاجاً، ووضع فيه السمك ومخلوقات البحر، فلمّا دخلتْ بلقيسُ الصَّرحَ، وسليمانُ جالسٌ على سريره كشفت عن ساقيها إذ حسبتْ أنّ عليها أن تسيرَ في الماء.

وقد قيل:أنّ الجنَّ زاد في تلك الصنعة لأنّهم أرادوا أن يبشِّعوا منظرها عند سليمان وأن تُبدي ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفّره ذلك منها، وقد خشوا أن يتزوّجها لأنّ أمّها من الجِنّ فتُسلَّطُ عليهم معه.

ويذكر الثعلبي أن سليمان لمّا عَزَمَ على تزوّجها سأل الإنس عن إزالة الشعر فذكروا له الموس، فامتنعت بلقيس عن ذلك، فسأل الجِنَّ فصنعوا له النُّوْرة[2]، ووضعوا له الحمّام، فكان سليمان أول من دَخَلَ الحمّام. ثمّ أن بلقيس آمنَتْ بالله وتركت عبادة الشمس، فأقرّها سليمان على اليمن وردّها إليه، وكان يزورها مرّة كلّ شهر، فيقيم عندها ثلاثة أيّام ثمّ يعود على بساط الريح، وأمر الجان أن تبني

---

(١) يقصدُ قبلَ أن يرجعَ إليكَ طرفُكَ إذا نظرتَ به إلى أبعدِ غايةٍ منكَ ثُمَّ أغمضتَهُ . قَالَ تَعَالَى: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ {٣٩} قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ {٤٠}) النمل

(٢) النُّوْرَةُ : أخلاطٌ من أملاحِ الكالسيوم والباريوم تُستعمل لإزالَةِ الشَّعْرِ.

لها ثلاثة قصـــور باليمن فبنوا لها قصرـــ غمدان وســـالحين وبيتون والله أعلم. وقد دام حكم سـليمان (عليه السـلام) عشرـين سـنة[1]، وعاش خمسـين سـنة ونيّفاً، ويُذكر أنه لمّا كان يُصـلّي كانت الأشجار تنبتُ بين يديه فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرةُ كذا. فإذا كانت لغرْسٍ غرسَهَا وإن كانت لدواء تنبتُ. حتى نبَتتْ شـــجرة يقال لها الخَرُّوبَة. فلمّا ســألها قالت: أنا الخرُّوبة. فقال: لأيّ شيءٍ نبتِّ؟ فقالت: لخراب هذا المسجد. فقال: ما كان الله سبحانه ليخرّبه وأنا حيّ. أنت التي على وجهك يكون هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها، وصــنع منها عصــاً يتوكّأ عليها وقال: اللهمَّ عَمِّ على الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنّ الجنَّ لا يعلمون الغيب.

ثم طلب من الجنّ أن يبنوا له صرحاً من زجاج ليس له باب. فصُـنِعَ له وقام يصـلّي داخله، ولم يكن يريد بذلك الصّرـــح الفرار من الموت وإنّما ليبقى بعيداً عن الجنّ. وبينما هو يصــلي متّكئاً على عصـاه من شـجرة الخرّوب دخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصـاه. فمات والجنُّ تنظرُ إليه من خارج الصرـح وتحسـبه حيّاً، ثمّ بعثَ الله سـبحانه (الأرضـةَ) دابةَ الأرضِ إلى عصــاه فصارت تأكلها، حتى إذا أكلتْ جوفها ضعفت العصا وثقل عليها فسقط سليمان (**عليه السلام**) فلمّا رأى الناسُ والجنُّ ذلك حَسَـبُوا كم بقيت الأرضـة تأكل العصـا فوجدوه سـنة، فعلم الناسُ أنّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ وإلاّ لما مكثوا سنة يعملون ويتحمّلون العذاب وهو ميّت رحمةُ الله عليه.

قَالَ تَعَالَى: ((فَلَمَّا قَضَــيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَـــأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)) (سَبَأ)

وهذا بَعْضٌ مِنْ أخبارِ نَبِيّ الله سليمانَ بن دَاوُدَ عليه الصَّلاَةُ السَّلاَمُ.

---

(١) يقولُ اسحقُ بن بِشْر عن محمد بن اسحق الزهزي أنّ مُلْكَ سليمان كانَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً وأنَّه عاش خمساً وستين عاماً.

١٥ - خَبَرُ النبِيِّ يَحْيى (يُوْحَنَّا المَعْمَدَان) (عليه السلام)

هو نبي الله يحيى بن زكريا النبي صـلواتُ الله عليهما، وقد أعطى الله سـبحانه وتعالى زكريّا ابنه يحيى بعد تقدّمه وزوجته في السـنّ كمعجزة من معجزات الله سـبحانه وتعالى. وأُعطيَ النبي يحيى النبوّة وهو ابن ثلاث سـنين، وكان تامَّ الخُلْقَةِ، حَسَـنَ الصـورةِ، قليل الشـعر، مقرون الحاجبين خصَّه الله تعالى بالنبوّة والورع والخوف من الله، والزهد في الدنيا، وقد هام في حبّ الله طوال عمره، ولم يكن لعبادتهِ وزهده بيتٌ، وما ضحكَ قطٌ إلاّ مبتسماً، ولباسُه كان وبر الإبل، ومنطقُه جِلْدٌ.

وكان إذا صـلّى يبكي معه المَدَرُ[1] والشـجرُ، ويبكي والده لبكائه حتّى يُغشى عليه، ولم يزلْ يبكي حتّى قَطَرَ الدم من حدقتيه مرّتين. فقال له أبوه مرّةً، يا بُنيّ لقد سألتُ الله أن يهبكَ لي قرّةَ عينٍ، فما هذا البكاء الذي أنتَ عليه؟

فقال يحيى: إنّي قد سـمعتُ جبرائيل (**عليه السـلام**) يقول: إنّ بين الجنّة والنّار مَفَازَةً[2] لا يقطعها إلاّ كلُّ مَنْ بكى خوفاً من الله. فَقال له أبوه: إبكِ يا يحيى ما شـئتَ امتثالاً لما أُمِرْتَ به. فلم يزل يبكي بالخشـوع والتواضـع إلى أن أَذِنَ القديرُ السـميعُ. وقيل عَنه أنّه لبس المُسُـوحَ حتى ترك جلُدهُ التنعّم بلَيِّنِ الثياب، فسـألتْه أُمُّهُ أنْ يلبس جُبّةً من الصـوف بَدَل المِسْـح، ففَعَلَ فأوحى الله سـبحانه إليه: أن يا يحيى قد آثرتَ الدنيا عَلَيَّ. فبكى ونزع ما كان عليه من الصـوف ولبس المِسْـحَ من الوَبَرِ الخَشِنِ.

وقيل عنه أنه لمّا بلغ سـتّ سـنين من عمره كان يبكي مخافة الله سـبحانه فيمّر به الصـبيان فيقولون له: يا يحيى هَلُمَّ نلعب!

---

(١) المَدرُ : قِطَعُ مِنَ الطِّيْنِ اليَابِسِ المُتَماسِكِ.
(٢) المَفَازَةُ: المَمَرُّ الضيّقُ بينَ جَبَلَين.

فيقول: ما خَلَقَنَا الله سبحانه للَّعب، وإنّما للعبادة والطاعة. ثمّ ينفردُ عن الأولاد ما شاء له الله ويتابع بكاءه، فقيل في خبره هذا عدّة أبيات تقول:

يَحِقُّ لِعَيْنِيْ تَذْرِفَ الدَّمْعَ مُذْ صَدَرْ ... حَدِيْثٌ رُوِيَ عَنْ سَيِّدِ الخَلْقِ والبَشَرْ

فَكَانَ إِذَا صَلَّى بَكَى وَعِنْدَ سُجُوْدِهِ ... يَبْكِي مَعَهُ الدَّوْحُ وَالمَدَرْ

وَيَبْكِي زَكَرِيَّا لأَجْلِ بُكَائِهِ ... وَقِيلَ شَوَاظُ[1] العَيْنِ فِي خدِّهِ حَفَرْ

وَقَالَ أبوهُ: قَدْ سَأَلْتُ اللهِ خَالِقي ... يَهَبْكَ لِي يَا قُرَّةَ العَيْنِ وَالبَصَرْ

بُنَيَّ مَا هَذَا البُكَا؟ فَأَجَابَهُ: ... حَدِيْثٌ أَتَانِي عَنْ جِبْرِيلَ فِي الخَبَرْ

مِنَ اللهِ لَمَّا أَبْدَعَ الخَلْقَ أوّلاً ... خَلَقَ جَنَّةً تُدْعى، وَمِنْ بَعْدِهَا سَقَرْ

وأخبرني أيضاً أَنْ ثَمَّ مَفَازَةً ... بَيْنَهُمَا تَعْلُوْ عَلى كُلِّ مَنْ كَفَرْ

فَلاَ تُقْطَعُ إلاَّ لِمَنْ كَانَ بَاكِيَاً ... وَلاَ يُسْكَنُ الفُرْدُوْسُ إلاّ لِمَنْ شَكَرْ

فَيَا أَبَتي دَعْنِي وَاتْرُكْ مَقَالَتي ... وَابكِ بُكا مَنْ كَانَ عَلى الخَوْفِ والحَذَرْ

و قيل عنه أيضاً: أنّ أمّه دخلتْ عليه يوماً وهو يبكي، فقالت له: قد سألتُ الله أن يهبْكَ لي، فما هذا البكاء وأنتَ ما تزال صغيراً؟

فقال: يا أمّاه! كم رأيتُ من كبشٍ ونعجةٍ عند المرعى، وكم من خروف يُذْبَحُ عند السوق، لم يرحم الموتُ صغيراً. قومي وألبسيني مِسْحَاً من وَبَر، وأعطيني رغيفين من شعير حتّى أخرجَ إلى عُبَّاد بيت المقدِس ليعلّموني العبادة، وشدّي وسطي بحَبْلٍ من جِلْدٍ. فقامت وفعلتْ ما قاله لها، ثم قالت له: يا ولدي! ومتى تأتيني؟

---

(١) الشواظُ : اللهبُ الذي لا دخانَ فيه، والمقصودُ هنا الدموعُ السَّاخِنَةُ الحَرارةِ الجوفِ من الخوفِ والحُبِّ.

فقال: أقضي أسبوعي معهم وآتي كل يوم جمعة. فسار إلى أن وصل بيت المقدس، فدخل على العُبّاد وقال لهم: السلام عليكم يا أهل بيت المقدس! هل تحتاجون إلى غلامٍ يخدمكم وتعلّمونه العبادة؟

فتعجّبوا من أدبهِ وحُسْنِ حديثه، وقالوا: أهلاً بكَ، ادخلْ وابقَ معنا. فدخل، ولمّا أتى الليلُ قاموا يعبدونَ الله، ثمّ نامُوا في مضاجعهم وبقيَ هو طوال الليل يسجد ويبكي، فلمّا أصبحوا تعجّبوا من كثرة بكائه واجتهاده بالصلاة والعبادة فقالوا له: يا يحيى! إن الله عزّ وجلّ قد علّمك العبادة ولم يحوجك إلى أحد من البشر. فأقام عندهم مدّة يصّلي ويبكي ويقوم الليل، فاشتاق زكريّا إلى ولده، فخرج ليزور العُبّاد ويرى ولده، فلمّا وصل بيت المقدس، سلّم عليهم ودخل، فقالوا له: يا زكريّا، يا نبيَّ الله نرجو أن تطلع المنبر وتعلّمنا ممّا علّمَكَ الله. فقال: أخاف أن يكون ولدي يحيى بينكم فيسمعُ ما أقول، فإذا سمع قد يزداد بكاؤه ويفارق الدنيا. فقالوا: إنّ يحيى يخرج كل يوم جمعة لزيارة أمّه، فعندما يخرج اطلع على المنبر وعلِّمنا.

فعلم يحيى بخبر والده، فخرج إلى البريّة ولبس ثياب راعٍ وتنكّر في حاله، ورجع إلى وسط العُبّاد والناس المحتشدين لسماع زكريا ولم يشعر به أحد. فقال زكرياً: إيّاكم أن يكون ولدي يحيى بينكم.

فقالوا: لقد خرج اليوم لزيارة أمّه ولن يعود قبل صباح الغد. فبدأ زكريا يَعِظُ الناسَ فقال: إنَّ جهنم واد من نار يقال له وادي النيرانَ، وفيها جبل يقال له جبل السكران، وفيها جُبٌّ يقال له جُبّ الأحزان. فلمّا سمع يحيى هذا الكلام ثار حزنه وبكاؤه، وقال: قتلتني يا أبتِ! يا ويلتاه من وادي النيران وجبل السكران وجُبّ الأحزان. وخرج راكضاً هارباً إلى البريّة.

فقال زكريا: سامحكم الله، لقد قتلتم ولدي يحيى، ثم رجع زكريا إلى بلده، فلمّا طرق الباب قالت أم يحيى: ولدي! ما أمهلك إلى هذا الوقت؟ فلمّا انفتح الباب قال لها زكريا: جزاكِ لله بولدك خيراً. فقالت له: ما الذي أصابه؟ فقال لها: سمع بذكر ربّه فخرج هارباً إلى الله، ولا أدري أين ذهب؟

فقالت: لن يهنأ لي بعد ولدي عيشٌ. وخرجت تبحث عنه في البراري، ذلك اليوم وغيره فلم تجده، وفي اليوم الثالث مرَّت براعي غنم وهو يبكي بكاءً عظيماً، فقالت: أيّها الراعي لماذا بكاؤك؟ فقال: إنّ في هذا الوادي مغارة فيها غلام يبكي نهاره، ولمّا يظلم الليل وتظهر النجوم ينادي بأعلى صــوته: يا ويلتاه من وادي النيران وجَبَلِ السَــكَران، وجُبّ الأحزان، ويجعل يبكي بكاءً عظيماً، فكيف أسمعه ولا أبكي؟! ومعه تبكي الأغنام والأشجار. فقالت: هذا والله ولدي يحيى.

فمكثت إلى أن أظلم الليل، وبانتِ النجوم، وإذ بصــوتٍ خفيٍّ لا يكاد يُفْهم لكثرة بكائه والجوعِ والســـهرِ والعطشِ، فَدَنَتْ منه، فلمّا رآها ولّى هارباً، فقالت له: يا ولدي! يا قرّة عيني قِفْ حتّى أحدّثَكَ. فقالَ لها: أخافُ أن تشغليني عن عبادةِ ربّي. فأقسَمتْ عليه ثانيةً. فقال لها: إنَّكِ لن تقدري أن تخلِّصيني من عذاب الآخرة، و سؤال منكر ونكير. فأقسمتْ عليه بحقِّ اللبن الذي أرضعتْهُ إيّاه أن يقف حتّى تحدّثه. فإذا بهاتفٍ يقول: يا يحيى إنَّكَ أوّلُ من يجوزُ على الصراط ويدخل الجنّة. فمكث إلى أن وصلتْ أمّه إليه ورجع معها. ولم يزل يبكي حتّى حفرَتْ دموعه في خدودهِ سَوَاقياً.

ويذكر ابن جرير عن النبي يحيى (عليه السلام) وهو في حال الطفولية فيقول: إنَّ أمَّه قالت له: يا ولدي هل لك أن تقعد عند المعلّم حتى يعلّمك ممّا علّمه الله تعالى؟ فقال: نعم. ولم يكن محتاجاً إلى التعليم لأنّ الله ســبحانه علّمه القراءة والكتابة وحفّظهُ الكتبَ المقدَّســةَ، ولكن قصــد القعود عند المعلّم ليظهر آيات الله على يديه أمام الناس، فجاءت أمُّه إلى المعلّم وقالت: أريدكَ أن تعلِّم ولدي ممّا علَّمكَ الله تعالى. فقال لها: مازال ولدكِ صــغيراً ولن يتعلّم شــيئاً. فقالت: دَعْهُ مع الصبيان يتعلّم على مَهْلِهِ.

فأجابها المعلم إلى طلبها، وأجلســـه قريباً منه، وقالَ يا فتى قُلْ (بســـم الله الرحمن الرحيم). فقالها بســهولة وطلاقة ودقّة ورشــاقة، فتعجّب المعلّم من فصــاحتِهِ وحُسْــنِ منطقِهِ. ثمّ قال له: قُلْ (أبجد). فقال الغلام: وما تفســـير أبجد؟ فنظر إليه المعلّم ثمّ قال له: قُلْ (هوّز). فقال: وما تفســـير هوّز ؟ فقال المعلّم: جعل الله يومنا إلى

خير. ثمّ قال له: قُلْ (حُطّي). فقال: وما تفسيرها؟ فقال المعلم: ليت شعري ومن دَلَّكَ علينا يا فتى؟ ثمّ قال له: قُلْ (سعفص)، فقال: وما تفسيرها؟ فقال: قل (قَرَشَتْ) فقال: وما تفسيرها؟ فقامَ المعلّم وأراد أن يضربه، فأخذ القضيب من يديه وضحك وقال له: أيّها المعلّم لا تعجل فإنّ الله كريمٌ حليمٌ لا يعجلُ على عَبْدٍ عَصَاهُ. فقال المعلّمُ: يا غلامُ لقد أعجزتني. مضى لي سبع سنين وأنا أعلّم في هذه الكُتبِ، وما سألني أحدٌ مثلكَ. فقال له: يا معلّمي أوَتريدُ أن أفَسِّرَ لك هذه الكلمات؟ فقال المعلّم: أتعرفها؟! فقال: نعم أعرفها، وأعرف غيرها الكثير، واللهُ أعلمُ عارفٍ بهم خيراً. فقال المعلّمُ فَرِحَاً: طوبى لبطنٍ حملك وثديٍ أرضعكَ. فقال يحيى (عليه السلام): يا معلّمُ أتأذنُ لي؟ فقال: قلْ ما شئتَ. فقال: إنّ المتعلّم لا يكون أعلى من المعلّم، فإن أردتَ أن أعلّمكَ فانزِلْ عن الكرسي حتّى أجلس عليها، وتجلسُ موضعي وبين يديَّ. فقال المعلّم: السمعُ والطّاعة. ثم نزلَ عن الكرسي وجلس الغلام مكانه، وناولَ المعلمُ الغلامَ القضيبَ بيده، والصبيانُ ينظرون إليه مندهشين متعجّبين.

ثمّ قال يحيى (عليه السلام): لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم وحوّاء وأ سكنهما الجنّة، ثمّ عصَيَا ربَّهما فغضب عليهما، فهبطا إلى الأرضِ فتلقّى آدمَ مِنْ ربّه كلماتٍ فتابَ عليه، إنّه هو التوّابُ الرحيم.

فقال المعلّم: أوَتدري معنى الكلمات؟! فقال: نعم. إنّ الله عزَّ وجلَّ لمّا خلق آدم وحوّاء، ثم عصياه، وفي الهبوط قال آدَمُ: ربَّنا إن لم ترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين. فلمّا هبط، رَفَعَ طَرْفَهُ وقال: لا إله إلاّ أنتَ سبحانكَ، تُبْتُ إليكَ، وأنتَ التّواب الرحيم. فقال المعلّمُ: حبيبي! فما تفسيرُ أبجد؟ فقال: أمّا الألف ـ أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأمّا الباء - فبهاء الله، وأمّا الجيم ـ فجلال الله، وأمّا الدالُ ـ فهو دينٌ زكي يخرجُ من تهامة، وصاحبه ينتهي اسمه بدَالٍ، وهو أعظم الأنبياء مكانة عليهم السلام، وهو آخرهم في الأمم. فقال المعلّم: وما تفسير هوّز؟ فقال: معنى الهاء ـ إلهاء من كفر بالله. والواو - وَيْلٌ لأهل النار، والزاي ـ زلَّ من كَفَرَ بالله وَجَحَدَ ما أنزل اللهُ. وأمّا حُطّي ـ فحطَّ اللهُ الخطايا عن التائبين لوجه الله، المخلصين له في الدين. وأمّا سعفص - فصَاعٌ بصَاعٍ كما تُدِيْنُ تُدَانُ. وأمّا قَرَشَتْ - فهو جبل محيط بالدنيا.

فوثب المعلّم وقَبَّلَ يَدَيْ الغلام وقال: أشـهد أنكَ نبيٌّ ورسـولٌ صـادقٌ. ثمّ بعد ذلك جاءت أمّه عند العصر لتأخذ ولدها، فوجدته جالساً على الكرسي، والمعلّمُ بين يديه. فقالت: يا بنيّ لِمَ لا تتأدّب مع معلّمك؟ فقال لها المعلّمُ: إنّ ابنك هذا أعلمُ منّي وله عند الله شـأنٌ عظيم فحاذري عليه الكفار الجاحدين.

فأخذتْ ولدها وهي فرحة مسرورة بما سـمعت من كلام المعلّم. ثمّ وبعد أيّام قلائل أخذتْ ولدها إلى المدينة، فمرّت على صبَّاغ، فأعجبها صِبَاغُهُ، فقالت لابنها: يا بُنيَّ هل لكَ أن تقيمَ عند هذا الصَّباغ كي تتعلَّم منه حرفته؟ فقال: نعم. فتقدّمتْ أمّه إلى الصبَّاغ فقالت له: هل لك أن تعلِّم ولدي صنعتَك؟ فقال: حُبّاً وكَرَامَةً، هذا الغلامُ صبيح الوجه، ولن يأتينا منه إلاّ الخير إن شـاءَ الله. فتركَتْهُ ومضَـتْ، ثمّ إنّ الصـبَّاغَ بعد فترة هَمَّ أن يذهب لِبعضِ شـأنِهِ، فقال للغلام: اجعلْ نظرَكَ على ثياب الناس، ولا تقوم بالصباغة حتى أعود. فلمّا راحَ الصبَّاغ، جَمَعَ يحيى (**عليه السلام**) كلّ ما كان في الدكان من الثياب ووضعهم في الخابية الزرقاء،فلمّا رجعَ الصبَّاغ ونظر للثياب رآها كلَها زرقاء، فصَرَخَ وصـارَ يلطمُ على وجهه، وقال للغلام: ومَنْ أشـار عليك بهذا، ثم صَـاحَ بالناس: انظروا ما فعل هذا الغلام، وما أفسده عليَّ، وما أدري ما يكون عملي بعدها مع النّاس؟

فأقبَلَ الناس عليه وقالوا له: يا غلامُ من أشـار عليك بهذا؟ فلم يَرُدْ جواباً عليهم، فبينما هم بذلك الحال إذ أقبلَتْ أمّه فرأَتْ الناس يتزاحمون على دكّان الصـبَّاغ، فسـألتْ عن الخبر فقيل لها إنّ الغلام أفسـدَ ما كان عند الصـبَّاغ من الثياب. فقالت لولدها: يا ولدي! لِمَ فعلتَ ذلك؟ فقال: يا أمّاهُ هذا الصبَّاغُ لا يعرف كيف يصبغ الثياب، وأنا أصبغُ أحسنَ منه.

فضحكَ الصبَّاغُ وقال: يا قومُ أمَا تسمعونَ هذا الغلامَ، قد أفسَدَ ثيابَ النَّاسِ وهو يدّعي الصنعة فقال يحيى (**عليه السلام**): يا قومُ، وَيَا معلِّمَ الصنعة! لا تحزن ولا تندم. نادِ الناسَ في المدينة وقُلْ: مَنْ كانَ له ثيابٌ عندي فَلْيَأْتِ كي يأخذها فإني مسـافرٌ. ففَعَلَ الصـبَّاغُ ما قال الفتى. فأقبلَ الناسُ من كلِّ جانبٍ مسرعينَ، فلمَّا تكاملوا، قام يحيى (**عليه السلام**) وقال: مَنْ له علامة في ثوبه يذكرها، وأنا أعطيه ثوبَهُ على أيّ لَوْنٍ

أرادَهُ. فعند ذلك تطاولت الأعناقُ وشخَصتْ نحوَهُ الأحداقُ، ثم قامَ إليه رجلٌ وقال: يا غلامُ أريدُ أن يكون ثوبي أصفر، فتناوله يحيى ووضعه في الخابية الزرقاء.فقال له الصبَّاغُ: يا غلامُ! ليست هذه الخابية الصفراء، وإنما الزرقاء فلم يجبْ، وإنّما أخرجَهُ أصفر اللون أحسنَ ما يكون، وناوله لصاحبه فتعجّب الجميعُ، ثمّ تقدّم آخر فقال: أريد ثوبي أخضر، فَتَناوله ثمَّ وضعهُ في الخابية الزرقاء فطلَعَ الثوبُ أخضرـ مشرق اللون، فناوله لصاحبه، فازداد تعجّب الناس، ولم يزل هكذا حتى لم يبقَ عندهُ إلاَّ ثوبٌ واحدٌ ليهوديةٍ، فقالت: يا غلامُ! أريدُ أن يكون ثوبي أصفر فوضعه في الخابية الزرقاء، ودَفَعَهُ إليها أصفر. فقالت: أريده أحمر، فتناوله ووضعه في الزرقاء وأعاده أحمَر أحسَنَ ما يكون ثم جعلت اليهودية الملعونة تطلب منه لوناً بعد لون، وهو يفعلُ ما تقوله أمام الناس جميعاً. فلمّا أعياها ردّه إلى الخابية الزرقاء وأخرجه أبيضَ ناصعاً. فقالت: أشهدُ أنَّكَ ساحرٌ كذّابٌ. فقال لها: بل أنتِ عليكِ ألفُ لعنةٍ، إنَّكِ من اليهود، ملعونة الآباء والجدود. وقيل أنَّه آمَنَ بهِ وبنبوَّتِهِ في ذلك اليوم ألفٌ وخمسمئة شخص.

وكانَ النبي يحيى (**عليه السلام**) أكبر من يسوع المسيح عليه السلام سِنّاً فسألوه يوماً عن نفسه إن كان المسيحَ المنتظرَ أم لا؟ فقال: لستُ مستحقّاً أن أحلَّ سيور حذائه. ثمّ صار يعمّدُ الناسَ بنهر الأردّنِ وعندما تعمّد المسيحُ (**عليه السلام**) على يديهِ كان عمره ثلاثين سنة. وكانَ للنبي يحيى عليه السلام معجزات أخرى ظهرتْ على يديه بأمر الله عزَّ وجلَّ. وأمّا وفاته رحمةُ الله عليه وصلواتُه فقد أمر أحد الملوك بقطع رأسه[1] استجابة لطلب فتاةٍ تكره النبي يحيى لأنّه لم يوافقها إلى ما تريد.

(١): المَلَكُ هَو هيرودس الذي كانَ قد أمسكَ يوحنا المعمدان (ﷺ)، ولمّا أراد أن يقتلَهُ خافَ منَ الشعبِ، لذلك لمّا صارَ وقتُ مولدِ هيرودس، رقصت شالوما ابنة هيروديا زوجة أخيه، فسرَّ وقالَ لها أطلبي ما تريدين، فطلبت رأس يوحنا بناءً على تعليمات أمها لأسبابٍ دنيئةٍ، حَيثُ قُطِعَ رأسه وَوُضِعَ في إناءٍ، وقد اِستمرَّ دمُهُ يفورُ حَتّى قُتِلَ بدمه خَلْقٌ كُفّارٌ كثيرونَ، ثُمَّ وُضِعَ رأسُهُ في صندوقٍ ذهبي ودُفِنَ مع جسدِهِ وَبُنِيَ فوقَهُ كَنيسةٌ ثُمَّ تحولت الكَنيسَةُ إلى الجامعِ الأموي في عصرِ بني أميةَ، وما زالَ ضريحه الشريفُ يُزَارُ داخلَ الجامع حَتَّى يومنا هذا.

وقد ورد ذكر النبي يحيى ووالده زكريا عليهما السلام حيثُ قَالَ تَعَالَى:

((فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{٣٩} قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {٤٠})) سورة آل عمران

وفي قَولِه تَعَالَى: ((يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً {٧} قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً {٨} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً {٩})) سورة مريم

وكذلك ورد ذكر النبي يحيى بن زكريا عليه السـلام (يوحنا المعمدان) في الإنجيل المقدّس، حيث جاء في الإصحاح الثالث من إنجيل (مَتَّى):

((حِيْنَئِذٍ جَاءَ يَسُوْعُ مِنَ الجَلِيْلِ إلى الأُرْدُنِّ إلى يُوْحَنَّا ليَعْتَمدَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ يُوْحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً أَنَا مُحْتَاجٌ أنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ وَأَنْتَ تأْتِي إِلَيَّ. فَأَجَابَ يَسُوْعُ وَقَالَ لَهُ اِسْمَحِ الآنَ. لأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نُكْمِلَ كُلَّ بِرٍّ. حِيْنَئِذٍ سَمَحَ لَهُ)).

وجاء في إنجيل(مَتَّى) الإصحاح١٧:

((وَسَأَلَهُ تَلاَمِيْذُهُ قَائلِيْنَ فَلِمَاذَا يَقُولُ الكَتَبَةُ أَنَّ إِيْلِيَا يَنْبَغي أَنْ يَأْتِي أَوّلاً فَأَجَابَ يَسُوْعُ وَقَالَ لَهُمْ إِنَّ إِيليَا يَأْتِي أَوَلاً وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ وَلَكِنِّي أَقُوْلُ لَكُمْ إِنَّ إِيْلِيَا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوْهُ بَلْ عَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوْا. كَذَلِكَ ابْنُ الإنْسَانِ أَيْضاً سَوْفَ يَتَأَلَّمُ مِنْهُمْ. حِيْنَئِذٍ فَهِمَ التَّلاَمِيْذُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ عَنْ يُوْحَنَّا المَعْمَدان)).

وهذا ما انتهى إلينا مِنْ خبرِ نَبيّ الله يَحْيَى بن زكريّا (**عليه السـلام**). والحمد للهِ وحدَهُ في كل دهرٍ وحيْن.

١٦ - خَبَرُ السيِّد المَسيح (عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ) (عليه السلام)

هو نبيّ الله وكلمتُه يسوعُ المسيحُ،عيسى بن مرْيَم العذراء، التي حَمَلت به من الروح القدس. وكانت مريمُ مخطوبة آنذاك ليوسف بن داود النجار، فلمَّا وجَدها حُبْلَى دون أن يجتمعا، وكان رجلاً كريم الأخلاق بارّاً أراد أن يتركها سرّاً دون أن يُشْهِرَها، لكنّ الله سبحانه أر سل له ملاكاً في حُلُمٍ يقول له: (يَا يُوْسُفُ بْنُ دَاوُدَ لا تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ اِمْرَأَتَكَ لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيْهَا هُوَ مِنَ الرُّوْحِ القُدْسِ. فَسَتَلِدُ اِبنَاً وَتَدْعُوْهُ يَسُوْع لأَنَّهُ يُخلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُم). وَهَذَا كُلَّهُ كَانَ لِكَي يَتُمَّ مَا قِيْلَ مِنَ الرَّبِّ بالنَّبيِّ القَائِلُ، هُوَذَا العَذْرَاءُ تَحْبَلُ وتَلِدُ ابنَاً وَيَدْعُونَ اِسْمَهُ عَمانوئِيل الّذِي تَفْسِيْرُه اللهُ مَعَنَا) (الإصحاح الأول عدد ٢٢-٢٣ إنجيل متّى).

ولذلك فعل يوسف كما أمره الله سبحانه، ثم أرسل الله تعالى له ملاكاً يطلب منه أن يأخذ الصبّي وأمّه إلى مصر حتى يأمره بالعودة، لأنّ الملكَ هيرودس نوى أن يَقتلَ الصبي الذي قال له المجوسُ أنّه سيكون نبياً، وملكاً، فخاف الملك على ملكه، وأراد قتل يسوع (**عليه السلام**) وهو صبي صغير. وعندما مات هيرودس ظهر الملاك ليوسف وقال له: قمْ وخذْ امرأتَكَ والصبي وَعُدْ إلى بيت المقدس لأنّ من يطلبُ دَمَهُ قَدْ مَاتَ، ولكن لمَّا مَلَكَ أرخيلاوس بعد هيرودس خاف يوسف أن يعود إلى بيت المقدس فأوحى الله إليه أن ينصرف إلى نواحي الجليل، فذهب وسكن في مدينة الناصرة، فصار يسمى يسوع المسيح بالناصري.

وعاش يسوع المسيح (**عليه السلام**) في الناصرة متعبّداً داعياً إلى عبادة الله حتى بلغ الثلاثين من عمره، فذهب إلى نهر الأردن حيث كان يوحنا المعمدان يعمّد الناس هناك مقرّين بخطاياهم وهو يقول لهم: يا أولاد الأفاعي! من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فا صنعوا ثماراً تليق بالتوبة... أنا أعمّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لستُ أهلاً أن أحمل حذاءه، وهو سيعمّدكم بالروحِ

القدسِ ونارٍ. الذي رفشــه في يده وســينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن، وأمّا التبن فيحرقه بنارٍ لا تطفأ. وعندما و صل يـ سوع المـ سيح (**عليه الـ سلام**) إلى نهر الأردن ليعتمد من يوحنا حاول يوحنَّا أن يمنعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ. ثم اعتمد يســوع وصــعد من الماء، فانفتحت الســماء له ورأى الجميع الروح القدس نازلاً مثل حمامة ودخلت رأس يســوع إلى كامل جسده.

وبعد ذلك حاول إبليسُ اللعين أن يجَرِّب يسوع المسيح، بعد أن صَامَ أربعين يوماً وليلةً. فتقدّم وقال له: إن كنتَ ابن الله فقُلْ أن تصيرَ هذه الحجارة خبزاً؟ فأجاب يسـوع (**عليه الـ سلام**): ليس بالخبز وحده يحيا الإنســانُ، بل بكلمة تخرج من فم الله. ثمّ ســار به إبليس إلى المدينة المقدّســة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كُنْتَ ابن الله فاطرح نفســك إلى أســفل، وإن كُنْتَ صــادقاً فسوف تحملك ملائكتُهُ. فقال المسيح (**عليه السلام**): مكتوب لا تجرّب إلهك. ثمّ أخذه إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررتَ وسـجدتَ لي. فقال المسيح (**عليه السلام**): اذهب يا شيطانُ لأنّه مكتوب للربّ إلهكَ تسجد وإيّاه وحده تعبد. فتركَهُ الشــيطانُ بعد أن عجز عن إغوائه وجعله يكفر بالله. ثمّ صــار يســوع بعدها ينتقل بين البلاد يعظ الناس ويدعوهم للتوبة، ويقول لهم: توبوا قد اقترب ملكوت الســموات، وأثناء ســيره عند بحر الجليل أبصرـ الأخوين: سـمعان وأندراوس، وكانا صـيّادين، فقال لهما: هَلُمَّا ورائي فأجعلكما صـيّادي الناس. فتركا الشــباك وتبعَاهُ. ثمّ ســار فرأى أخوين آخرين هما: يعقوب بن زبدي وأخوه يوحنّا، فدعاهما، ثم تركا والدهما والســفينة وســارا معه. وصــار يطوف في الجليل يعلّم الناس ويدعوهم للإيمان ويـ شفي كل الأمراض، فذاع خبره وتبعته جموع كثيرة ومـ ضى يـ سوع ينتقل بين البلاد فرأى في مكان الجباية رجلاً جالسـاً اسـمه مَتَّى، فقال له: قُمْ واتبعني. فقام وتبعه ومضىـ ينتقل حتى اكتمال تلاميذه الاثني عشرـ فدعاهم وأعطاهم سـلطاناً على الأرواحِ النجسـةِ حتّى يخرجوها، ويشـفوا كل الأمراض وكل الضــعف في الناس، وكان قد التحق به من التلاميذ غير الخمســة الســابقين: فيلبّس وبرثولماوس، وتوما ويعقوب بن حَلْفي، وليّاوس، وسمعان القانوني، ويهوذا الأسخريوطي (الذي

سلَّم يسوع لليهود والجنود). وتابع السيّد المسيح تجواله بين الناس يدعوهم للإيمان والتوبة، وكثرت أخباره ومعجزاته التي أيّده الله ســبحانه بها، فآمن به الكثيرون. وفي يوم خرج وجلس عند البحر فاجتمع الناسُ حولَهُ بكثرة، فدخل سفينة را سية على الشاطئ، وجلَسَ بها والناسُ واقفون على الشاطئ، وبدأ يكلّمهم بالأمثال، فقال: « هوذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقطت منه بعضُ البذور على الطريق، فجاءت الطيور فأكلتها، وسقط بعضها بين الصخور حيث لا تربة كثيرة، فنبتتَ ثمّ ماتت عندما أشرقت الشــمس لأنّ ليس لها أصــول في التربة، وســقطت أخرى بين الأشــواك فنَبَتَتْ لكنَّ الأشــواك خنقتْها، وســقطت أخرى على أرض جيدة خصــبة محروثة فنبتتْ وأعطتْ ثمراً». فتقدّم منه تلاميذُهُ وســألوه: يا معلِّمُ! لماذا تكلّمُ الناسَ بالأمثال؟ فقال: لأنّه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الســموات، أمّا لهم فلَمْ يُعْطَ. فإنّهم مبصرــون ولا يبصرــون، وســامعون لا يســمعون ولا يفهمون، ولكنكم طوبى لعيونكم لأنّها تبصرُــ، ولآذانكم لأنّها تســمعُ، فأنتم مثل الزارع، والمزروع على الطريق هو مثل من يســمع كلام الله ولا يفهم فيأتي الشرــير فيخطفَ ما قد زُرِعَ، والزرع بين الصــخورِ هو الذي يســمع الكلام وحالاً يقبلُه بفرح ولكن ليسَ له أصــل في ذاته يُعينه على المثابرة والصــبر، فإذا حدث ضيق وا ضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يتعثر ويترك ما قد سمع. والمزروع بين الشوك هو الذي يســمع الكلمة لكنّ غرور العالم وزخارفه والغنى يخنقون الكلمة، فيصــير بلا ثَمَرٍ، وأمّا المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم ويفتح قلبه للإيمان فيصير زرعه ذا ثمرٍ.

وفي ذات مرّة خرج يســوع المســيحُ (**عليه الســلام**) مع تلاميذه، فأبصرَــ جمعاً كثيراً فتحنَّنَ عليهم وشــفى مرضاهم وكانوا جياعاً، فقال له التلاميذُ: أطلقهم ليذهبوا ويبتاعوا طعاماً فالمكانُ قَفْرٌ والوقتُ مســاء. فقال لهم: أعطوهم طعاماً ليأكلوا. فقالوا: ليس معنا إلاّ خمســةُ أرغفةٍ وســمكتانِ. فقال: أحضروها إليّ فأحضروها. فأخذها بين يديه ورفعها نحو السماء وباركها، وأعطاها للتلاميذ وقال لهم: قسّموها بين الناس وأطعموهم. فأكل الجميع وشبعوا وكانوا قرابة الخمسة آلاف

شخص ما بين رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ، وذلك بفضل الله ورحمته، ورفعوا من الكَسْرِ من الخبز اثنتي عشرة قُفّة.

وحدث ذات يوم أن كان التلاميذ في السفينة وقال لهم يسوع المسيح: اسبقوني و سوف ألحق بكم فساورا بينما صَعَدَ هو الجبل منفرداً يصلّي وسارتِ السفينة وسط البحر والموج يلاطمها،وفي آخر الليل مضى يسوع إليهم ماشياً على الماء، فلمّا أبصره التلاميذ اضطربوا وقالوا:

إنّه خيال ومن الخوف صرخوا، لكنّ يسوع كلَّمَهُمْ مشجِّعاً: لا تخافوا أنا هو يسوع، لا تخافوا، فأجابه بطرس (سمعان): يا معلّم إن كُنْتَ هو فمُرْني أن آتي إليك على الماء. فأمَرهُ فنزلَ بطرسُ ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع، ولكنّ بطرس لمّا رأى الريح شديدة خاف، وإذ به صار يَغْرَق فقال: يا ربّ نجِّني. فمدّ يسوع يده وأمسك به وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككتَ. فسار معه إلى السفينة حيث هدأت الريح واستقرّت السفينة.

وقيل خرج السيد المسيح (**عليه السلام**) يستسقي بالناس، فأوحى الله تعالى له: لا تَسْتَسْقِ بهم ومعك مذنبون، فأخبرهم بذلك، ونادى فيهم: مَنْ كان معنا من أهل الذنوب والخطايا فليعتزل. فاعتزل الناسُ جميعهم إلاّ رجل مصاب بعينه اليمنى، فقال له: لِمَ لا تعتزل مع الناس؟ فقال: يا روح الله وكلمته! اعلمْ أني لم أكن قد عصيتُ الله طرفةَعين، وقد الْتَفَتُّ يوماً فنظرت عيني إلى قَدَم امرأةٍ فقلعتُها، ولو كنتُ نظرتُ بالأخرى لقَلَعتُها. فقال المسيحُ له وقد رفَع رأسه إلى السماء: اللهمَّ إنَّكَ خلقتنا، وتكلَّفْتَ برزقنا، فأرسل السماءَ علينا مدراراً. فما استَتْمَمَ دعاءه حتى أتتِ السماء بالغيثِ.
وأمّا خبر رفع السيد المسيح إلى الله سبحانه وتعالى فقد ورد في القرآن الكريم في قَولِه تَعَالَى:

((وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {٥٤} إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ

كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٥٥}))
سورة آل عمران

وفي قَولِه تَعَالَى:

((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً {١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً {١٥٨})).
سورة النساء

حيث تدلُّ هذه الآياتُ على أنَّ المسيحَ عليه السلام، رُوحَ اللهِ وكلمتَه التي ألقاها إلى مريمَ العذراء لم يُقتلْ ولم يُصْلَبْ وإنَّما قُتِلَ شبهُهُ وصُلِبَ بدلاً عنه على الصليب، وهذا الأمر لم يَفْطَنْ له إلاّ المؤمنون الحقيقيون بالله وبالمسيح، وأمّا الذي لم ينغرس الإيمان في قلبه فلم يَدْرِ حقيقةَ الأمرِ و ضاعَ مع أمر الله الذي حَجَبَ الحقيقة عن قُساةِ القلوبِ والعقول. ويذكر ابن حاتم عن ابن عباس قوله: «لمّا أرادَ الله سبحانه أن يرفعَ المسيحَ عيسى بن مريمَ إليه وأوحى إليه يخبره بما هو كائن، خرج المسيحُ إلى أصحابه وكانوا في البيت اثنا عشر رجلاً فقال لهم: إنّ منكم مَنْ يكفر بي اثني عشرة مرّة بعد أن آمن بي، أيُّكم يُلقى عليه شبهي فيقُتَل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من التلاميذ وهو أحدثهم سنّاً فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال له: اجلسْ ثم أعاد فقام الشاب: فقال له: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى، ورُفِع عيسى من روزنة البيت إلى السماء، فدخل اليهود وأخذوا الشبيه فقتلوه و صلبوه». وقد كثرت الأقوال والأخبار عمّن أُلقيَ عليه الشبه، حيث يذكر بعضهم أن المسيحَ (**عليه السلام**) ألقى الشبه على يهوذا الاسخريوطي الذي سلّم يسوع للكهنة والجنود، وعندما دخل الجنود وجدوا يهوذا على صورة يسوع المسيح فأخذوه وهو ينكر أنّه هو، ثم صلبوه وقتلوه. والله أعلم.

وأمّا ما جاء في الكتاب المقدّس حول رفع السـيد المسـيح فقد جاء في إنجيل (متّى) أنّ الاسـخريوطي سـلّم يسـوع إلى الجنود مقابل ثلاثين ديناراً فضّـةً ثمّ أقبل الجنود فأخذوا يسـوع إلى (قيافا) رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشـيوخ فتناقشـوا في أمره وتشـاوروا، وقرروا إرسـاله إلى بيلاطس النبطي الذي سـجنه، وكان ما لاقاه من تعذيب عسـكرِ الوالي بيلاطس وسـخريتهم منه، ثم وضعوه على الصليب من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة ثمّ غطّت الأرض ظلمة شديدة، ثم صرخ يسـوع بصـوت عظيم قائلاً: إلهي إلهي لماذا تركتني؟ ثمّ أسـلم الروح. ثم تقدّم رجلٌ غني من الرّامة وكان تلميذاً ليسوع واسمه (يوسف) وطلب أخذ جسد يسوع، فأخذه ولفّه بكتّان نقي ووضعه في قبر نحتَه في الصخر، وبعد ثلاثة أيام قام السيد المسيح من بين الأموات، وقد ظهر الملاكُ لِمَنْ ذهب إلى القبر ليرى ما قاله المسـيح قبل صـلبه من تسـليمه وصـلبه وموته وقيامته في اليوم الثالث، فقال الملاكُ: لا تخافوا، أعلمُ أنّكم تطلبون يسوع المصلوب. ليس هو هنا، لأنّه قام كما قال. وأخبر التلاميذ أن يذهبوا إلى الجليل لأنّه سـبقهم إلى هناك. فانطلق التلاميذ الأحد عشر إلى الجليل (لأنّ يهوذا الاسخريوطي قتلَ نفسَه بعد أن سلّم يسوع نَدَماً) فلمّا رأوه سجدوا له، ولكنّ بعضَهم شكّ فتقدّمَ يسـوعُ وكلّمهم قائلاً: رُفِعَ إليّ كل سـلطان في السـماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ثمّ أُصْعِدَ عليه السلام إلى السماء. وإن كان في طريقة رفع السيد المسيح إلى السماء اختلاف بين القرآن الكريم والإنجيل، فإنّ الاختلاف ظاهري وشكلي، بينما جوهرياً فكلاهما متّفِقَانِ أنّ السّيد المسيح رُوْحَ الله وكلمَتُه لم يَمُتْ وإنّما رُفِعَ إلى السـماء، وهو حيّ باقٍ في جوار ربّه إلى أن يشـاء الله سـبحانه وأنّه سـينزِلُ في آخر الزمان ليقيمَ مملكةَ العدلِ والحقِّ ويقتلَ الدَّجّالَ وينشر العدلَ في الأرضِ بعد أن تكونَ قد امتلأتْ ظلماً وجوراً.

وهَذَا غَيْضٌ مِنْ فَيْضِ أخبارِ نَبِيّ الله السَّيِّد المَسِيْح عليه السلام.

والحمد للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، لَهُ الحمدُ ولهُ المُلْكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



١٧ - خَبَرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (خَاتِمِ الأَنْبِيَاءِ) (ﷺ)

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشـــم. آخر الأنبياء والرســـل الكرام عليهم جميعاً الصـلاة والسـلام. وُلِدَ عام الفيل(١) وقد توفي والده عبد الله وهو ابن شـهر فكفله جدّه عبد المطّلب، وأمّه آمنة بنت وهب، ثم كفله عمّه أبو طالب بعد وفاة جدّه. عاش بين قومه ورعى الغنم، وعُرِفَ بينهم بكريم الأخلاق والصفات التي منحه الله إيّاها، وأهَّلَتْهُ لتحمّل أعباء الرسالة والنبوة التي كلَّفَه بها ربُّ العزّة والجلالة.

نزل الوحيُ عليه وكان له من العمر أربعون سنة، وحسب ما ذكر ابن كثير الدمشقي فقد قُرِنَ بنبوّته إسرافيل ثلاث ســنوات فكان يعلّمُهُ الكلمة والأشــياء المطلوبة من النبي والرســول، ولم ينزلِ القرآن عليه حتى مضـت ثلاث سـنين، فقُرِنَ بنبوّتهِ جبريل (**عليه السـلام**) فنزل القرآن على لسـانه عشرين سنة، عَشْرَاً بمكّة وعَشْرَاً بالمدينة المنوّرة.

وفي خبر الإسراء به من مكّة إلى بيت المقدس يذكر عبد الله بن مسـعود: أُتِيَ رسـول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) بالبُرَاق، فحُمِلَ عليها، والبُرَاق هو الدابَّة التي كانت تُحَملُ عليها الأنبياءُ قبله، وهي تضع حافرها في موضع منتهى طرفها. وبعد أن حُمِلَ الرسول على الُبراق خرج به جبريل (عليه السـلام) يريه الآيات بين الســماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسىـ ونفر من الأنبياء عليهم السـلام قَدْ جُمِعوا له، فصـلَّى بهم، ثم أُتِيَ بثلاثة آنية من لبنٍ وخمرٍ وماءٍ.

---

(١) عَامُ الفيل هو العام الذي غزا فيه أبرهة الحبشـــي مكة يريدُ هَدْمَ كعبتها لكنّ الله ســبحانه ردّه خائباً وأرســـل عليه طيوراً أبابيل فألقت على جيشـــه حجارة من سِجّيل، وكان ذلك في عام (٥٧٧) م . وَوُلِدَ الرســـولُ الكريمُ في ١٢ ربيع الأول من هذا العام، وسُـــمّي عَامَ الفيل لأنَّ أبرهة كان يركبُ فيلاً ضخماً.

فشرب من إناء اللبن، فقال له جبريل (عليه السلام): هُدِيَتْ أمّتُكَ، وحُرِّمَتْ عليكم الخمر. ثمّ انصرف إلى مكّة بمثل ما جاء، فلمّا أصبح يخبر قريشاً بذلك كَذَّبَهُ أكثرُالناس، وبادر المؤمنُ المصدّق إلى التصديق. وقد ذكر لهم آيات حصلت معه أثناء الإسراء به، فقال لهم أنّه وبينما كان يقطع الصحراء على ظهر البراق إذ مرّ بقوم مسافرين في قافلة وقد أضاعوا بعيراً لهم فدلّهم على مكانه من السماء، وكان القوم متوجّهين إلى مكّة ولمّا وصلوا إليها سألهم سادة قريش عن خبر البعير الضائع والصوت الذي دلّهم على مكانه فأجابوا بالإيجاب، لكن ورغم ذلك أبى الكفّار تصديق قول الرسول الكريم.

ويذكر ابن اسحاق عن معراج الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فيقول: سمعت بالمعراج ولم أرَ شيئاً قطّ أحسن منه، والمعراج هو الذي يمُدُّ إليه ميِّتُكم عينيه إذا حضرته الوفاة، فأصعدني فيه جبريل (عليه السلام) حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبواب السماء يُقَالُ له (بابُ الحَفَظَة) عليه بَرِيْدٌ[1] من الملائكة يُقَال له (أسماعيل)، تحت يده اثنا عشر ألف مَلَكٍ، تحت يد كل منهم اثنا عشر ألف مَلَكٍ. ثمّ صُعِدَ بي من سماء إلى سماء حتى جاوزتُ السابعةَ.

ويذكرُ ابنُ اسحاق أنَّ الرسولَ الكريمَ كان كلّما جاء سماءً تلقَّتْهُ منها مقرّبوها من أكابر الملائكة والأنبياء، فرأى آدمَ (عليه السلام) في سماء الدنيا ويحيى وعيسى (عليه السلام) في الثانية، ويوسف بن يعقوب (عليه السلام) في الثالثة، وإدريس (عليه السلام) في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم (عليه السلام) في السابعة مُسْنِدَاً ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كلَّ يومٍ سبعونَ ألفاً من الملائكة يتعبّدون فيه صلاةً وَطَوافاً ثمّ لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ثمّ جاوز

مراتبهم كلَّهم حتّى ظهر لمستوى يسمع فيه صريفَ الأقلام[2]، ورُفِعَتْ له سَدْرَةُ المنتهى[3] وإذا ورقها

---

(١) : البَرِيْدُ: هو الملاكُ المُكَلَّف بحَمْلِ الرَّسَائِلَ .

(٢) صَرِيفُ الأَقْلاَمِ: صَوْتُها، والمقصودُ هنا صَوْتَ أقلامِ القدرةِ وهي تَخُطُّ على اللَّوْحِ المَسْطُوْرِ .

(٣) سَدْرَةُ المنتهى: شجرَةٌ عظيمةٌ في الجَنَّةِ، وثَمَرُهَا يُسَمَّى النَّبْقُ.

كآذان الفِيَلَةِ، ونبقها كقلال هجر[1] وغشـــيها عند ذلك أمور عظيمة وألوان متعدّدة باهرة، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشـجرة كَثْرَةً، وفَراشُ من ذَهَب، وغشـيها من نور الربّ جلّ جلاله. وهناك رأى محمّدٌ (**عليه الســلام**) جبريلَ عليه الســلام للمرّة الثانية على الصـورة التي خلَقَهُ الله تعالى عليها، فكان له سـتمئة جَنَاح ما بين كل جناحين كما بين السـماء والأرض[2]. وفَرَضَ الله سـبحانه عندها على عبده محمّد (صلى الله عليه وسلم) وعلى أمَّته الصلوات خمسين صلاة في كلّ يوم وليلة، فدَعَا محمد ربَّه ليخفِّف عنه وعن أمته فقبلَ منه سبحانه حتى وضعها خمس صلوات في اليوم. وقد حصل له التكليمُ من الربِّ عزّ وجلّ بفؤاده، ولم تكن الرؤية بالعين. لأنّه كما روى أبو ذرّ الغفاري (رضي الله عنه) عندما سـأل الرسـول (صلى الله عليه وسلم) بعد الإسراء والمعراج إن كان رأى الله، فأجابه الرسـولُ: (نورٌ أنَّى أراه).

وبعد فرض الصلاة في السماء السابعة هبط النبي محمّد إلى بيت المقدس، وأُهبِطَ معه الأنبياءُ تكريماً له وتعظيماً عند رجوعه من الحضرــة الإلهية العظيمة، ثمّ تقدّمهم فصــلّى بهم إماماً عن أمر جبريل عن أمر ربّه عزّ وجلّ، ثمّ خرج من المسجد الأقصى وركب البُراق وعاد إلى مكّة فأصبح بها وهو على غاية من الثبات والوقار والسّكينة وقد عَايَنَ في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رأى بعضَها غيرُه لأصبحَ طائشَ العقلِ، لكنّ رسولَ الله أصبح واجماً ساكتاً يخشى أن يخبر قومه فيكذّبوه، وعندما جمعَ أبو جهل سـادة قريشٍ ليخبرهم رسـول الله بما أخبره من شـأن الإسراء به والمعراج، قصَّ محمّد عليهم خبره فلم يصـدّقوه، وسـأله المشرـكون يريدون إحراجه عن بيت المقدس ولم يكن رآه من قبل كما يعلم الجميع، فصــار يخبرهم عن صــفاته، فالتبس عليه بعض الشيــء، فجلَّى الله تعالى له بيت المقدس أمامه فصار ينعته بدقّة. ثمّ كان من وصول قافلة الشام التي أضاعت

---

(١) قِلاَلُ هَجَر : الجِرَارُ الكبيرَةُ المَنْسُوبَةُ إلى مدينةِ هَجَر في البحرين .

(٢) قَالَ تَعَالَى:(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى {١٣} عِندَ سِـــدْرَةِ الْمُنْتَهَى {١٤} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى {١٥} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى {١٦} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى {١٧} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى {١٨}) النجم .

بعيرها و سمعت الصوت الذي يرشدهم مكانه تصديقاً لقصّته، والقافلة التي شرب من مائها أثناء إسرائه فآمَنَ به من آمن على يقينٍ من ربِّه، وكَفَر مَنْ كَفَر بعد قيام الحجّة.

وعند زوال شمس صبيحة الإسراء، جاء جبريل (عليه السلام) إلى محمّد فبيّن له كيفيةَ الصلاةِ وأوقاتها، وأمر رسول الله أصحابه فاجتمعوا و صلّى به جبريل (عليه السلام) والمسلمون يقتدون ويأتمّون بالنبي.

وأمّا بخبر نزول القرآن على النبي محمّد (صلى الله عليه وسلم) فيذكر الحافظ أو نعيم عن ابن عباس قوله: كان الجِنُّ يصعدون إلى السماء يستمعون الوحيَ، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تِسْعَاً، فأمّا الكلمة فتكون حقّاً، وأمّا ما زادوا فيكون باطلاً. فلمّا بُعِثَ النبي محمّد (صلى الله عليه وسلم) مُنِعُوا مقاعدهم في السماء فذهبوا وذكروا ذلك لإبليس، وأنّهم كلمّا حاولوا الصعود لاستراق السمع كانوا يُرْمَوْنَ بالنجوم الحارقة[1] فقال لهم هذا الأمر لا يكون إلاّ لَحَدَثٍ عظيم في الأرض. ثمّ بعث جنوده فوجدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائماً يصلّي بين جبلين، فعادوا فأخبروا إبليس فقال لهم: هذا هو الأمر الذي حصل في الأرض ومن أجله منعتم مقاعدكم، فقد بُعِثَ نبيٌّ يحاربنا، وعلينا العمل ضدّه.

ثمّ إنّ الشياطين والجِنَّ مرَّتْ بالرسول وهو يصلّي بقومه صلاةَ الفَجْرِ، فلمَّا سمعوا القرآنَ استمعوا له فقالوا: هذا القرآن هو الذي حَالَ بيننا وبين خَبَرِ السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا لهم: لقد سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الإيمان والرشدِ والهدايةِ فآمنَّا به، فأَوحى الله سبحانه إلى نبيِّهِ بخبرِ الجنّ وَمَا كان من أمرهم. جاء في قَولِه تَعَالَى:

---

(١) : قَالَ تَعَالَى:(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً {٨} وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً {٩}) (الجن).
قَالَ تَعَالَى أيضاً: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ {٢١٠} وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ {٢١١} إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ {٢١٢}) (الشعراء) .

((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً {١} يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً {٢})). سورة الجنّ

وكان لكلّ قبيلة من الجنِّ مقاعد للسمع فإذا نزل الوحي سمعت الملائكةُ صوتاً كصَوْتِ الحديدة على الصخرةِ الصمَّاءِ. فإذا سمعتِ الملائكةُ الوَحْيَ خَرُّوا سُجَّداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزلَ، فإذا نزلَ قال بعضهم لبعضٍ: ماذا قال ربُّكم؟ فإنْ كانَ ممَّا يكون في السماء قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير. وإن كانَ ممّا يكون في الأرض من أمر الغيب أو موتٍ أو شيءٍ ممّا يكون في الأرض تكلّموا به، فقالوا: يكون كذا وكَذَا. فتسمَعه الشياطينُ فينزلون على أتباعهم ويخبرونهم بما يكون. ولكنْ عند نزول القرآن الكريم بالوحي على النبي محمّد، مُنِع الجِنُّ من استراق السمع وَرُمُوا بالنجوم. فرأى النَّاسُ النجوم تتهافت وتتحرّك في كل اتجاه. فخاف الناس وظنُّوا أنَّه يومُ الفَنَاء، فسَيَّبُوا أنعامهم وأعتقوا عبيدهم. وذَهَبَ أهل الطائفِ إلى عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وكان عَرَّافاً بينهم فقال لهم: وَلِما فعلتم ما فعلتُمْ؟ فقالوا رأينا النجوم تُرمى وتتهافت من السماء. فقال: إنْ كانت هذه النجوم ممّا تعرفونه وتعهدونَ مكانَه فالأمرُ فيه فَنَاء النَّاس، وإن كانت نجوماً لا تعرفونها فهي لأمرٍ عظيمٍ قد حَدَث. فنظر منهم مَنْ يعرف النجوم وأحوالها فوجدوها غير معروفة. فقال لهم: ذلك إذاً لأمرٌ عظيم، وأظنُّه ظهور نبي ونزول الوحي عليه.

ثمّ أنّ الشياطين لمّا شكت أمرها إلى إبليس وما حصل معها، وقد ذهبت تفتّش عن النبي الذي ظهر، فبحثوا في أرض بني إسرائيل فلم يعثروا عليه، فذهب إبليسُ بنفسه إلى مكّة فإذا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغار حَرّاء منحدراً ومعه جبريل (عليه السلام)، فاقترب إبليس (لَعَنَهُ اللهُ) يحاول إيذاء الرسول ورَمْيِهِ عن الجبل، فضربه جبريل (عليه السلام)، فطرحه أرضاً فولّى هارباً. فذهَبَ إلى أتباعه فقال لهم: إنّه لا سبيل لي إلى ذلك النبي، فإنّ الله يحميه ويحرسه، فما السبيل؟

فقالوا: ليس لَنَا إلاّ أتباعه وأصحابه فنعمد إلى تزيين الشهوات في عين أصحابه ونحبّبهم الدنيا، فيطيعونه فترة ثمّ لمّا يموت يقعون فيما يُلْهِيهم عن دينه، فيحفظون

القرآن ولا يعملون به ويبنون المســاجد ويكثرون منها ولا يدخلونها فيكون ما تريد وتشــتهي. فقال: هُوَ ذاك.

وهذا ما حصل حيث ابتعد المنافق بإيمانه، والضعيف الإيمان عن دين محمّد (صلى الله عليه و سلم) بعد أن أدّى ما عليه من أمانة وبلّغ الناس في حجّة الوداع أنّه مفارقهم ودعاهم للتمسّــك بالقرآن الكريم قولاً وعملاً، وأخبرهم آخر ما أُنزل عليه قَالَ تَعَالَى:

((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)). سورة (المائدة)

ثمّ جاءه الحقُّ من ربّه فلبّى النداء آمِنَاً مطمئنّاً أنّه ترك في الناس مَنْ يحفظون دين الله ويعملون بأمره وينصرون الحق ويقهرون الباطل.

وهذا بعضٌ مِنْ أَخْبَارِ رَسُــوْلِ الله وخاتم أَنْبِيَائِهِ محمّدٍ بِنِ عَبْدِ الله صــلى الله عليه وســلم. والحمدُ لله ربِّ العالمين.



الباب الثاني

قِصَصُ الأَوْلِيَاءِ

١ - قِصَّـــةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ (**رضي الله عنه**)

٢ - قِصَّـــةُ أَحْمَدَ السَّـــبْتِيّ (**رضي الله عنه**)

٣ - قِصَّـــةُ العَابِدَةِ الشَّـــعْوَانَةِ (**رضي الله عنه**)

٤ - قِصَّـــةُ الفُضَـــيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ (**رضي الله عنه**)

٥ - قِصَّـــةُ سَرِيٍّ السَّـــقْيِطِيِّ (**رضي الله عنه**)

٦ - قِصَّـــةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (**رضي الله عنه**)

٧ - قِصَّـــةُ رَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ (**رضي الله عنه**)

٨ - قِصَّـــةُ ذِي النُّون المِصْرِيِّ (**رضي الله عنه**)

٩ - قِصَّـــةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُهَذَّبِ (**رضي الله عنه**)

١٠ - قِصَّـــةُ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار (**رضي الله عنه**)

١١ - قِصَّـــةُ أَبِي حَمْزَةَ الخُرَسَـــانِي(**رضي الله عنه**)

١٢ - قِصَّـــةُ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (**رضي الله عنه**)

١٣ - قِصَّـــةُ الشَّـــيْخِ عَلِي البَكَّاء (**رضي الله عنه**)

١٤ - قِصَّـــةُ الشَّـــيْخِ الحَرَّانِيّ (**رضي الله عنه**)

١٥ - قِصَّـــةُ الشَّـــيْخِ الوَاسِـــطِيِّ (**رضي الله عنه**)

١٦ - قِصَّـــةُ الشَّـــيْخِ الأَصْـــبَهَانِيِّ (**رضي الله عنه**)

١٧ - قِصَّـــةُ عَبْدِ اللهِ التَّنُوْخِيِّ (**رضي الله عنه**)

١٨ - قِصَّـــةُ الشَّـــيْخِ الفَاضِـــلِ (**رضي الله عنه**)

١ - قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ (رضي الله عنه)

إبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ أحدُ مشـاهير العُبّاد وأكابر الزّهّاد، كانت له همّة عالية في الصبر على الحياة وتَرْكِ لذائذها ومتاعها. وأمّا نسـبتُهُ فهو إبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ بن منصـور بن يزيد بن عامر بن اسـحق التميمي. أصلُه من مدينة بَلْخ الفارسيَّة، لكنّه سكنَ الشامَ ودخلَ دمشق ومات في جبلة سنة /١٦٢ هـ ٧٨٥ م/، وأمّا تاريخ ولادته فهناك اختلاف فيه، فمنهم مَنْ يقول أنَّه وُلِدَ في خراسان سنة/١٠٠ هـ ٧٢٢ م/, وهو ابنُ مَلِكِها، ثمّ تسلَّم الحُكْمَ بعده. ومنهم من يُرْجع ولادته إلى سنة/ ٩٨ هـ ٧٢٠ م/ في مدينة بَلْخ الفارسـيّة، وكان ابناً لملك إحدى الممالك الكبيرة، ثم تسـلَّم الحكمَ بعد والده، والروايتان وإن اختلفتا بمكان الولادة، فهما تتفقان على أنّه وُلِدُ في بلاد فارس وتسـلَّمَ بعد والده أدهم بن منصور.

وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه بالحصـاد، وعَمَلِ الفاعل وحِفْظِ البَسَـاتين وقد دخل مكَّة بعد تَرْكِهِ لِملكِهِ وَصَـحِبَ سـفيان الثوري والفضـيل بن عيَّاض وكان أكثرُ دُعائِهِ كما يقول أبو نعيم وابن عسـاكر: «اللهُمَّ انْقُلْنِي مِنْ ذُلِّ مَعْصِـيَتِكَ إِلَى عِزِّ طَاعَتِكَ»، وكانت له سرائرُ ومعاملات بينه وبين الله عزّ وجلّ، فما أكَلَ مع أحد طعاماً إلاّ كان آخر من يرفع يده عن الطعام، وقال الحارث الحافي: «أربعةٌ رَفَعَهُمُ اللهُ بِطِيْبِ الطَّعَامِ، وإبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ أحدُهمْ». لكنّه كان إذا أكل يأكلُ من رديء الطعام، ويحرم نفسَهُ المَطْعَمَ الطيِّبَ ليبرَّ النَّاس به، وما تأخّرهُ برفع اليد إلاّ لأنَّه كان يأكلُ متمهِّلاً.

أخباره كثيرة ومواعظه وفيرة، و سنذكر في هذا الصدد قصّة خروجه من مُلكِهِ و سببه، وتجواله، وبعض الأحداث التي جرت معه حتى سنة وفاته/١٦٢هـ/ رحمة الله عليه.

قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وَسَبَبُ زُهْدِهِ

روى الشـيخُ أبو الوليد أحمد بن علي بن حسـين بن أحمد الشـامي عن والده،خبرَ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ الملك العادل وقصَّة زهده في الدنيا ونُسْكِهِ في الحياة فقال:

كان إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ ملكاً ذا جَاهٍ كبير، وَمَالٍ كثير، فقد كانَ يُخْطَبُ له على أربعة آلاف وأربعمئة منبر، وكان تحت أمره جيشٌ عظيم، وله في كلّ مدينةٍ وتحت سلطته اثنا عشر قائداً، ولكلّ قائد منهم سلطة على اثني عشر ألف فارس، وكلّها خاضعة لسلطانه، سائرة بأمره. وكان كثير الترف والغِنى، يحبُّ الصَّيْدَ، يمشي بين يديه أربعةُ آلاف غلامٍ يقودون كلاب الصيد، ويجمعون الطرائد، وفي يد كل غلام منهم جَامٌ[1] من الذهب الأحمر. فركب إبراهيم إلى الصـيد، يحمل في يده بَازاً[2]، ويسـير أمامه حاشيتُه، والأمراءُ الخاضعون لسلطانه يسيرون خلفه، فصادف موكبه شيخاً كفيفاً جالساً على كرسيّ وبجانبه غلام يقوده أينما سار. وقد تجمّعت الناس لرؤية الملك وفخامة موكبه، وعَظَمة هيئتهِ. وكان الحرّاسُ والغلمان يضربون الناس بقضبان من الذهب ليفرّقوهم ويبعدوهم عن الطريق. فلمّا وَصَلَ بعضُ الغلمان إلى الشيخ الذي ظهرتْ عليه علائمُ الوَرَع والتقوى والخشوع والزهد، قال لهم: مَا بَالكُم وما غايتُكُم؟.

فقالوا: وَيْلُكَ! قد جاء المَلِكُ. فقال: وَيْلَكُم! لا تقولوا (المَلِكَ) ولكن قولوا: المملوكَ العَبد الخاطئَ الفقيرَ الحقيرَ الذليلَ العَاصيَ. ثمّ أنشد يقولُ:

أَنَـا مَـيِّـتٌ وَعَـزَّ مَـنْ لاَ يَمُـوْتُ ... قَـدْ تَـيَـقَّـنْـتُ أَنَّـنِـي سَـأَمُـوْتُ

لَـيْـسَ مُـلْـكٌ يُـزِيْـلُـهُ المَـوْتُ مُـلْـكٌ ... إِنَّمَـا المُـلْـكُ مُـلْـكُ مَـنْ لاَ يَمُـوْتُ

فاستنكر الغلمانُ كلامَ الشيخ، فذهبوا وأخبروا الملك بما جرى. فلمّا سمع مقالتهم قال: لا تضربوا أحداً. وقام من لحظتهِ إلى الشيخ فَسَلَّمَ عليه وسأَلَهُ: بِمَ يَصِلُ

(١) : الجَامُ : إناءٌ للشُّرْبِ وَالطعامِ من الفضّةِ أو الذهَبِ .
(٢) : البَازُ : مِنَ الطيورِ الجَارحةِ، يَشبهُ الصقرَ .

العَبْدُ إلى الكُلِّ يا شيخي؟ فقال الشيخُ: بِتَرْكِ الكُلِّ. فبكى، وفهم مغزى كلام الشيخ، ثمّ رجع إلى قصره ولم يكمل رحلة صيدِهِ ودخلَ غرفته وأمر بإغلاق الأبواب، ومَنَعَ الدخولَ عليه لأيّامٍ ثلاثةٍ بلياليها. فلمَّا تأخّر بالخروجِ على الأمراء والوزراءِ تجمّعوا خَلْفَ الباب وأرادوا كَسْرَهُ، ظنّاً منهم أنّ مكروهاً أصابه. وكان هو في هذه الأثناءِ يتضرّع إلى الله أن يغفر له، ويهديه سواء السبيل، حتّى مَنَّ اللهُ عليه بالمغفرة والهداية والعناية الإلهية، فلمّا دخلَ الخَدَمُ عليه واستأذنوه فَتْحَ الأبوابِ، فأذِنَ لهم، دخل الناسُ عليه من وزراء وأمراء وأهل بيته. فقالوا له: أيُّها الملكُ ما الذي أصابَكَ؟ فقال لهم: جئتم تقولون لي أيُّها الملك، وإنّما أنا عبدٌ فقيرٌ عَاصٍ لمولاه، ذليلٌ حقيرٌ ضَيَّعَ مُنَاهُ بملهاهُ. فقالوا: أيُّها الملكُ أخبرنا قصَّتَكَ.

فقال: قد عرفتُ أنّي غُرِرْتُ بالدنيا الفانية، وأَضَعْتُ آخرتي، وإنّي استغفرتُ ربّي عن تفريطي في ديني ودنياي، وإنّي زهدتُ في هذه الدنيا الفانية ولذائذها الزائلة، وقد عزمْتُ على الخروج منها، سالكاً دَرْباً عَسَى يقودني إلى النجاة والخلاص، قبل انقضاء الأجل وانطفاء الأمل. فَسَألوهُ مستغربين: وَبِمَ زهدتَ في هذه الدنيا، ولم نعرف ذلك منك؟ فقال: بثلاثة أشياء:

أَوَّلُها: أنّي قد علمتُ أنّ القبر بيتي وليس معي مؤنسٌ يخفّفُ عني وحشتي أو يؤنس وحدتي.

وثانيها: رأيتُ الطريقَ طويلاً وليسَ معي زادٌ[1] يوصلني. وثالثُها: علمتُ أنّ قدّامي جبّاراً يحاسبني وليس معي حُجّةٌ[2] تنقذني.

فقالوا: إن كان ولا بُدَّ من زهدك، فاعْبُدِ الله تعالى في مكانك.

قال: لا تصحُّ الدنيا والآخرة في مكانٍ واحدٍ.

فقال بعض مَنْ يحبُّهُ: فَدَعْنَا إذن نكنْ معكَ، وفي خدمتك، نَسْلُكُ الطريق الذي تسلكه ونحملُ عنك أعباءَ الدنيا.

---

(١) المقصودُ بالزادِ هُنا هُو الأعمالُ الصَّالحَةُ التي تبلِغُ الإنسانَ الجَنَّةَ .
(٢) الحُجّةُ : الدليلُ والبرهانُ على صِدْقِ الأعمال.

قال: أنا ما كنْتُ في بَطنْ أمّي إلاّ وحدي، وما أدخل القبر، إلاّ وحدي فماذا أصنع بكم معي؟

فأبى بعضُ الحُجّابِ والنوّابِ والخواصّ[1] مفارقته قائلين: والله لو قَطَّعْتَنَا إِرْباً إِرْبَاً ما فارقناك.

فقال: مَعَاذ الله أن أقطّع منكم أحداً، ولكن فلنمضِ إلى الشيخ الواعظ. فساروا إليه فلمّا وصلوا دخلوا عليه وسلّموا. فقال له إبراهيم: أيُّها الشيخُ بِمَ يصلُ العبدُ إلى الكلِّ[2]؟

فقال الشيخ: بترك الكُلِّ[3].

فقال إبراهيم لِمَنْ قَدِمَ مَعَهُ يريدُ مُرَافَقَته من الخواصّ والغِلْمَان[4]:

أسمعتم كلام الشيخ؟ لا حاجة لي بكم ولا بصحبتكم.

فقالوا: وما نصنعُ بهذه المماليك والأموال والجنود والعساكر والغلمان؟

قال إبراهيمُ: كلُّ مملوكٍ لي فهو حُرٌّ لوجه الله تعالى، وكلُّ مملوك هو لغيري، فهو مردودٌ على أهله، وكلُّ مَنْ بيده مدينةٌ أو قريةٌ فأنا بريءٌ منها ومنه فليعملْ هو ما يريدُ ويخلِّصْ نفسه.

ثم أنّ إبراهيم صَـــبَرَ إلى الليل، وخرجَ ولم يعلمْ به أحدٌ، هَارِباً إلى الله تعالى، ولمْ يأخذْ معه من مُلْكِهِ شيئاً سوى مصحفه وسيفه وجواده الذي كان إذا أطلَق له عِنَانَهُ يسيرُ في ليلة واحدة أربعين فرســخاً[5] فلمّا ســـار ليلاً في البّرية، جَازَ على بعض الرعاة في خيامهم، فقال لأحدهم: أمَا تأخذ ثيابي وتعطيني جُبَّتَكَ[6]؟

---

(١) الخَوَاصُّ : الأصدقاءُ المقرّبين والأهلُ الخاصّين بالإِنْسَانِ .

(٢) الكُلَّ : المقصودُ به هنا هو الله تعالى جوهرُ كلّ شيءٍ .

(٣) أمّا الكُلّ الثانية المطلوب تركها فهي الدنيا ومتاعها الزائِلة .

(٤) الغِلْمَانُ : مُفردُها الغُلاَمُ وهي الصّبي منذ ولادته حتى يشب وتعني أيضاً الخادم الصغير .

(٥) الفَرْسَخُ: يُسَاوي ٣ أميالَ هاشميةٍ، والمِيْلُ الهاشِمي يُساوي ٥٧٦٠ متراً. فالفرسخ يساوي ١٧٢٨٠ م

(٦) الجُبَّةُ: ثوبٌ طويلٌ واسِعُ الكُمَّيَنِ، مَشْقُوقُ المقدَّمِ، يُلْبَسُ فوقَ الثيابِ .

فقال الراعي فرحاً وقد رأى ثياب الملوك التي يرتديها إبراهيم: نعم. بكلّ سرور. فَخَلَعَ إبراهيم ثياب الملوك وأعطاها للراعي، وأخذ منه جُبَّة الصوف ولبسها، وتابع سيره طوال ليلته حتى طلع عليه الصــباح. وقد قطع على جواده الأصــيل مســافةً طويلةً مرَّ من خلالها بين الخرائب المتهدّمة يتَّعظ بمرآها، وبين المدن الزاهرة فيحاول تجاوزها بكل سرعته كي لا تضعف نفسه. وبينما هو يسير وإذ هو بمرج أخضر، فيه عينُ ماءٍ تجري، فنزلَ عن جواده، وأخذ لجامَه وأطلقه بحال سبيله، وثمّ حَفَرَ حُفيرةً وَدَفَنَ الســيفَ واللجامَ، وخافَ أن يؤذى بســيفهِ أحدٌ من الناس بعده، لذلك دفنَهُ تحت التراب, ثمّ عمدَ إلى بناء كوخٍ صـغير من الحجارة أقام فيه أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرـب إلاّ ما يبقيه حَيّاً، وإنّما كان انصرافه للعبادة والتهجّد[1] والتضرّع للخالق ليقبلَ توبته ويغفر ذنوبه، وإسرافه في ملذّات الحياة الفانية. وفي ليلته الحادية والأربعين، وبينما هو شــارد يفكّر في أمره، محتارٌ بقبول توبته أم لا، غَلَبَ عليه النعاس فنامَ على الأرض لشـدَّةِ تعبِهِ وصـومِهِ فجاءَهُ أسـدٌ ولبؤةٌ، ففرشـت اللبوةُ جنبها برفق تحت رأســه، ووقف الأسـدُ فوق رأســه بالطول يمنعُ عنه المطرَ بعد أن شرعت الســماءُ تمطرُ. فانتبه إبراهيمُ من نومه إذ أحسَّ بشيــءٍ ليّنٍ تحت رأســه قبلَ أن يفتح عينيه ففزع وظَنَّ أَنَّهُ قد رَجَعَ إلى الفِرَاشِ الوثير ووسـائد النَّعَام، ففتحَ عينيه وإذا هو بأسـدٍ فوقه يمنع عنه المطر، ولبؤة تحته تمنع عنه الخشـونة والبرودة. فقال وقد شـعر بشيـء من الخوف أوّل الامر: لا إلَه إلاَّ اللهَ، لقد صَـدَقَ الشـيخ الواعظ في قوله «مَنْ ترك الكلّ وصـلَ إلى الكُلِّ». فقد كانت الوحوش أعداء تهاجم وتفترس وقد جعلهم الله سبحانه أصدقاء تحمي وتَفترِش[2]، فها هي رحمة الخالق تصله وهذه دلالة على قبول توبتهِ، وقد عرف إبراهيم أنَّ الله ســبحانه قد سَــخَّرَ له هذه الوحوش. ثمّ رأى من اللبؤة أمراً عجباً، فقد رآها تجثم أمامَه كأنَّها تدعوه لامتطائها، فركب ظهرها وســارت به مســافة طويلة قاطعة به البراري حتى و صلَتْ أطراف مدينةٍ فنزل عنها وحمد رَبَّهُ و شكَرهُ، ورَبَّتَ عليها وعلى الأ سد شاكراً لهما، وسرّحهما، وجعل على

---

(١) التَّهَجُّدُ: القِيامُ للصَّلاة في الليلِ .

(٢) تفترِشُ : تجعلُ من نَفْسِها فِرَاشاً .

وجهه لِثَاماً كيلا يعرفه أحدٌ. ثمّ دخل المدينةَ فســأَل عن حاكمها ومتولِّي شــؤونها، فقيل له: إنّ المتولّي فلان من بعض مماليك إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ. فجاء إبراهيم إلى رجلٍ بقّالٍ فدفعَ إليه بالمصــحف على شيءٍ يأكله بدرهم، فلمَّا أكل وشــبع، حمد ربّه وشــكره على نعمته، ثم شَرِبَ شَرْبة ماءٍ، ومضى يطلبُ إنسـاناً يعملُ عنده ويأخذ أجرته ليَسْـتفكَّ المصـحف من الرهن. فرآه أحد غلمان المتولّي فقال له: احملْ لي تلك الحَمْلَةَ إلى دار المتولِّي وأعطيك درهماً، وقد كانت الحَمْلَةُ ثقيلةً وتســاوي أكثر ممّا عَرَضَ الغلامُ لكنّه قَبِلَ، فحملها على رأســه وســار بها مســافة طويلة إلى دار المتولِّي وقد تعب تعباً شــديداً، وتســاقَطَ العرقُ منه بكثرة كونه لم يتعوَّدْ هذه الأعمال الشــاقّة، وهو الذي تعوّد الرِّقَّةَ والرفاهية في الحياة، فلمَّا وَضَـعَ الحَمْلَةَ قال: أعطوني أُجرتي لأذهبَ، فقد قال رسـول الله (صلى الله عليه و سلم): «أَعْطُوا الأَجِيْرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ». فسمعَ المتولِّي كلام إبراهيم فنظر إليه نظرة تكبُّرٍ وا ستعلاء، وهو جالس على كرسيّ مُذَهَّبٍ، وعليه ثياب من الحرير والديباج، وعلى رأســه شــاش من الذهب، وبيده مِيْلٌ[1] يلعب به، وقد ثنى رِجْلاً على رِجْلٍ كأنّه جَبَّارٌ عنِيد، وأومأَ إلى إبراهيم بالمِيْلِ وقال: مَنْ هذا الذي يطلبُ مِنَّا أجرةً على عملٍ شرَّفْنَاهُ بخدمته لنا، وإنَّما نحن نأخذُ ولا نعطي؟

فقال إبراهيمُ: يا هذا! إن أعطيتَ فما خرجتَ عن العدلِ.

وكانَ المتولّي قد ســمع بخبر إبراهيم وخروجه من مُلْكِهِ، فظَنَّ به ســاعتئذٍ فنزل عن كرســيّه وكشف عن وجهه اللثامَ فعرفه، فصرخ نادماً: يا ويلي! أنتَ في هذه الحال يا مولاي وأنا حيّ في الدنيا، وحاولَ أن يقبض على سـكين يقتل بها نفسـه. فقبض إبراهيم على يده وقال له: لا تفْعلْ. لم يأمر الله تعالى بهذا، ولكن أعطني أُجرتي درهماً واحداً، حتّى أنصرـف عنك قبل أن يعرفني أحدٌ، وأنا أقســمُ عليك بالله أن تكتمَ أمري.

(١) المِيْلُ: ما تكْتَحَلُ به العَيْنِ ويُسمَّى أيضاً المِرْوَدُ، وهنا جَاءَ بمعنى القضيبُ من الذَهَبِ للإِشَارَةِ بِهِ

فقال له: يا مولاي! أنا مملوكك، وكل ما أملك هو لكَ، وقد جمعتُ لكَ منذ عشرين سنةٍ خزائن من ذَهَبٍ وفضّةٍ.

فقال إبراهيم: إن كُنْتَ مملوكِي فأنتَ حُرٌّ لوجه الله تعالى، وإن كانت البلد بلدي فقد ولَّيْتُكَ أمرها، فاستعمل العدلَ واللِّيْنَ فإنّي قد برئتُ منكَ، وإن كُنْتَ قد جمعتَ لي مالاً فردّه إلى الناس، وأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حَقّهُ، وأعطني درهمي أستفِكُّ به مصحفي.

فأحضَر المتولّي كيساً فيه عشرة آلاف درهمٍ، فرفضَهُ إبراهيمُ، وأخذ منه درهماً وترك الباقي، وقال إن خرج هذا المالُ من نفسِكَ فاصرفه على الفقراء والمساكين، وأُقسِمُ عليك ألاّ تتبعني.

ثمّ غادر وأتى البقّال وأعطاه الدرهم وأخذ المصحف، وخرجَ هارباً على وجهه، ولم يزلْ سائراً متنقِّلاً بين المدن والقرى حتّى وصلَ أنطاكيَّةَ في شمال بلاد الشام، فدخل مسجداً، فلمّا صلّى العِشَاءَ وغادر جميعُ المُصَلِّين، بقي إبراهيمُ يريدُ قضاءَ ليلته في المسجد، فأتى البوَّابُ إليه وقال له: اخرجْ يا فقيرُ حتى نغلقَ باب المسجدِ.

فقال له إبراهيمُ: يا أخي! أنا رجل غريب وليس لي موضع آوي إليه، وهذه ليلة شتّاءةٌ باردة، فاسمح لي بقضاء ليلتي في المسجد.

فقال له البوّاب: اخرج ولا تطوّل علينا بالكلام، فإنّنا لا نُؤوي الغرباء في مساجدنا. وكان الناس في تلك المناطق يخافون الروم ودسائسهم فظنَّهُ واحداً منهم. فسكتَ إبراهيم ولم يرد جواباً، فقال له البوّاب: قمْ وإلاَّ جَرَرْتُكَ برجليك للخارج ولو كنت إِبْرَاهِيْمَ بْنَ أَدْهَمَ.

فقال له: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ.

فقال له البوَابُ: أما كَفَاكَ ما فعلتَ حتّى تكذب وتدّعي أنَّكَ إِبْرَاهِيْمَ بن أَدْهَمَ؟

ثم عمد البوّاب إلى إبراهيم وأخذ برجله وجرّه حتّى أخرجه إلى الزقاق وقد أُغشِيَ عليه نتيجة ضربه يميناً وشمالاً. فلمَّا أفاق صار يبحث عن مكان يتآوى فيه

من المطر، وقد صـارت حاله سـيئة، والوَحَلُ غطَّى جسـدَهُ، فنظر فإذا بمكان قريبٍ منه وفيه سراجٌ مشتعلٌ، فتقدّم منه وهو يجرّر نفسَهُ متعباً متهالِكاً، فإذا بعبدٍ أسودَ يوقد في تَنُّور حَمَّامٍ، فدخلَ إبراهيمُ على العبد وسـلّم عليه، فلم يرد عليه السـلام وهو يهمهم بشـفتيه كلاماً لم يفهمه إبراهيم. فخشي إبراهيم أن يكون العبد أقسى قلباً من ذلك البوّاب القيّم على المسجد، فلم يَدْنُ من النار، بل جَلَسَ على ناحية من الزِّبْلِ[1]، فعَمَدَ العبدُ إلى قرصين من الشعير ووضعهما بين يدي إبراهيم، ورجع إلى شغله. فقال إبراهيم في نفسِهِ الظاهر أنّ في قلب هذا العبد الأسود رحمة وشفقة، فأكل القرصين وتقرّب من النار، ونشّـف جبّته، ولم يزل العبدُ يوقد النار طوال الليل ولسـانه لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

فلمّا أصبحَ توقّف العبدُ عن الوقيد، وردّ السلام على إبراهيم فقال إبراهيم مستغرباً: يا سبحانَ الله! سلَّمتُ عليكَ أوّل الليل، فتردّ السلام عليَّ أوّل النهار؟!.

فقال العبدُ: يا عبدَ اللهِ! الآنَ أبسـط لك العذرَ. فاعْلَمْ أنّي مملوك، وأنا في خدمة مولاي الأكبر، ومولاي الأصغر. فقُلْتُ لمولاي الأصغر: أتختارُ منّي أن أخدمك ليلاً أم نهاراً؟ فاختارني في الليل في هذا المكان، فخشيتُ أن أردّ عليك السلام فتسألني شيئاً آخر أنشغل به عن الخدمة، فأكونُ خائناً لأمانتي، مهملاً في عملي، والآنَ قدْ أنهيتُ خدمتي عند مولاي الأصـغر، وقضـيتُ نوبتَهُ، وجاءتْ نوبةُ مولاي الأكبر وهو كريمٌ غفور رحيم مستَغْنٍ عن خلقه.

فقال إبراهيم: لِمَ لا تسألِ الله تعالى أن يعتقك من الرِّقِّ والعبودية؟

فقال: إنّ مولاي الأصـغر قد عَاهَد الله عزَّ وجلَّ أنّه إذا وقعَ بصرُـهُ على إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ أن يعتقني لوجه الله تعالى.

فقال له: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ. فصرخ العبد محموماً فَرِحاً: باللهِ عليك أنتَ إبراهيم؟

فقال: نعم.

---

(١) الزِّبْلُ : رَوْثُ الخَيْلِ والمَاشِـيْة وَغَيْرِهَا من البَهَائِمِ، تُتَّخَذُ لتَسْـمِيْدِ الأرض وإصـلاحِ الزّرْعِ وَالتدفئةِ

فانكبَّ العبدُ على رِجْلَيْ إبراهيم يقبّلهما، وفي هذه اللحظة دخل سـيّدُ العبد عليهما فقال: مَنْ هذا، وماذا تفعل؟

فقال العبدُ: يا سيّدي! مَنْ هو الذي قُلْتَ عنه أنَّكَ تعتقني لو رأيتَهُ؟
فقال السيّدُ: إنّه إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ من قلتُ عنه.
فقال العبد: هذا هو بشحمه ولحمه.
فقال السّيّدُ مخاطباً إبراهيمَ ومُظْهِراً دهشةً وإعجاباً: يا سيّدي صحيح هذا؟
قال: نعم. فوقعَ على يديه يقبّلهما وقال له: لنمضِ يا سـيّدي إلى بيتي. فقال إبراهيم: حُبّاً وكرامةً.

فمضوا جميعاً إلى بيت الرجل، فدخل الرجل وأتاهم بشيء من الزاد، فقال له إبراهيم: لا أذوق زادك ولا آكل من طعامك حتى تفي بوعدك لهذا العبد.

فقال: نعم. هو حرّ لوجه الله تعالى.

فأكل إبراهيم حتى اكتفى، ثم شـكر الرجل على ضـيافته، وحاول العبدُ أن يتبعه ليخدمه، فقال له: ما خلّصك الله تعالى من الرِّقِّ حتى تعودَ إليها، وأنا قطعتُ عهداً ألاّ أرافق أحداً غير خالقي.

ثمّ تابع إبراهيم سـيره داخلَ المدينةِ، فتعلّق به رجلٌ ضريرٌ فقيرُ الحالِ، وقال له: يا سـيّدي! أنا رجلٌ صاحب عيال وأنت ترى حالتي، فهل معك شيء تعطنيه أستعين به على إطعام عيالي؟ حُبَّاً باللهِ أن تفعل؟ فقال إبراهيم: والله لا أملك شيئاً، ولكن خذني إلى سوق النخاسة وبِعْني وانتفع بثمني[1]. فقال الشيخ مستغرباً هذا التصرّف الذي لم يسمع بمثله قطّ: وكيف ذلك يا سيدي؟

فقال له: أنا رضيتُ بذلك فلا تجادل.

(١) سُوْقُ النِّخاسةِ: هو السوقُ الذي يُبَاعُ ويُشتَرى به العبيدُ والجواري، ويجبُ أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ الحادثة في بيع إبراهيم تُشابهُ حادثةُ بيعِ النبيّ الخَضِرُ نفسَهُ ليُساعِدَ ضريراً طلبَ مساعدتَهُ، ولا ندري أيّ الحادثتين مأخوذةٌ عن الأخرى، ولذلك أثبتناهما، كُلٍّ في موضعِهَا.

فأخذ إبراهيم بيد الشيخ الأعمى إلى السوق، فوجد تاجراً من أعيان التجار في تلك المدينة. فقال للشـيخ وكان يعرفه: إلى أين تمضي ـ مع هذا الرجل؟ فقال: إلى سـوق النخاسـة لأبيعه وأنتفع بثمنه لإطعام عيالي. فقال التاجر مستغرباً: وهل كنت تملكه حتى تبيعه؟

قال: لا. وأخبره بحكايته معه. فاستغرب التاجر هذا العطاء وقال للشيخ: هل تبيعني إيّاه بهذه الدراهم الخمسة؟ وأنا آخذه وأستعمله عندي أيّاماً قلائل، فإذا فرغ من شغله عتقتُه؟

فرضي الشـيخ، وقبض إبراهيم الثمن ودفعه للضريـر، وقال له معتذراً اذهب إلى عيالك فإنَّهم ينتظرونك.

ثمّ سار إبراهيم مع التاجر وقال له: فيْمَ تستعملني يا سيّدي؟ فقال التاجر: لي بستان وفيه تلّ تراب كبير، فإن نقلتَهُ لي من مكانه عتقتُكَ. فأخذ التاجرُ إبراهيم إلى البسـتان وأراه التلَّ، فإذا به تلّ كبير يحتاج نقله أ شهراً من العمل المتوا صل والمُتْعِب. فقال إبراهيم: ا ستعنتُ بالله، أحضر لي مجرفةً وزنبيل عَمَلٍ، وقرصَ شـعير وقليلَ ملحٍ. فأحضر ـ التاجر له ما طلبَ، وقال له: إذا عطشـتَ هذا الماء عندك. ثم خرج وتركه وحده مع ذلك التل الكبير. فأخذ إبراهيم القرص وهَمَّ أن يأكل منه، لكنّه توقَّفَ وقال في نفسِهِ: كيف آكُلُ خبز من لا عملتُ له شغلاً. ثم أخذ المجرفة وأقبل على التراب فنقل منه حتى صار الوقت عصراً، فتعب ونام، فأمر الله سبحانه جبريلَ (**عليه السلام**) أن يقلع التلَّ من مكانه، فقلعه بقدرة الله تعالى بلحظةٍ واحدة فلمَّا أفاق إبراهيم من نومه ونظر إلى تلّ التراب الذي ما كان ينتقل بسنةٍ قد نُقِلَ فقام وتوضَّأ وصَلَّى ركعتين ورجع ونام، وأثناء نومه خرجت من البستان أفعى عظيمة، وكانت قد قتلت للتاجر ثلاثمئة مملوك بسبب ذلك التراب، ثمّ أتت هذه الأفعى تحمل في فمها عِرْقَ ريحان أخضرـ وجعلت تنشُّ[1] الذباب عنه. ولم تمضِ فترة من الزمان حتى عاد التاجر لينظر ما يفعل إبراهيم بعمله، فلمّا وصَلَ دُهِشَ أيّما دهشة،

---

(١) تَنُشُّ: يُقالُ نَشَّ الذبابَ أي طرَدَهُ وأبعدَهُ عن مَكَانِهِ .

وصُــعِقَ لمرأى التلّ الكبير وقد نقل من مكانه وزاد تعجّبه رؤية الحيّة على تلك الحال عند رأس إبراهيم وهي التي قتلت كل أولئك العمّال عنده، فصـــاح صــيحةً عظيمةً جعلت إبراهيم ينتبه من نومه ويقول للتاجر: ما شأنك يا مولاي؟ لِمَ تصرخ؟ هل أنكرتَ من أمري شيئاً؟

فقال التاجر: أيّها العبد الصالح! لا تقلْ لي يا مولاي، بل أنت مولاي وسيّدي، وأنا المملوك العبد.

فقال إبراهيم مستغرباً كلام الرجل: وكيف ذلك؟ وماذا رأيتَ مني لتقول ذلك؟

فقال: رأيتُ مِنْكَ أمرين عجيبين. الأوّل: هو تِلْكَ التلَّة العظيمة من التراب التي ما كانت تنقل ولا تتزحزح إلاّ بمدّة طويلة وقد نقلتَها أنت بساعاتٍ، والثاني: تلك الحيّة التي قتلت لي ثلاثمئة مملوكٍ حاولوا نقلَ التراب، وقد كانت تروَح عليك وتنشُّ الذباب عنك بعِرْقِ الريحان.

قال إبراهيم: ما كان بيننا من اتفاق فقد تمَّ، وعليك الآن أن تعتقني وقد زال التراب ونُقِلَ بقدرة الله تعالى وليس بحولي وقوتي، وأمّا الحيّة وشأنها فأنا لم أرها ولم أشاهد ما فَعَلَتْ.

قال التاجر: أقسمتُ عليكَ بعزَّةِ العزيز، وجلال قدرته، وعظيم سلطانه وقدّوس شأنه أن تخبرني من أنت.

فقال: إذا قلتُ لك تعتقني؟

قال: أنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى مهما تكن.

فقال: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ.

فقال التاجر وقد زادت غرابتهُ ودهشــتُه: كل شيء معي هو من بعض إحســانك عليّ، وأنت قد ســاعدتني في أكثر أوقاتي عسرـة، وكنتُ قد اشـتريتُ مئة مملوكٍ لأسـافر بهم إلى بعض بلادك لأبيعهم وأربح بثمنهم، وهم الآن معتوقين لوجه الله تعالى، فقد وهبتُ لكلّ واحد منهم نفســـه، فأنت قد بِعْتَ نفسك لتساعد غيرك، وأنتَ من أنت.

قال إبراهيم وقد حمد الله وأثنى عليه: ما أحســـنَ المعاملة مع الله تعالى، لا يخسرـــ إنســـان يتعامل معه.

ثمّ إنّه خرج من عند التاجر بعد أن قضىـ عنده يومه معزَّزاً مكرَّماً، وسـار سـائحاً في حبّ الله الذي لا يُعادل حبّه، ســار إبراهيم ينتقلُ من بلدٍ لآخر، وهو قانع بحبّ الله والتعامل معه، يزهد في الدنيا، وقد هَجَرَ أهله وأولاده ومُلْكه ومَضَىـ يغنيه حبّ الخالق عن المخلوقات، ثمّ مرّت فترة طويلة عليه في ترحاله وتجواله،يعلّم الناسَ ويَعظهم دون أن يأخذ أجراً على ذلك، وبعد عشرــين ســنة من خروجه من مُلْكِهِ، وأثناء تواجده في مكّة المكرّمة، وحوله جماعة من الفقراء، سأله بعضهُم: يا شيخنا! أوصنا بما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا.

فقال: أوصـــيكم بتقوى الله سرّاً وجَهْراً، فإنْ كنتُم لا ترونه فهو يراكم، ولا تتذلّلوا لغير الله، ولا تخافوا غيره،وإنْ خفتم بَشَراً دونه سَلَّطَهُ الله عليكم، وإيّاكم والنظر إلى المُرْدِيَاتِ[1] الفاتناتِ المهلكات. فما أتمَّ كلامَهُ حتى مرّ شـــابٌّ من أحســـنِ الشـــباب ومعه عشرـــون غلاماً في جيوبهم دنانير ذهبيةٌ يتصدّقون بها على الناس. فجعل إبراهيمُ يطيلُ النظرَ إليه. فخاطر في بالِ بعضهم أنَّه ينهى عن شيءٍ ويفعله، فقال لهم وقد أدرك ما يفكّرون به: لعلكم أنكرتم عليّ إطالتي النظر نحو ذلك الشـــاب؟ فقالوا: نعم. قال: لو عَلِمْتُم مَنْ يكون هذا الشـاب، ما أنكرتُم عليَّ، فهذا ولدي الذي تركتُهُ في الرضـاع منذ مدّة عشرين سنة، فلمّا رأيتُه عَرَفْتُه، وقد جاءَ يسألُ الله أن يراني في هذه الدنيا.

فقالوا: وَلِمَ لا تعرِّفْهُ مكانك؟

فقال: لا أقدر على ذلك، فإنّي أخاف أن أشـــارِكَ حُبَّ اللهِ بحُبِّ ابني فأضــعفَ وأخسَرَـــ دنياي وآخرتي. ثمّ أنشد يقولُ:

---

(١) المُرْدِيَاتُ : يُقالُ أرْدَاهُ أيْ أهلَكَهُ، فالمردياتُ هي المُهْلِكَاتُ لِصَـــاحِبِها المُتَعَلِّقِ بها كالنقود والذَّهبِ ونحوها .

هَـجَـرْتُ الـخَـلْـقَ طـرّاً[١] فِي رِضَــاكَ وَيَــتَّــمْــتُ الـعِــيَــالَ كَيْ أَرَاكَ

لَـوْ قَـطَّـعْـتَـنِـي فِي الـحُـبِّ إِرْبَـاً[٢] لَــمَا حَــنَّ الــفُــؤَادُ إِلَى سِــــوَاكَ

ثمَّ غادر مكّة متوجِّهاً إلى البصرة، فلمَّا دخَلَها سأل بعضاً من أهلها عن سوق تمحيص الذنوب[٣]. فَسخر الناس منه وظَنُّوهُ مجنوناً وسَأَلُوهُ: وأين يكون ذلك؟

فيقول: هو مَوْضُعُ البهدلةِ والشتمِ والسَّبِّ والقَذْفِ[٤] والضَّرْبِ.

فكان إبراهيم يدخل إلى ذلك السوق الذي يحتوي السفهاء وحثالة الناس، فيضربونَهُ ويرمُوْنَ به إلى الأرض ويَدُوْسُونَ عليه ويُلْحِقُونَ به شتّى الإهانة والتعذيب. فيقوم وهو يحمُد الله تعالى ويقول: هِنيئاً لِمَنْ يَمْحِي ذنوبَهُ قَبْلَ المَمَاتِ.

ثم ذهبَ إلى بغداد، وعمل عند صــاحبِ كَرْمٍ من العِنَب يَنْطُرُهُ ويحرسُــهُ، فمَرَّ به رجلٌ غَليظُ القَلْبِ والخُلْقِ، فقال له: يا إبراهيمُ أطعمني من هذا العنب.

فقال له: ليس معي إِذْنُ صاحِبِ الكَرْمِ.

فغضب الرجل وصار يضربه بسوط يحملُه في يده، فجعل إبراهيم يُطَأْطِئُ رأسَهُ ويقول: اِضرِبْ اِضرِبْ رَأْسَاً طالما عَصى الله تعالى، وتكبَّر وتجبَّرَ، اِضْرِبْ عسى الله يغفر ويمحو ذنوبه. وكان إبراهيم في بغداد، كعادته بعد خروجه من مُلكِهِ، لا يأكل حتّى يجوع بِشدّة، وإن أكَلَ يأكل أقسى الخبز، ويحرم نفسه ممّا يحبّ من الطعام، وقيل عنه أنّه بقي عشرين سنة يشتهي أن يأكَلَ الفولَ، وكان قادراً على تناوله، لكنّه مات ولم يتناوله. وكان يقول لِمَنْ يطلب منه موعظةً: يا معشرَــ العباد جَوِّعوا أنفســكم لوليمة الفردوس، فبقدر أخذكم من شــهوات الدنيا،ينقص عليكم من لذّات الآخرة، وما أخَذَ أحدٌ مِنَ الدنيا إلاّ على ثلاثة وجوهٍ: هَمٌّ وَ غَمٌّ وطُوْلُ حِسَابٍ.

---

(١) الطُّرَّ: الجماعةُ : يُقالُ: جاء القومُ طُرّاً، أي جميعاً دونَ أنْ يتخلَّف منهم أحدُ .

(٢) الإِرْبُ: العُضْوُ الكامِلُ مِنَ الجَسَدِ، وَقطَّعَهُ إِرْبَاً إِرْباً:أي عُضْوَاً عُضْوَاً .

(٣) التَّمْحِيْصُ: الابتلاءُ والاختِبارُ، وتمحِيْصُ الذُّنوبِ: تخليصُ الإنسانِ مِنْهَا .

(٤) القَذْفُ: الرَّميَ بالحِجَارةِ والكلامِ البذيء .

وكان يقول: يا مؤمنين! اِرْضُوا من الدينا باليسير مع سلامة الدين، فالزهد في الدنيا ثلاثة حروف: فأمّا الزاي فهو ترك زينة الدنيا ومتاعها، وأمّا الهاء فهو ترك الهوى والرغبات، وأمّا الدال فترك الدنيا الدنِيَّة. فالدنيا أوّلها بكاء، وأوسـطها عَنَاء وآخرها فَنَاء. ما تعلَّقَ الإنسـانُ بها إلاّ من ضَـعْفِ إيمانه وعقله، فكيف يتعلّقُ الإنسانُ بالفاني ويتركُ الخالدَ الباقي.

وكان إبراهيم يكره المال كثيراً، ويحاول ألاّ يبيتَ ليلته ومعه شيء منه حتّى إذا أصـبحَ يعملُ ليجنيَ ما يكفيه يومه فقط وكان يقول: المَالُ سُـمِّيَ مالاً، لأنّه اسـتمال أهله عن طاعة الله تعالى، وجعلهم عبيداً له طائعين لأمره فيهم، وهو ـ أي المال ـ وَتَد كلِّ شرٍّ، لأنَّ الشرّ كُلَّهُ متعلِّقٌ به.

ومن أقواله أيضـاً: مَنْ أكثرَ من المَنَامِ، لم يجدْ في عمره بركَةً، ومَنْ أكثَرَ من الطعام، عُدِمَ لذّة العبادة، ومَنْ التفتَ إلى إرضاء الناس، عُدِمَ رِضا الله تعالى، ومَنْ أكثرَ من الغيبة والنميمة لم يَمُتْ على دين الإسلام، ومَنْ استعملَ النميمة خرج من الدنيا كافِراً. وقيل عنه أنّه وجد رجلاً في بعض الصحارى يتعبّد، فسلّم عليه وجلس قُرْبَهُ يتعبّد، دون أن يسأل أحدهما عن اسم الآخر، فلمَّا أَتمَّا صلاتهما، قال الرجلُ لإبراهيم وقد عَرَفَهُ: أَلا أَعَلَمُكَ اسماً يغنيكَ عن كثيرٍ من صلاتك وعبادتِكَ؟ فقالَ إبراهيمُ: نعم. فعلَّمَهُ الرجلُ اسمَ الله الأعظَمَ، ثمّ اختفى، فصار إبراهيم يدعو به ربّه في كل حين، حتى رأى سيدنا الخَضِرُ ـ (عليه السـلام)، فقال له إبراهيمُ ما جرى معه، وأخبره خَبَرَ الرجلِ، فقال الخَضِرُ ـ: إنّما علّمك أخي داود اسم الله الأعظم.

ويروي أبو حنيفة عنه: أنّ إبراهيمَ كان مع بعض أصحابه يتعبّدون فمكثوا فترة طويلة لم يجدوا ما يأكلونه، ثمّ مرُّوا بغيضـةٍ[1] كثيرة الشـجرِ وكانوا في يوم شـتائي، فقال إبراهيم لأحدهم: ادخلْ هذه الغيضةَ واحضِرْ لَنَا ما نَأكُلُه. فاستغرب القومُ طلَبهُ في الشتاء. فدخلَ فوجد شجرةً عليها خوخٌ كثيرٌ، فملأ منه جُرَابَهُ وعاد مدهوشاً، ثمّ سأله إبراهيم! لو صبرت ودخلت أكثر لوجدتَ رُطباً جنيّاً، كما

(١) الغَيْضَةُ : الأَجَمَةُ، الغَابَةُ الصَّغِيْرَةُ كثيفةُ الشجر .

رُزِقَتْ مريمُ بنتُ عمران. وذُكِرَ أنّه مرَّ مع رفقة له، فإذا بسَــبْعٍ عظيم يعترض عليهم طريقهم فخاف الجميعُ، إلاّ إبراهيم تقدَّم نحوه وقال له: يا قَسُــوْرَةُ[1]! إنْ كُنْتَ أُمِرْتَ فينا بشيــء، فامضِ لما أُمِرْتَ بهِ، وإلاَّ فعَوْدُكَ على بدئكَ. فولَّى السبعُ ذاهباً يضربُ بذنبه يُمنةً ويُسرةً، وَسْطَ دهشة الجميع، ثمّ أقبلَ إبراهيم على صــحبِهِ فقال لهم: قُولُوا اللهمَّ احرسْــنَا بعينكَ التي لا تنامُ، واكْنُفْنَا بكَنَفِكَ[2] الذي لا يُرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلِكَ وأنتَ رجاؤنا، يا الله، يا الله يا الله.

وصــعد مرّةً جبل أبي قبيس بمكّة مع جماعةٍ للعبادة، فقال لهم: لو أنّ وليّاً من أولياء الله قال لجَبَلٍ (زِلْ)، لَزَلْزَلَ. فتحرّك الجبلُ تحته، فوكزه برجله وقال: اسـكنْ فإنّما ضربتُكَ مثلاً لِمَنْ معي. وروى حذيفة المرعشي خبراً فقال: أَوَيْتُ أنا وإبراهيم إلى مسجدٍ خرابٍ بالكوفة، وكان قد مَضَى علينا أيّام لم نأكلْ فيها شيئاً، فقال لي: كأنّك جائع. قلتُ: نعم. فأخذ رقعة فكَتَبَ فيها:

بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحِيم. أنتَ المقصودُ إليهِ بكُلِّ حَالٍ، المُشَارُ إليهِ بكلّ معنىً.

أَنَـا حَـامِـدٌ أَنَـا ذَاكِـرٌ أَنَـا شَــاكِـرُ	أَنَـا جَـائِـعٌ أَنَـا حَـاسِرٌ أَنَـا عَـارِي
هِيَ سِــتَّـةٌ وأَنَـا الضَّــمِيْنُ لِنِصْــفِهَـا	فَكُنِ الضَّــمِيْنُ لِنِصْــفِها يـا بَـارِي
مَـدْحِي لِغَيْرِكَ وَهْجُ نَـارٍ خُضْــتُهَـا	فَـأَجِـرْ عُـبَـيْـدَكَ مِـنْ دُخـولِ الـنَّـارِ

ثمّ قال لي: اخرج بهذه الرقعة، ولا تعلّق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى وادفع بهذه الرقعة لأوّل رجل تلقاه. فخرجتُ فإذا برجُلٍ على دابَّةٍ، فدفعتُها إليه، فلمَّا قرأها بكى ودَفَعَ إليَّ ســتمئة دينار وانصرـفَ، فســأَلتُ رجلاً: مَنْ هذا الذي على الدَّابَّةِ؟ فقال: هو رجلٌ نصرـاني. فجئتُ بطعام وذهبتُ لإبراهيم فأخبرتُه، فقال: الآنَ يجيء ويســلمُ. فما كان غير قريب وقت حتى جاء، فأكَبَّ على رأسِ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وأسلَمَ. فقال إبراهيم: دارُنَا أمامَنا، وحياتُنا بعد موتِنَا، فإمّا إلى الجنّة، وإمّا

---

(١) القَسْوَرَةُ : الأَسَدُ الضَّخْمُ .
(٢) الكَنْفُ : الرِّعايَةُ، والكَنَفُ الذي لا يُرَامُ، أي الذي لا يُشْبهُهُ ولا يماثِلُهُ شيءٌ .

إلى النار. وقال إبراهيم في غير مرّةٍ: مَرَرْتُ في بعض جبال الشـــام، فإذا حجر مكتوبٌ عليه بالعربية:

كُـــلُّ حَـــيٍّ وَإِنْ بَـــقِـــي فَـمِـنَ الـعُـمْـرِ يَسْـــتَـقِـــي

فَـاعْـمَـلِ الـيَـوْمَ وَاجْـتَـهِـدْ وَاحْـذَرِ المَـوْتَ يَـا شَـــقِـــي

فبينما أنا واقفٌ أقرأُ وأبكي، وإذا برجلٍ أَشـقرَ أغبرَ، عليهِ مدرّعة من الشَّـعْرِ، فسَـلَّم وقال: مِمَّ تبكي؟ فقلتُ مِنْ هذا.

فأخذ بيدي ومضى غير بعيد، فإذا بصخرةٍ عظيمة مثل المحراب فقال: اِقرأْ وابكِ ولا تقصّر. وقام هو يصلّي، فإذا في ناحية من الصخرة قد كُتِبَ:

لاَ تَبْغِيَنَّ جَـاهَـاً وَجَـاهُـكَ سَـاقِطٌ عِنْـدَ المَلِيْـكِ وَكُنْ لِجَـاهِـكَ مُصْـلِحَـا

وفي الجانب الآخر من الصخرة كُتِبَ:
وفي الجانب الأيسر نقش عربي يقول:

مَـنْ لَـمْ يَـثِـقْ بِـالـقَضَـاءِ وَالـقَـدَرِ لاَقَـى هُـمُـومَـاً كَـثِـيْرَةَ الضَّرَـرِ

«مَا أَزْيَنَ التُّقَى وَمَا أَقبَحَ الخَنَا[1] ، وَكُلٌّ مَأْخُوْذٌ بِمَا جَنَى، وَعِنْدَ اللهِ الجَزَا».

وفي أسفل الصخرة وفوق الأرض بذراع مكتوبٌ:

إِنَّمَـا الـفَـوْزُ وَالأَمَـلْ فِي تُـقَـى الـلـهِ وَالـعَـمَـلْ

وقال إبراهيم: فلمَّا فرغتُ من القراءة، التفتُّ فإذا الرجلُ ليس موجوداً حيث كان يصـلّي، فلم أدرِ أهو انصرف بسرعةٍ دون أن أشعر به أو أنّه حُجِبَ عني وكان أحد أولياء الله الصالحين.

---

(١) الخَنَا: الفُحْشُ وَالرَّذِيْلَةُ .

وقال ذات مرّة: إنّما يتمّ الورع بتســـوية كلّ الخلق في قلبك، والاشـــتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلبٍ ذليل لربٍّ جليل، فكِّر في ذنبكَ وتُبْ إلى رَبِّكَ ينبتُ الورعُ في قلبكَ، واقطع الطمعَ إلاَّ من ربِّكَ. وليس من أعلام الحبّ أن تحبّ ما يبغضـــه حبيبُك فقد ذمَّ مولانا الدنيا مدحناها، وأبغضـــها فأحببناها، وزهَّدَنا فيها فآثرناها، ورَغِبْنَا في طلباها، ووعدكم خَرَابَ الدنيا فحصـــنتموها، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها، وأنذركم الكنوز فكنزتموها، دعَتْكُم إلى هذه الغرَّارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مُنَادِيَها، خدعتكم بغرورها وَمنَّتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها، تتقلّبون في زهراتها وزخرفاتها وتتنعّمون في لذّاتها وتتقلّبون في شهواتها، وتتلوّثون بتبعاتها، تـــنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها.

وكتبَ مرّةً إلى سـفيان الثوري: مَنْ أطلق أمله ساء عمله، ومَنْ أطلقَ لسـانَهُ قتلَ نفسَـهُ، ومن أطلق بصرـهُ طالَ أسـفُهُ، ومَنْ عرفَ ما يطلب هان عليه ما يبذل، وخيرُ الناس من فَكَّ كفَّيْه وكَفَّ فكَّيْه. وكلُّ سـلطانٍ لا يكون عادلاً فهو واللصّ بمنزلةٍ واحدة، وما ينبغي لِمَنْ ذلَّ لله في طاعته أن يذلَّ لغير الله في مجاعته، فكيف بِمَنْ هو يتقلّب في نِعَمِ الله وكفايتهِ. ثمَ قيل عن إبراهيم أنّه عاد إلى البصرة يَعِظ الناس، وقد بلغ الستّين من عمره، وثم دخل أرض الشام وقصد مدينة جبلة فمكث فيها لفترة، وثمّ توجّه إلى اللاذقية حيث انتقل إلى جوار ربِّه فيها وما يزال قبره فيها يزار من قِبَل الأهالي للتبارك، وقد بُني بعد ذلك مسجد قرب قبره سُمّي باسمه.

رضي الله عنه ورحمته عليه.

تَمَّتْ قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وَسَبَبُ خُرُوْجِهِ مِنْ مُلْكِهِ وَبَعضُ أقْوَالِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَحْدَهُ لا شَرِكَ لَهُ.

٢ - قِصَّةُ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ (رضى الله عنه)

هو أحمد بن هارون الرشـيد، بن المهدي، وأمّا أمّه فيقول بعضـهم أنّها السـتُّ زُبيدةُ أمُّ الأمين والمأمون (وهذا هو الرأي الأكثر صـواباً عندنا) وهناك قول آخر مفاده أنّ أم أَحْمَدَ السَّـبْتِيِّ هي امرأة أحبّها الر شيد فتزوّجها فحملت منه بهذا الغلام، ثمّ إنّ الر شيد أر سلها إلى البصرة وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر، وأشياء نفيسة، وأمرَها إذا أفضت الخلافة إليه أن تأتيه، فلمّا صارت إليه الخلافة لم تأتِهِ ولا ولدها، بل اختفيا، وبلَغَهُ بعد مدّة أنّهما مَاتَا، ولم يكن الأمر كذلك، فبحث عنهما فلم يطّلع لهما على خبر.

وبما أنّ أحمد وأمّه لم يكونا معروفين للناس كأهل الخلافة، لذا فإنّ ســنة ولادة أَحْمَدَ السَّــبْتِيِّ فيها عدّة أقوال: فمنها ما يرجّح أنّه ولد سنة (١٧٠ هـ ٧٩٣ م) وبعضها تقول أنّه ولد سنة (١٦٨ هـ ٧٩١ م), (وهذا هو الأصــح عندنا). وأمّا وفاته رحمة الله عليه فهي مثبتة ومؤرّخة عند ابن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) في سنة (١٨٤ هــ ٨٠٧ م) وقد عمل بالطين يوم السبت فقط، وكان يُقْبِلُ على العبادة بقيَّة أيّام الأسبوع، ومن هنا جاء لقبه بالسبتي.

وســنذكر في هذا المجال قصّـته مع صـالح البصريـ العابد الزاهد، وبداية خروجه من عند أبيه الرشــيد وأمّه الســت زبيدة، وكان يعيش حياة الترف والرفاهية، ثم ترك كل ذلك بعد ســماعه قول صالح البصري.

قِصَّةُ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ مَعْ صَالِحِ البَصْرِيِّ

رَوَى صالح البصري العابدُ الزاهد أنّه بينما كان يمشي في شوارع بغداد متفكِّراً في أمره و شأنِهِ، وفراقه لولده وأهله وبُعْدِهِ عنهم، وقلبه يقطرُ حزناً على فراقهم، إذ شاهَدَ أحمد بن هارون الر شيد، مقبلاً في عَبيده وخدمه وعســكره، مُتَبَاهٍ بشــبابه وماله وجاهه، فتأمَّلَهُ صــالح فإذا هو من أحســنِ الشباب جمالاً

ومظهراً، فلمّا قرُبَ منه ناداه برفيع صــوته: يا بْنَ هارون الرشــيد! أراكَ متعلِّقاً بنواصي الدنيا، متمسِّــكاً بآمال الفَنَاء ونســيتَ دارَ البقاء، وأهملتَ يومَ الأخذ بالنواصي والأقدام، فكأنَّك وقد نُقِلْتَ من قصرِكَ المشـيَّدِ إلى التراب والصـديدِ، ولو غَلَّقْتَ عليكَ ألف باب من الحديدِ، وتحصَّـنْتَ بالأجناد والعديدِ ما منهم أحد ينفع، ولا كثرة أموالك تدفع.

فلمّا سمع أحمد ذلك الكلام، صرخ صرخةً عظيمةً ووقَع عن سَرْجِ فرسه إلى الأرض، فأَحْدَقت به الخَدَمُ والأجناد، ثم شرع يبكي بكاءً شديداً. فلمّا رأى صالح فزعه وخَوْفَهُ من الله تعالى وعقابِهِ، أشار إليه وأنشد أبياتاً من الشعر تقولُ:

لاَ تَـأْمَـنِ المَـوْتَ فِي طَـرْفٍ وَفِي نَـفَـسِ ... وَلَـوْ تَمَـنَّـعْـتَ بِـالـحُـجَّـابِ وَالـحَـرَسِ

وَاعْلَمْ أَنَّ سِـــهَـامَ المَوْتِ صَـــائِبَـةٌ ... فِي كُـلِّ مُـدَّرِّعٍ مِـنَّـا وَمُـتَّرِّسِ[1]

مَـا بَـالُ دينِـكَ تَرْضَى أَنْ تُـدنِّسَـــهُ ... وَثوبـك الـدَّهر تغســلُـهُ من الـدنَسِ

فلمّا سـمع أحمد هذه الأبيات صرخ صرخةً أخرى، فخافَ خدمه وعسكره عليه، وسألوه: ما حالُكَ.. وما الذي كادَكَ؟ فقال لهم: ما كادني أحدٌ، بل مؤدِّبٌ أدَّبني، وواعظٌ وعظني، يا قوم احملوني إليه كي أعرضَ دائي عليه. فحملوه، فلمّا صار بين يديه قال: يا شيخ زدني يرحمك الله، فقد وافق دواؤك جرحَ قلبي.

فأنشدَ صالح:

رَحِـمَ الـلـهُ مَـنْ قَـرَأَ خَـطَّ كَـفِّـي ... وَدَعَـا لِي بِـالـعَـفْـوِ وَالـتَّـخْـلِـيْـصِ

كَـتَـبَ الـلـهُ بِـالـفَـنَـا عَـلَى خَـلْـقِـهِ ... فَـمَا عَـنْ ورُودِهِ مِـنْ مـحِـيْـصِ

(١) مُدَّرَّعٌ : تعني محتمي بالدّرع ليقي نفسَه من الخطر .
وَمُتَّرَّسِ : تعني محتمي بالترسِ ليقي نفسَه من الخطر .

سَـــوْفَ تُـفْـنِـي الأيّـامُ كُـلَّ جَـدِيْـدٍ   والَّـلـيـالي تُـبـيـدُ جَـمْـعَ الـحَـرِصِ
كَـيْـفَ يَـلـتَـذُّ عَـاقِـلٌ بِمَـنَـامٍ   وَالمَـنـايَـا بَـيْنَ جِـلـدِهِ وَ الـقَـمـيـصِ

فلمّا سمع أحمد هذا الكلام اشتد بكاؤه وقال:

يا صالحُ! يا سيدي! أرجو من الله تعالى أن يكون شفائي على يديكَ.

فقال له: يا بُنيَّ! اعلمْ أنّ الله تعالى له داران وعبدان، فأمّا الدَّارانِ فهما الجنّة والنار، وأمّا العبدان فهما عبدٌ طائعٌ خاضـعٌ، لأوامرِ ربِّه سـامِعٌ، وعبدٌ عاصٍ وقلبُه قاسٍ. فبكا أحمد بكاءً شـديداً وقال: يا شيخُ زدني يرحمك الله.

فأنشدَ صالحٌ:

المَـوْتُ بـابٌ وَكُـلُّ الـنَّـاسِ تَـدْخُـلُـهُ   يَا لَيْتَ شِـــعْرِي هَذَا البَابُ مَا الدَّارُ؟
الـدَّارُ دَارُ نَـعِـيْـمٍ إنْ عَـمِـلْـتَ بِمَـا   يُـرْضِي الإلَـهَ وإنْ خَـالَـفْـتَ فَـالـنَّـارُ
هَـاتَـانِ دَارَانِ مَـا لِـلـخَـلْـقِ غـيرُهُـمَا   فَـانظُرْ لِنَفْسِـــكَ أيُّ الـدَّارِ تَخْتَـارُ
تُفْنِي اللَّـذَّاتُ مَنْ قَـدْ نَـالَ شَـــهْوَتَهَـا   مِـنَ الـحَـرَامِ، وَيَـبْـقَـى الـوِزْرُ والـعَـارُ
تَبْقَى عَوَاقِـبُ سُـــوْءٍ فِي مَغِيبَتِهَـا   لاَ خـيرَ في لـذّةٍ مِـنْ بَـعْـدِهَـا الـنَّـارُ

فأقبل أحمد على صالح البصري وقال له:

ـ يا شيخُ إنّ الله اطَّلَعَ على قلبي، فأحرقتْهُ حلاوةُ ذكرِهِ.

ثم وقف أحمد ونزع ما كان عليه من الخَزِّ والحرير، والذَهَبِ، وأخذ من أحد الفقراء جُبَّة من الصـوف وأعطاه ثيابه، وأقبل نحو عسـاكره وجنوده وقال لهم: اذهبوا إلى أبي وقولوا له إنَّ ابنك أراد أن يسيحَ على وجهه في الأرضِ، فإن أردت رؤيته فأسرِعْ إليه.

فذهب بعضُهم مسرعاً إلى الخليفة الرشيد، ودخلوا عليه وقالوا له: يا أمير المؤمنين! حَرَسَ الله بكَ الدين، وجعَلَكَ من عباده المهتدين، وقرَّ بك العيون، وأحسن فيكَ الظنون. إنّ ولدك أحمد قد خَلَعَ ما كانَ عليه من الثياب الفاخرة، ولبس الصوفَ على جسده، وتعمَّم بمئزر من الصوف، وهو يقول لك: إن أردتَ وداع ولدك فأَسْرِعْ إليه. فلمّا سمع الرشيد ذلك الكلام، أقبل نحو ولده مسْرِعاً، ثمّ قال له: يا ولدي! كيف يقوى جَسَدُكَ على الصوف بعد رقيق الكتان وناعم الحرير؟

فقال أحمد: يا أبتِ! يا أمير المؤمنين لقد فكّرتُ في الموت وغصَّتِهِ وفي القبر وضيقته، ومنكر ونكير[1]، ومسألته، والدُّودِ وصولته[2]، والصراط ودقّتِهِ، فهان عليَّ لبس الصوف، وذكرتُ العَرْضَ والوقوف بين أيدي المَلِكِ الدائم الباقي المعروف، وهو الله تعالى الحليم الرؤوف، فهانَ عَلَيَّ ترك الأهل والأوطان.

فقال هارون: يا بُنَيَّ! أنا أبني لك ببغداد بيتاً تعبد الله فيه، وأُجْرِي عليك الصدقة كما أُجرِيْهَا على الفقراء والمساكين ولكن اِبْقَ بجانبنا ومعنا.

فقال له: يا أبتِ! أحبُّ أن أجوعَ كما كُنْتُ أشبع، وأصيرَ ذليلاً كما كنْتُ عزيزاً. فقال هارون: يا ولدي! لا صَبْرَ لي على فراقك، ولا أُطيق جَفَاكَ وتحرقني نيران أشواقك،فكيف يا ولدي ويا حشاشة كبدي، ويا ذخري، ويا سندي، تقدر على فراقي وفراق أمِّك ويحلَّ لك من الله تعالى أن تكدّر عيشنا؟ فأنشدَ أحمد عند ذلك يقول:

أُفَارِقُ فِي الدُّنْيَا خَلِيْلي وَصَاحِبي	مَخَافَةً أنْ يَرْمُوْنِي فِي المَصَائِبِ
مُفَارَقَةُ الخِلاَّنِ أَهْوَنُ لَوْعَةً	عَلَيَّ مِنَ التَّوْبِيْخِ يَوْمَ أُحَاسَبِ
وأَهْوَنُ مِمَّا أَنْ يُنَادِي مُنَادٍ	خُذُوهُ فَغِلّوهُ فقد كانَ كَاذِبِ
إذَا نُصِبَ المِيْزَانُ للفَصْلِ وَالقَضَا	هُنَالِكَ لاَ يَنْفَعُ خَلِيلِي وَصَاحبي

(١) منكر ونَكِيْرٌ : الملَكَانِ المُكَلَّفانِ بحِسَابِ القبْرِ .
(٢) الصَّوْلَةُ : التجوَالُ، وصَولَةُ الدُّودِ تعني تجوالهُ داخلَ جَسَدِ الميّتِ .

ثمّ قال: لا بدّ لي من ذلك، وأنا أستودعك الله.

فمضى أحمد مع صالح البصري، فنادى هارون برفيع صوته: يا صالحُ، يا مَنْ لا تخيبُ عندَهُ الودائعُ.

فقال صالح: يا أمير المؤمنين! الله ألطفُ بعباده من أُمٍّ الإنسان وأبيه.

فقال هارون: وأنتَ يا صالحُ تكون خليفتي عليه، إن عاش فسَاوِهِ بنفسِكَ، وإن ماتَ فوارِهِ الترابَ.

ثمّ بلغ الخبرُ ساعتَها زُبيدةَ أم أحمد، فصرخت صرخةً عظيمةً وخرَّتْ مغشياً عليها، وعندمَا استفاقتْ أنشدتْ تقولُ:

أَبْكي عَلَيْكَ وَلاَ أُرِيْدُ سِوَاكَ ... أَسَفاً عَلَيْكَ ولا أُطِيْقُ جَفَاكَا

وَيَا نُورَ عَيْنِي يَا عَزِيْزِي إِنّني ... كَقَلْبِي مُعَلَّقٌ مُنَيَتي بَوَلاكَا

شوقي إليكَ عَلَى المَدَى صَبَابةً ... كيفَ السبيلُ إنْ اِمتنعَتْ رُؤْيَاكَا

يَا حَسْرَتَاهُ عَلَى العَزِيْزِ، وَآهٍ لَوْ ... مِنْ بَعْدِ مَوْتِي كَانَ مِنْكَ ذَاكَا

أُوْدَعْتُ شَخْصَكَ للذي خَلَقَ الوَرَى ... وَيُنِيْلُكَ المَقْصُودَ يَوْمَ لُقَاكَا

وَيُنِيْلُنِي صَبْراً جَمِيْلاً سَيِّدِي ... كَيْ تَطْمَئِنَّ النَّفْسُ عِنْدَ ذِكْرَاكَا

أرْجُو مِنَ الرَّحْمَنِ يَجْمَعُ شَمْلَنَا ... لو مَرَّةً ألثُمُ بها يُمْنَاكَا

لمّا فرغت الستُّ زبيدة من هذه الأبيات ارتفع البكاء والصياح، وازداد في كلّ الأنحاء النُّواح، وعَلِمَ البعيدُ والقريبُ، ثمّ أقبل أحمد على أبيه وقبّل يديه وضمَّه إليه وودّعه، وقَبَّلَ يدي أمِّه فضمّته إلى صدرها وبكت كثيراً، فقال أحمد لهما:

يا والداي هذا الفراقُ فراقُ اشتياقِ، والسلام عليكما إلى يوم التلاقي.

فقال هارون: يا ولدي هل تحتاج إلى شيء من النفقة؟

فقال: يا أبتِ! لو أردتُ ذلكَ ما فارقتُك أبداً، ولكن أريدُ أن تدفعَ إليَّ الخاتمَ الذي في إصــبعك والمصحف الذي تقرأُ فيه حتى أذكرك فيها ما عشتُ، وإن داهمني الموتُ أوصيتُ بردّهما إليك. فبكى هارون عند ذلك وأعطاه المصحف والخاتم. فأخذهما أحمد وسار بصُحْبة صالح البصري يطوفُ معه البلاد، ويقطع الوهاد[1]، في طاعة ربّ العباد، إلى أن دَنَتْ من صــالح الوفاةُ، فقعد أحمد عند رأســه، ونظر إليه فرآه قد عَرِقَ جبينُهُ، وامتدّ عرنينُه[2]، وقَلَّ أنينُه، واصــفرَّتْ منه الوجنتان وامتدّ الحاجبان، فبكى أحمد بكاءً شــديداً، وقال: أَصَــالحُ! يا سـيّدي، قد بقيتُ في هذا الدّار وحيداً، وبين الخلق فريداً فمَنْ يكونُ لي بعدك نصيراً عضيداً؟

فقال صــالح وهو يَنْزَعُ: يا بنيّ! خلَّفتُكَ لمَنْ هو أرحم منّي بك، وأشـفق عليك من والديك، هو الله الذي لا إله إلاّ هو، يرشــدك إلى الطريق الواضــح، ويمدُّكَ بالعقل الراجح، يا بنيَّ! إذا تجرّعْتُ غصصَ الموتِ وقضيتُ نحبي، ولحقتُ بربِّي، لا تواريني تحت التراب ولا تكفِّنّي، بل اقرأ عليّ من آيات الكتاب، ثمّ اتركني فإنّ الله سيتولّى أمري ويوفيني أجري، واقصُدِ البصرة فإنّها مسكنُ العبّادِ، فإنّك تفوز بينهم بالمراد. ثمّ إنّ صالحاً قد لحق بربِّه وقضى نحبه، وسلّم أمانته وسار بدرب نجاته وخلاصه. فاستوحش أحمد إذ حلَّ الليلُ وَحْدَهُ دون صاحبٍ أو خليلٍ، فقال بعض الأبيات وهو يبكي:

كَـيْـفَ صَـــبْرِي عَـلَى فـراقِ خَـلِـيْـلِي ... وَعَـزَائِي عَـلَى الـحَـبِـيْـبِ الـخَـلِـيْـلِ

يَـا دَلـيْـلي إلى سَــــبِـيْـلِ نَـجـاتِي ... سَـــوْفَ أَبْكِيْـكَ بـالنَّحْـبِ الطَّوِيْـلِ

كُـنْـتَ لِي وَالـدَاً شَــــفِـيْـقَـاً رَفـيـقَـاً ... وَدَلِـيْـلاً إِلَى الـهُـدَى والسَّـــبِـيْـلِ

فَـعَـلَـيْـكَ السَّـــلاَمُ مِـنِّـي دَوَامَـاً ... ثُــمَّ إِلَى الـحَشْرِ خَـيْرُ مُـنِـيْـلِ

(١) الوِهَادُ : الأَراضِي المنُخفضةُ كأنّها حفرةٌ بينَ الجِبالِ .
(٢) العِرْنِينُ : الأنفُ كُلُّه، أو ما صَلُبَ مِنْهُ العَظْمُ حَيْثُ يكونُ الشَّمَمُ .

وبينما أحمد متفكِّرٌ في أمرهِ، ماذا يفعل بجسد صالح المتوفَى أمامه، هل يستمع لكلامه ويتركه دون كَفَنٍ أو دَفْنٍ أم يدفنُه دون غَسْـلٍ أو كَفَنٍ وهو في هذه البريّةِ وحيدٌ لا يملكُ ماءً كافياً أوأكفاناً، وإذ بثلاثةِ رجالٍ قد أقبلوا عليه من صَـدْرِ البريَّةِ، فلمَّا وصـلوا سـلَّموا عليهِ، فَردَّ السـلام مسـتغرباً قُدُوْمَهُم فرحاً بما يحملونه، ثمّ أخدوا في غسـيل جسـدِ صـالح وكفّنوه ثمّ صـلّوا عليه صـلاة الجنازة ودفنوه (رحمة الله عليه)، وأقبلوا على أحمد وقالوا له: لا تستغربْ ما رأيتَ و شاهدتَ، إنَّنا من عباد الله الذين في الأرض متجوّلون فإذا مات أحد العُبَّاد الصـالحين، ولم يكنْ مَنْ يدفنُهُ في أي موضـع كان يرسلُ الله سبحانه إلينا مَنْ يعلِمْنَا به، فنأتي حاملين الكَفَنَ ومستلزمات الدَّفْنِ ونفعلُ كما رأيتَ.

ثمّ تركوه وانصرفوا، فحمدَ أحمدُ الله على فضلِهِ وعَلِمَ معنى قول صالح لهُ أَنَّهُ وكَّلَهُ إلى مَنْ هوَ أشـفق عليه من والديه. لكنّه بقي متحيِّراً في أمره لا يقرُّ له قرار، أينَ يذهب وكيف؟! فبعثَ الله سبحانه رجلاً من بعض النواحي متوجِّهَاً إلى البصرة، فسار معه حتّى أشرف على البصرة وهو ساكتٌ طوال الطريق يتمتمُ بكلام غير مفهوم. وكان هذا الرجل قد سلَّم على أحمد لحظة لاقاه متحيّراً، وقال له: اتبعني.

ولم يتفوَّه الرجل بكلمة غيرها حتّى وصـلا مشـارفَ البصرـة حيث قال الرجل له: هذه البصرـة، ادخلْها، عليكَ رحمةُ اللهِ ورضوانه. رغم أنّ أحمد لم يخبر الرجلَ عن مَقْصَدِه وغايتهِ. فنظر أحمد إلى البصرة وقال: إنّها غَايةُ مقصدي، ففيها مساكِنُ العُبَّاد كما قال الشيخُ صالحٌ رحمهُ اللهُ. والتَفَتَ نحو الرجلِ ليشكرَهُ على إرشاده فلم يجدْهُ، فقد اختفى فجأة كما ظهرَ، فاستغرَبَ أحمدُ وشكرَ ربَّهُ الذي لم يتخلَّ عنه، ويرسلُ له دائماً من يساعده ويكون عوناً له.

ثمّ دخَلَ البصرـةَ وجعلَ ينادي وهو يدور فيها: يا نيام اسـتيقظوا من الغفْلَةِ، ما دامَ في الوقتِ مهلةٌ، اليوم عملٌ بلا حِسَابٍ، وغداً حِسَابٌ بلا عَملٍ.

فكان الناس عند سماعهم مناداته، يوقفون أ شغالهم ويُقْبِلُونَ عليه وينظرونَ إليه، وإلى عذوبةِ منطِقِهِ، وحُسْنِ وجهه ثم يغادرون، ومضى أحمد في مناداته يطوف

أنحاء البصرة، لا يسأل الناس شيئاً ولم يكن معه ما يأكلُهُ، حتّى أخذَ عليه الجوعُ، ولم يعدْ يقوى على السير، فمضى إلى سوقِ القُطْنِ، وأقْبَلَ على شيخٍ لا يعرفه يُقَالُ له (عبد الله القَطَّان) فسلَّم عليه، فَرَدَّ عبدُ اللهِ الـسَّلامَ، فقال أحمد: يا سيّدي! أنا غلامٌ غريب، ولا أعلم من مكاسب الدنيا شيئاً، فهل لكَ أن تقرضني ثمنَ سَلَّةٍ أشتريها وأحملُ فيها للناس بأجرةٍ أعتاشُ منها؟ وإن أعطيتَ شكرتُ، وإنْ منعتَ صبرتُ.

فقال الشيخُ: يا غلامُ! لا تبدو عليك آثار الحَمْلِ والجَلَدِ على ذلكَ، وإنّي أراكَ رقيقَ العودِ، طريَّ الجَسَدِ، فكيفَ يمكنك أن تقوى على العملِ المُجْهِدِ؟ واعلمْ أنَّني رجلٌ كبيرُ السنِّ، ولي مالٌ كثيرٌ، وعندي بنتٌ وحيدةٌ ذات حُسْنٍ وجَمَالٍ، وبهاءٍ وكَمَالٍ، فهل لكَ أن أزوِّجَكَ بها، وأنا أقفُ بين أيديكما أقدّمُ لكما ما تحتاجانه، وأخدمكما إلى أن يحكمَ اللهُ عليَّ بحُكمِهِ النافذِ الذي لا مَرَدَّ منهُ؟

فقال أحمدُ: بَيَّضَ اللهُ ثَناكَ، وشَكَرَ اللهُ مسعاكَ، ولكن يا شيخُ نعمتُكَ تزولُ، ولا خير في نعمةٍ تزولُ ولذَّةٍ تحُولُ، وليسَ لي قَصْدٌ من الدنيا محصولٌ، بل أنا منقطعٌ إلى خالقي بالكليَّةِ، ومقرٌّ له بالوحدانيَّة، مُتَطلِّبٌ منه نَيْلَ قصْدي بالوصولِ وبلوغ المأمولِ.

ثمّ هَمَّ أحمد بالانصراف، فقالَ له الشيخُ: وَفَّقَكَ اللهُ إلى جزيل ولاه، قِفْ وخُذْ ما تريدُ. فأخذَ أحمدُ درهماً واحداً وقال: يا شيخُ! أ هذا الدرهمُ قُرْضةٌ أم صَدَقةٌ؟ فقال له بعد أن رأى منه ما رأى وخافَ ألاَّ يقبلَه: هو قرضةٌ تعيدُه ساعةَ تريد.

فأخذ أحمد الدرهم وسار في السوق، واشترى سَلَّةً، وجعل يحملُ فيها للنَّاسِ حاجاتهم، فمَنْ أعطاهُ شَكَرَ، ومَنْ مَنَعَهُ صَبَرَ. ثمّ أعادَ الدرهم للشيخ عبد الله، وتعوّد زيارته كلَّ أسبوع مرَّةً، وقدْ نَشَأَتْ بينهما مودَّةٌ وصداقةٌ. ثمّ انقطع خبر أحمد عن عبد الله لفترةٍ، فسأَلَ عنه، فقيل له: إنَّه يعمل مع البنَّائين يحملُ الطينَ بسلَّتِهِ. فذهب عبد الله إلى سوق الفَعَلَةِ[1]، فوجده قد لَبِسَ جبَّة من الصوف، فقال له:

---

(١) الفَعَلَةُ : ج فاعِل وهو العامِلُ بالبناءِ والطين والحَفرِ .

يا حبيبي ويا صديقي! أتعملُ في الطين ومَالَكَ قدرةٌ على ذلك ولا جَلَد؟
فقال: إني أعمل يوماً واحداً تكفيني أجرتُه أسبوعاً.
فقال عبد الله: لِمَا انقطعت عن زيارتي، وكنتَ تزورني أسبوعياً؟
فقال: يا سيدي، الوقتُ ضيّقٌ، وأخافُ أن أقصِّرَ تجاه خالقي.
فردَّ عليه: أنا أزورك إن شاء الله. فأنشد أحمد يقول:

أَرَى الــدُّنْــيَــا تَــؤُولُ إلى الــنَّــفَــادِ وَأَهْــلُ الــوِدِّ مِــنْ أَهْــلِ الــوِدَادِ
فَشَـــمِّـرْ وَاجْـتَـهِـدْ تَـلْـقَ رَشَـــادَاً وَلا تَـفْـعَـلْ فـتـنـدمْ في المَـعَـادِ

وبقيَ عبد الله القطّان يزوره في ذلك السوق، ويعرف أخباره مدّة من الزمن، ثم مرض عبد الله فانقطع عن زيارة أحمد شهراً، وبعد أن تعافى ذهبَ إلى السوق وسأل عنه فقيل له أنّه قَدْ مَاتَ، وشَرِبَ شرابَ الآفاتِ وتولّى أمره رجلٌ يقال له ا سحق، فحزن عليه حُزْناً عظيماً وبكى على شبابه كثيراً، ثمّ قرَّر أن يمضي إلى اسحق ليعرف خبر موته، فذهب وسأل عن اسحق الشيرازي، فأرشدوه إلى داره، فوقفَ على البابِ وطرَقَهُ، فجاءَهُ صوتٌ من الداخل: مَنْ في البابِ؟

فقالَ: عبدُ اللهِ القطّان.

ففتح الباب وخرج إليه شيخٌ كبيرُ السّنِّ، حَسَنُ الهَيْئَةِ والمنظَرِ، عَلَيْهِ نورُ الإيمان، ودلائل عباد الرحمن، يحيا حياة العبادة والصلاح ويسيرُ بدرب النجاة والفلاح. فسأله: هل لكَ من حاجةٍ عندي، أقضيها لك إن شاء الله؟

فقال عبدُ الله: هل تعلم لي خبر غلامٍ، حَسَنِ الوَجْهِ، نحيلِ الجسمِ، صائم الدهر لباسُه الصوفُ، كثيرِ البكاء، دائم النوحِ والشَجاءِ[1] يعملُ في الطين من السبت إلى السبت، بدرهم ودانقين، يأكل بالدانقين[2]، ويتصدّق بالدرهم؟

فلمّا سمع اسحق كلام عبد الله بكى بكاءً شديداً وقال: واحزناه!، وأسفاه! على

(١) الشَّجَاءُ : الشَّجْوُ : أي الهَمُّ والحزنُ .
(٢) الدَّانِقُ : سُدْسُ الدِّرْهَمِ .

ذلك الغلام. لقد قضى نحبَهُ، ولحق بربِّهِ رحمةُ اللهِ عليه، لم أعرفْ مثله طوال حياتي. فمن أينَ تعرفُه وهو شابٌّ غريبٌ لا يأْنَسُ إلى خلٍّ أو حبيبٍ؟

فقال عبد الله: إنّه لمّا دخل البصرة، أَتى إليَّ مرّة وقال لي أقرضني درهماً أشتري به سلّةً.... وقصَّ عبدُ الله على اســحق ما جَرى، ثمّ قال له: وعندما عرفتُ أنّكَ تولَّيتَ أمرهُ بمماتِهِ أتيتُ أســألكَ عن خبرِهِ.

فقال اسحقُ: يا شـيخُ حديثُهُ يطولُ، ويكثُر فيه القولُ، فإن كُنْتَ تريدُ أنْ تسـمعَ ما جرى له، أدخلْ معي إلى منزلي حتّى أحدّثَكَ حديثه، وأخبركَ خبره. فدخلَ عبدُ الله معه إلى المنزل، ولمّا اســتقرّ بالجلوس قال له: هات حدثني خبره وكيف مات.

فقال اســحق: اعلمْ أنَّه كانَ لي بُنيَّةٌ زاهدةٌ في الدنيا، فدخلتُ عليها ذات يومٍ فوجَدْتُها جالســةً في محرابها تبكي بكاءً شديداً، فقلتُ لها: ما الذي أبكاكِ يا بُنَيّتِي؟

فأجابت: يا أبتِ، لقد تفكّرتُ في الموت وغصّته، والقبر وضيقته، ومنكر ونكير ومسألته، والدود وصولته، والصراط ودقّته.

فقلت لها: يَا بُنَيّتِي! لقد فكّرتِ في شيءٍ عظيم ويتفكّر فيه المتفكِّرون، ويعتبر فيه المعتبرون. فقالت: يا أبتِ! ما جزاء من عَصَى الله؟

فقلتُ: نارٌ حرّها شديد، وشرابُ أهلها من الصديد، حتّى إذا حلّوا في قرارها، وظنُّوا أنهم ناجون من لَسَعَاتِ عقاربها وحياتها، قذفتهم إلى سعيرها، فهي كما قَالَ الله تَعَالَى عنها في كتابه العزيز:

((إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً {٤})). الإنسان

فقالت: وما ثوابُ مَنْ أطاعَ الله تعالى؟

فقلتُ: جَنَّةٌ وحرير، لباسُ أهلها السندس[1] والإستبرق[2]، وفُرشُهم الديباج الوثير، وهي كما قال عنها تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةُ الأبوَابِ).

---

(١) السُنْدُسُ : نوعٌ من الحريرِ الرقيقِ، والديباجِ الملوَّنِ .
(٢) الإستبرقُ : نوعٌ من الحريرِ الغليظ المزيَّن بالذهبِ .

فقالت: يا أبتِ أعلمُكَ أنَّ لجيراننا ولدٌ قد بلغ مبالغَ الرجال، وهو كل يوم يشرف[1] عليّ مرّة ومرتين، فتارة أكون أصلّي وتارة أكون راكعة، من حيث لا أعلم به. فقلتُ لها: يا بُنيّة! السترةَ منهُ، فإنّ السترة عند الله بمكانٍ عظيمٍ، ثم قرأتُ لها:

((قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ {٣٠})) سورة النور

فقالت: يا أبتِ إنَّه يفعلُ ذلكَ عامداً، قاصداً اختلاس النَّظَرِ.

فقلتُ: إذا كان الأمر كذلك، فغداة غدٍ آتيكِ بصانعٍ يبني بيننا وبينه جداراً يحجبُ الرؤيةَ عنهُ، فلا يعود يراك ولا ترينه.

فقالت: يا أبتِ لا تأتيني إلاّ بصانع يكون كثير الخير، قليل الشرّ، لا يفترُ لسانُه عن ذِكْرِ الله تعالى.

فلمّا أصبحتُ نهضتُ وصلَّيْتُ، وأتيتُ سوقَ الفَعَلَةِ، فوجدتُ ثلاثين عاملاً جالسين، فالتفتُّ يميناً وشمالاً، ثمّ ناجيتُ منهم شابّاً حَسَنَ الشباب، نحيلَ البَدَنِ، دقيقَ العظمِ، عليه أثرُ النعمةِ، وهو لابسٌ صوفاً، وبين يديه سلَّةٌ، وهو لا يحلُّ من ذكر الله تعالى، فسلَّمتُ عليه، فَرَدَّ السلامَ وهو مطرِقٌ إلى الأرض، وهو يبكي ويُنْشِدُ:

تَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلِي فَبِتُّ مُشَرَّداً	وَحِيْداً فَرِيْداً فِي البِلَادِ أَدُوْرُ
وَلِي وَطَنٌ مَا رَأَيْتُ فِي الأَرْضِ مِثْلَهُ	وَلَكِنْ أَحْكَاماً جَرَتْ وَأَمُوْرُ
لأَنَّ قَضَا الرَّحْمَنِ فِي الأَرْضِ سَابِقٌ	وَرَبِّيَ عَلِيْمٌ وَمَا يَشَاءُ قَدِيْرُ

فلمّا أتمّ شعره قلتُ له:

يا غلامُ! هل لكَ أن تعمل معي اليومَ؟

(١) يشرف : يُطِلُّ من مكانٍ مرتفعٍ .

فقال: للعمل خُلِقْنَا لو عَقِلْنَا.

فقلتُ: ما سألتُكَ عن عمل الآخرة، ولكن أسألك عن عمل الدنيا.

فقال: نعم.

قلتُ: غرضُنَا أن تعملَ جداراً حاجزاً بيننا وبين جيرانٍ لنا لم يعرفوا حق الجار.

فقال: أوافقُ، ولكن على شرط.

قلتُ: وما شرطُكَ؟ قال: لا تحّملني ما لا أطيق، وأن تدعني أصلّي الصلاة على أوقاتها. وأنا أجبل الطين، وأشيلُ بالزنبيل، وأستعينُ بربِّ العالمين، فإذا أوفيتُ العمل توفيني أجرتي.

فقلتُ له: وما أجرتُكَ؟

قال: درهم ودانقان.

فأجبته: توكلنا على الله، فَسِرْ معي ولا بأس عليك.

فقال: بسم الله والحمد لله، ثمّ سار ورائي يتبعني، وبينما نحن سائرون وإذا بجنازة تمرُّ أمامنا، فوقفنا، ولمّا نظر إليها تنفَّس صُعُدَاً[١٢]، وتنهَّدَ كمداً، وقرأ: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتَ...) ثم أنشد: ثم بكى بكاءً شديداً، ونادى: واغربتاه!... واحسرتاه على ما فرَّطْتُ في حقّ الله عليَّ، ثمّ جعل يقول:

نُـرَوَّعُ بِـالـجَـنَـائِـزِ كُـلَّ يَـوْمٍ	وَيُـحْـزِنُـنَـا بُـكَـاءُ الـنَّـائِـحَـاتِ
كَـأغْـنـامٍ أَغَـارَ الـذّئْـبُ فـيـهَـا	فـلـمّا عَـادَ عَـادُوْا رَاتِـعَـاتِ
نَسَـوْا المَـوْتَ مـا ذَكَـرُوهَ يَـوْمَـاً	وَمَـا عَـلِـمـوا بِـأَنَّ المَـوْتَ آَتِ
وَلاَ يَـوْم الـحِسَـابِ هـم يَـخـافـونَ	ولا ذَكَـروا عَـذَابَـاً مِـنْـهُ آتِ

(١٢) الصُّعُدُ أو الصُّعُدَاءُ : التنفسُ الطَويلُ الذي يرافقهُ التحسُّرُ والتَأَوُّهُ .

غَـرِيـبٌ شَــجَـاهُ الـبَـيْنُ وَهُـوَ مُـوَلَّـعُ بَعِيْـدٌ عَنِ الأَوْطَـانِ ضَــاقَـتْ مَـذَاهِبُـهُ
تَـغَـرَّبَ عَـنْ أَوْطَـانِـهِ فـتَـفَـجَّـعَـتْ لِــفُــرْقَـتِــهِ أَحْــبَــابُــهُ وَقَــرَائِــبُــهُ
فَيَا وَيْحَ مَنْ أَمْسَى عن الأَهْلِ هَار باً وَطـوبى لِـمَـنْ قَـدْ يَـفْـقِـدْهُ أَحْـبَـابُـهُ
فَلَوْ مَلكَ الدُّنْيا غَرِيبٌ لَما صَفَتْ لَـهُ بـفـراقِ الأهـلِ يَـومـاً مَشَــارِبُـهُ
إذَا مَـا خَـطَـرَ تَـذكَـارُهُـمْ بِـفُـؤَادِهِ جَرَى دَمْعُ عَيْنَيْهِ وَفَاضَـتْ سَـوَاكِبُهُ
لِكُـلِّ اِمْرِىءٍ خِـلٌّ وإِلفٌ وَصَــاحِـبُ وَكـلُّ بَعِيْـدِ الـدَّارِ فَـالحُزْنُ صَــاحِبُـهُ
فـآهٍ مِنَ البَيْنِ المشـتّـتِ شَـمْلَنَـا وآهٍ عَـلَى عَـيْـشٍ تَـقَضَّــتْ أَطَـايـبُـه

وتابعنا سيرنا فلمّا وصلنا الدار، قرأ:

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ {٤٦}) سورة الحجر

ثم أوقفتهُ على حدود العمل، فلَمسَ التراب وقرأ:

((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى {٥٥})) سـورة طه

ثمّ شدَّ وسطه وجعل يعمل في الطين، ثمّ قرأ:

((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنَ الطِّيْنِ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفةً في قرارٍ مَكِيْنٍ...)) سورة المؤمنون

ولم يزلْ مجدّاً في العمل إلى وقت صـلاة الظهر، فلمّا أُذِّنَ نفضَ يديه من الطين، وتوضَّـأَ وصَـلَّى، فلمَّا انتهى عرضـتُ عليه الطعام فأبى أن يأكلَ شـيئاً، وأقبلَ على العمل مجدِّاًحتى المغرب، فلمّا سـمع الآذان صلّى ثم قال: يا شيخُ قد وفَّيتُ لك العمل، فَوفِّ لي أجرتي يرحمك الله.

فدخلتُ إلى زوجتي فقلتُ لها: إنّي أرى أثر العبادة على هذا الشـــاب، فهل نعصي ــ عليه أجرتَه ونستخبره حتى يبيّن لنا زهده؟

فأبقيتُ من أجرته في الميزان بعضـاً من الدراهم حتى نرى ما يقول فقال: يا شـيخُ! هل كان في عملي تقصـــير؟ فو الله هذان الدانقان حظّي من الدنيا والدرهم حظّي من الآخرة، ثمّ وَلّى هارباً، فتبعتُهُ فلم ألحقْهُ، فرجعتُ إلى منزلي متفكِّراً في أمري، وَبِتُّ ليلةً طالتْ عليَّ وأنا ألوم نفسي ــ على ما فعلتُ، إلى أن أصبحتُ، فصَلَّيتُ الصبحَ وذهبتُ إلى سوق الفَعَلَةِ فوجدتُ بعضَهم فقلتُ لهم: بالأمسِ كان هنا غلامٌ وعليه جبّة صوف فأينَ هو؟

فأقبل بعضُهم على بعضٍ وقالوا: عَسَاكَ تطلبُ أحمد السبتي؟

فقلتُ: هل هو يهودي حتى تقولوا عنه السبتي؟

فقالوا: لا. واللهِ ما هو يهودي، ولكنّه رجلٌ صـالحٌ يعملُ يوم السـبت فقط ويقضي ـ بقيّة أيّامه متعبّداً، يأخذ أجره درهماً ودانقين يتصدّق بالدرهم ويأكل بالدانقين.

فرجعت إلى منزلي ومكثتُ إلى يوم السـبتِ، وخرجتُ إلى السـوق لأُحضِرَ ـ عاملاً يتمُّ لنا العملَ. فقالت لي البُنيَّةُ: يا أبتِ! بالله عليكَ ألا تحضرَ لنا إلاّ الصانعَ الذي كان عندنا. فقلتُ: ولم ذلك؟ قالت: لأني نظرتُ إليه وهو يعملُ، وكذلك وهو يُصَـلِّي فكانَ كُلَّمَا سَـجَدَ ورَكَعَ ارتفعَ البناءُ إلى فوق. فقلتُ لها: لقد زِدْتنِي فيه رغبةً يَا بُنَيَتي.

ثم ذهبتُ إلى سوق الفَعَلَةِ، فسَلَّمْتُ عليهم وقلتُ لهم: يرحمكم الله هل رأيتم السبتي اليوم؟ فقالوا: ما رأيناه اليوم، ولا السبت الماضي فلَعَلَّ عنده عذرٌ أَخَّرَهُ عن

القدوم للعمل، فهذا ليس من عادتِهِ، فجلســـتُ عندهم أنتظرُ، ولمّا تأخَّر الوقتُ بالانتظار قلتُ لغلامٍ منهم: هل تعرف أين يأوي الســبتي ولك عندي أجرة يومٍ؟ فقال الغلامُ: يا شــيخُ معاذ الله أن آخذً منك أجرةً على الإرشاد إلى مكان ذلك الغلام الصالح الزاهدً. فعهدي به يسكنُ المساجد المهجورة ينظف طرق المسلمين، ويسقي الأيتام ويعمل يوم السبت بخلاف اليهود ويسكنُ خرائب المدينة. ثمّ سار الغلامُ بين يديّ إلى آخر خراب المدينة حيث أوقفني على السبتي، ثمّ تركني ذلك الغلام ومضى في حاله ثمّ إنّي وقفتُ على باب الخرابة، وإذ ببكاءٍ يخرجُ وقائلٍ ينشدُ:

ضَـــجُـورٌ مِـنْ مُشَـــاهَـدَةِ الـرِّجَـالِ	نَحِيْـلُ الجِسْــمِ مِنْ فَرْطِ السُّــؤَالِ
عَـلِـيْـلٌ لَـيْـسَ فَـوْقَ الأَرْضِ مِـنْـهُ	مِنَ الكَـدِّ الشـــديـدِ سِــوَى الخَيَـالِ
يَـرَى قُصْرَـــ الـنَـهَـارِ عَـلِـيْـهِ طُـوْلاً	فـيُسْـــلـمُـهُ إِلَى ظُـلَـمِ الَـلـيَـالي
إذَا ذَكَـرَ الـذُّنُـوبَ بَـكَى عَـلَـيْـهَـا	بِـدَمْـعَـةٍ شَـــدِيْـدَةِ الإِنْـهِـمَالِ
صِـــيَـامُ الـدَّهْـرِ أَوْرَثَـهُ سِـــقَـامَـاً	وَغَـيَّرَ مَـا يُـرَى مِـنْ سُـــوْءِ حَـالِ
فَـإِنَ الصَّـــبْرَ أَحْسَـــنُ مَـا يُـرَجَّـى	بـهِ الإِنْسَـــانُ مِـنْ أقـوى الســـؤالِ
إِلى مَـــنْ يَـرجِـعُ المَـمْـلُـوكُ إِلاَّ	إِلى مَـــوْلَاهُ يَـــا مَـوْلى المَـــوالِي

فلمّا دخلتُ عليه رأيتُه يعالج سَـكَرَات الموت، وهو يقول: لقد كان لكم في رســول الله أســوةً حســنة. وكان الســبتي ملقىً على قطعة بالية وتحت خدِّه لَبِنَةٌ من الطين اليابس،وقد أكلتْ نعومةَ خدّه. فقعدتُ عند رأسه، فلمّا رآني قال لي: يا شيخُ اسحق! ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟

فقلتُ: يا حبيبي أتى بي الشوقُ إليكَ،فكيفَ أنتَ يا مولاي؟

فقال: قد قَرُبَ الرحيلُ ودنا التعجيلُ، ثمّ قرأ: وكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ. وأغشيـــ عليه، فرفعتُ رأسه في حِجْري، ومسحتُ وجهه بيدي، ففتح عينيه وقال لي:

يا اسحق! هذا هو الفراق، فمتى يكون التلاقي؟

فقلتُ له: يا حبيبي هل لك من حاجة؟ فقال: أَوَ تقضيها؟!

فقلتُ له: إن شاء الله. فقال: أريدك أن تطوّلَ عمري وتفسح لي أجلي وتدخلني الجنة.

فقلت له: يا حبيبي وهل يقدر على ذلك إلاّ الله تعالى؟

فقال: يا بَطَّالُ! وهل صدَّقتَ أنّي أحتاج بشراً؟ ما لي إليك حاجة.

فقلتُ: لكَ عندي بقية أجرة ذلك اليوم وهو حقُّكَ.

فقال: لا حاجة لي فيها، بل تصدَّقْ بها على الفقراء والمساكين. ارفع هذه البالية وانظر ما تحتها، وجعل يبكي ويقول شعراً:

أَرَى كُلَّ مَوْلُوْدٍ إِلَى المُوْتِ يُوْلَدُ	وَلَسْتُ أَرَى حَيَّاً يَعِيْشُ مُخَلّدُ
تَجَرَّدْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ سَوْفَ	مَا تخرجُ من الدُّنْيَا إلاَّ وَأَنْتَ مُجَرَّدُ

ثم أعطفَ بأبياتٍ أخرى فقال:

دَمْعُ العَيْنِ عَلَى الخُدُوْدِ يَسِيْلُ	وَالعُمْرُ يَنْفَذُ وَالنَّعِيْمُ يَزُوْلُ
وَإِذَا أُعْطِيْتَ وِلاَيَةً فَاعدِلْ بِهَا	وَاعْلَمْ أَنَّكَ بَعْدَهَا مَعْزُوْلُ
وَإِذَا رَأَيْتَ جَنَازةً مَحْمُوْلَةً	فَاعْلَم أَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولُ
وَإِذَا رَأَيْتَ أُمُوْرَ قَوْمٍ سَاءَتِ	فَاعْلَم بأَنَّكَ عَنْهُم مَسْؤُولُ
فَاعْمَلْ لِدَارٍ لا يزولُ نعيمُهَا	خَيْرُهَا دَائِمٌ وَرَغَدُهَا جَزِيلُ

فلمّا أتمّ هذه الأبيات، رفعتُ رأسه من حِجْري، ووضعتُهُ على اللَّبنةِ ورفعتُ طرف القطعة البالية وإذا تحتها كتابٌ بِخطِّهِ ومصحفٌ وخاتمٌ فقال لي: إذا قضيتُ نحبي، ولحقتُ برَبِّي، كَفِّنِّي بهذه العباءة، وصَلِّ عليَّ في جماعةٍ غرباء، وواربني التراب، وأريد منك أن تحثّ السير إلى دار السلام (بغداد) وتدفع بهذا الخاتم

والكتاب والمصـــحف لأمير المؤمنين هارون الرشـــيد وتقول له: ابنُكَ الحبيب أعادَ الأمانة أيّها الحبيب، هو الآن سَلَّمَ الأمانة لأعزِّ وأغلى حبيب.

فقلتُ وقد اســـتغربتُ أنّ هذا الغلام النحيل المتعب، العابد الزاهد يكون ابن الرشـــيد أمير المؤمنين: أَفْعَلُ إنْ شاء الله وهل لك حاجة أخرى؟

قال: نعم. ناشدتُكَ الله إذا رأيتني قد عرق مني الجبين واشتدَّ عليَّ الأنين، اقرأ عليّ سورة (يس)، وإذا خرجتْ من الجسـدِ الروحُ، ضَـعْ رجلك اليمنى على خدّي واسـحبني إلى آخر الخرابة، ونادِ عليَّ: هذا جزاء من عصى الله تعالى. عسى أن ينظر إليَّ بعين الرحمة فيرحمني.

ثم لبث ســـاعة واحدة بعد هذا الكلام، وقضىـــ نحبَه، ولحقَ بربّه رحمة الله عليه. فعند ذلك حاولتُ رَفْعَ رجلي لأضـــعها على خدّه كما أمرني، وكنت مرغماً على ذلك، وإذا بهاتفٍ يقول مُدَوِّياً: أتضعُ رجلك على خدِّ وليِّ الله، الذي لم ينكشفْ له ذيل ثوبٍ لا حلال ولا حرام؟

فعندما ســـمعتُ ذلكَ أُغشِيَـــ عليَّ من الخوف والرهبة، فلمّا أفقتُ أخذتُ في تجهيزه وتكفينه بالعباءة التي أوصاني بها، ومضيتُ أحضر حمّالين يحملوه معي إلى مسجدٍ يُصَلَّى عليه به، فلمَّا دخلتُ العمارة من البصرة رأيتُ الخَلْقَ مقبلين أفواجاً نحو المقبرة، فسألتُ بعضَهُم مستغرباً هذه الحشود العظيمة المتوافدة نحو المقبرة: عَلامَ تجتمع الناسُ عند المقبرة؟

فقيل لي: لقد سُمِعَ منادٍ في أنحاء البصرة يقول: قد مَاتَ وليُّ اللهِ السبتيّ، فقوموا للصلاة عليه قرب المقبرة. فخفق قلبي وقلتُ: صـحيحٌ أنَّه ماتَ، ولكنَّه في الخرابة، وليس هنا. فذهبتُ إلى الخرابة فلم أجده حيث تركتُهُ وكفَّنْتُهُ، فأتيتُ المقبرةَ مسرِعاً فرأيتُه على حافّةِ القبر، وهو مُغَسَّـلٌ مكفَّنٌ بأكثر من كَفَنٍ والعباءة فوق الأكفانِ الخضراءَ جميعها، ورأيتُ أئمَّة البصرة مجتمعين يصلّون عليه ثمّ أنزلوه القبرَ، ورأى الجميع مندهشين كيف صار التراب ينهال وحده حتّى غطَّى القبر تماماً.

وبعد هذا رجعتُ إلى منزلي وأخبرتُ أهل بيتي بما جرى، ثم أخذتُ زوّادة واتجهتُ إلى دار السلام قاصداً أمير المؤمنين ومعي الكتاب والمصحف والخاتم. فما أن وصلتُ حتّى رأيتُ أمير المؤمنين هارون الر شيد راكباً في جحفلِه، فرفعتُ صوتي منادياً: يا أمير المؤمنين! أنا رجلٌ غريب، وقد أتيتُ من مكانٍ بعيد، ومعي رسالة من رجلٍ حبيبٍ، بذكرِه النفوسُ تطيبُ، وهي مبعوثة إليك.

فأوقفَ الرشيدُ العسكر، وقال للغلمان: عَلَيَّ بصاحب هذا الصوت فقد أزعجني وأحرق صميمَ فؤادي صوتُه، ولي في الغربة نصيبٌ. فأخذوني إليه، وأوقفوني بين يديه. فقال الر شيد. يا شيخُ من أين أتيتَ؟ فقد أزعج صـوتك قلبي. فقلتُ: أنا رجل من البصرـة، ومعي رسـالة من غريب عن عهد قريب وعنه هذه الأبيات:

فقال الرشيدُ: ما هي رسالتُكَ أيّها الشيخُ؟

فأخرجتُ له المصحف والكتاب والخاتم. فلمّا نظر الرشـيدُ عنوانَ الكتابِ صَرَخَ صرخةً عظيمةً،

مَـا لِـلـغـريـبِ مُـجِيْرٌ فِي صَــــبَـابَـتِـهِ	إنْ قَـالَ أبْطَـلَ وَإنْ أَخْفَى الهَوَى هَلَكَـا
يَـخْـلُـو بـغـربـتـهِ في دارِ وَحْـدتِـهِ	حَتَّى إذَا مَضَّــهُ الشــوقُ الشــديدُ بَكَا
فَـفِـي الـنَّـهَـارِ تَـرَاهُ هَـائِمَـاً قَـلِـقَـاً	وَفِي الـلَّـيَـالِي تَـرَاهُ يَـرْصُــدُ الـفَـلَـكَـا
لَـوْ أَنَّـهُ مَـلِـكٌ تَسْرِــي الـجُـيـوشُ لَـهُ	مَـا كَـانَ إلاَّ غريبَـاً أينَما سَــلَكَـــــا

وهَمَّ أن يقع عن سرجه، فبادر الغلمان إليه فألزموه بالوقوف وأمســكوه جيداً، فضـجّ العســكرُ وعلا الصرـاخ والصــياح والبكاء، وهَجَمَ بعضُ الغلمانِ عليَّ بالإهانة، فأشـــار إليهم بيده ألاّ يكلموني وأن يبتعدوا عنّي.

فلمّا استعاد نشاطه وقوّته فتح الكتابَ فإذا فيه:

((وَجَـاءتْ سَــــكْـرَةُ الْـمَـوْتِ بِـالْـحَـقِّ ذَلِـكَ مَـا كُـنـتَ مِـنْـهُ تَـحِـيـدُ{١٩})) سورة ق

بَـلِّـغْ أَمَـانَـةَ مَـنْ أَوْفَى أَمَـانَـتَـهُ إِلَى الـرَّشَـــيْـدِ فَـإِنَّ الأَجْـرَ فِي ذَاكَـا

وَقَـلْ غَرِيْـبٌ لَـهُ شَــوْقٌ لِرُؤْيَتِكُمْ عَـلَى تَمَـادِي الـهَـوى وَالـبُـعْـدِ لَـبَّـاكَـا

مَـا صَــــدَّهُ عَنْـكَ إِكْرَاهٌ ولا مَلـلٌ فَـإِنَّ بُـغْـيَـتَـهُ فِي لَـثْـمِ يُمْـنَـاكـا

وإِنَّمَـا أَبْـعَـدَتْـنِـي عَـنْـكَ يَـا أَبَـتِ نَفْسٌ لَهَـا عِفَّـةٌ عَنْ نَيْـلِ دُنْيَـاكـا

فَلَمَّا قرأَ الكتابَ والأبيات، قبَّلَ الكتابَ ووضــعهُ على عينيهِ وقال: واحزناه....! وا أســفاه....! وا شوقاه إلى كَفٍّ كتبتْكَ، كيف تبلى في التراب؟، وضمَّ الكتابَ إلى صدره ثانيةً زائداً التلهُّفَ والحسراتِ، وقال: يا شيخُ سألتُكَ الله، هل شاهدتَهُ عند موتهِ؟ فقلتُ نعم. يا أمير المؤمنين. فقال: صِفْ لي إيَّاه. فقلتُ: شابٌ مليحُ الوجهِ، حَسَنُ المنظرِ، نحيلُ الجسمِ، يلبسُ الصوفَ ويصُوم الدهرَ، كثيرُ البكاء، دائمُ النوح يعمل في الطين كلَّ سبتٍ بدرهمٍ ودانقين، يأكل بالدانقين ويتصدّق بالدرهم، ولا يريد مع الله ســواه، وإنّني قد توليتُ أمرَهُ.... وأخبرتُ الرشــيدَ بكلِّ ما كان وجَرَى. فبكى هارون وقال: هنيئاً لعينٍ تمتّعت بالنظرِ إلى محبوب قلبي. هل لكَ أن تسيرَ معي إلى عند أمِّهِ وتحدّثها بما رأيتَ و سمعتَ من حديثهِ، فما أظنُّها تصبرُ على فراق ابنها وغياب خبره؟ فمضيتُ معه إلى دار الخلافة، فإذا بالستِّ زبيدة تبكي وتنادي وتقول: يا ولدي! ويا حُشَــاشــة كبدي. وقالت لي: يا شــيخُ أنتَ حضرــتَ وفاته وعاينتَهُ عند موته؟ فقلتُ: نعم. وقصّــيتُ عليها القصّــة إلى آخرها. فعند ذلك صرخت صرخة عظيمة وقالت: واحسرتاه! وا ولداه....حمّلتني حِملاً ثقيلاً، مالي إليه سبيل. ثم أنشدتْ:

قَـلْـبِـي تَـقَـطَّـعَ يَـوْمَ فِـرَاقِـكُـمْ قِـطَـعَـاً وَالـوَجْـدُ أَقْـلَـقَـنِـي، قَـدْ زَادَنِي جَـزَعَـا

وَاحَسْرَــتَـاهُ عَـلَى مَـنْ كَـانَ لِي أَمَـلاً وَاغُـرْبَـتَـاهُ غَـدَا ذُخْـرِي وَمَـا رَجَـعَـا

حُـزْنَـاهُ لِي بَـعْـدَهُ، كَـيْـفَ المـقـامُ بـلاَ رُؤْيَـاهُ؟ مُـذْ أُنْسُـــهُ عَنْ حَيِّـهِ مُنِعَـا

أحْرَقَ فُؤادِي، وجســـمي شَـــابَهُ سُـــقْمٌ وَالـطَّـرْفُ مِـنْـهُ عَـلَى الـخَـدَّيْـنِ أَدْمُـعَـا

كَيْفَ الـغَريْـبُ، وَمَـا قَـاسَى بِغُرْبَتِـهِ كَيْفَ المَمَاتُ لَـهُ، أمْ كيفَ بـهِ صَـــنَعَـا؟

كَيْفَ المُغَسِّـــلُ لَـهُ، أمْ كَيْفَ كَفَّنَـهُ أمْ كَـيْـفَ قـبرٌ ثَـوى فـيـهِ وَقـدْ رَتَـعَـا؟

صَـــبْرٌ جَـمِيْـلٌ عَلَى حُكْمِ الإِلَـهِ وَمَـا رَجَـائِي إلاَّ بِصَـــبْرِي كَـيْـمَا أَنْـتَـفِـعَـا

أَطْلُـبُ مِنَ اللـهِ رَبِّ العَرْشِ يُسْــكِنُـهُ رَوْضَ الجِنَـانِ بهَـا يُخَصُّ غَـدَا الوَرِعـا

قَـدْ فَـارَقَ الأَهْـلَ وَالأَوْطَـانَ أَجْمَعَهَـا وَأَقـبَـلَ مُـجِـدّاً إِلَى مَـوْلاَهُ مُـنْـقَـطِـعَـا

ثمّ أنّها صرخت صرخةً عظيمةً، وأغشِيَ عليها، فارتفعَ البكاءُ والعويلُ من الخدمِ والحَشَمِ، وبعد أن أفاقتْ من غشوتها نادتْ بصوتٍ رفيقٍ حزينٍ:

يا ولداه! يا عزيزاه! ثم أنشدَتْ:

قُـرَّةَ الـعَـيْنِ لَـمْ تَـدَعْ لِي قَـرَاراً كُـنْـتَ جَـارِي، فَصِرْـتَ لِـلْـقَـبْرِ جَـارَا

سَـــاكِـنَـاً كُـنْـتَ لِيْ، وَأَمِـيْـنَـاً قَـدْ كَـوَتْ مِـنْـكَ الـفُـؤَادَ نَـارَا

يَـا حَـبِـيْـبَ الـقَـلْـبِ أنْـتَ رَجَـائِي لَـيْـتَ لِي مِـنْـكَ فِي المَـنَـامِ مَـزَارَا

ثمّ شـهقتْ شـهقةً ثالثة، وسـقطتْ على الأرضِ، فحرّكوها فإذا هيَ ميّتةٌ، فضـجَّت الناسُ عليها بالبكاء والعويل، وأخذوا في جهازها ودفنها.

ثمّ هممتُ بالمغادرة إلى البصرة، فقال لي الرشيدُ: أريدُكَ أن تأخذني إلى قبر ولدي، فسِرْتُ معه، وما أن انحدر إلى البصرة ووصلها حتّى زُيِّنتْ له، واصطفَّتِ

النَّاسُ لاســتقباله، فأمرَ برَفْعِ الزينة، وأتى قبر ولده، فأمرَ بإخراجه منه، وحمله إلى بغداد ودفنه بها، وعملَ فوقه قبّةً حسنةً. رحمةُ الله ورضوانه عليه.

ثمّ قال اسحق الشيرازي: وهذا يا شيخُ عبد الله ما جرى معي والسبتي. فقال القطّان: قد كنتُ أشعرُ أنّ ذلكَ الغلامَ وليٌّ صالحٌ، رحمةُ الله عليهِ، ثمّ قامَ وشكرَ اسحقَ وعادَ يخبرُ النَّاسَ قصة السبتي رحمه اللهُ وقد كانت وفاة السبتي سنة أربع وثمانين ومئة للهجرة.

وَهَذا مَا انتَهى إلَيْنَا مِنْ قِصَّةِ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، واللهُ الموَفِّقُ، وإليْهِ المرجِعُ وَالمَصِيْرُ إنَّهُ عَلَى كُلِّ ما يشَاءُ قدير.



٣ - قِصَّةُ العَابِدَةِ شَعْوَانَةَ (رضي الله عنها)

هي شـــعوانة العابدة الزاهدة منذ طفولتها، كانت ابنة لأحد ملوك بلاد فارس العابدين الذين تركوا المُلْكَ والدنيا حُبّاً بالله.

لا يُعرف تاريخ ولادتها، ولكنَّ المؤرّخين أجمعوا على أنَّ وفاتها كانت في العام (١٨٥هـ) أو (١٨٧ هـــ). ذكرَها ابنُ كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) وقال أنّها أَمَةٌ سوداء، وهذا خبر مغلوط، وحتى أنَّ ابنَ كثير لم يروِ عنها أكثر من ذلك. وروى أبو نعيم السجستاني خبَرها مع سبعة العُبّاد (وهو خبر قريب للصحّة وجدتُه في أكثر من مصدرٍ).

وحسب ما جاء في المصدر فإنَّ العَابدة شعوانة (رضي الله عنها) لم تُعمِّر طويلاً وقضت حياتها بثياب الرجال تعيش حياتهم حتى كان ما كان من خبرها مع ابنة الملك الفاســـدةِ، ومن ثمّ كشـــف الحقيقة.

وقد دُفنتِ العابدة شعوانة في البصرة، ولها قبرٌ يُزار للتبارك به.

قِصَّةُ العَابِدَةِ الزاهِدَةِ شَعْوَانَةَ

رَوَى أبو نعيم الســجســتاني الحافظُ المعروفُ خبَر العابدةِ الزاهدةِ شــعوانةَ رضيَ اللهُ عنها مع العُبّادِ الزهّادِ السبعةِ فقال:

كان في أرض الرافدين عُبَّادٌ ســـبعةٌ، قد فاقوا أهل زمانهم في العبادة والزهد، فاجتمعوا يوماً ليتَّفقوا حولَ بناء مكانٍ لهم يعبدون الله تعالى فيه، فاختاروا مكاناً غير بعيد عن المدينة، وقالوا: هذا مكانٌ حَسَنٌ قريبٌ من المدينة، فنحن لا غنى لنا عن ذلك.

فقال كبيرهم: بحقّ الواحد القهّار! إن أخذتُم في بناء هذه الدار، فإنّها دار غرور وزوال، لا تدوم ولا تبقى على حال.

فقالوا: لا غنى لنا عن موضع نسكن فيه.

فقال: إن كان ولا بدّ من البناء والسـكن، فابنوا خيمةً من قصبٍ نسـكنُ فيها ونتعبّد الله تعالى داخلها. فلمّا بنُوهَا، واستقرّوا فيها، قال بعضُهم: كيف ندبّر أمور معيشتنا وأحوالنا؟

فقال كبيرُهم: خذوا في صـنع الحُصْرِ أربعةٌ منّا يصـنعون الحُصُر، وثلاثةٌ في العبادة منقطعون لخدمة الخالق تعالى وعبادته، فإذا فرغ الأربعةُ من عَمَلِ الحُصْرِ يأخذونها للمدينةِ ويبيعونها، ويحضرونَ لَنَا طعاماً، وبعد أن ينتهوا، يتفرّغون للعبادة والتعبّد، ويقوم الثلاثة الباقون بصُنْعِ الحصر لليوم التالي، والأربعة منصرفون للعبادة.

ثم فعلوا ما اتّفقوا عليه، وأقاموا على ذلك مدّة من الزمن، حتّى قال بعضُهم ذات يومٍ: كيف لنا أن نلبس شيئاً لم يسبقنا إليه أحدٌ من العبّاد والزهّاد؟

فقال كبيرهم: والله ما أرى شيئاً من اللباس الخشنِ والبسيط إلاّ وقد لَبِسَهُ العُبَّاد، ولكنّي أجدُ أنّ لِبْسَ الحُصُرِ الخشـنة لم يسـبقنا إليه أحدٌ. فلبِسُـوا الحصر فترة طويلة حتّى تقشّرت أعناقهم وجلودهم، وأداموا البكاء خوفاً من الله ليلاً ونهاراً، وتعبّدوا بعبادة لا يقدرُ عليها إلاّ الأنبياءُ والأولياءُ الصالحون، حتّى وصَلَ خبرهم إلى ملك إحدى الممالك البعيدةِ، وكانَ له ابنةٌ صغيرةٌ يتيمةُ الأمّ، فأقبلَ الملكُ، وكانَ عابداً صادقاً، على البكاء ليلاً ونهاراً، فلمّا كان في ذاتِ يوم أقبلتْ عليه ابنتهُ وقالت له: يا أبتِ إلى متى هذا البكاء الذي أنتَ فيه؟

فقال: اعلمي أنّي قد فكّرتُ في هؤلاء العبّاد السبعة الذين تركوا الدنيا ورفضوها بمتاعها الغرور، وذهبها ولآلئها، لأنّها ذات زوال ولا تدوم على حال، وإنّ هذا المُلْكَ الذي أنا فيه لا يدوم لي، وأنا أريدُ أن أتركَهُ وأسـيرَ سـيرهم وأنهجَ نهجَهم، وأبقى معهم حتى يقضي الله تعالى عليّ وعليهم بما هو قاضٍ،وعسى الفرج يكون قريباً إن شاء الله.

فبكَت ابنتهُ وقالت: لمنْ تتركني وحيدةً في هذه الدنيا؟ وقد انصـــدع قلبي عليكَ وتقطَّعَ كبدي حزناً، ولا أريدُ أن يكون إثمي عليك أكثر من الثواب الذي ترجوه من ربّك. فبكى الأبُ لهذا الكلام وقال وماذا أفعلُ بكِ يا حبيبتي، وأنتِ تعلمين أنَّه لا يجوز للنساء رِفْقَة الرجال والجلوس معهم؟

قالتْ: يا أبتِ! أنا صــغيرةٌ، ولا أدري من أمور الرجال وحياتهم شــيئاً، فاقطعْ لي ثيابَ الرجالِ، وأسيرُ معك إليهم حتّى يقضي الله علينا بما هو قاضٍ.

فوَافَق الأبُ كي لا يترك ابنتَهُ وحيدةً في الدنيا، وقطع لها ثياباً من شَــعْرِ ماعز، وله مِثْلُ ذلك، وأخذ بيدها، و سار هَارِباً في الليل وترك مُلْكَهُ ومالَهُ قا صداً العُبَّادَ ا لسبعة، حتّى وَ صَلَ إليهم فدخلَ عليهم الخيمةَ، فسَــلَّمَا عليهم فردّوا عليهما الســلام ورحَّبوا بهما، وقد ظنّوا ابنتَهُ غلاماً ذكراً، حيث لم تبدو أماراتُ الأُنوثةِ عليها بَعْدُ، واستبشروا بها خيراً، وصاروا يصنعون الحصر جميعاً حتّى إذا كان وقت العشــاء يذهب الغلام[1] إلى المدينة بما عملوا فيبيعها ويشــتري بثمنها زيتاً وشــعيراً، ويأتي إلى أصحابه. فظلّوا على تلك الحال من العمل والعبادة حتّى قضى الله على الملك بالمرض الشـديد، فلمّا أشرف على الموت أقبلَ عليه أصحابهُ وقالوا له:

يا وليّ الله! أخبرنا بما تراه، فإنّه قد بلغنا أنّ الروح لا تخرج من الجسد مُفارِقةً حتّى يرى الإنسانُ مقعدَه من الجنّة إن كان مؤمناً والنارِ إن كان كافراً.

فقال: أبشروا يا أُخوتاه، فإنكم تقبلون على ربٍّ كريمٍ، وإنّي أوصــيكم بما تركته بينكم وصــيةً وأمانةً إلى يوم القيامة أســألكم حينها عن أمانتي. وأشــار إلى الغلام (ابنته) ولم يحب أن يكذب آخر لحظاته، وكما أنّه لم يشأْ أن يكشف الحقيقة ويترك ابنته لوحدها في الدنيا.

فقالوا: جزاك الله خيراً، قد صـدقتَ فيما قلْتَ، فابشر أنتَ، فإنّ ولدكَ بأمانٍ، وسـوف نكون له كما كنا معك وأكثر إن شاء الله.

---

(١) مِنَ الآن سوفَ نستخدمُ كلمةَ الغلامِ بدلاً من الفتاةِ (شعوانة)، كَوْنها سوف تعيشُ حياة الرجالِ، والجميع ينادونها بالغلامِ .

فقال: جزاكم الله خيراً، وعَفَا عني وعنكم، وغفر لي ولكم، وإنّا لله وإنَّا إليه راجعونَ، وإليه المصيرُ.

ثم توّفي بعد ذلك رحمةُ الله عليه، فأخذوا تجهيزه والصـلاة عليه ثمّ دفنوه بالقرب من الخيمة، وكانوا لولده كما كانوا له في الحياة.

ثم قضى الله تعالى أن الغلام توجّه إلى المدينة ليبيع لهم الحُصُرَ كما جرت العادة، فوافق طريقه قصر الملك، وكانت ابنة هذا الملك فاسقة كافرة قاعدة مع مربّيتها على شرفة القصر، فنظرت إلى الغلام وهو داخل، فأعجبها حســنَهُ وجمالَهُ، وكان الغلام بهذه الفترة التي مرّت قد صــار أكثر جمالاً رغم صعوبة العيش والقسوة في الطعام واللباس وكان يرتدي دائماً الثياب الفضفاضة الواسعة كي لا يظهر صدرُه فيعْرفَ الجميع أنّها فتاة.

قال: فبعد أن نظرت ابنة الملك الفاســقة من الشرـفة، وأُعجبتْ بمنظر الغلام وحُسْــنِهِ، قالت لمربّيتها: أما تنظرين إلى هذا الغلام ما أجمله! عســاكِ أن تطلعي به إليَّ وتجمعي بيني وبينه ولك عندي ما تشائين.

فقالت المربِّية وكانت أكثر فُسْـقَاً منها، وصــاحبة حيلةٍ ودهاءٍ: حَسَــنَاً إنّي ســأفعل ما تريدين، فانتظري هنا. فنزلت إليه وقالت له بصوت يتصنَّع التديُّن والبكاء: حبيبي أَبْشِرْ بكلّ خيرٍ، فإنك بمنزلةٍ عظيمةٍ إذا جئت هنا، أسرِعْ فولدي مريض،وهو يعالج ســكرات الموت، فاطلعْ إليه ولَقِّنْهُ شــهادة التوحيد، تنلْ أجراً من ربِّكَ ومنّي. فصــدّق الغلامُ القولَ، وأراد أن يصـنَع خيراً، فدخلَ معها، فأغلقتِ المربِّيةُ الأبواب وأوصدتها بإحكام، وقالت لسيدتها: انزلي إليه فإنَّه هنا.

فنزلت وهي تتبختر في مشيتها، وحُلَلِها[1] وحُليِّها. فلمّا رأته قالت له: تمنَّى عليَّ ما شئت.

فقال: معاذ الله من ذلك، فإني أخاف الله إن أنا عصــيتُه أزال النور الذي في وجهي، ويُذْهِبِ حظّي من الجنّة.

---

(١) الحُللُ : مفردها الحُلّةُ وتعني الثوب الجيّد الجديد .

فقالت: لا بُدّ لي من ذلك، فإن لم تكن ترضى طوعاً، رضيتَ غصباً وكرهاً.

ثمّ مدَّتْ يدها إلى الغلام، فلمّا رأى ذلك بكى وقال: لا إله إلاّ الله، إنّي لا أحبُّ من يعصي الله.

فألقى الله تعالى في قلب ابنةِ الملك الفاسقة الرعبَ والفزعَ، فقالت: يا دايةُ[1]! أخرجيه من هنا بسرعةٍ، فإنّه شيطان لا يُشبه الإنسَ، وليأخذْ حُصُرَهُ معه.

فأخرجتْهُ المربِّية، وأخذ الحُصُرَ معه، ومضى مسرعاً إلى السوق وباعَهَا، ثمّ اشترى بثمنها زيتاً وشعيراً، وسار فلمّا خرجَ من باب المدينة مروراً بقصر الملك، نظرتْ إليه ابنةُ الملكِ وقالت: واللهِ لأعملنَّ على هلاكك، وهتْكِ سَتْرِكَ.

فقال لها: الله يحولُ بيني وبينكِ، وهو القادرُ العلاَّمُ بما في صدور الناس، وهو ربُّ العزَّةِ، الساقي البشر من الموت كأساً قادرٌ على ردّ كيدكِ عنّي.

ثمّ أنّ ابنة الملك الفاسقة اشتاقت إلى الرجال، فقالت لدايتها: إنِّي قد اشتقتُ إلى الرجالِ، فعساكِ أن تساعديني في قضاء حاجتي وتحقيق مأربي؟

فأتتْها الدَّايةُ بفاسقٍ من فُسَّاق اليهود، فوطئها فحملَتْ منه. فقضى الله سبحانه أنّها حملت تسعة أشهر، وقدّر أنَّ أمَّهَا قد دخلَتْ عليها يوماً قَبْلَ اكتمالِ الأشهر التسعة وقعدتْ معها، وقد كانت متشاغلةً عن ابنتها بأمور الحفلاتِ والزياراتِ، مُوكِلَةً أمرها إلى المربِّية،فلاحظَتِ الأمُّ صُفْرةَ وجهها، وانتشارَ الكَلَفِ فيه، فوضعتْ يدَهَا على بطنِهَا فإذا بالجنين يركلُ، فصاحَتْ صِياحاً شديداً، وأُغشيَ عليها، فلمَّا سمعَتِ الجواري والخادماتُ الصُيَاحَ هَرَعْنَ إلى الملكةِ فوجَدْنَهَا مغشياً عليها فصرخْنَ وسِرْنَ إلى الملكِ وأخبرْنَهُ بخبر مولاتهنَّ، فسار الملك إليها، ثمّ دخل الغرفةَ، فلمَّا رآها على تلك الحالة وقد بدأتْ تستعيدُ وَعْيَهَا سألها: ما شأنُكِ، وماذا حصل؟

قالت الأمُّ: سخط اللهُ علينا.

فقال: ولِمَ ذلكَ؟

(١) الدَّايَةُ: المرأةُ المُرْضِعُ غيرُ الأمِّ، أو الحَاضِنةُ والمربِّيةُ، والقَابِلَةُ المُوَلِّدةُ للأطفالِ.

قالت: إنَّ الزِّنَا قد وَقَعَ في قصرِكَ.

قال: وكيف ذلك؟ قالت: إنَّ ابنَتَكَ كان من أمرها كذا وكذا...

فصاحَ الملكُ غاضباً وقد استشاط[1] غيظاً وغضباً، وقال لابنتِهِ التي خضَعتْ بين يديه: اصدقيني القولَ بالحقِّ وإلاَّ قطعتُكِ قطعاً.

فلمَّا سمِعَتْ ذلكَ منه قالت: يا أبتِ! واللهِ مَالي أحدٌ إلاَّ الغلام الذي مع العُبَّادِ السبعةِ، أرغمني على ذلك.

فلمَّا سمع الملكُ ذلك الكلامَ اصفرَّ لونُه، وارتعدتْ فرائصُه، وعَمَدَ إلى سرير مُلكِهِ، واستوى عليه جالساً، وصاح بحَاجِبِه: عَلَيَّ بصَاحبِ الشرطة وعَسْكرِه.

فحضروا بين يديه، فقال لهم: عَلَيَّ بسبعة العُبَّاد أينما كانوا، ولا تنسوا إحضار الغلام الذي معهم، ولا تسوقوهم إلاَّ والحِبال بالأعناق، واللَّطْم في الوجوه،فإنَّهم قد صنعوا ذنباً عظيماً.

فمضى صاحبُ الشرطةِ إلى العُبَّاد، فدخل عليهم الخيمةَ، وجعلَ الحبالَ في أعناقهم، وَجَرَّهُمْ وضَرَبَهُم حتّى دخلَ بهم على الملك أذِلاَّءَ متعبين فوجدوا الملكَ على تلك الحالة من التكبُّر والتجبُّر، فلمَّا نظر إليهم صاح بهم وانتهرهم: أنتم في العلانية عُبَّاد، وفي السّرِّ فُسَّاق.

فقالوا: ولِمَ سَمَّيْتَنَا فُسَّاقاً وما فينا من يعصي اللهَ، وما علمنا أنَّ فينا منْ أشركَ باللهِ؟ فأخبرنا بأيِّ جريرةٍ استوجبنا منك هذه العقوبةَ والمذلَّةَ والإهانةَ؟

فقال: إنّما فعلتُ بكم هذا لأَجْلِ الغلام الذي معكم، فإنَّه ارتكب مع ابنتي ما لا يُرضي اللهَ ولا يُرضِي مَنْ عرفَهُ وعَبَدَهُ.

فقالوا: يا سبحان الله! تؤاخذنا بذنب غيرنا، وإنَّ الغلام الذي معنا لمَ نرَ منه إلاَّ الخير،وإذا غاب عَنَّا فلا علمَ لَنَا بِهِ، فَرَاقِبِ اللهَ في أمرنا، واحذر من العقوبة والأخذ بالنواصي.

(١) اِسْتَشَاطَ: ثَارَ وانفعَلَ غضباً.

فبكى الملك بكاءً شديداً وقال لهم: اغفروا لي ذنبي، واتركوا لي ما ارتكبتُه بحقِّكُم، فما يضرُّكم إذا غفر لي ربِّي، وما ينفعكُم إذا عذّبني؟

فقالوا: مَنْ أرادَ أن يغفرَ اللهُ له فَلْيَعْفُ عن ظلمِ الناس، ولكن أتحبُّ أيُّها الملكُ أن تعفوَ عن الغلام؟

فقال: يا قومُ! قد وَقَعَ في نفسي أن أعذِّبَ هذا الغلامَ عذاباً شديداً أو أن أنفيَهُ مِنْ أرضي.

فقالوا: أيُّها الملكُ! بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ، فَأَخْرِجْهُ من أرضِكَ فهذا أهونُ عليه فهو رقيق الجسم لا يتحمل الضربَ الشديدَ. فوافقَ الملكُ، ثمّ قال لحاجبهِ: خُذْ هذا الغلام وانطلِقْ به إلى آخرِ أعمالي واتركْهُ حيّاً في أثوابه.

فسارَ بهِ الحَاجِبُ حتّى انتهى به إلى فلاةٍ من الأرض، فترَكَهُ فيها، وسار عنه، وبقيت الفتاةُ (شعوانة) وحيدةً مُسلِّمةً أمرها لله. ثمّ قضى الله تعالى أنَّ ابنةَ الملكِ وضعت المولودَ، فأخذتْهُ زوجة الملك لزوجها وقالت: هذا وَلَدُ زِنَا قد وضَعَتْهُ ابنتُكَ فالتَفَتَ الملكُ إلى حاجِبِهِ وقال له، أنتَ تدري مكان الغلام، فخُذْ هذا المولود وانطلق به إليه فهو أولى به. فأخذه، وسار به إلى الغلام وقال له يقول لك الملكُ خُذْ ولدكَ الذي جاءت به ابنتهُ منكَ.

فقال الغلام: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل،ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، ثمَّ مَدَّ يده إلى المولود وأخذه احتساباً لوجه الله تعالى، ثم وضَعَهُ عن يمينه وجعل يصلِّي ويبكي ويقول: يا إلهي وإله إبراهيم واسحق ويعقوب وعيسى ومحمد، أسألك أن تكفل هذا المولود، وأنت تعلم أن ليس لي فيه حيلة، وأنتَ ترزقه كيفما تشاء.

فعند ذلك أولى الله عزّ وجلّ إلى جبريل عليه السلام أن يمضي إلى جبل من جبال الشام، ويأمرَ غزالةً هناك أن تأتي إلى العابدة (شعوانة)، وتكفل الغلام المولود الذي معها، فهي قد سألتْهُ وحقيق عليه أن يجيبها، لأنَّها لم تَكُ قد شكَّتْ به يوماً، وما شكَتْ أمرها إلى غيره وقال: وعزّتي وجلالي لو أنَّها سألتني أن أُزِيلَ الجبال عن أمكنتها لفعلتُ ذلك إكراماً لها.

فأتى جبريلُ إلى الجبل ونادى الغزالة فقال لها: يأمركِ اللهُ ربّ العزّة أن تسيري إلى العابدة التي بموضع كذا وكذا، وتكفلي المولود الذي معها.

فسارتِ الغزالة إلى العابدة، واقتربت من الطفل المولود، وأمكَنَنْهُ من ثديها، حتّى شرب وارتوى، ثمّ جعلت تلحسه بلسانها كما تلحسُ ولدها، وبقيت على هذه العادَةِ فترة من الزمن، ثم إنّ العابدة رفعت رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي أسألكَ أن تقبض هذا المولود إليك فإنّه قد شغلني عن عبادتك وطاعتك، فإنّي أريد أن أعبدكَ ولا أشتغل بشيءٍ عن عبادتك.

فعند ذلك أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزرائيل عليه السلام أن يقبض روح المولود الذي مع العابدة، ففعلَ ما أمره الله به، ثمّ قامتِ العابدة شعوانة بلَفِّ المولود بثوب قديم ثمّ دفنته، وتفرّغت للعبادة والصلاة ليلاً ونهاراً، لا يفتر لسانها عن ذكر الله وتسبيحه وتقديسه، حتى أنَّ الطيورَ كَانَتْ تقفُ على رأسِها فتبقى جاثمةً في مكانها لا تتحركُ، فلا يُعرفُ إن كانت حيّةً أو مَيِّتةً. فأقامت على هذه الحال مدّةً طويلةً يمرُّ بِهَا النَّاسُ ويجلسونَ قربَها للتبارك بها ويمضون في سبيلهم، فانتشر خبر الغلام (العابدة) في جميع الآفاق. فقال بعضهم: أما تنظرون إلى هذا الغلام كيف استجاب اللهُ له وكَفَلَ المولود أوّل الأمر، ثم قبضَ روح الطفل في المرَّةِ الثانية. وعندما سمع العُبَّاد السبعة خبر الغلام الذي كان معهم قالوا: مَالَنَا إلاَّ السير إلى الملك، عَلَّهُ يردُّ علينا صاحبنا. ثمّ مضوا إلى الملك، فدخلوا وسلَّموا عليه، فردَّ عليهم وقال: مرحباً بكم! ما الذي تريدون مِنِّي؟

فقالوا: أيُّها الملك إنَّا نريد هذا الغلام الذي نفيتَهُ، فإنَّه مُجَابُ الدعوة، صادقٌ في عبادتهِ، زاهدٌ في دنياه، ويبدوا أنَّنا قد ظلمناه، فنحنُ نسألك أن تردَّهُ إلينا.

فقالَ الملكُ: شأنكم وإيَّاه، اذهبوا وأعيدوه إليكم.

فقالوا: لا طاقة لنا بردِّهِ، ولا نعلمُ مكانَهُ.

فقال الملكُ للحاجب: سِرْ إلى الغلام ورُدَّهُ إلى أصحابه.

فمضى الحاجبُ حتى انتهى إليه، فوجده في فلاةٍ من الأرض فقال له: أيُّها العابدُ إنَّ الملكَ قد أرسلني إليك، وأمرني أن أردّكَ إلى أصحابِكَ.

فقالَ الغلامُ (العابدة): السـمعُ والطاعةُ للهِ، ثمّ للملك، وسـار معه حتى انتهى إلى الملك، فلمّا نظر الملك إليه قال له: أتحبُّ المقام عندي، أم تمضي إلى أصحابك؟ فقال: لا حاجة لي في المقام عندك، وإنّما أريدُ أصحابي.

فقال له الملك: دونكَ وإيّاهم فاذهب إليهم، وأنتَ آمِنٌ مِنَ الجميعِ.

فمضى الغلام إليهم فاستقبلوه بالترحيب والتهليل، وفرحوا به، فجلسَ معهم يعبد الله تعالى. واتفق بعد مدّة ليست بالقصيرة أنّه مرض مرضةً عظيمةً، فقعد أصحابه حولَهُ وقالوا له: بماذا توصينا يا وليَّ الله؟ فقال: اتَّقوا اللهَ كأنَّكم تَرَوْنَهُ، فإنَّه يراكم، وإيّاكم والمعاصي، فإنَّها تُخْلِقُ الوجوهَ[1]. فقالوا: جزاك الله عنا خيراً، فأوصِنَا عن نفسِكَ. فقال: أوصيكم أن تدفنونني في مِسْحِي[2] هذا الذي عليَّ.

فقالوا: لا نفعلُ ذلك، فإنَّه لا بد من الغَسْلِ والتكفينِ، ولا سيِّما أنَّكَ عابدٌ، ولا يجوز لَنَا أن نفرِّطَ في غسلِكَ.

فقال: ما دمتُم مصرِّين على ذلك، فانتظروا أن تخرجَ الروحُ منِّي، واطلبوا من كبيركم أن يأخُذَ السكِّينَ ويضعَها على صدري ونحري، وافعلوا بعد ذلك ما شئتم.

فقالوا: نفعل ذلك إن شاءَ اللهُ.

وقَضَى الله تعالى باسترداد أمانته من العابدة الزاهدة شعوانة رحمةُ الله عليها، التي ما تزال في نظر الجميع غلاماً عابداً، زاهداً، فبكوا على الغلام، وداروا حوله يقرأون عليه آيات من الذِّكْر الحكيم، ثمّ حمدوا الله تعالى، وأثنوا عليه، ثمّ قالوا لكبيرهم: قمْ إلى صَاحبنا المرحوم وافعل ما أوصانا به.

فقامَ وأمسكَ بالسكِّين ووضعها على صدر الغلام (العابدة) فَبَانَ له صَدْرُ امرأةٍ، فرمى السكين من يده، وجعل يركضُ ويتعثَّر، فلمَّا نظروا إليه تبعوه وسألوه عمّا به، فقال: يا قومُ! إنَّ الغلامَ المتوفَّى هو امرأة.

(١) تُخْلِقُ الوجوهَ: تُبْلِيْهَا وتلحِقُ بِهَا الهلاكَ والفَنَاءَ.
(٢) المِسْحُ: ثوبٌ من الشَّعْرِ أو الوَبَرِ يَلْبَسَهُ الرَّاهِبُ.

فقالوا مستغربين مندهشين: ماذا تقول؟ ارجع وانظر جيداً علَّكَ تكون مخطئاً.

فقال: أما تعلمون أنَّ أوَّلَ نظرةٍ لا يعاقِبُ الله عليها، وإنَّ إعادةَ النظر معصية بعينها.

فقالوا: وكيف نتأكَّدُ ممَّا قُلْتَ؟ ويجبُ أن نعرفَ ماذا نصنعُ؟

فقال لهم: انهضوا وادخلوا المدينة، وأَعْلِمُوا النُسوةَ الصالحات منهن أن يأتيْنَ وينظرْنَ إليها.

فمضى بعضُ العُبَّاد إلى المدينة، وأَخْبَرَوا بعضَ النسوةِ الصالحاتِ بالقصَّةِ، وسرعان ما انتشرَ الخبرُ في المدينة كُلِّها، فجاءتِ النسـوةُ وكثيرٌ من أهل المدينة رجالاً وأطفالاً، فدخلت بعضُ النسـوةِ الخيمةَ، ولمَّا نظرْنَ وتأكَّدْنَ أنَّها امرأة، رفعَنْ الصـوتَ بالصُـياحِ والبكاء، فضـجَّتِ الناس لهذه القصَّـةِ الغريبة، وكيفَ يكونُ العابدُ الزاهدُ الذي اتُّهم ونُفي بسبب ابنةِ الملكِ، كيف يكون امرأةً.

ولمَّا سمع الملكُ الخبرَ المنتشِرَ بسرعةٍ، أقبلَ هو وزوجته، فتقدَّمتْ امرأةٌ منه وقالت: هي امرأة، وربِّ الكعبةِ.

فقال لامرأتهِ: ادخلي وانظري. فدخَلَتْ ونظرتْ فإذا هي امرأة فخرجت إلى الملك مسرعـةً تبكي بكاءً شديداً، حزناً وألماً على الظلمِ الذي ألحقوه بها، وقالت: هي امرأةٌ... امرأةٌ وربِّ الكعبةِ.

فلمّا سـمع الملك قولَها، نزل عن فرسـه، وجعل يحثو الترابَ على رأسـه، ويبكي بشـدّةٍ، ثمّ قال للعبّاد: اتركوني أكفِّنُها بنفسي، فإنِّي جَنَيْتُ على هذه الوَلِيَّةِ الصالحةِ جنايةً عظيمةً، وأخاف أن يعذّبني اللهُ بذلك.

فقالوا: شأنُكَ وما تريد.

فطلب الملكُ من الحاجب أن يحضرَ أكفاناً، وقال لقائد الشرطة: آتوني بابنتي موثقة بالحديد، واربطوها حتّى نفرغ من دَفْن العابدة الزاهدة. فأُتِي بأكفانٍ، ولمّا فرغَتِ النسـوةُ من غَسْـل جثمان العابدة، وقُمْنَ يجلبنَ الأكفانَ من الملك، ولمَا عُدْنَ وَجَدْنَ العابدة قد كُفِّنَتْ بأكفانٍ تكاد تغشي الأبصار من شدّة لمعانها وضوئها،

وروائحها رائحة المســـكِ. فلمَّا رأَيْنَ ذلك الأمر العجيب، خرجْنَ إلى الملك وأعلَمْنَهُ بذلك، وقلنَ له: اللهُ قد رَدَّ أكفانَكَ عليكَ أيّها المَلكُ، وقد أرسل لها أكفاناً من الجنَّة كفَّنَتْها الملائكةُ بها.

فبكى الملكُ بكاءً شديداً وقال: أريدُ أن أضعَ أكفاني فوق تلك الأكفان.

فقالوا: لا تفعل أيها الملكُ!

فقال: حسناً. لا أعترض على أمر الله ومشيئتهِ. احفروا القبرَ.

وعندما بدأَ الرجالُ بالحَفْرِ وجدوا الترابَ أَلْيَنَ من الزبدةِ، ورائحتَهُ أطيب من رائحة المسكِ، فلمَّا أتمُّوا الحَفْرَ تقدَّمَ الناسُ وا صطفُّوا للصلاة على جنازة العابدة، ووقف الإمام أمامهم، فلمَّا هَمَّ بالتكبير جَعَلَ يتأخَّر ويتراجع للخلف. فاستغربَ الملكُ والناسُ منه ذلك وقالوا: ما بالُكَ تتراجع للخلف؟ فقال: أمَا تَرَوْنَ ما أرى؟

فقالوا: لا. وماذا ترى؟ قال: أرى فارســاً على جوادٍ أشــقر، بيده حَرْبَاتٌ تخرجُ منها النارُ. فقال العُبَّادُ: هذا جبريلُ عليه الســلام. ثمّ انهمر البرق والرعد عن يمين الناس وشــمالهم، فجعلوا يهربون، فلمّا انتهى البرقُ والرعدُ عادوا ودنوا من القبر ليلحدوها، فرأوا الترابَ يســيلُ عن يمين القبر وعن شماله، فعلموا أنّ الملائكة قد تولَّوا دَفْنَها، فأعلمُوا الملك بذلك، فقال لبعض وزرائه عَلَيَّ بابنتي. فجيءَ بها، فأَمَرَ بضرب عنقها بسيفهِ، وقال لوزيره: خُذْ رأسها واجعله في طُستٍ وطُفْ به في المدينة، ونَادِ بأعلى الصوت: « هذا جزاء من صَنَعَ الفاحشة وادّعى بها على أولياء الله تعالى » ففعل الوزير ما أمره الملكُ، ثمّ أمرَ الملكُ ببناء ضريح فوق قبر العابدة الزاهدة شعوانة رضي الله عنها، فبُنِيَ على أحسن ما يكون، وصــارت الناس تزوره للتبارك به وظلَّ العُبَّاد بجانب الضريح في خيمتهم يصــنعون الحُصُرَ ويبيعونها، حتّى قضى الله أمره فيهم. رحمةُ الله عليها وعليهم.

وَهَذا مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ قِصَّةُ العَابِدَةِ الزَّاهِدَةِ شَعْوَانَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُا)، وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العِزَّةِ والبَهَاء، وإِلَهِ الأَرْضِ وَالسَمَاءِ.

٤ - قِصَّةُ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ (رضي الله عنه)

هو أبو عليّ الفُضَــيْلُ بْنُ عَيَّاضٍ التميمي، أحد العُبَّاد، وعَلَمٌ من الزهَّاد، وواحد من العلماء والأولياء، وُلِدَ بخُراسَان عام ١٠٠/ هـــ ٧٢٣ م/ وكانت ولادته في كورة دَيْنَوَر، وقَدِمَ الكوفة وهو كبير الســـن، ثمّ انتقل إلى مكَّة المكرّمة فتعبّدَ فيها لفترة طويلة، ثمّ غادرها إلى بغداد وعاش فيها فترة من الزمن ذَاعَ فيها صيتهُ بين الناس، و شاعتْ أقوالُه ومواعظُه، حيث توافَدَ الكثيرون يطلبون منه النصح والموعظة، ومنهم الخليفة هارون الرشيد.

كان الفُضَيْلُ حَسَن التلاوة، كثير الصلاة والتهجُّد والصيام، عاد لمكّة، ومات فيها سنة ١٨٨ هـــ. وقَبْلَ توبته كان شاطِراً[1] يقطع الطريق، وكان يتعشّق جارية جميلة، وبينما هو يتسوّر جداراً ليصلَ إليها سمع قارئاً يقرأ:.

((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّه)) سورة الحديد

فقال: بَلَى يا فُضَيلُ. وأقلعَ عمّا كان عليه ورجعَ إلى خرابةٍ يبيتُ فيها فسمع صوتَ مسافرين يقولون: خذوا حذركم، إنَّ فضيلاً أمامكم يقطع الطريق. فأعطاهم الأمان واستمرّ على توبته حتى صار مثلاً في السيادة والعبادة. وكان يقول: لو أنّ الدنيا كلّها حلال، ولا أحاسب بها لكنتُ أتقذَّرُ منها كما يتقذّرُ أحدُكم من الجيفةِ إذا مرَّ بها.

وكان يقولُ: العملُ لأجلِ الناس شَرْكٌ، وتركُ العمل لأجلِ الناسِ رياءٌ، والإخلاصُ أن يعافيك الله منهما.

وقال له الرشيد يوماً: ما أفهمكَ!

---

(١) الشاطِرُ : الخبيثُ الفاجِرُ، والعَامَّةُ تستعملها بمعنى الذكيّ الحَذِقُ .

فقال له: أنتَ أَزْهَدُ مني، لأنني زهدتُ في الدنيا التي هي أقلّ من جناح بعوضـة، وأنتَ زهدتَ في الآخرة الباقية، فأنا زاهد في الفاني، وأنت أزهد ممّن فيه، وقد زهدتَ أنت في الباقي، ومَنْ زهدَ في درّةٍ أزهدُ ممَّن زُهْدهُ في بَعْرةٍ.

وكان يقول عندما يطلبُ أحدُ الناس منه أن يدعي لهم: لو أنَّ لي دعوةً مستجابةً لجعلتها للإمام لأنَّ به صلاحَ الرعيَّةِ، فإذا صَلُحَ أَمِنَتِ العبادُ والبلادُ.

وقال ذات مرّة: إنّي لأعصيـ الله فأعرفُ ذلك في خُلْقِ حمَاري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي. وقد عاش الفُضَيل عُمْراً مديداً،منقطِعاً للعبادة والزهد في الدنيا، وتوفي سنة/١٨٨ هــ ٨١١ م/ رحمةُ الله عليه.

قِصَّةُ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ مَعَ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ

رَوَى الفَضْلُ بن الربيع وزير الخليفة هارون الر شيد خبَر الر شيد مع الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ العابد الزاهد فقال:

حَجَّ هارون الرشـــيد من بغداد إلى مكَّة المكرَّمة وكنتُ وزيره عليها، فأتاني فلمّا علمتُ بقدومه خرجتُ إليه مسرعاً وقلتُ له: يا أميرَ المؤمنين لو أنَّكَ أرسلتَ إليَّ لأتيتُكَ؟

فقال: ويحَكَ! قَدْ حَلَّ[1] في نفسي شيء، فانظرْ لي رجلاً عابداً زاهداً.

فقلتُ له: هاهنا سُـــفيان بن عُيَيْنَة، العالمُ واســـعُ العلم، كبيرُ القَدْرِ حَفِظَ القرآن والأحاديثَ الشريفة، لا يضاهيه في الحجاز عابدٌ ولا زاهدٌ ولا حافظٌ إلاّ أنسُ بن مالك.

فقال الرشيدُ لي متلهِّفاً: امضِ بنا إليه.

فأتيناه دارَهُ، فقرعتُ البابَ، فقال: مَنْ بالباب؟

فقلتُ: أجبْ أميرَ المؤمنين يا سُفيانُ!

فقال سفيان وهو يخرج مسرعاً: يا أمير المؤمنين! لو أردتَ أرسلتَ إليَّ فكنتُ آتيتُكَ؟

---

(١) حَلَّ في نَفْسِهِ : رَاوَدَتْهُ الوَسَاوِسُ حَوْلَ بَعْضَ الأمُورِ .

فقال الرشيد: خُذْ لِمَا جئناكَ له[1] رحمك اللهُ.

فبقي سفيانُ والر شيد يتحادثان ساعة من الزمن، فلم يَشْعُرِ الر شيدُ بشيءٍ من الارتياح، فقال لسفيان: هَلْ عليكَ دَيْنٌ؟

فقال: أجل عليَّ بعض الديونِ. فقال الرشيدُ: يا فضلُ! اِقْضِ دَيْنَهُ.

فلما خرجنا قال لي الرشيد: ماأغنى صاحبكم عني شيئاً، فانظر لي رجلاً آخر أسألُه فينفعني. فقُلْتُ: ها هُنَا عبد الرزَّاق بن هَمام، من كبارِ حُفَّاظ الحديث الثِقاتِ. فقال: امضِ بنا إليه، فإنِّي في شوق لسمَاعِ كلامٍ يفرِّجُ همومي، ويُذهِبُ كَرْبِي.

فأتيناه، فقرعتُ البابَ فقال عبد الرزّاق: مَنْ هذا؟ قلتُ: أَجِبْ أمير المؤمنين. فخرجَ مسرعاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين! لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُكَ. فقال الرشيد: خُذْ لِمَا جئناكَ له رحمك اللهُ.

فحادثه ساعةً، ثم قال له: أعليكَ دين؟ فقال: نعم. فقال: يا فضلُ! اِقْضِ دَيْنَهُ.

فلمَّا خرجنا قال: ما أغنى صاحبُك عَنِّي شيئاً. فقال: فانظُر لي آخر يا فضلُ فإنَّ ما بي يثقلني ويتعبُ قلبي.

قلتُ: ها هنا الفُضَيْلُ بْنُ عَيَّاض.

قال: امضِ بنا إليه. فأتيناه فإذا هو يتلو آيةً من القرآن الكريم يردِّدُها، فقال الرشيدُ: اقرعِ الباب يا فضلُ! ففعلتُ، فقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: أَجِبْ أميرَ المؤمنين. فقال: مالي ولأمير المؤمنين! فقلتُ: سبحان الله أما عليكَ طاعته؟! فنزل وفتح الباب ثم ارتقى الغرفة، فأطفأ ما كان معه من سراج، ثمّ التجأ إلى زاويةٍ من الزوايا في البيت، فدخلنا وأصبحنا نبحثُ عنه بأيدينا في العتمة، فسبقَتْ كَفُّ هارون قبلي إليه، فقال الفضيلُ: يا لها من كَفٍّ، ما أَلينَها! إن نَجَتْ غداً من عذاب الله عزّ وجلّ. فقلتُ في نفسي: واللهِ سوف يكلِّمُهُ الفُضَيلُ اليومَ بكلامٍ من قلبٍ نقي لم ينطقْهُ أحدٌ قبله لهارون.

---

(١) خُذْ لِمَا جئناكَ له: تعني كلِّمْنَا بِمَا جِئنا نسألكَ عنه فينفعنا.

فقال هارون: خُذْ لما جئناكَ له رحمك اللهُ!

فقال له: إنّ عمر بن عبد العزيز لمّا وليَ الخلافة دَعَا ســـالمَ بن عبد اللهِ ومحمدَ بن كعب القُرَظِي، ورجاءَ بن حيْوَة، فقال لهم: إنّي قد ابتُليتُ بهذا البلاد فأَشِيْرُوا عَلَيَّ. فعُمرُ بن عبد العزيز عَدَّ الخلافةَ بلاء، وعَدَدْتَهَا أنتَ وأصحابُكَ نعمةً. وقد قال سالم بن عبد الله لعُمَر: إن أردتَ النجاة من العذابِ فصُم الدنيا[1]، وليكن إفطارُكَ منها الموتُ.

وقال له محمد بن كعب: إن أردتَ النجاة من عذاب اللهِ فليكنْ كبيرُ المؤمنين عندَكَ أباً، وأوسطُهم أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فَوقِّر أباكَ وأكرِمْ أخاكَ، وتحنَّن على ولدِكَ.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردتَ النجاة من عذاب اللهِ عزَّ وجلَّ يا عُمر، فأحبَّ للمســـلمين ما تحبَّ لنفسكَ، واكرَهْ لهم ما تكره لنفسِكَ، ثمّ مُتْ إذا شئتَ.

وإني أقولُ لكَ يا هارون: إنّي أخافُ عليكَ أشدّ الخوف يومَ تَزِلُّ[2] الأقدامُ، فهل معك ـــ رحمك الله ـــ مثل هؤلاء، أو مَنْ يشيرُ عليك بهذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشِيَ عليه. فقلتُ لفضيل: أرفقْ بأمير المؤمنين يا فضيلُ رحمك الله.

ولمَّا صَحَا الرشيدُ قال الفضيلُ: يا أمير المؤمنين! بلغني أنّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكِيَ إليه، فكتبَ إليه عمر: يا أخي! أُذكِّرُكَ طولَ سَـهَرِ أهل النار مع خلود الأبدِ، وإيَّاكَ أن يُنْصَرَفَ بكَ من عند الله فيكون آخر العهد بك وانقطاع الرجاء منكَ. فلمَّا قرأ العاملُ الكتابَ، طوى البلادَ حتّى قَدِمَ على عمرَ فقال له: ما أقدَمكَ إلينا؟

فقال العاملُ: خَلَعْتَ قلبي بكتابِكَ, لا أعودُ إلى ولايةٍ حتّى ألقى الله عزَّ وجلَّ. فبكى هارون بشدةٍ ثم قال: زِدْني رحمك اللهُ.

---

(١) صُم الدُّنْيَا : قصَدَ الزهدَ في الدنيا.

(٢) يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ : أرادَ بهِ يومَ القيَامةِ .

فقال: يا حَسَـنَ الوجهِ! أنتَ الذي يسـألُكَ الله عزَّ وجلَّ عن هذه الخَلْقِ يوم القيامة، فإن أردتَ أن تَقِي وجهك من النار، فإيَّاكَ أن تـصبحَ وتمـسيَ وفي قلبكَ غشٌّ على أحد من رعيتكَ، فإنَّ النبيَّ قال: مَنْ أصبحَ لهم غَاشَّاً لم يَرِحْ رائحة الجنّة[1].

فبكى هارون وقال له أعليكَ دينٌ؟

فقال: دَيْني لربِّي لم يحاسبني عليه بعدُ، والوَيْلُ لي إن سألني، والويلُ لي إن لم أُلهمْ حُجَّتي.

فقال هارون: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالكَ، وتَقَوَّمْ بها على عبادة ربِّكَ. فقال: سبحان اللهِ! أنا أَدُلُّكَ على طريقِ النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟! سَلَّمَكَ اللهُ.

ثمّ صَـمَتَ فلم يكلِّمْنَا: فخرجنا من عنده، فلمّا صرنا على الباب قال هارون: يا فضـلُ إذا دللتني على رجلٍ فدُلَّني على مثل هذا، هذا سَيِّد المسلمين.

ثمّ دخلَتْ زوجة الفضـيل عليه فقالت له: يا رجلُ أما ترى ما نحن فيه من ضـيق الحال، فلماذا لا تقبلْ هذا المال فتفرِّجْنَا به؟ فقال لها: مَثَلِي وَمَثَلُكم كَمَثَلِ قومٍ كان لهم بعيرٌ يأكلون من كَسْـبِهِ، فَلَمَّا كَبر نحروْهُ فأكلوا لحمه.

فلمَّا سمع هارون هذا الكلام قال لي: ندخلُ عسى أن يقبلَ المالَ. فلمّا عَلِمَ الفضيل خرج فجلسَ في السطحِ على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلّمه فلا يُجيبه. فبينما نحن كذلك إذ خرجتْ جاريةٌ سوداءُ فقالت:

يا هذا قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله.فانصرفنا، ومازالت هذه القصّة في نفس هارون لا ينساها أبداً. رحمةُ الله على ذاك العابد الذي كره الدنيا فأجبّته الآخرة.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

---

(١) لم يَرِحْ رائحة الجنّة : أي لم يَشُمّ ريحها ويحْظَ بنعيمها.

٥ ـ قِصَّةُ سَرِيٍّ السَّقْطِيِّ (رضي الله عنه) (*)

هو السَّريُّ بن المُغَلَّسِ السَّقْطِيِّ البغدادي، أحد كبار مشايخ الصوفية وكان تلميذاً للعابد المتصوّف معروف الكرخي. وصَاحَبَ كثيراً من العُبَّادِ أمثال: هشيم، وأبي بكرٍ بن عيَّاش، وأبي الحسن النوري، ومحمد بن الفضل بن جابر السقطي وكان ابن أخته العابدُ المتصوّفُ الجُنَيْدَ يرافقه ويروي عنه أخباراً وأقوالاً.

وكان لسريّ دكّان يتجرُ فيها، فمرَّت به جاريةٌ ذاتَ يوم قد انكسرَ إناء كانت تحملهُ لتشتري فيه زيتاً لسادتها، فجعلت تبكي، فأعطاها سريٌّ شيئاً من المال لتشتري بدلاً منه، فنظر إليه معروف الكرخي معلِّمُه وقد رأى مَا صَنَعَ، فقال له: بَغَّضَ الله إليك الدنيا، فوجدَ الزهدُ طريقاً إلى قلبه من ذلك اليوم.

كان مولده في سنة /١٥١ هـ ـ ٧٧٨ م / حيث ظهر حبُّ الخير عنده ومساعدة الآخرين ومَقْتِهِ للدنيا منذ صغره، لذلك وضعه والده عند العابد معروف الكرخي يتعلّم منه أصول الدين والحكمة.

وبقي يحاولُ جاهداً الابتعاد عن الدنيا ومفاتنها ولذائذها، وكان يقول: أشتهي أن آكلَ أكلةً ليس للهِ عليَّ فيها تَبِعَةٌ[1]، ولا لأحدٍ عليَّ مِنَّةٌ أو فَضْلٌ فما أجدُ إلى ذلك سبيلاً.

وقال سَرِيٌّ أيضاً: احترقَ سوقُنا ذات مرَّةٍ، فقصدتُ المكانَ الذي فيه دُكَّاني فتلقَّاني رجلٌ وقال لي: أَبْشِرْ ـ فإنَّ دكَّانكَ قد سلِمَتْ من الحريق، فقلتُ: الحمدُ للهِ. ثمّ ندمتُ أنّي ذكرتُ ذلك التحميد على سلامة دنياي ولم أواسِ الناسَ فيما هم فيه، لذلك أنا أستغفر الله منذ ثلاثين سنة على تلك الخطيئة عسى أن يغفرَ لي ربِّي.

(*) اسمه سري، أو سري الدين
(١) التَّبِعَةُ: الإِثْمُ والذَّنْبُ .

وروى الخطيبُ البغداي عن السرّي فقال: كان سريّ يصلّي وِرْدَهُ[1] ذات ليلةٍ، وتَعِبَ من طولِ الجلوس والقعود، فمَدَّ رجله في المحراب، فَسَمِعَ هاتفاً منادياً: يا سريُّ هكذا تجالِسُ الملوكَ؟ فضمَّ رجله خجِلاً طائعاً، وقال: وعِزَّتِكَ وجلالك، لا مددتُ رجلي أبداً.

وذكر ابن أخته الجنيدُ عنه أنَّه أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُئِيَ مضطجعاً أو مادّاً رجليه في قعودٍ أو جلوس إلاَّ في عِلَّةِ الموتِ.

ويروي الجنيد عنه فيقول:

دخلتُ عليه أعودُه في مرضةٍ أصابته فقلتُ له: كيف تجدُ نفسَكَ؟ فقال سريٌّ:

كَيْفَ أَشْكُو إلى طَبِيْبي مَا بِي   وَالَّذِي قَدْ أَصَابَني مِنْ طَبِيْبِي

فأخذتُ مروحةً من قشٍّ لأروِّحَ عليه، فقال لي: يا بن أختاه! كيف يجدُ رِيْحُ المروحةِ مَنْ جوفه يحترق من داخلٍ شوقاً وحبّاً،ثم أنشَدَ:

القلبُ مُحْتَرِقٌ، وَالدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ   وَالكَرْبُ مُجتَمِعٌ والصَّبْرُ مُفْتَرِقُ

كَيْفَ القَرَارُ عَلَى مَنْ لا قَرَارَ لَهُ   مِمَّا جَنَاهُ الهَوى والشوقُ والقَلَقُ

يَا رَبُّ إنْ كَان شَيْءٌ لي بِهِ فَرَجٌ   فامْنُنْ عَلَيَّ بِهِ مَادَامَ بِيْ رَمَقُ

فقال الجنيدُ له: أيا خالُ! أَوْصِنِي.

فقال: لا تَصْحَبِ الأشرارَ، ولا تشتغلْ عن الله بمجالسةِ الأبرار الأخيار.

وقال ابن خلّكان في كتابه «وفياتُ الأعيان»: كان السريُّ دائمَ الذِّكْر لله، لا يفتر لسانه عن ذكره وتسبيحه، مظهِراً الشوقَ والوجدَ للخالق تعالى، وكان ينشد كثيراً:

(١) الوِرْدُ : الجُزْءُ مِنَ القُرآنِ يَقْرَأُهُ الإِنْسَانُ كلَّ ليلةٍ .

وَلَمَّا اِدَّعَيْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي فَمَالي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

فَلا حُبَّ حَتَّى يَلْصَقَ الجِلْدُ بالحَشَى وتذهَلَ حَتّى لا تُجيْبَ المُنادِيَا

وكانت وفاةُ سريّ يوم الثلاثاء لسِتٍّ خَلَوْنَ من رمضان سنة /٢٥٣ هـ ٨٨٢ م/ بعد آذان الفجر، ودُفِنَ بعد العصر بمقبرة الشوينزي وحضر جنازته خلقٌ كثيرون، وقبرُه ظاهِرٌ معروفٌ حتّى يومنا هذا، وإلى جانبهِ قبر ابنِ أخته الجنيد، رحمة الله عليهما.

قِصَّةُ سَرِيِّ السَّقطِيِّ مَعَ الجَّارِيَةِ اِشْتِيَاقٍ

روى الجُنيدُ عن سريّ السقطي خبر توبتهِ وزهدهِ في الدنيا والسياحة في الأرض فقال: سأل بعض أصحاب السريّ رحمهُ الله: ما كانَ سبب توبتكَ وزهدكَ في هذه الدنيا الفانية؟

فقال: اعلموا وفَّقكم الله تعالى أنَّني دخلتُ في بعضِ الأيام إلى سوق الجواري أشتري جاريةً تخدمني، فلمَّا وصلتُ عَرَضَ عليَّ النخَّاسُ[1]جوارٍ كثيرةً، فلم يصلح لي من ذلك شيءٌ.

فقلتُ: هل بقيَ عندكَ شيء غير ما أريتني؟

فقال: نعم. بقيتْ عندي جاريةٌ واحدةٌ، غير أنَّها مجنونةٌ.

فقلتُ: مَالي ولشراءِ المجانين. فولَّيْتُ عنه وأردتُ الخروجَ، فدعتني نفسي أن أرجع وأرى تلك الجارية وأقف على خبرها، فعدتُ وقلتُ له: آتيني بتلك الجارية حتى أنظرَ إليها.

فقال: حُبّاً وكرامةً.

وكنْتُ آنذاك تاجراً لي سمعة كبيرة في السوقِ، فلمَّا جاء بها، رأيتُ عليها سمةَ الصلاح والعبادة والتقوى، فقلتُ لها: يا جارية! ما اسمُكِ؟

---

(١) النخَاسُ : تاجرُ الرقِيقِ والعبيدِ والجَوَارِي .

فقلت: اسمي اشتياق، وبي للخالق اشتياق.

فقلتُ لها: يا اشتياقُ! هل لك من قول تختارينه، وعمل تؤدينه؟

فقالت: اختياري قول لا إله إلاّ الله، محمد رسـول الله، وعملي في خدمة مولاي، وحياتي وَهَبْتُها له، وأمري فَوَّضْتُهُ إليه.

فقلتُ لها: أشتَرِيْكِ؟ فقالت: على شرط. قلتُ: وما هو؟

فقالت: تكونُ لكَ خدمةُ النهارِ، ولمولاي وخالقي خدمةُ الليلِ.

فقلتُ للنخّاس: كم تريد ثمناً لهذه الجارية؟

فقال: اشتريتُها بعشرة دنانير. فوزنتُ له أحد عشر ديناراً وأخذتُ الجارية ومضيتُ بها إلى الدار، وقلتُ لها: شأنُكِ والجواري فا صنعي مثلهن، فمضتِ الجاريةُ، فلم أنظرْها إلى أن صَلّتِ المغربَ، فلمَّا فرغتْ من صـلاتها أقبلتْ إليَّ وقالت: يا مولاي! قد فرغتُ من خدمتِكَ، فهل لي من شيءٍ من رزق مولايَ الكبير؟ فقلتُ نعم. شيء كثيرٌ.

فأخذتها وأتيتُ بها إلى المائدة، فنظرَتْ إلى ألوان كثيرةٍ من الطعام، وقالت: حَسَّـنَ الله تعالى أعمالك وغَيَّرَ أحوالكَ، وعسى أن يهديكَ إلى ما هو أنفع لكَ. ثمّ ردَّدتْ قوله تعالى:

((وكُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ....) سورة البقرة

غيرَ أن يا نفسُ أخ شى عليكِ أن تَتَلَذَّذي اليومَ، فتع صي غداً، ثمّ أخذتْ قر صاً من الخبز، وقليلاً من الملح وجعلت تأكل، فلمَّا اكتَفَتْ حمدَتِ الله تعالى وشـكرتْ نعمتَهُ وقالت لي: يا مولاي! أينَ الموضـعُ الذي أخدمُ فيه مولاي الكبير؟ فأوْمَيْتَ لها بيدي إلى مقصـورةٍ في جانب الدار، ونمتُ أنا في مقصورةٍ في جانبٍ آخر بعد أن أكلتُ ألذَّ الطعام. وبينما أنا نائم، وقد نامت العيونُ، وأزهرتِ النجومُ، وطُلِبَ الحيُّ القيُّومُ. وإذ بصوتٍ بالباب، وطرقاتٍ تنبِّه الغفلانَ، وتوقظ النعسان، فقلتُ مَنْ بالباب؟

فقالت: ا شتياقٌ. فقلتُ وما تريدين في مثل هذا الوقت؟ قالت: يا مولاي! أما تستحي من هذه الغفلة، وقد سـبقَكَ الخُدَّامُ إلى عبادة الملك العلاَّم؟! فقلت لها: أنا بالنهار جلبة وبالليل خشـبة[1]. فقالت: وفي أي وقت يكون قَطْعُ العَقَبة[2]، إذا كُنْتَ نهارَك هائماً وليلكَ نائماً، فمتى تُرضِي رَبّاً دائماً، ومَلِكاً عالِماً؟ ثم قالت:

واللهِ يا بَطَّال لو رأيتهم وقد صَفّوا الأقدام في ليلٍ هادي، وظلامٍ بَادِ، ومولىً ينادي، إليَّ يا عبادي، ثمّ أنشدتْ تقولُ:

يَـالَـيْـلُ كَـمْ فِـيْـكَ مِـنْ غُـلاَمٍ ... بَـدَّلَ الـنَّـوْمَ بـالـقِـيَـامِ

يَـخْـدِمُ مَـوْلاهُ بِـاجْـتِـهَـادِ ... بِـلاَ إقْـرَارٍ وَلا مَـنَـامِ

يـقـولُ وَالـلـيـلُ قَـدْ تَـقَضَّى ... نَـوْمٌ عـلى مـقـلـتـي حَـرَامِ

وَالـلـهِ لا ذُقْـتُ طَـعْـمَ نَـوْمٍ ... وَالـخَـوْفُ دَاخِـلَ الـعِـظَـامِ

فقلتُ: يا اشـتياقَ! لقد هيَّجتِ فيَّ الأشـواق، وأضرمتِ خوفاً في الخفّاق زيديني من كلامك يرحمك الله تعالى. فأنشدت:

فأقبلتُ على نفسي وقلتُ بلومٍ وحسرةٍ وعتابٍ: يا نفسُ أما تستحي من الله تعالى؟ مملوكة

اِبْـكِ عَـلَى عُـمْـرٍ مَضَى بـاطِـلاً ... اِبْـكِ عَـلَى نـفسِـكَ يَـا جَـاهِـلُ

غَـرَّتْـكَ الـدُّنْـيَـا بـآمـالـهَـا ... وَأَنْـتَ عَـنْـهَـا يـا فـتـى رَاحِـلُ

فَـلَـمْ تـزلْ تـركـضُ فِي غَـفْـلَـةٍ ... لاَ تَـنْـسَ ذِكْـرَ المَـوْتِ يَـا غَـافِـلُ

لاَ تَـنْـسَ يَـوْمَـكَ فِي حُـفْـرَةٍ ... أَنـتَ ولا شـكَّ بِـهَـا نَـازِلُ

---

(١) إي بالنهار أعملُ كثيراً وأتعبُ، وفي الليل أنامُ كالخشبةِ لا أتحرَّكُ من الإرهاقِ.
(٢) قَطْعُ العَقَبَةِ: اجتيازُ الصِّراط والنجاةُ من عِقابِ اللهِ.

شِرَاهَا عَشَرةُ دَنانيرَ تقيمُ عليَّ الحُجَّةَ في غدٍ عند الله تعالى.

ثمّ أقبلتُ عليها وقلتُ لها: يا جارية! سـأَلتُكِ باللهِ العظيم ألاَ ذكرتِ مولاكِ الصـغير عند مولاكِ الكبير.

فبكتِ الجاريةُ وأنشدت:

بَـادِرْ بِـالـتَّـوْبَـةِ وَالإِخْـلاَصِ مُـجْـتَـهِـدَا وَالمَوْتُ، وَيْحَـكَ، لَمْ يَمْـدُدْ إِلَيْـكَ يَـدَا

فَـإِنَّمَـا المَـرْءُ فِي الـدُّنْـيَـا عَـلَى وَجَـلٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَيّـتٌ الْيَوْمَ مَـاتَ غَـدَا

فقلتُ لها: يا جاريةً على ما لَسْتُ إليه جَارٍ زيديني بما كُنْتُ عنهُ مُدَارٍ يرحمكِ اللهُ تعالى الخالق الباري، فأنشدتْ تقولُ:

عَـجِـبْـتُ لِـمَـنْ يَـتـمُّ لَـهُ السَّرُــورْ بَــدارٍ سُــــمِّــيَــتْ دَارُ الــغُــرُورْ

وَمَــنْ يُمْسِيِ ــ وَيُصــــبِـحُ فِي أَمَــانٍ وَيـعــلـمُ أَنَّ مَســــكَـنَـهُ الـقُـبُـورْ

قال سري: ثمَّ انصرـفتِ الجاريةُ إلى مكانها، ووقفت بين يَدَيْ مولاها وهي تقول: إلهي نامتِ العيونُ وأزهرتِ النجومُ وأنتَ الحيُّ القيُّومُ. إلهي وخالقي!

قد عَلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها، ونامَتْ عليها حُجَّابها، وأنتَ بابُكَ للســـائلين مفتوح ســـألتكَ يا مولاي الكبير، وسيّدي وخالقي الخبير، أن تَهَبَ لي عِتقَ مولاي الصغير، إنَّكَ على كلّ شيء قدير.

فإذا بهاتفٍ يُسمَعُ صوتُه يقولُ: يا ا شتياقُ! طيبي نفساً، وقِرّي عيناً. فقد وهبنا لكِ عِتْقَ مولاكِ الصغير.

فلمّا أصـبح الصباحُ، وأضـاء بنوره ولاحَ، أقبلَتِ الجاريةُ وقالت: يا مولاي! قد فرغتُ من خدمة مولاي الكبير، فأمرني بأمركَ.

فقلتُ لها: لقد سمعتُكِ البارحة تقولين: يا مولاي الكبير أسألكَ عِتْقَ مولاي الصغير.

فقالت: قد كان ذلك.

فقلتُ: يا جاريةُ! مَنْ أعتقنا في العقبة، حُقَّ أن نعتقَهُ في الدنيا أنتِ حرّةٌ لوجه الله تعالى.

فأخذت الجاريةُ نقابها وجعلتْهُ على وجهها وشرعَتْ تقول: هذا العتقُ الأصغرُ، هذا عِتْقُ المخلوقين، فمتى يكونُ العتقُ الأكبرُ، عِتْقُ رَبِّ العالمين؟ ثمّ بكت وأنشدت:

ثمّ إنَّ الجاريةَ انصرفتْ عني ولم أرها منذ تلك الساعة، وأقبلتُ أنَا على ربّي مستغفراً تائباً خاضعاً له، ومناجياً زاهداً في الدنيا الفانية سائلاً إيّاه حُسْنَ الدَّار الباقية، سائحاً في الأرض حارماً نفسي، قَاهراً إيّاها، مواظباً جاهداً في حُبِّ اللهِ تعالى. وهَذا كانَ سَبَبَ تَوْبَتي وَزُهْدِي في الدُّنيا يَا قَوْمُ. ثُمَّ أنشدَ سَرِيٌّ أمَامَ أصْحَابِهِ وَسائليْهِ كما يقولُ الجنيد:

تَمْرَحُ بالذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي ... وَتُمْسِي يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي

وتخلو خَلْفَ سِتْرٍ مُخْتَفِيَاً ... وَرَبُّ العَرْشِ مُطَّلِعٌ حَاصِ

إذَا ما الشيب كَفَّ عَنِ الخَطَايَا ... فَعُمْرُكَ كُلّ يَوْمٍ فِي انتقَاصِ

إلَيْكَ هَرَبْتُ مِنْ أهْلِي وَمَالِي ... وَمِمَّا قَدْ جَنَيْتُ مِنَ المعَاصِي

فَاقْبَلْ تَوْبَتِي وَاغْفِرْ ذُنُوبِي ... إذَا حَاسَبْتني يَوْمَ القَصَاصِ

وَأُزْلِفَتِ الجِنَانُ لكلّ بِرٍّ ... وَسُعِّرَتِ الجَحِيْمُ لِكُلِّ عَاصِ

فَارْحَمْنِي إلَهِي وَاعْفُ عَنِّي ... فَمَالِي غيرَ عَفوكَ مِنْ خَلاَصِ

قالَ الجُنيدُ: وَبِهذَا القولِ خَتَم السَّريُّ حَدِيثهُ مَعْ أصْحَابِهِ وَغادَرهمْ سَائِحاً مُتابِعَاً زُهْدَهُ وَعِبَادَتَهُ حتّى توفّاهُ اللهُ، رحمةُ اللهِ عَلَيْهِ.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ سَرِيِّ السَّقْطِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَاتم الأنبياءِ، والحَمْدُ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهِ الأَرْضِ والسَّمَاءِ.



٦ - قِصَّةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (رضي الله عنه)

هو أبو القاسم الخزّار، ويقال له القواريري، أصله من نهاوند، وُلِدَ ببغداد سنة/٢٠٠ هـــ ٨٢٨ م/، ونشأ فيها، اشتُهر بصحبة الحارث المحاسبي وخاله سري السقطي، لازَمَ التعبُّدَ والزهدَ ففتَح الله عليه علوماً كثيرة، وتكلَّم على طريقة المتصوّفين أمثال سفيان الثوري.

وكان وِرْدُهُ في كلّ يومٍ ثلاثمئة ركعةٍ، وثلاثين ألف تســبيحة. ومكث أربعين ســنةً لا يأوي على فِرَاش، ففُتح عليه من العلمِ النافع والعمل الصــالح أمور كثيرة لم يحصِّــلهَا غيره في ذلك الزمان. وكان يعرف ســائر فنون العلم ويجيدُ التحدّثَ فيها والمناقشـــة دون وَقْفَةٍ أو تعثّرٍ حتّى أنَّه كان يقولُ في المسألةِ الواحدة وُجُوْهَاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال.

وكان ابن سريج يرافقه ويستفيد منه في الفقه والعلم، وقد سـأله ذات مرّة شخصٌ عن مسـألةٍ فأجابَهُ فيها بإجَابات كثيرةٍ، فقال له: يا أبا القاسـم! لم أكن أعرفْ فيها سـوى ثلاث إجابات ممّا ذكرتَ فأَعِدْهَا عليَّ، فأعادَها بإجابات أخرى كثيرة غير التي ذكرها فقال: والله ما ســـمعتُ هذا قبل اليوم. فأعادها بإجابات أخرى غير ما ذكر فقال: لم أسمع بمثل هذا فأَمْلِه عليَّ حتى أكتبه.

فقال الجنيد لئن كنتُ أجريهِ فأنا أُمْلِيه. أي أنَّ الله هو الذي يُجري ذلك على قلبي ويُنْطِقُ بهِ لسَــانِي، وليس هذا اســتفادٌ من كُتُبٍ ولا من تَعَلُّمٍ، وإنّما هذا فضــلٌ من الله عزَّ وجلَّ يُلهِمنيْه وعلى لساني يجريه.

فقال له ابن سُريح: ومن أين استفدتَ هذا العلم؟

قال الجُنيد: من جلوسي بين يدي الله أربعين سنة.

وسُئِل االجنيدُ عن العارف باللهِ، فقال: مَنْ نطقَ عن سرِّكَ وأنتَ ساكت.

وقال له خاله سَرِيّ مرّةً: تكلّمْ يا جُنيدُ على الناس فلمْ يرَ الجنيدُ في نفسه لذلك موضعاً. فرأى في المنام رســول الله (ﷺ) وهو يقولُ له: تَكَلَّمْ على الناس يا جُنيدُ. فذهب الجنيدُ إلى خاله سَرِيّ، فقال سريٌّ له: يا جنيدُ لم تسـمعْ منّي عندما قلتُ لك تكلّمْ على الناس وأرشِـدْهُم حتى سـمعتَ ذلك من رســول الله في منامكَ. فعجب الجنيدُ من أمْرِ خالهِ وصــار يعظ الناس ويوضّــح لهم كثيراً من أمور دينهم ودنياهم.

وقال الجنيدُ مرّةً: ما انتفعتُ بشيءٍ أكثر من انتفاعي بأبياتٍ سمعتُها من جاريةٍ تقولُ:

إذا قُلْـتُ: أَهْـدَى الهَجْرُ لِي حُلَـلَ البِلَى ... تَقُولِيْنَ: لَوْلاَ الهَجْرُ لَمْ يَطِـبِ الحُـبُّ

وَإِنْ قُلْـتُ: هَـذَا القَلْـبُ أَحْرَقَـهُ الجَوَى ... تَقُولِيْنَ لِي: إِنَّ بـالجَوَى شَرَفَ القَلْـبُ

ولمَّا حضرتْهُ الوفاةُ سنة (٢٩٨ هــ ٩٢٨ م) جَعَلَ يتلو القرآنَ ويُصلِّي فقيلَ له: لو رفَقْتَ بنفسِكَ في هذا الحال.

فقال: لا أحدٌ أحوجُ منّي إلى ذلك الآن، وهذا أوانُ طيِّ صحيفتي.

وتوفَّاهُ خالِقُه وَدُفِنَ بعد جنازةٍ حَضَرَـها خَلْقٌ كثيرون في مقبرة الشـوينزي بجانب قبر خاله سريّ السقطيّ رحمةُ الله عليهما.

قِصَّةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ معَ العُبَّادِ العَشَرَةِ (رضي الله عنه)

قال الجنيدُ بن محمد البغدادي رضي اللهُ عنه: سـافرتُ مرّةً على سـاحلِ البَحْرِ بالبصرـة، فرأيتُ وَقْتَ العشــاء عَشَرَـةَ أنفارٍ من بعيد، كانوا قاعدين على سـجّادات، فاسـتغربتُ أمرهم، وَظَنَنْتُ من طريقة جلو سهم أنَّهم من المتصوّفين العابدين، ولكنّي لم أُ شاهدْ معهم أية و سيلةٍ أو أداةٍ من أدوات الصـوفية. فلمَّا وَصَـلْتُ إليهم ألقيتُ السـلام، فقاموا جميعاً لاسـتقبالي وردّوا السـلام وعانقوني وقالوا: أهلاً بأبي القا سم الجنيد، فا ستغربتُ كيف عرفوني وإن لم أ شاهدهم قبلاً. لكنّهم جلـسوا وأطرقوا إلى الأرض ولم ينظروا لبعضهم ولم ينطقْ أحدٌ منهم بكلمة، واستمرّوا

على هذه الحال حتّى حان موعد الصــلاة فقاموا وقَضُــوا وِرْدَهم ثمّ نهضَ منهم واحدٌ ودخلَ البحرَ ولا أدري كيف فَعَل ذلك، إلاّ أنّه عاد بإحدى عَشْرَـة سـمكةً مشـويةً، رغم أنّي لم أشـاهد ناراً أو حطباً، فوضعَ أمام كلّ واحد منهم سمكةً، وأعطاني سمكةً، وانفرد هو بسمكة، ثمّ انشغلَ كلّ منهم بحاله في صلواتهِ وعبادتهِ، حتّى قَرُبَ الصبحُ وأذَّنَ المؤذِّنُ، فقاموا للصلاة جميعاً، فأدُّوا فرضهم، وقاموا وأخذوا سجّاداتهم ودخلوا البحر، ومشوا على الماء، وعندما أراد خادمهم الذي أحضر السمك مساء أن يســير معهم ويمشي على الماء، غاص في البحر وكاد يغرق فالتفتوا إليه وقالوا: يا عبدَ اللهِ! مَنْ خاننا فليس مِنَّا.

ثمّ غادروا وتركوه حزيناً، يبكي نادماً، فســألتُهُ عن الذنب الذي اقترفه، فقال: عندما كُنَّا نصــلِّي ونتعبَّدُ خالقنا، أقســمْنَا على الوفاء والإيثار وإنكار الذات، فمَنَّ اللهُ علينا بكراماتٍ لم يمنحها إلاَّ لأوليائه الصـالحين، وعندما أحضرـتُ السـمكات من البحر مسـاءً، خصَّـيْتُ نفسي بأكبر السـمكات وراودتني نفسي وطمعتُ بالزيادة، فأدركوا ذلكَ، وحاسبني خالقي بأن صرفني عنهم، وها أنا ذا نادِمٌ على فعلتي ما بقيتُ في هذه الدنيا.

قال الجُنيدُ: فحمدتُ اللهَ وشــكرتُهُ على نعمهِ وبقيتُ أنظر إليهم من بعيد وأنا أتحسَّرُ على فرقتهم، وغادرتُ ساحل البحر والخادمُ في موضعه يبكي بكاءً شديداً فقلتُ له قبل مغادرتي إيّاه:

إنَّ وليَّ الله يجب أن يكون جوّال الفكر، جوهريَّ الذِّكْر، عظيمَ الحِلْمِ، كثيرَ العِلْم، جميلَ المنازعةِ، قريبَ المراجعةِ، أوسعَ الناس صدراً، وأذلَّ الناس نفساً، ضحكتُهُ تبسُّماً، واستفهامُه تعلُّماً، مذكِّراً للغافلِ معلِّماً للجاهل، لا يؤذي مَنْ يؤذيه، ولا يخوضُ فيما لا يعنيه، كثيرَ العَطَاء، قليلَ الأذى، وَرِعَاً عن المحرَّماتِ، وقَّافاً عن الشــهواتِ، عَوْنَاً للغريب، أباً لليتيم، بِشْرُــهُ في وجهِهِ، وحزنُه في قلبه، مشتغلاً بفكره، مسروراً بفقرهِ، نطقُهُ أحلى من الشَّهْدِ وأصلبُ من الحديد، لا يكشفُ سِرّاً ولا يهتكُ سِـتْراً، إِلْفُهُ التُّقَى وخُلُقُه الحيا، كثيرَ الخير، قليلَ الزلل، حركاتُهُ أَدَبٌ وكلامُه عَجَبٌ، لا يشـمتُ بمصـيبةٍ ولا يُذْكرُ أحدٌ عنده بغيبةٍ راضياً

صـبوراً، قانعاً شـكوراً، صـدوقَ اللسـان، لا سـبَّاباً ولا نمَّاماً، ولا مُرتاباً ولا حقوداً ولا حسـوداً ولا عجولاً، قولُهُ موزونٌ وقلبُه محزونٌ فمَنْ يكونُ بهذه المثابة يتقبَّل الله منه التوبة والإنابة.

ثمّ غادر الجنيد في دربه ومضى يتعبّد ربّه الواحد الأحد، الفرد الصمد.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (**رضي الله عنه**) والحَمْدُ للهِ أَوّلاً وآخراً وظاهراً وبَاطِنَاً،وَصَلَّى اللهَ عَلَى نبيِّه أشرفِ الأمم وسَيِّدِ العُرْبِ والعجم.



٧ - قِصَّةُ رَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ (رضي الله عنه)/ ١٠٠ هـ -١٨٠هـ /

هي رابعة بنت إسماعيل القيسي، من آل عُتيك بني عَدوة من بطون قيس، ولذلك تُلقَّب برابعة القيسية العدوية، وكنيتها (أمّ الخير)، وكونها وُلِدَتْ وعاشت وماتت بالبصرة فهي تُلقَّبُ بـــ (رابعة البصرية)، وقد خَلَطَتْ كُتُبُ التراجم والمناقب بينهما وبين كثيراتٍ تَسَمَّيْنَ برابعة، وخاصة (رابعة بنت إسماعيل الشامي) وذكروا عنها أخباراً وقصصاً لم تحدثْ وَهَمَ فيها الكثيرون ونَسَبُوهَا إلى العدوية، وخاصّةً لقاء رابعة الشامية بحسن البصري وذي النون المصري، فرابعة العدويّة كانت في العاشرة من عمرها يوم وفاة الحسن البصري فكيف سيعرضُ عليها الزواج وتدور بينهما مساجلات صوفية، وكذلك ذو النون المصري الذي وُلِدَ بعد خمس سنوات من وفاة رابعة العدوية فكيف إذاً ستتُوبُ على يديه كما ذكرتْ بعضُ القصــص والأخبار، لكن رابعة العدويّة بعيدةٌ كلّ البعد عَمّا وَصَــفها بعض المؤرخين الذين لم يعتمدوا منهج البحث عن الحقيقة والسـعي وراءها، وإنّما اعتمدوا على النقل غَثِّهِ وسـمينه فأخطؤوا وخاصَّـةً في فترة انقطاع رابعة عن المسـاجد ووقوعها في الرقِّ والعبودية، وهذا ما لم نَشَـأْ أنْ نقعَ فيه ونحن الباحثون عن الحقيقة.

وأمّا عن ولادة رابعة العدوية فقد كانت في مطلع القرن الثاني للهجرة سنة (١٠٠هـــ) في البصرة في أسرةٍ فقيرةٍ ضمن كوخٍ صغير لعابدٍ زاهدٍ هو إسماعيل القيسي البصري، وكان هذا الكوخ معروفاً بين البصريين باسم (كوخ العابد).

وكانت ولادة رابعة ـ كما يرويها المؤرّخ الصوفي فريد الدين العطّار ـ حَدَثاً بارزاً في حياة الأسرة، حيث لم يكن في الأسرة أولاد ذكور، بل ثلاثُ إناثٍ وكانت الطفلة الجديدة هي الرابعة فسُمِّيَتْ لذلك (رابعة)، وليلة ولادتها لم يكن في بيت أهلها ما يصلحُ للوليد عند ولادته، فلم يكن ثمَّةَ مصباح للنور، ولا نقطة سَمْنٍ للخَلَاص، ولا قطعة قماش يُلَفُّ بها المولود، وكان الأب الصالح قد عاهَدَ اللهَ ألاّ

يطلبَ من عبدٍ من عباده شيئاً، ولكنه استجاب لضراعة زوجته بأن يُشفقَ على المولودة، فذهب يطرقُ أبواب الجيران ولكن هيهات للحجارة أن تلينَ بماء الدموعِ،فعاد خائباً حزيناً لا يدري ما يفعل، فأقبلَ على الصلاة والتسبيح، ثم خَلَدَ للنوم فرأى في منامه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول له:

لا تحزن فهذه الوليدة سيّدةٌ جليلة، وإنَّ سبعين جماعة من أمّتي يرجون شفاعتها، فقُمْ واذهب على عيسى ـ زادان (أمير البصرـة آنذاك) واكتُبْ له رقعةً تقول له إنَّك رأيتني وأمرتُك أن تذهبَ إليه، وتقول له: إنَّكَ يا عيسى ـ تصـلّي مئة ركعة كل ليلةٍ، وفي ليلة الجمعة أربعمئة، ولكنّك في الجمعة الأخيرة نسيتَ. ألا فلتدفع أربعمئة دينار لصاحب هذه الرقعة كفَّارةً عن هذا النسيان.

وفي الصـباح كتب إسـماعيل الرسـالة وأرسـلها مع الحاجب إلى الأمير فلمَّا قرأها أمر بإعطائه أربعمئة دينار، وإحضـاره إليه، ثم راجَعَ نفسَـه وقال: بل أنا أذهب إليه إجلالاً لمن أرسـله، وسـأتولى بنفسي العناية بابنته الجليلة القدر.

وقد كانت رابعة منذ طفولتها الباكرة ذكيّةً مؤمنةً حفظت القرآن الكريم، وحافظت على الصلاة، وقد ظهر وجدانها الديني منذ الصـغر فعندما قدَّم والدها طعاماً إلى الأسرة، أقبل الجميع عليه إلاّ رابعة فلمَّا سألها أن تُقْبِلَ على الطعام قالت له: إنّي أجعلُكَ في حِلٍّ من حرام أو شبهةٍ تطعمنيه.

فقال الأب ممتحناً: أرأيتِ يا رابعة إن لم نجد إلاَّ حراماً؟

فقالت: نصبرُ يا أبتِ في الدنيا على الجوع خيرٌ من أن نصبر في الآخرة على النار وعذابها.

وقد شـاءت الأقدارُ أن يموتَ الأبُ والأمُّ تباعاً، ورابعة مازالت في حداثتها، فعانَتِ اليُتْمَ والفَقْرَ والحاجةَ. وحَلَّ بالبصرـة جفافٌ وقحطٌ وانتشرـت المجاعة بين الفقراء، فغادرت رابعةُ وأخواتُها الكوخ، وأخَذْنَ يضرـبْنَ في الأرض يلتمِسْـنَ القُوْتَ، وفَرَّقَ الدهر بينهُنَّ فغدَتْ رابعة وحيدة فقيرة لا تجد من يحنو أو يعطف عليها.

وحَدَثَ أثناء تجوالها أن وقعتْ بين أيدي قطاع الطرق وتُجَّار الرقيق حيث باعَها أحدُهم بستَّةِ دراهم إلى تاجرٍ غليظِ القلب فعَانَتْ رابعةُ وتحمَّلَتْ وصبرتْ وزاد إيمانُها الذي غَدَا قُوْتَهَا والأملُ والعزاءُ غايتَها ومسعَاهَا الذي تلوذ به.

كان نهارُها همّاً ورهْقَاً، وليلُها تُطْلِقُ فيه روحَها للنور والإيمان والشوق والحنين للخالق.. وأحسَّتْ ببواكيرِ جديدة مبهمةٍ حزينةٍ حيث سيطرت عليها خَشْيَةٌ قاسيةٌ من غضَبِ اللهِ فتزداد عبادةً وتسبيحاً، فهي تنشدُ منه شيئاً جديداً، لا تريدُ مالاً ولا رِزْقاً بل رِضَى الخالق عليها، وكانت تناجي رَبَّها باكيةً قائلةً:

«إلهي! أنا يتيمةٌ معذَّبةٌ أرسفُ في قيود الرقِّ، وسوف أتحمَّلُ كلَّ ألمٍ وأصبرُ عليه، ولكنّ عذاباً أشدَّ من هذا العذاب يؤلمُ روحي، ويفكِّكُ أوصال الصبر في نفسي، منشؤه رَيْبٌ يدور في خلدي هل أنت راضٍ عني، تلك هي غايتي؟ ».

وحَدَثَ ذات يوم أن أرسلها سيّدُها للسوق لشراء بعض الحاجيات وأثناء سيرها في أزقّة البصرة لمحَها رجُلُ سوءٍ فأعجبَهُ شبابُها وحياؤها فلاحقها بنظراته الجريئة فاضطربت وارتجفت فتعثرت وسقطت على الأرض فانكسرت ذراعُها وأُغشي عليها، فلمَّا استردَّتْ صوابهَا رفعَتْ رأسها تناجي ربَّها:

«رَبَّاهُ! قد انكسرتْ ذراعي، وأنا أُعاني الألمَ واليُتْمَ و سوفَ أتحمَّلُ كُلَّ شيءٍ وَأَصْبرُ عليه، فهل أنتَ راضٍ عنّي يا سيّدي، إلهي هذا ما أتوقُ إلى معرفتهِ؟؟».

وبدأ الحبُّ الإلهي ينمو ويزداد في قلب رابعة، الحبُّ الذي ستُعرف به ويخلّد اسمها على مر الأيّام، صار يملأ حياتها، يلوِّنُ ضراعتها ويعطِّرُ عبادتها، وينير تسبيحها، وأخذتْ أحلام رابعة تفيض بالنور، وأخذت نداءاتٌ ترفُّ حولها وتطوف بها.

كانت رابعة تعيش في آفاقٍ من العناية التي يهبها الله لمن يحب ويرضى، وفي إحدى المرّات وأثناء استغراق رابعة في مناجاتها الحارّة لخالقها سمعت صوتاً يقول: (لا تحزني ففي يَوْمِ الحِسَابِ يتطلَّعُ المقرَّبونَ في السَّماء إليكِ ويَحْسِدُونَكِ عَلَى مَا تكونينَ فيهِ.) فزاد هذا الهاتفُ حبَّها وثقتها بالله، وزاد اندفاعها في نيل رضى خالقها. وأخذت تتأمَّلُ في الكون وترى قدرة الله في كلّ شيءٍ، في الفجر والأزهار

والطيور والأنهار في كل شيء ترى قدرة الله وجمالَهُ وجلالَهُ، كلُّ شيءٍ ناطِقٌ بوحدانيةِ اللهِ ومحبَّتهِ وتسبيحهِ وتقديسهِ.

وقد حدثَ أن استيقظ سيّدها ذات ليلة[1] فسمع صوت مناجاةٍ حارَّة فأخذ يتتبّع الصوت إلى غرفة رابعة، فلمَّا نظر من خصاص الباب رأى رابعةَ ساجدةً تصلّي وتقول: « إلهي! أنتَ تعلمُ أنَّ قلبي يتمنَّى طاعتك ونور عيني في خِدمتكَ، ولو كانَ الأمر بيدي لما انقطعتُ لحظةً عن مُنَاجاتكَ ولكنَّكَ تركتني تحتَ رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادِكَ » وشاهد سيّدها أثناء دعائها وصلاتها قنديلاً فوق رأسها يحلِّقُ غير معلَّق بسلسلةٍ أو غيرها، وضوءُهُ ينير الغرفة، فعاد فَزِعَاً مفكِّراً ساهماً، وفي الصباح دعا رابعةَ وقال لها: أي رابعة وهبتكِ الحرية فإن شئتِ بقيت هنا ونحن هنا جيمعاً في خدمتكِ، وإنْ شئتِ رحلتِ أَنَّى رغبتِ. فاختارت المغادرة وودعتهُ وانقطعت للعبادة وأخذت تلوذ بحلقات المساجد وتتصّل بالرعيل الأول من رجال التصوف في البصرة أمثال إبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار وسفيان الثوري وشفيق البلخي... وكانت هذه الحلقات تترنّم بالمواجيد والأناشيد الهاتفة بالحبّ والاستغفار والمناجاة، وكانت رابعة حينها في الثانية عشرة من عمرها ذابلة العود، رقيقة البدن تعيش حرّةً من كلّ شهواتِ الدنيا وبريق الحياة عبدة لمولاها وخالقها، بريئة من كل ما يبعدها عن خالقها، نذرت نفسها للمحاريب والتسبيح وأقبلت على المناجاة والعبودية تنشد الحب الخالد للباقي الدائم الخالد.

ولم تمكث رابعة طويلاً في المساجد، بل تركتها إلى العزلة والعبادة والتسبيح والصلاة والوجد الإلهي، فكانت تقضي ليلها ونهارها بالصلاة، وتقول:

« قد نامتِ العيونُ، وغَفَل الغافلون، وبقيت رابعة عبدتكَ الخاطئة بين يديك، فلعلّكَ تنظر إليها نظرةً تمنعُها بهَا مِنَ النومِ عن خدمتكَ، وعزَّتكَ وجلالِكَ لا أنامُ عن خدمتكَ في ليلٍ ولا نهارٍ إلاّ غَلَبَةً حتى ألقاكَ».

---

(١): رابعة والحياة الروحية في الإسلام ـ طه عبد الباقي سرور .

وكانت رابعةُ إذا صَلَّتِ العِشَاء قامت على سطحٍ لها، وشدّتْ عليها درعها وخمارها وقالت:

«إلهي! أنارَتِ النجومُ وَنامَتِ العُيون وَغَلقَّتِ الملوكُ أبوابها، وَخَلا كُلُّ حَبيبٍ بحَبيبهِ وهذا مَقَامي بينَ يَديْكَ»، ثمّ تُقْبِلُ على صلاتها فإذا كان وقتُ السَّحَر وطلعَ الفجرُ قالت: «أَقَبِلْتَ مِنِّي إلهي؟ فَهَذا الليلُ قد أَدبَرَ، وهذا النَّهارُ قد أسْفَرَ فليْتَ شِعْري أَقبِلْتَ مِنِّي لَيْلَتِي فَأَهْنَأ، أَمْ رَدَدْتَها عَليَّ فَأعزَى؟ فَوعزَّتِكَ هذا دَابِي مَا أَحْيَيْتَنِي وَأَعنْتَني، وَعزَّتكَ لو طَردتنِي عَنْ بابِكَ مَا بَرَحْتُ عَنْهُ لِمَا وَقعَ فِي قلبي منْ مَحَبَّتِكَ».

ورُوِيَ أنَّ محمَّد بن سليمان الهاشمي كَتَبَ إلى رابعة العدوية يطلبها للزواج، وكان من أغنياء البصرة: «أما بعد: فإنّ الله ملّكني كلَّ يومٍ ثمانين ألف درهم، وأنا أصيّرها ومثلها إليكِ فأجيبيني لِما سألتُ».

فكتبتْ إليه: «أما بعد: فإنَّ الزهدَ فِي الدنيا راحةُ البدَنِ، والرغبةَ فيها توَّرَثِ الهَمَّ والحُزْن، فَهيِّءْ أمرَكَ، وقَدِّمْ لمعادك وكن وصيَّ نَفْسِكَ ولا تجعلِ الرجال أوصياءك، وَصُم الدَّهْرَ واجعل فِطْرَكَ الموتَ، وأمَّا أنا فلو خوَّلني الله أمثال ما خوَّلَكَ وأضعافه ما سرَّنِي به ولا أُشْغِلَ نفسي عن ذكر الله طرفة عين والسلام». وكانت تقول:

رَاحَتِي يَا أُخْوتِي فِي خَلْوَتِي ... وَحَبِيْبِي دائماً فِي حَضْرَتِي

لَمْ أَجِدْ لِي عَنْ هَواهُ عِوَضَاً ... وَهوَاهُ فِي البَرَايَا مِحْنَتِي

فرابعة العدوية رضي الله عنها ــــ كما يقول عنها فريد الدين العطار ــــ ذات الخدْر الخاص المستورة بستر الإخلاص، المتّقدة بنار العشق والاشتياق المتحرّقة إلى القُرب والاحتراق، الفانية في الوصال كأنها مريمٌ ثانيةٌ عذراءُ بتولٌ صافيةٌ صفيَّةٌ.

وقد حوّلت رابعةُ الزهد إلى محبَّةٍ، والرهبةَ إلى رغبةٍ والتعقيدَ إلى بساطةٍ والفلسفةَ إلى إيمانٍ والجَدَلَ إلى عملٍ، والفِقْهَ إلى تعبُّدٍ وأخلاقٍ، والحياةَ إلى خفقةِ قلبٍ ووثبةِ روحٍ نحو المَثَلِ الأعلى، خالقِها ومولاها، ونور آفاقها.

ودخلَ على رابعة العدويَّة رياحُ القيسي، و صالحُ بن عبد الجليل فتذاكروا الدنيا وأقبلوا يذمونها فقالت رابعةُ: «إنّي لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم»

قالوا: ومن أين توهَّمْتِ علينا؟

قالت: «إنَّكُم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلَّمتم فيه».

وروى المناوى في كتاب (الكواكب الدريّة ج١ـــــ ص ١٠٩) ذمَّ بعضُهم الدنيا عند رابعة فقالت: قال رســول الله (صـلى الله عليه وسـلم): (مَنْ أَحَبَّ شَـيْئَاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ). ذكركم لها دليلٌ على بطالة قلوبكم إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها.

وقال سـفيانُ الثوري مرّةً لأصحابه: هَيَّا بنا إلى المؤدِّبَةِ التي لا أجدُ من أسـتريح إليه إذا فارقتُها، فلمَّا دخل عليها سفيانُ رفع يده وقال: اللهمَّ إنّي أسألكَ السلامةَ. فبكت رابعة؟

فقال لها: ما يبكيكِ؟

قالت: أنت عرَّضتني للبكاء.

فقال: كيف؟

قالت: أما علمت أنَّ السلامةَ ترك ما فيها، فكيف وأنتَ متلطّخ فيها؟!.

وقال سفيانُ أيضاً: كنتُ عند رابعة ذات ليلةٍ فصَلَّتْ حتّى مطلع الفجر و صلَّيْتُ أنا كذلك، وفي الصـبح قالت رابعةُ: علينا أن نصـوم اليوم شـكراً لله على هذه الليلة والصـلوات التي أقمناها فيها[1] قال وبقيتُ عند رابعة يوماً وليلة نتحدّث عن الطريق وأسراره بحرارةٍ بلغت حدّاً نَسِــيْنَا معه أنّني رجل وأنّها امرأة، فلمّا فرغنا من الحديث شعرتُ بأنني لم أكن إلاَّ فقيراً بينما هي كانت ملكةً متوَّجة.

وكانت رابعة تقول:ليس من المستطاع أن تميّز بالنظر بين المقامات المختلفة في الطريق إلى الله، ولا أن تصلَ إليه باللسان، فلتجعلْ قلبَكَ مستيقظاً، فإذا استيقظ رأيتَ بعيونه الطريقَ وكان في وِسْعِكَ بلوغَ المقامِ.

---

(١) تذكرة الأولياء ـ فريد الدين العطّار .

لقد ا ستطاعت رابعة بحبِّها الإلهي دون طمع في جزاء وثواب، ولا خوفٍ من عِقَاب أن ترتقي في معارج التصــوّف، وأن تجعل التوبةَ عندها مقاماً وحالاً، وشرطُها الصــدقُ والإنابةُ، ولها ألوانٌ، فتوبةُ العوامِ من الذنوب، وتوبةُ الواصلين من الخواطرِ، وتوبَةُ العارفين من السوانح وتوبةُ المحبِّين من العجز عن القيام بحقِّ المحبوب.

وقال رجلٌ لرابعة: إنّي قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي فلو تُبْتُ هل يتوبُ اللهُ عليَّ؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتُبْتَ.

وسئلَتْ رابعة يوماً متى يكون العبد راضياً؟

فقالت: إذا سرَّتْهُ المصــيبة كما سرَّتهُ النعمةُ. فعندما وقع الجرادُ على زَرْعٍ لها فأكلَهُ فابتســمَتْ ونظرتْ إلى السماء وهتفَتْ: «إلهي رزقي عندك فما نقصني الجرادُ شيئاً، وَلاَ سلبني رزقاً وإِنّما هو قضاؤكَ والرزق عندك».

وأصــابَ رأسَــها رُكْنَ جدارٍ فأدماه فلم تلتفتْ إلى ذلك، فقيل لها: أما تُحِسِّــيْنَ بالألم؟ فقالت: شغلني بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما تَرُونَ.

وعند رابعة أن الشــكرَ يكون على رؤيةِ المنّان لا على منَّتِهِ فقط، وهو أعلى ذروة في مقام الإنسان، أي أنّك ترى الله قبل أن ترى المنَّةَ وبالتالي تراه قبل أن ترى أي صورة من صُوَرِ الوجود.

وكان منهجُ رابعة في حبِّها لله ليس كمثله شيء، فهي تحبُّ اللهَ لذاتهِ، لا طمعاً في جنَّتِهِ ولا خوفاً من ناره. وكانت تقول في مناجاتها: «إذا كنْتُ أعبدُكَ خوفاً مِنْ نارِكَ فاحرقني بنار جهنّم وإذا كنْتُ أعبدكَ طمعاً في جنَّتِكَ فاحرمنيها، أمَّا إذا كنْتُ أعبدُكَ مِنْ أجل محبَّتِكَ فلا تحرمني من مشــاهدة وجهكَ ذي الجلال والإكرام».

لقد كان معراج رابعة هو الفناء الكامل في الله بلا و ساطة، كانت بكلّ روحها وحوا سها، ووقدة قلبها وأشـواق حسِّـها متعلِّقة بمولاها تعلّقاً أذهلها عمّن سـواه. وقد كانت تصـلّي ألف ركعة في اليوم والليلة، فقيل لها: ما تريدين بهذا؟ فقالت: لا أريد به ثواباً، بل أفعله لكي يُسرَّــ به رســول الله يوم القيامة فيقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها.

لقد كانت حياتها مثلاً أعلى للعابدين والذاكرين، عاشـــت حياتها من الفجر إلى الغروب للذكر والمناجاة والتأمل والمراقبة، فقد كانت تصـــلّي الليل كلّه فإذا طلع الفجر هجعت في مصـــلاها هجعةً خفيفةً[٣] حتّى يُسْـفر الفجر فتثبُ من مرقدها فزعة تقول: ((يا نفسُ كم تنامين وإلى كم تقومين، يوشـكُ أنْ تنامي نومةً لا تقومين منها لصرخةِ يومِ النشور)).

وقد أجمع كل من عرف رابعة أنّها كانت تقوم الليلَ لربِّها، ومكثت أربعين عاماً تصـلّي الصُّــبْحَ بوضوءِ العشاء[١] وأنّها خلال هذه السنوات الطوال لم تكن ترفع رأسها إلى السماء حياءً من الله تعالى وأنّ لسانها لم يفترْ أبداً عن ذكرٍ أو نجوى أو قراءة قرآن كريم.

ومن مناجاتها التي تعبّر عن حبّها لله تعالى وتوحيدها له:

((إلهي مَا أَصْغَيْتُ إلى صَوْتِ حَيَوانٍ، ولا حفيفِ شجرٍ، ولا خريرِ ماءٍ ولا ترنُّمِ طائرٍ، ولا تنعُّمِ ظِلٍّ، ولا دويّ ريحٍ ولا قعقعةِ رعدٍ، إلاّ وجَدتها شاهدةً بوحدانيتكَ دالَّةً على أنَّه ليسَ كمثْلِكَ شيءٌ)).

وروى أبو محمد السرّاج القارئ عن مسمع بن عاصم في كتاب (مصارع العشّاق) في الصفحة ١٣٦:

(قالت لي رابعة: «اعتللتُ عِلَّةً قطعتني عن التهجد وقيام الليل، فمكثتُ أيّاماً أقرأُ جزئي إذا ارتفع النهار لما يُذْكَر فيه أنَّه يعدِلُ قيام الليل، ثمّ رزقتي الله عزّ وجلَّ العافية، فاعتادتني فَتْرةٌ[٢] في عقب العِلَّة، وكنتُ قد سَـــكَنْتُ إلى قراءةِ جزئي بالنهار، فانقطع عَنِّي قيامُ الليل، وبينما أنا ذاتَ ليلةٍ راقدةٌ رأيتُ في منامي كأنّي رُفِعْتُ إلى روضـةٍ خضراءَ ذاتِ قصـورٍ ونَبْتٍ حَسَـنٍ، فبينا أنا أتجوّلُ فيها أتعجَّبُ من حُسْنِهَا إذا أنا بطائرٍ أخضرَ وجارية تطارده كأنَّها تريدُ أخذَهُ، فشغلني حُسْنُها عن

---

(٣) صفوة الأصفياء ـــ ابن الجوزي ـ ج٤ ـ ص ٥٨ .

(١) صلاة الصبح بوضوء العشاء تعني عدم نومها وبقاءها تتعبّد لأنّ النوم ينقض الوضوء .

(٢) فَتْرَةٌ: حَالَةٌ من الكَسَلِ والخُمُولِ والفُتُورِ في النَّشاطِ .

حُسْنِهِ، فقلتُ لها: ما تريدين منه؟ دَعِيْهِ فواللهِ ما رأيتُ طائراً قط أَحْسَنَ منه، فقالت الجاريةُ: حَسَنَاً. ثمّ أخذتْ بيدي فدارت بي في تلك الروضة حتّى انتهتْ بي إلى باب قصرٍ، فاستفتحتْ[٣] ففتحَ لها، ثمّ قالت: افتحوا لي بيت (لمقة)[٤] ففُتِحَ لها باب شَاعَ منه شعاعٌ استنار من ضوء نوره ما بين يدي وخلفي، وقالت: ادخلي، فدخلتُ إلى بيتٍ يحارُ فيه البصرُ ـ تلألؤاً وحُسْناً ما أعرفُ له في الدنيا شبهاً أشبِّهه به. فبينا نحن نجول فيه، إذ رُفِعَ لنا بابٌ يُنْفَذُ منه إلى بستانٍ، فأَهْوَتْ منه وأنا معها، فتلقانا فيه وُصَفَاء[١] كأنَّ وجوههم اللؤلؤ، وبأيديهم المجامرُ[٢] فقالت لهم أين تريدون؟ قالوا: نريدُ فلاناً قُتِلَ في البَحْرِ شهيداً.

قالت: أفَلا تجمروا هذه المرأة. قالوا: قد كان لها في ذلك حظٌّ فتركَتْهُ. فتركت الجاريةُ يدها من يدي ثمّ أقبلتْ عليَّ وقالت:

صَلاَتُكِ نُوْرٌ وَالعِبَادُ رُقُوْدٌ	وَنَوْمُكِ ضِدٌّ لِلصَّلاَةِ عَنِيْدُ
وَعُمْرُكِ غَنْمٌ[٣] إنْ عَقِلْتِ وَمُهْلَةٌ	يَسِيْرٌ ويَفْنَى دَائِمَاً ويَبِيدُ

ثمّ غابتْ من بين عيني، واستيقظتُ من تبدّي الفجر، فواللهِ ما ذكرتُها وتوهَّمْتُها إلاّ طاشَ عقلي وانكسرت نفسي».

وروى فريد الدين العطّار في كتاب (تذكرة الأولياء):

(كانت رابعة العدوية صائمةً وفي أثناء مناجاتها وعند غروب الشمس وليس لديها طعامٌ غَمْغَمَتْ: إلى متّى تعذبين نفسَكِ يا رابعة، وتحمّلينها مشقَّةً ليس بَعْدَها مشقَّةٌ؟

---

(٣) اِسْتَفْتَحَتْ: طلبتْ الإذنَ بالفتح، وهُنا المقصودُ فتحُ الباب من القصرِ.

(٤) لمقة: لم يَرِدْ شَرْحُها في أي مَرْجعٍ، كونُها وَرَدَتْ في حُلمِ رابعة ولم يُعْرَفْ معناها، وأظنُّها اسم علم لمَلاكٍ من الجنَّةِ، والله أعلم.

(١) الوُصَفَاءُ: مفردها الوَصِيْفُ وهو الخادم، وهم هنا من الملائكة.

(٢) المَجَامرُ: مفردها مِجْمَرة وهي أداة يُحْرَق فيها الجَمْر مع البخور.

(٣) غَنْمٌ: إي اغتنامٌ واكتسابٌ، أي عُمر المرء يجب أن يستغلَّهُ بالعبادةِ والعملِ الصالح قبل انتهائه فهو سائر إلى الزوالِ مهما طالَ.

عندها صَــكَّ أذنها طَرْقٌ على الباب فذهبَتْ لترى مَنْ بالباب: فإذا برجل في يده إناءٌ ممتلئٌ طعاماً تركَهُ وانصرف، فتناولت الإناء ووضعتْهُ في زاوية الغرفة وتشاغلت بإصلاح القنديل، فدخلتْ هرَّةٌ فأكلت ما في الإناء، فلمَّا عادت رابعةُ وجدتِ الإناءَ خاوياً، فقالت في نفســها: لا بأس أفطر على ماء. وذهبت لتحضر الماء فانطفأ القنديل، فلم تُطِقْ احتمالاً فقالت: اللهمَّ لِمَ هذا العذاب؟ وأحسَّتْ ندماً فأطرقَت في استحياء، ثمّ سمعتْ صوتاً يقول: لو شئتِ يا رابعة وَهَبْنَا لَكِ ما في الدنيا ومَحَوْنا ما في قلبك من نار العشق، لأَنَّ قلباً مشغولاً بحُبِّ الله لا يُشْغَل بحبّ الدنيا).

لقد كانت رابعة مثالاً حيَّاً على الحب الإلهي والزهد في الدنيا فقد كانت تنام على حصــيرةٍ بالية وكان موضع الوسادة قطعة من الآجر وكانت تشربُ من إناء مكسور وتطوي ليلها مسهَّدةً تصلّي للهِ تعالى وتناجيه:

وَزَادي قَـلِـيْـلٌ مَـا أرَاهُ مُـبْـلِـغِـي	أَلْـلـزَّاد أَبـكِي أَمْ لِـطُـوْلِ مَسَــافـتـي
أتَـحْـرِقُـنِـي بـالـنَّـارِ يَـا غَـايَـةَ المُـنَـى	فَـأَيـنَ رَجَـائِي فـيـكَ أَيـنَ مـخـافـتـي

وجاء مرّةً رجلٌ إلى رابعة يفتخر بكثرة حَسناته على الفقراء ويسألُهَا عن بعض الأمور، فقالت له:

يا عبدَ اللهِ! اكتم حسناتكَ كما تكتُم سيّئاتك، فالتوبةُ لا تتحقَّق للتائب حتى يبكي في التوبة قدر ما ضحك في المعصية.

وقيل أنّه تقدّم لها رجل يطلُبُها للزواج، وكان معروفاً بين الناس بمكانته وعلمه وعبادته لله، فقالت له: إنّي أسألُكَ أربعَ مسائل، فإن أجبتني تكون بعلي. قال: سَلِيْ ما شئتِ.

قالت: إذا نُودِيَ (قومٌ في الجَنَّةِ وقومٌ في النار) أتعلمُ مع أي الفريقين أكون أنا؟

قال لها: هذا عِلْم غيبٍ والغيبُ لا يعلمُه إلاَّ الله.

ثمّ قالت: إذا يوم الحِسَاب جُمِعَ البشر، وتطايرت الكُتُب، فمنهم من يُقدَّم كتابه باليمين ومنهم من يقدَّم كتابه بالشمال، أتعلمُ أني أقدّم كتابي باليمين أم بالشمال؟

فأجابها كالسابق، ثم قالت: إذا وقّفني ربّي بين يديه وسألني أتعلم أني أقدر على ردّ الجواب؟ فأجابها كالسابق.

فقالت: أراك لم تجبني على سؤالٍ واحدٍ ممّا سألتُكَ، والذي أحبّه قادر على الإجابة وهو يغنيني عن كل البشر. لكنّه ألحَّ عليها.

فقالت: أسألك مسألة صغيرة: العقل مع العبد كم جزء؟

قال: عشرة أجزاء.

قالت: كيف تقسّمُه على الرجال والنساء؟

قال: تسعة أجزاء للرجال، وجزءٌ للنساء.

قالت صحيح، والشهواتُ كيف تقسِّمُها؟

قال: جزءٌ للرجال، وتسعةٌ للنساء.

فقالت: وكيف أنا بجزءٍ واحدٍ من العقل ملكتُ تسعة الأجزاء من الشهوات، وأنت بتسعةِ الأجزاء من العقل لم تملك إلا جزءاً من الشهوات؟ أنت أجهل الجاهلين أما تستحي، والله لا أبدّل الباقي بالفاني.

ولمَّا حَضَرَتْ رابعةَ الوفاةُ دَعَتْ خادمتها (عَبْدَة) وقالت لها: يا عَبدَةُ لا تؤذني بموتي أحداً، ولُفِّيْني في جُبَّتِي هذه، لكنَّ نفراً من الصالحين عرفوا بقُرْبِ موتها فحضروا بيتها، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا ودعوا الطريقَ مفتوحةً لرُسلِ الله تعالى، فنهضوا وخرجوا، فلمَّا أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهي تقول الشهادة، فأجابها صوت:

((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {٢٧} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {٢٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {٢٩} وَادْخُلِي جَنَّتِي {٣٠})) سورة (الفجر)

ثمّ سَلَّمَتْ رابعةُ الأمَانَةَ لمَنْ أحبَّتْ وعَشِقَتْ راضيةً مرضيَّةً سنة ١٨٠ هـ.

قالت خادمتها عبدةُ: رأيتُ رابعةَ بعد موتها بسَنَةٍ في منامي عليها حُلَّةٌ من إستبرق وخمارٌ من سندس أخضر لم أرَ شيئاً أحسن منه. فقلتُ: أي رابعةُ ما فعلْتِ بالجُبَّةِ التي كفَّناكِ بها والخِمارِ الصوفِ؟ قالت: إنَّه والله نُزِع عنّي وأُبْدِلْتُ به هذا الذي ترينه عليّ وطُوِيَتْ أكفاني وخُتِم عليها ورُفِعتْ في عليين لتكمل لي بها ثوابي يوم القيامة.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ شَهِيدةِ العشْقِ الإلهي رَابعةَ العدويَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، والحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ.

٨ - قِصَّةُ العَابِدِ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ (رضي الله عنه)

هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم،وُلِدَ سنة ١٨٥ هـــ، وكان والده نوبياً، ولقبه ذوالنون (صاحب الحوت) تشـبُّهاً له بسـيرة النبي يونس (**عليه السـلام**)، كان فائق الشـأن، وأوحد وَقْتِهِ علماً وورَعَاً وحالاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكّل فا ستحضره من مصر، فلمّا دخلَ عليه وَعَظَهُ فبكى المتوكّل وَرَدَّهُ إلى مصرـ مكرَّماً. كان رجلاً نحيفاً تعلُوه حُمرةٌ، ليس بأبيض اللحية، وعلى يديه كانت توبة رابعة بنت إسماعيل الشامية. كان يقول:

لا تسـكنُ الحكمةُ معدةً مُلئتْ طعاماً. تجوَّلَ كثيراً وعرف الكثير، وكانت توبته عندما أراد الخروج من مصر إلى بعض القرى فنام في الطريق[1] وعندما فتح عينيه رأى قنبرةً عمياء سقطت على الأرض ثم انشـقَّت الأرض فخرج منها سـكرجتان (عُلبتان) أحدهما ذهبية اللون والأخرى فضـيّة وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلت القنبرة تأكل وتشرب، فلمّا رأى ذلك قال:

حسـبي قد تُبْتُ ولزمْتُ البابَ، إلى أن قبله الله عزَّ وجلَّ. وكان يقول: مدار الكلام على أربع، حب الجليل، وبغض القليل واتِّباع التنزيل وخوف التحويل. والتوبة نوعان: توبةُ العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. ومن لم يَدْرِ قدر النِّعم سُلِبَها من حيث لا يعلم. وكانت وفاته بمصر سنة ٢٤٥ هـ ودُفِنَ بها. رحمة الله عليه.

العَابِدِ ذِو النُّونِ المِصْرِيُّ وتِجْوَالُهُ وَأَقْوَالُهُ

روى ابن خلّكان، وأبو نعيم الحافظ قصّـةَ ذي النون المصري وأخباره مع عابدٍ وُصِـفَ بالجنون، ولقائِه بحكيمٍ عابدٍ بالله مفتون، وطبيب للرُّوحِ معالج.. وكثيرٌ من

(١) الرسالة القشرية ـــ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ـــ الصحيفة الثامنة ـــ شرح هوامشها شيخ الإسلام زكريا الأنصاري .

أقواله ومواعظه، صـارت على مرّ الأيّام دُرراً، فقالا: وُصِـفَ لذي النون المصريـي رجلٌ من أهلِ المعرفة والحكمة في جبل اللُّكام[1] فقصده وسأل عنه خلقاً كانوا مجتمعين للحديث والتفقّه في الدين، فقالوا له: مَالَكَ والمجانين تسأل عن أحدهم؟

فقال لهم مستغرباً: وماذا رأيتم من جنونه حتى تنعتوه بالمجنون؟

فقالوا: نراه هائماً ســاهياً، يُكَلَّمُ فلا يُجيب، ويتكلّمُ فلا يُفْقَهُ قولُه، ولا يُجابُ، ينوحُ دائماً على نفسه، ويبكي حياته ويكثر النواح ويزيد بؤسه.

فقال ذو النون لهم: ما أحسنَ ما وصفتم، وأسوء ما اتصفتم، فنِعْمَ صِفَاتٍ ذكرتم، وبِئْسَ صفةٍ أطلقتم. دلُّوني على هذا المجنون علَّني بدائه أكتوي ومِنْ عِلْمِهِ أرتوي.

فقالوا: هو في وَادٍ كثير الشجر، شائك الطرقات بعيد المنحدر.

فذهب ذو النون إلى ذلك الوادي، فلمّا أشرف على الوادي ســمعَ صــوتاً محزوناً يبكي ويناجي خالقه، فنظر فإذا هو فتىً حَسَـنُ الوَجْهِ قد ذهبَتْ عنه المحاسـنُ وبقيَتْ رسُـومُهَا، فسـلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام وبقي شاخِصَاً ساهماً وهو يقول:

نَزَّهْـتُ نَفْسِيــ عَنِ الـدُّنْيَـا وَزِيْنَتِهَـا ... فَـأَنْـتَ وَالـرُّوْحُ شَيْءٌ غَـيْرُ مُـفْـتَرِقِ

فَـإِذَا ذَكَـرْتُـكَ فَـإِنَّ مُـقْـلَـتِـي قَـلـقـةً ... مِنْ أَوَّلِ الليْـلِ حَتَّى مَطْلَعِ الفَلَقِ

وَمَـا تَطَبَّقـتِ الأَجْفَـانُ عَنْ سَـــنَـةٍ ... إلاَّ رَأَيْـتُـكَ بَـيْنَ الـجَـفْـنِ وَالـحَـدَقِ

وعندما انتهى الشابُّ مِن شعره، قال لذي النون:

يا ذا النونِ مَالَكَ وَطَلَبُ المجنونِ؟

فقال ذو النون: ما الذي حبَّبَ إليكَ الانفراد والانعزال، وجعلكَ تهيمُ في الأوديةِ والســهول بين الغابات والجبالِ؟ وهل أنتَ مجنونٌ كما يدّعون؟

فقال: قد وصفوني بالمجنون، أمّا حبُّه فقد هيمّني، ووجدي به قد أفردني.

---

(١) اللُّكامُ: جَبَلٌ في شِمَالِ سُورية .

فقال ذو النون: وأينَ محلُّ الحبِّ منكَ؟

فقال الشـابُّ: هو في سـواد القلبِ. ثمّ صرخ الشـابُّ صرخةً اِرْتَجَّ لها الجبلُ، وقال يا ذا النونِ! هكذا موتُ الصادقين.

ثمّ سقط الشابُ ميتاً، فقام ذو النون بغَسْلِهِ وتكفينه، ثمّ دفنِهِ،رحمة اللهِ عليه. ثمّ قام يصلّي ويقول إلهي بأيّ رِجْلٍ أمشي إليكَ، أم بأيّ عينٍ أنظر إليك، أم بأيّ لسـانٍ أناجيكَ، أم بأيّ يَدٍ أدعوكَ. لكنَّ الثّقةَ بكرمِكَ حملتني على الجرأة. إلهي كيف يناجيكَ بالصـلواتِ اِمرؤٌ يعصـيكَ في الخَلَوات لولا حِلْمُكَ؟ أم كيفَ يدعوكَ في الحاجات مَنْ ينساك عند الشهوات لولا فضلُكَ؟ اللّهمَّ ارزقنا حُسْنَ الإقبال عليك والإصـغاء إليك، لا قوّة على طاعتكَ إلاَّ بعنايتك، ولا حول عن معصـيتك إلاَّ بمشـيئتكَ، ولا ملجأ منك إلاَّ إليكَ، ولا خيرُ يُرْجى إلاَّ في يديكَ اللهمَّ قد أتيناكَ طالبين فلا تردَّنا خائبين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقال ذو النون: بينما أنا سـائح في الجبال، إذ مررتُ بوادٍ كثيرِ الشـجر والنباتِ والطيرِ والثمرِ، فجعلتُ أتفكَّرُ في قدرة الله تعالى وحُسْنِ صنعتِهِ، فسمعتُ صوتاً أَهَلَّ مدامعي، وهَيَّجَ نارَ أضالعي، فسِرْتُ متتبِّعَاً الصـوتَ فإذا الكلامُ يخرجُ من باب مغارةٍ، فدخلتُ حَذِراً فرأيتُ رجُلاً من أهل التعبُّدِ والاجتهاد، قد بَرَاهُ[1] النحول وعليه آثار القبول[2] وسـمعتُه يقول: سـبحان من اختار قلوبَ العاشـقين لمناجاته بين يديه، وكَفَى نفوسَهم يومَ الطلب فهي لا تعتمدُ إلاَّ عليه، وأفردَها لمحبَّتهِ فهي لا تحنُّ إلاَّ إليه.

فلمَّا أحسَّ بوجودي قُرْبَهُ سَكَتَ، ونظرَ إليَّ، فقلتُ له:

السلامُ عليكَ يا عبدَ الله، يا حليفَ الأحزانِ،وقرينَ الأشجانِ.

فقال الشـيخ: وعليك السـلامُ ورحمةُ الله وبركاته، ما الذي أَوْصَـلكَ إلى مَنْ أفردَهُ الخوفُ عن الأنامِ، واشتغلَ بِمحاسبةِ نفسِهِ عن التقطُّعِ في الكلام؟

---

(١) بَرَاهُ : أضعفَهُ وأتعبَ جسده، وأصابَه بالنحولِ.
(٢) القُبولُ : الإقبالُ على عبادة اللهِ والزهدُ والتقشُّفُ.

فقلتُ له: أوصلتني الرغبةُ في التصفُّحِ والاعتبارِ، والنظرِ في قدرةِ الواحدِ القهَّارِ، والتنزُّهِ في رياضِ أسرارِ الأولياءِ الأطهارِ.

فقال لي: يا فتى! إنّ للهِ عباداً أوقدَ في قلوبهم نارَ الشـفقةِ بمحبوبهم، فأرواحهم إليه تسرـحُ في رياضِ الملكوتِ، وتنظرُ إلى ما ادُّخِرَ لها من خزائنِ الجبروت، فأعينهم إلى جمالهِ نظرة ولرحمته ناظرة.

ثم بكى الشـــيخ بكاءً شـــديداً وقال: إلهي لمِثْل أعمال أوليائك وَفِّقْني، وبهم ألحقني. ثمّ تأوَّهَ وصـاحَ، ووقع على الأرض ميتاً رحمةُ اللهِ عليه، فنظرتُ بجانب المغارة فإذْ بكفنٍ أبيضَ منشـورٍ فوقَ حجرٍ كبيرٍ، وإناءٍ من فخَّارٍ مملوءٍ ماءً، فغســلتُهُ، ثمّ كفَّنتُهُ، ودفَنْتُهُ بعد أن صــلَّيتُ عليهِ، رحمةُ اللهِ عليهِ، وأنشدتُ أقولُ:

لـلـهِ قَـوْمٌ أَطَـاعُـوهُ وَمَـا قَصَــدُوا	سِـــوَاهُ إِذَا نَـظَـرُوا الأَكْـوَانَ بـالـعِـبَرِ
وَالوَجْـدُ وَالشَّــوْقُ وَالإِذْكَـارُ قُوَّتُهُمْ	وَلازَمُـوا الـجِـدَّ في الإِدْلاَجِ[1] وَالـبُـكَـرِ
وَبَـادَرُوْا لِـرِضَــــاهُ دَائِمَـاً وَسَــــعُـوْا	قَصْـــدَ السَّــبِيْـلِ على سَــعْيٍ بمُؤْتَمَرِ
وَآمَنُوا وَاسْــتَقَـاموا مِثْلما ائتُمِرُوا	وَاسْــتَغْرَقُوا وَقْتَهُمْ بالصَّــوْمِ وَالسَّــهَرِ
وَجَـاهَـدُوْا وَانتَهَوا عَمَّا يُبَـاعِـدُهُمْ	عَنْ بَـابِـهِ وَاسْــتَلانوا كـلَّ ذي وَعَرِ
جَنَّـاتُ عَـدْنٍ لَهُمْ مَـا يَشْــتَهُوْنَ بِهَـا	في مَقْعَـدِ صِـــدْقٍ بَيْنَ الرَّوْضِ وَالزَّهَرِ
لَـهُـم مِـنَ الـلـهِ مَـالاَ شيءَ يـعـدِلُـهُ	سَـــمَاعُ تســـبيحـهِ والفوزُ بـالظَّفَرِ

وقال ذو النون: مررتُ ذات يومٍ ببلدةٍ صغيرةٍ فوجدتُ طبيباً وحولَه جماعةٌ من الرجالِ والنساء، يمســكون قواريرَ في أيديهم، وكلُ واحدٍ منهم يعرضُ عليه عِلَّتَهُ، وهو يصـفُ لكلِّ عِلَّةٍ دواءً، ويصـبُّ لهم في قواريرهم حَسْبَ عِلَلهم، فتقدَّمتُ منه

---

(١) الإدلاجُ : العتْمَةُ وَالظلمةُ والليلُ .

وقلتُ: أيُّها الحكيم! صفْ لِي دواءً للذنوب فكان الحكيمُ ذا فِراسةٍ وبراعةٍ، فأطرقَ برأسه للأرضِ مدَّةً وتفكَّرَ ثمّ نظرَ إليَّ وكأَنَّهُ عرف غايتي من السـؤال وقال: يا ذا النون! إن وصـفتِ لكَ هذا الدواء تفعله؟

قلتُ: نعم. قال: خُذْ عروقَ الصَّبْر، وورَقَ الفَقْر، وإهليلجَ[1] الخشوعِ وإبليلج التواضعِ، ثم أَلْقِ الجميعَ في هاون التوبةِ، ثم اسحقهم بقهْرِ التقوى، واعصمْهُم باعتصام العصمة، ثمّ ضَعْهم في جَام الرضى، ثمّ رَوِّحهم بمروحة الحمدِ، ثمّ ألقِ عليهم تَمْرَ الطَّاعَةِ وانزعْ منهمُ نوى العُجْبِ، وارْمِ عليهم دقيقَ العبوديةِ، وصُبَّ عليهم ماءَ الصفاء، وأضِف الكُلَّ إلى إناء الشكر، ثمّ أوقدْ تحتهم نارَ الخوف، ثمّ حَرِّكهُم بملعقة الاسـتغفار، ثمّ فرِّغْهم في قَدح المناجاة، وبرِّدْهم بأنفاس المراقبة، وامزجهم بماء التوكل، وتمضمضْ بماء الوَرَع، فإذا أنت فعلت ذلك فإنك لا تعود إلى معصيةٍ أبداً.

فقلتُ: ما أجملَ ما سـمعتُ، وأجلَّ ما نطقْتَ، وإنّي له قد فعلتُ ثمّ شـكرتُه ومضـيتُ في دربي، متابعاً بحثي عن كلّ ما يرضي ربّي.

وكان ذو النون المصـري رضي الله عنه يحثّ الناس على الزهد في الدنيا وعدم التعلّق بحبّها ويقول: كما أنّ الحجرَ لا يلين في الماء مهما لبث فيه، كذلك القلب إذا تعلّق بحبّ الدنيا لم تنفعه المواعظ ولم يلِنْ، وكما أنّ البيتَ بلا سـكّانٍ يعمّرونه وينشرـون فيه الحياة، كذلك القلب إذا تُرِكَ بلا وعظ وإرشاد خَرُبَ كما يخرب البيتُ دون ساكنيه.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ وَأَقْوَالِ العَابِدِ الزَّاهِدِ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ سِوَاه، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى رسُولِهِ وَمَوْلاَه.



(١) الإهليلج : شجر هندي ثماره متطاولة من الرأسين ومنتفخة من الوسط، وكذلك الابليلج .

قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُهَذَّبِ (رضي الله عنه)

روى العَابِدُ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُهَذَّبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حكايته مع العابد الشـاب الذي وُسِـمَ بالجنون فقال: مررتُ ذات يوم بسوق الرقيق، فوجدتُ غلاماً ينادي الدلاَّلُ عليه: مَنْ يشتري عبداً، أبيعُه بكلّ العيوب وبأرخص الأثمانِ حِفظاً للجيوب؟ فقلتُ له: ما العيبُ الذي في هذا الغلام الذي جعلك تبيعه بأرخص الأثمان؟ فقال: اسألهُ بنفسك يا مولاي! فتعرف منه شكواي.

فدنوتُ من الغلام وقلتُ له: يا غلامُ! ما العيبُ الذي فيك حتّى زهد صاحبك منك؟

فقال يا سيدي: عيوبي كثيرة ولا أدري بما شهرتي!

فقلتُ للدلاَّلِ: أخبرني بالعيب الذي فيه. فقال: به دَاءُ الجنون والصَّرَعِ فقلتُ للغلام متفحِّصَـاً: وكيف يأتيكَ هذا الصَّرَع، أفي كلّ يوم، أم أسبوع أم كل شهر؟ فأجاب: يا سيّدي! إذا استولى داءُ المحبَّة على العقل وسائر الجَسَدِ، فإنَّ العقلَ يطيشُ بذِكْر الحبيب، ويُحدِثُ على العقل استغراقاً وعلى القلب سكوناً فيعتقده الجاهل جنوناً.

فقلتُ في نفسي: إنَّ هذا الغلام ليس بمجنون وإنّما هو من أولياء المَلِكِ العلاَّم، ربِّ الأنام.

فقلتُ للدلاَّل: كم ثمن هذا الغلام؟

قال: مئتا درهم. قلتُ: وأزيدك عليها عشرين.

ففرح الدلاَّلُ الذي لم يكن يتوقَّعُ ربحاً من بيع هذا الغلام، ثمّ وَزَنْتُ له الثمنَ وسرتُ مع الغلام إلى منزلي، فلمَّا وصلنا أَمَرْتُه بالدخول لكنَّهُ توقَّف وسألني: يا سيدي! ألكَ أهل وزوجة وأولاد؟

قلتُ: نعم. فقال: ومَنْ يستطيع أن ينظرَ إلى المحرّمات؟

قلتُ: قد أبحت لك ذلكَ.

فرفض مجدَّداً وقال: معاذ الله، أنا سـأبقى هنا خارج الباب وأي حاجةٍ تطلبها مني أدَّيتُها من مكاني ولن أدخل أبداً. فتركتُه وقبلتُ معه بعد أن رأيتُ إصراره، ثمّ أخرجتُ له الطعام فقال: أنا صائم. فأعدتُ الطعام، ولمَّا كان العشاء قلتُ في نفسي حان وقتُ إفطاره، فأخرجتُ الطعام، فقال: أنا طاوٍ[1]، فأقام عندي في دهليز الدار فخرجتُ إليه منتصف الليل فوجدتُه يصلّي ولم يشعر بوجودي، فلمَّا فرغ من صلاته سجد وبكى بكاءً شديداً وصار يناجي الله قائلاً: إلهي غلّقتِ الملوكُ أبوابها، ونامت عليها حُجّابُها، وبابُك للسائلين مفتوحٌ. إلهي أزهرتِ النجومُ ونامتِ العيونُ، وأنتَ الحيُّ القيوم الذي لا تأخذه سَنَةٌ ولا نوم. إلهي فَرِشَت الفرشُ وخَلا كُلُّ حبيبٍ بحبيبهِ، وأنتَ حبيبُ المجتهدين وأنيسُ المستوحشين.

إلهي إن طردتني عن بابِكَ فبابُ من ألتجئ؟ إلهي إن قطعتني عن جنابكَ فجنابُ مَنْ أرتجي؟ إلهي إن عذّبتني فإنِّي مستحقٌّ العذابَ والنِقَمَ، وإن عفوت فأنتَ أهلٌ للجُود والكرمِ.

ثمّ جلس ورفع يديه وبكى وقال: سيّدي لك أَخْلَصَ العارفون، وبِكَ نَجَا الصالحون، وبرحمتِكَ أنَابَ المقصّرون. يا جميل العفو أذقني بَرْدَ عفوكَ وحلاوةَ مغفرتكَ، وإن لم أكنْ أهلاً لذلكَ، فإنَّكَ أهل التقوى ورَبُّ المغفرةِ.

قال عبد الله: فتركتُه وقد أ شعل فؤادي حديثُه، وأوقدَ ناراً في صدري بكاؤُه ودَخَلْتُ الدار دون أن أُعَكِّرَ عليه خَلْوتَه.

فلمَّا أصبح الصباح وأنار النورُ والفجرُ لاح، خرجتُ إليه وقلتُ له: كيف نِمْتَ البارحةَ؟

فقال: يا سيدي! كيف ينامُ مَنْ يخافُ النارَ، والعَرْضَ على الملكِ الجَبَّارِ، والتوبيخَ على الذنوب والأوزار.

---

(١) الطوى:الجُوعُ، والطاوي الذي يتعمد الجوعَ ليلاً لغايةٍ ما كالصَّائم نهاراً .

ثمّ بكى طويلاً، فأدهشني بمدى صِدْقه في حُبّه لله، وزهده في الدنيا، فقلتُ: مِثْلُكَ لا يكون عبداً لغير الله، اذهبْ فأنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى.

فقال: يا سـيّدي! قبل عتقكَ لي كان لي أَجران، أجرٌ في العبودية، وأجرُ الخدمة، وقد ذهب عني أحدهما. أعتقكَ الله من نار جهنّم.

فحاولتُ دَفْعَ نفقتِهِ إليه لتساعده في أموره وإصلاح شأنه فأبى قبولها وقالَ: المتكفِّلُ بأرزاقِ العبَادِ حيٌّ لا يموت، وهو يرزقني مثلما يرزق الطير والمخلوقات كافّةً، فالطيرُ تغدو خِماصاً[1] وتعود بِطَاناً[2].

ثمّ خرج هائماً على وجهه ولا أدري أين ذهب ولم أرَهُ منذ تلك الساعة، رضي الله عنه ورحمه الله إن كان ميّتاً. ثمّ جعلْتُ أتفكّرُ في هذا العابد الشاب ومدى خضوعه لسلطان محبوبه وخالقه، وتفطُّر قلبه خوفاً ووَرَعاً وحُبّاً وشوقاً، فجعلتُ أقولُ: واشوقاهُ إلى أرباب القلوبِ، واحسرتاهُ على فَوَاتِ المطلوبِ. يا محبوساً في سجن الغَفْلَةِ لو أشرفتَ على وادي الرَّجَا لوجدتَ خياماً مضروبة على شاطئ بحر الصفا، سُكّانها قليلاً ما يهجعون، وكثيراً ما يصلّون ويقومون وعيونُهم لا تعرفُ إلاَّ السهرَ والبكاءَ، وقلوبُهم تطفحُ بالصبر والدعاء والرجاء، ولسمعْتَ أطيار أشجانهم على أغصان أحزانهم تترنّم بأشجان خفقاتهم، وهم بالأسحار مستغفرون، لَذّ لهم السهرُ، وصَفَا وقتُهم من الكَدَرِ، وراقَ لهم وقتُ السَّحَر، وخَلَوا بالمحبوبِ وفازوا بالمشاهدة والنظر، ثمّ جعلتُ أُنْشِدُ:

هَذَا الحَبيبُ مَعَ الأَحْبَابِ قَدْ حَضَرَا ... وَسَامَحَ الكُلَّ عَمَّا قَدْ مَضَى وَجَرَى

وَقَدْ أَدارَ عَلَى العُشَّاقِ خَمْرَتَهُ ... صَرْفاً يكادُ سَنَاهَا يَخْطِفُ البَصَرَا

يَا سَعْدُ كرِّرْ لَنَا تَذْكَارَهُ فَلَقَدْ ... بَلْبَلْتَ أَسْمَاعَنَا يا مُطْرِبَ الفُقَرَا

(١) الخمَاصُ: تعني جائعةٌ خاليةُ البطونِ من الطّعامِ.
(٢) البِطَانُ: تعني شبعانة ممتلئة البطون.

وَمَـالَ رُكْنُ الهَوَى، مَـالَـتْ مَعَـاطِفُـهُ ... لاَ شَـــكَّ أَنَّ حَبِيْبَ القَوْمِ قَدْ حَضَرَا

فَفِي غَـدٍ تَنْظُرُ الأَعْلاَمُ وَقَـدْ رُفِعَـتْ ... ببَـابِهِم، عَلَمَاً للوَصْـــلِ قَـدْ نُشِرَا

وَمَجْلِسُ الأُنْسِ بـالمَحْبُوبِ يَجْمعُهُم ... وَالكُؤُوسُ دَائرةٌ مَـا بينهم سَــحَرَا

وَمَنْ سَــقَـاهُمْ تَجَلَّى لا شَــبِيْـهَ لَـهُ ... حَاشَـــاهُ يُشْــبِهُهُ شَــمْسٌ ولا القَمَرَا

مُـنَـزَّهٌ عـن شَرِيْـكٍ فِي مَـلاَحَـتِـهِ ... مُـوَحَّـدٌ فِي عُـلاَهُ لَـيْسَ فِـيْـهِ مِـرَا[1]

هَذَا السَّــمَاعُ الذي تُشْــفَى الصُّـدوْرُ بهِ ... هَـذَا الحَبيْـبُ الَّـذِي قَـدْ هَيَّم الفِكَرَا

(١) المِرَا : يعني المِرَاءَ، وَالمَقْصُودُ النِّفَاقُ وَالشَّكُّ .

١٠ - قِصَّةُ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار (رضي الله عنه)

رُويَ عن العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار أنّه كان يحتطبُ مع الشـيخ العابد أبي اسـحق القراري، رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، ويبيعان الحطبَ ويعيشان بقسمٍ من ثمنه ويتصدّقان بالقسم الأكبر. فصادفَ أن اتَّفقا ذاتَ يومٍ على أن يصـعدا الجبلَ من الغَدَاةِ ويحتطبا، وسـاعدا بعضـهما البعض، وحدَثَ أن سـبقَ عليٌّ أبا اسـحق إلى الجبل، فاحتطبَ وجعل ينتظرُ أبا اسـحق الذي أبطأ عنه، ثمّ صـار يطوف عليه في الجبل عَلَّه يدركُه أو يقف له على خبرٍ، فبينما هو كذلك إذ شـاهد أبا اسـحق وهو جالس متربِّعٌ على الأرض، وقد نام بقُرْبِهِ سَبْعٌ عظيمٌ، وقد أسند السبعُ رأسَهُ على حِجْرِ أبي اسحق، وهو ينشُّ الذبابَ عن السبع النائم، فقال عليٌّ مستغرباً تأخّرهُ لا تصرُّفه:

ما هذا يا أبا اسحق؟

لقد انتظرتك طويلاً، وقد أنهيتُ حزمتي وكنتُ عازماً على العودة!

فقال أبو اسـحق: اعذرني على التأخير والإبطاءِ، فقد التجأ هذا السـبعُ إليَّ متعباً جائعاً فأطعمتُه من بعض طعامي، ونام من شـدَّة تعبهِ فرفقتُ به، ولم أشـأْ إيقاظه، فاسـبقني إلى بيع حطبك وأنا أنتظره حتّى ينتبه من نومه فألحق بكَ.

فتركه ابنْ بكّار ومضى نازلاً الجبلَ، يحملُ حزمةَ الحطبِ على ظهرِهِ، وبينما هو في طريق النزول في الجهة الأخرى من الجبل رأى صخرةً كبيرةً وعليها كيسٌ، فاقترب من الصخرة وأمسكَ الكيسَ الذي عَلاَهُ الغبارُ لشدّة ما مرَّ عليه من الزمن في هذا الموضع، وفتح الكيسَ فإذا فيه ألفُ دينار، فقال عليّ:

لا إله إلاّ الله، وسـبحان الله، مالي ولهذا المال فقد كفاني الله سـبحانه رزقي، ولكنّني سـآخذه وأتصدّق به على الفقراء والمحتاجين فهذه رزْقةٌ من الله توزّع على عباد الله المساكين.

فأخذَ الكيسَ وتابع نزوله فمرَّ على عبدٍ أسودَ متعب الحال، مطروحٍ على وجهه، مكسورِ الرِّجْلِ، وعند رأسـه حزمةٌ من الحطب كان قد احتطبها يروم بَيْعَها، فقال عليٌّ في نفسِـهِ وقد رأى حالة العبدِ: ما أجدُ موضعاً يُصرَفُ فيه هذا المال أحقّ من هذا العبد المتعَبِ.

فاقترب منه وأجلَسَهُ وسألَهُ عن حاله، ثمّ أخرج من الكيس عشرةَ دنانير وقال له: خُذْ هذا المال وأصلِحْ به شأنَك واستعِنْ به على حالكَ.

فرفع العبدُ رأســه وقال: ضــع هذا المال في الكيس وأَعِدِ الكيسَ إلى مكانه على الصــخرةِ، ولا تتصدّق من غير مالِكَ.

فاستغرب عليٌّ هذا القول منه وسأله عن الخبر، فقال له: لقد مرَّتْ عَلَيَّ سـنةٌ وأنا أصـعد هذا الجبل وأمرُّ فيها بهذا الكيس يومياً وهو ملقىً على الصــخرة، ولم أعلمْ ما فيه إلاَّ الآن، لكنَّني عرفتُهُ من شــكله والغبار الذي تراكم عليه لطول المدَّةِ، فكيف أنتَ رغبتَ في الدنيا وأخذتَ ما لا يحلُّ لك أخذه وأنتَ عَلِيٌّ بْنُ بَكَّار العَابِد الزاهد؟ فخجل عليّ من كلامه، وعَلِمَ أنَّ هذا العبد هو من أولياء الله الصالحين فاستأذنهُ بعد أن ساعده بالنهوض، وأعاد الكيس مكانه، وعاد إلى رفيقه أبي اسحق الذي كان قد غادره الســبعُ فوجدَه قد أنهى احتطابه وأخبره بما وقع له مع العبد الأســود. فقال له أبو اسحق: إنّ هذا العبدَ هو رجلٌ صالحٌ زاهدٌ،يحتطبُ كلّ أسبوعٍ مرّةً، ثمّ يبيع الحزمة بدرهم فيتقوَّت منه بقيّة أيام الأســبوع، ولا يقبل صــدقةً من أحد. فســبحانَ الذي أغنى عبادَهُ عن عبادِهِ بحمده وتقواه.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار مع أبي اسحق وَالعَبد الأَسْوَدِ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمين.



١١ - قِصَّةُ العَابِدِ أَبِي حَمْزَةَ الخُرَسَانِي (رضي الله عنه)

روى العَابِدُ أَبو حَمْزَةَ الخُرَسَانِي ما جرى معه أثناء حَجِّه لبيت مكَّة المشرَّفة فقال: حَجَجْتُ سنةً من السـنين قاصـداً زيارة الكعبة وأَداء مَنَاسـك الحجّ فبينما أنا أمشي في الطريق، والحرارةُ شـديدةٌ، والقيظُ أَذْبَلَ النبت، والظمأ سـار في العروق، رأيتُ بئراً في الطريق، فاقتربتُ منها عَلِّي أجدُ ماءً أروي به ظمئي، فما وجدتُ حبلاً ولا دلواً أُخرجُ به الماءَ، فمددتُ رأسي أنظر قاعَ البئرِ وعمقَ الماءِ، فغلبني رأسي وسـقطتُ في البئرِ، فنازعتني نفسي أن أصرخ وأسـتغيث طالباً النجدةَ والعونَ من الناسِ الذين ربَّما مرُّوا في الطريقِ، ثمّ قلتُ في نفسي: لا واللهِ لا أستغيث ببشَر، واللهُ خالقي عالمٌ بحالي وهو الأَوْلَى بي أن أسـتعينَ به. فما اسْـتَتْمَمْتُ هذا الخاطرَ حتّى مرَّ بالقرب من البئْرِ رجلان، سـمعتُ صـوتَ أقدامهما، ثمّ سـمعتُ أحدَهما يقول للآخرِ: تعالَ حتّى نسُـدَّ رأس هذه البئر الجافَّةِ منذ زمنٍ حتّى لا يقع فيها أحدٌ.

فأتيا بقصب وترابٍ وبعضِ الحجارة، وطَمَسَا رأس البئر، فهممتُ أن أصيح وأصرخ أن لا يفعلا، لكنّي قلتُ في نفسي: لماذا أطلبُ العونَ منهما، ولي مَنْ هو أقرب إليَّ من حبل الوريد؟ فسـكَتُّ وسلَّمْتُ أمري لله صابراً محتسباً، فبينما أنا على هذه الحالة وقد غادرا ومرّتْ ساعةٌ من النهار، وإذا بشيءٍ أزاح القصبَ والترابَ والحجارةِ عن رأس البئر ففرحتُ ثمّ أدلى برجله إليَّ وكأنَّه يقول لي: تعلَّقْ بها. في همهمةٍ له كدْتُ أعرف ذلك منه، فخِفْتُ بدايةً، ثمّ توكَّلتُ على الله وتعلَّقْتُ به فشَـدني وأخرجني ثمّ ولَّى بعيداً، فنظرتُ فإذا هو سَبْعٌ عظيم الهيئة أنقذني ومضى، ثمّ هتف بي هاتفٌ يقولُ: يا أبا حمزة! أليسَ هذا بإحسانٍ ومِنَّةٍ مِنَّا؟ فقد نجَّيناك من التَّلَفِ والهلاكِ بالتلفِ والهلاكِ.

فزدتُ في حَمْدِ الله تعالى وشكرِه على إحسانه وجودِهِ، وأنشدتُ:

أَهَـابـكَ أَنْ أُبْـدِي إِليـكَ الـذي أُخْفِي وَأَنْـتَ عَـظِـيْـمٌ مَـا يُـلاحِـظُـكَ طَـرْفِي

نَـهَـاني حَـيَـائِي أَنْ أَكْـتُـمَ الـهَـوَى فَأَعْنَيْتَنِي بالسرِّ مِنْكَ عَنِ الكَشْـفِ

تَلَطَّفْتُ فِي أَمْرِي وَأَبْـدَيْـتُ شـاهِـدِي إلى غـايتي وَاللُّطْفُ يُـدْرَكُ بـاللُّطْفِ

تَـرَاءَيْـتَ لِي بـالـغَـيْـبِ حَـتَّـى كَـأَنَّمَـا تُبَشِّرُنِي بـالغَيْـبِ أَنَّـكَ فِي الكَشْـفِ

أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتي لَـكَ وَحْشَـةٌ فَتُؤْنُسُـنِي بـاللُّطْفِ مِنْـكَ وَبِـالعَطْفِ

وَتُحْيِي حَيّـاً أَنْـتَ فِي اللُّطْفِ حَتْفُـهُ وَإِذَا عَجَـبٌ كَوْنُ الحَيَـاةِ مِنَ الحَتْفِ

ثمّ تابعتُ طريقي وأتممتُ حَجَّي شاكراً حامداً للهِ طول الحياة، عابداً زاهداً.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِ العَابِدِ أَبِي حَمْزَةَ الخُرَسَانِي (رضي الله عنه).

وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ سِوَاه، والصَّلاَةُ والسَّلامُ عَلَى رسُولِهِ وَمَوْلاَه.



١٢ - قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (رضي الله عنه)

أحد العُبَّاد الزهّاد الذين جابوا البلاد، وســكنوا البراري والجبال، ممَّنْ كانت له الأحوال والكاشفات والسياحات. ويُقال أنَّ أصلَهُ من مدينة (قونية) في أرمينيا. وقد قَدِمَ على الشيخ عبد الله اليونيني وعليه برنس الرهبنة فقال له: أسلم يا أرمني. فقبل منه وقال أسلمتُ لله ربِّ العالمين. وسار سير العابدين المتصوفين المسلمين.

قرأ القرآن الكريم واشتغل بالمعاملات والرياضات الروحية، ثمّ أقام آخر عمره بدمشق ومات بها ودُفن بقاسيون سنة (٦٣١ هـ ـ ١٢٥٩ م) وكان مولده سنة (٥٥٠ هـ ـ ١١٧٨ م) في قونيه من أسرةٍ عربيةِ الأصل.

وقيل عنه أنّه اجتاز مرّةً بلدةً فطالبته نفســه بدخولها، وقرّر ألاّ يأكل طعاماً منها، فمرَّ برجلٍ يغســل الثياب، فنظر الغسَّــالُ إليه شــزراً[1] فخاف منه وخرج من البلدة هارباً، فلحقه ومعه طعامٌ وقال له: كُلْ فقد خرجتَ من البلدة الآن. فاســتغرب كيف عرف نيَّتهُ بعدم الأكل وقال له: أنتَ في هذا المقام والحظوة وتغسل الثياب في الأسواق؟ فقال له الغسَّالُ: لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شيءٍ من عملك، وكُنْ عبداً لله، فإنْ استعملك في أصغر الأعمال، فارْضَ به. ثمّ أنشدَ:

وَلَوْ قِيْلَ لِي مُتْ قُلْتُ سَــمْعَاً وَطَاعَة   وَقُلْـتُ لِـدَاعِي المَوْتِ أَهْلاً وَمَرْحَبَـا

وذُكِرَ عنه مرّة أنّه ارتحل من بيت المقدس، وكان ســورها الذي بناه الملك صــلاح الدين قائماً قبل أن يُخرَّبَ، فوقف لأصحابه يودّعهم ونظر إلى الســور وقال: كأنّي بالمعاول وهي تعمل في هذا السـور عمّا قريب. فقيل له: معاولُ المسلمين أو الفرنج؟

فقال: بل معاول المســلمين. فكان كما قال حيث خَرَّبَ الملكُ المعظم بعد صــلاح الدّين الســورَ وهدَمَهُ.

(١) الشَّزَرُ : نظرةُ الإعراضِ والغَضَبِ والإستهانةِ .

قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ مَعَ المَلِكِ الظَّالِمِ

قيل كان في بلاد الشام مَلِكٌ جائر في حكمه، ظالم لشعبه، كافر بربّه لا يخاف يومَ لقائه، ولا يرجو ثوابه، وكان هذا الملك يأخذ لنفسه أربعة أخماس مال أي شخص يدخل مملكته، حتّى أنّ الناسَ صارت تكره دخول مملكته، وانقطعت عن التوافد عليها، وقد عرض ذات يوم أن مرَّ في أرض هذه المملكة الشيخُ العابدُ السائحُ عَبْدُ اللهِ الأَرْمَنِيِّ، فلمَّا رآهُ المتوكِّلون على بابها قد دخل المدينة أمسكوه وفتَّشوه تفتيشاً دقيقاً، رغم أنّه لم يكن يملك شيئاً، لا يحملُ معه حِمْلاً، ولا يرتدي إلاَّ ثوبه الصوفي على جسده، فلمَّا لم يجدوا ما يأخذونه منه مقابل الخُمْس نزعوا عنه ثوبه عن صدره وأبقوا له سرواله، وأخذوا يضربونه بشدّةٍ، فبدأ يصرخ عليهم ويقولُ:

ويحكم أيّها الظالمين، ما لكم ومالي، فأنا رجل سائح مسكين أعبدُ الله وما عسى ينفعكم هذا الثوب الذي أخذتموه منّي؟ أعطوني إيَّاه وإلاَّ شكوتكم إلى الملك.

فأجابوه: إنَّما فعلنا هذا بأمر الملك، فافعل ما تريد.

فصار يقول في نفسه: ما أدري أحقٌّ ما يقولونه أم باطل، ولكنني سوف أمضي إلى الملك على كل حال، وأنظر حقيقة هذا الأمر.

فانطلق يستدلُّ قصر الملك، فلمّا وصل أراد أن يدخل فمنعه الحُجَّابُ فشاجرهم فأشبعوه ضرباً، فعاد يفكّر في نفسه ويقول: ليس لي إلاَّ أن أرصدَ الملك حتّى يظهر من قصره فأشكو إليه حالي، وما لاقيتُ من رجاله وظلمهم. فبينما هو على تلك الحالة من الحيرة والتفكير في أمره إذ سمع منادياً يقول: أيّها العسكر تأهَّبوا فالملك سيخرج للصيد.

فاستبشر عبد الله بذلك وربط الطريق للملك، فإذا به خرج على فرسه وحوله الغلمان والعبيد والحاشية، فاعترض له ودَعَا له بطول العمر وقال: أيّها الملك... فحاول الغلمان ضربه وإبعاده، فأشار الملك إليهم أن يتركوه يقترب ليعرف حاله، فقال الأرمني للملك بعد أن اقترب منه: أيّها الملكُ أريد أن أشكو لك حالتي.

فقال الملكُ: هاتِ بسرعةٍ ما عندك فإنّي مستعجلٌ للصيد.

فقال: إنّي رجلٌ مسـكينٌ سـائحٌ في عبادة الله تعالى، أطلب ثوابه ورحمته، وكلّما دخلتُ مدينة لاقيتُ من أهلها وملكها الخير والإحسان، فلمّا دخلتُ مدينتكَ وكنتُ أرجو أن ألاقي الخير، عارضني رجالُكَ ونزعوا عني ثوبي بعد أن أشبعوني ضرباً، وعندما حاولتُ الوصول إلى قصرك ضربني حُجَّابُكَ، ومنعوني من الدخول إليك، فانظر أيّها الملكُ في أمري وخُذْ بيدي.

فقال الملكُ: وأنتَ مَنْ أشار عليك دخول مدينتي وأنتَ غريب؟

قال: لقد أخطأتُ ولن أكرّرها ثانيةً بإذن اللهِ، ولكن مرادي منك أن تردَّ لي ثوبي، وإنّي مغادر هذه المدينة وتارككَ والمدينة في أمان الله، وإلاَّ لحقكَ ومدينتكَ غضبُ الله ونقمتهِ.

فلمّا سمع الملكُ هذا الكلام انفعل وغضب وقال بشدّةٍ وتكبّرٍ وتجبُّرٍ: لقد نزعنا عنك ثوبك لكي تَذِلَّ وتخضعَ فما ذلَّيْتَ ولا خضعتَ والآنَ وفي صباح الغد سوف ننزع منك روحك. ثمّ أمر الجنود بوضع العابد في السجن، وتابع هو صيده دون أن يهتمّ بما حدث.

فلمَّا حلَّ العابد في السجن جعل يتندّم أنّه لم يترك ثوبه وينجُ بنفسه من هذا الملك الظالم. وعندما أقبل الليل قام يصلّي ويناجي ربّه ويدعوه قائلاً: يا ربِّيْ أنتَ أعلمُ بحالي من هذا الظالم، فأسألك وأنا عبدك المظلوم الفقير إلى رحمتك وعفوك أن تنقذني من هذا الظلم، وتحلّ نقمتكَ عليهم، لأن هذا الملك ظالم للمساكين، آكلٌ للحقوق، وأنت لا تحب الظالم المتكبّر والمتجبّر، وأنتَ الحاكم العادل السميع البصير، ولك الحمد دائماً على ما ابتليتني ولتكُنْ مشيئتُكَ. آمين.

وكان السَّجان الذي يحرس العابد يسمع دعاءه وتوسّلاته لله، فلمَّا نَصُفَ الليل اشتعلت النار في قصر الملك الظالم واحترق هو وأهل بيته، واحترقت المدينة، وثار الناس وخافوا وهربوا، فلمَّا سمع السجّان الخبر علم أنّ ما جرى هو بسبب دعاء العابد، فأطلق سراحه ونجا معه من الحريق، ولم ينجُ من تلك النار إلاَّ المؤمن والصالح وأمّا الظالمون الكافرون فقد احترقوا وماتوا.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (رضي الله عنه). وَالحَمْدُ للهِ رب العالمين.

١٣ - قِصَّةُ الشَّيْخِ عَلِي البَكَّاء (رحمة اللهِ عليْهِ)

هو الشـيخُ العابدُ عليّ بن محمد الخليلي، صـاحب أحوال ومكاشـفات، كان مشـهوراً بالصـلاح والعبادة، وُلِدَ سـنة (٦٠٠ هـ ـ ١٢٠٣م) في بغداد، وذُكِرَ أنّ لقبه البكّاء جاء لكثرة بكائه خوفاً من غضـب الله وعقابه، وقد كان سـبب بكائه بدايةً أنّه صـحب رجلاً كانت له كرامات، وخرج معه من بغداد فانتهوا إلى غايتهم في سـاعة واحدة، وهذه البلدة كانت تسـتغرق مسـيرة شـهور عند الآخرين، كلّ ذلك بقدرة الله تعالى، وقد قال له ذلك الرجل أنّه سيموت في الوقت الفلاني والبلد الفلاني وطلب منه أن يبقى معه حينها ليشـاهده، فلمّا كان الوقت حضر عنده وهو في نزعات الموت وقد اسـتدار وجهه نحو الشرـق، فحاول البكّاء تحويل وجه الرجل إلى القِبْلَة فعاد الوجه واسـتدار للشرـق، فحوّله ثانية ففتح عينيه وقال له:

لا تتعب نفسـك فإنّي لا أموت إلاّ على هذه الحالة، وجعل يتكلّم بكلام الرهبان، فعلم أنه نصراني، فحمله وجاء به إلى دير قريب فوجدهم في حزن كبير، فسألهم عن حزنهم وبكائهم فقالوا له: كان عندنا شيخٌ كبيرٌ ابن مئة سنة يعيش معنا، وهو مسلم ومات على الإسلام.

فقال لهم: وهذا صـديقنا مات على النصرـانية فخذوا هذا بدَلَهُ، وسـلِّمونا صـاحبنا، فوافقوا، فأخذوا الشـيخ المسـلم وغسَّـلوه وكفَّنوهُ وصـلُّوا عليه ودفنوه مع المسـلمين، وكذلك فعل الرهبان بصاحبهم ودفنوه في مقبرة للنصارى.

ومنذ تلك اللحظة والشـيخ علي يعبد الله ويكثر من البكاء خوفاً من عقاب الله وطمعاً بثوابه، وداوم على تلك الحال حتّى لاقى ربَّهُ في شهر رجب من سنة (٦٧١ هـ ١٢٧٤ م) رحمة الله عليه.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمين، والصَّلاَةُ والسَّلامُ على كُلِّ المرْسَليْن، مُنْذُ يومِ الخَلْقِ إلى يَوْمِ الدِّيْنِ.

١٤ - قِصَّةُ الشَّيْخِ الحَرَّانِيّ (رحممة اللهِ عليْهِ)

هو الشيخ الزاهد عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصقيل الحرّاني، وُلِدَ في بغداد سنة (٥٩٤ هـــ ١١٩٨ م) وعاش فيها صباه ثمّ انتقل إلى مصر واستوطن بها متعبِّداً زاهداً في الدنيا مُعْرِضاً عن مَتَاعها الزائل، مُقْبلاً على الله بكلّ جوارحه حتّى مَنَّ الله عليه بكرامات، جعلت الناس يتوافدون عليه للاستفادة منه والاستزادة من بركاته ومواعظه.

وروي عنه أنّه شهد جنازة في بغداد، وحضر صلاة الميت ودفنه وكان الميّتُ شاباً أصابته سكتةٌ في القلب، فلمَّا حلَّ الليلُ جاء نبّاش للقبور يريد ســلب الميت ما عليه من جواهر وحُليٍّ. فلمَّا حاول النبّاش فتح القبر، وأخرج الميّت من التابوت نهض ذلك الشــاب جالســاً فســقط النبّاش ميتاً في القبر، فخرج الشــاب ونادى بأعلى صــوته، فتجمّع الناس ومعهم الشــيخ الحرَّاني وكان شــاباً آنذاك فدفنوا النبّاش مكانه وحمدوا الله على نجاة هذا الشاب، وبدأ الشيخ الحرّاني يعظُ مَنْ تجمّع حول قدرة الله وأنّه لا رادّ لقَضاء الله ثمّ عاد الجميع لمنازلهم.

وحكى الحراني يوماً ما جرى معه فقال: كنتُ مرّةً جالســاً على صــخرة أرتاح من مشــوار الطريق، وبيدي خصلة قمح، فجاء زنبور فأخذ سنبلة واحدة ثمّ ذهب بها، ثمّ جاء فأخذ أخرى ثمّ ذهب بها، ثمّ جاء فأخذ أخرى، وقد فعل الشيـء هذا أربع مراتٍ، وكانت مدّة ذهابه ومجيئه قصــيرة، فأدركتُ أنَّه لا يبتعد بها، فتبعتُهُ في المرّة الرابعة فوجدته يضعُ حبّات القمح في فم عصفورٍ أعمى بين الأشجار، فبكيتُ وحمدتُ الله سبحانه المدبِّر أمور خلقه صغيرهم وكبيرهم.

وقال أيضاً: شهدتُ يوماً جنازةً لرجلٍ لم أعرف عنه إن كان صالحاً أم لا، فإذا بعبدٍ أسودَ واقف معنا لم ينبس ببنت شفة، ولمّا صلّى الناس على ذلك الشخص لم

يُصـلِّ العبدُ معنا، فنظرتُ إلى بعض من حولي وقلتُ لهم: أَلَمْ تروا ذلك العبد الأسـود لم يُصَـلِّ معنا وكأنَّه ليس مسـلماً؟ فقالوا: عن أي عبدٍ تتحدَّث إنّنا لم نَرَ شـيئاً؟ فاسـتغربتُ لأنّ العبدَ واقفٌ جنبي وقلتُ سـبحان الله إنّها لمن قدرة الله وأحكامه. ثمّ قال لي ذلك العبدُ: أنا أعمال هذا الشـخص الميّت وإنّما أنا عبدٌ أسود لأن أعماله سوداء سيئة. ثمّ ألقى بنفسه في القبر، فنظرت إليه بعدها فلم أجده. فقلتُ لمن حولي: سبحان الله ليرحمنا الله برحمته، ويعفو عنا بمغفرته، وليرحم هذا الميّت قدر حاجته واستحقاقه. واستمرّ الشيخُ الحرّاني بالعبادة والزهد حتّى توفي في مِصْرَ في شهر رجب من سنة (٦٨٦ هـ ١٢٨٨ م) رحمةُ الله عليه.



١٥ - قِصَّةُ الشَّيْخِ الوَاسِطِيِّ (رحممة اللهِ عليْهِ)

هو الشــيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرح الفاروثي الواســطيّ، وُلِدَ في مدينةِ واسِط بالعراق سنة (٦١٤ هـــ ١٢١٥ م)، كان دَيِّنَاً وَرِعَاً زَاهِدَاً، قَدِمَ إلى دمشق زمان الملك الظاهر وكانت له أحوال ومكاشفات كثيرة.

روي عنه أنّه كان يوماً في المسجد يصلِّي بالناس إماماً، وعندما هَمَّ أن يكبِّر للإحرام، التفت يمينه وقال: اخرجْ واغتسلْ.

فلم يخرجْ أحدٌ. ثمّ كرَّر ذلك ثانية وثالثة، فلم يخرجْ أحد. فقال الواســطيّ: يا عثمان اخرجْ واغتسلْ. فخرج رجلٌ من الصف واغتسل ثمّ عاد، وتابعَ الإمام الواسطي صلاته بالناس حتى انتهى، وانتظر عثمان حتّى انتهى الشــيخُ مواعظه وكلامه، فاقترب منه واعتذر إليه، وكان الرجلُ صــالحاً في نفســه غير فاسـقٍ ولا منافقٍ، وذكرَ للشـيخ الفاروثي أنّه أصـابَهُ فيضٌ من غير أن يلمس أو يرى امرأة، فاعتقد أنّه لا يلزمه غسْلٌ، وعندما كان الشيخ يخاطبُ للذهاب والاغتسال لم يكن يعلمُ أنّه يخاطبه حتّى ذكر اسمه. وهذا ما أثار إعجاب الناس جميعاً في كيفية معرفة الشيخ الواسطي بعدم جواز صلاة عثمان وهو على تلك الحالة، وكيف عرف بما حصل معه.

وقد كان الشيخ أحمد الفاروثي الواسطي زاهداً متصوّفاً، لبس خرقة التصوّف من الشيخ العابد الكبير الســهروردي، وقرأ القرآن الكريم وقد حفظه من تفســيراته، وترك وراءه ألفاً ومئتي مجلّدٍ في الفقه والحديث والأخبار والمواعظ.

ومات الشيخ الواسطي في بلدة واسط يوم الأربعاء ٢ ذي الحجّة من سنة (٦٩٤ هـــ ١٢٩٥ م) وكانت جنازته مشهودة حضرها خلقٌ كثيرون وأقيم له بدمشق، صلاة الغائب حضرها كثيرون، رحمةُ الله عليه.

والحَمْدُ لله ذي الإِنعَامِ والإِكرَامِ، وعَلَى رُسُلِهِ السَّلاَم.

١٦ - قِصَّةُ الشَّيْخِ الأَصْبَهَانِيِّ (رحممة الله عليه)

هو الشيخُ العابدُ العارف بالله المتصوّف محمد بن غانم بن كريم الأصبهاني، وُلِدَ في أصبهان في بلاد فارس سنة (٥٧٠ هـ ١١٧٤ م) وقَدِمَ بغداد وكان شاباً فاضلاً، فتتلْمَذَ على يد الشيخ شهاب الدين السهروردي العابد المتصوّف العارف، فانتفع به وتكلّم بعده، وفتح الله عليه من نِعَمه وعِلْمه ففاق أهل زمانه في الوعظ والتفسير. كان زاهداً في الدنيا متصوّفاً لا يقبل من أحدٍ عطاءً ولا يرجو من ملكٍ رجاءً، مُسَلِّم أمره لله، محبٌّ له عارف به، له حقائق ومكاشفات. وفي كلامه لَطَافَةٌ، وفي مواعظه حكمةٌ.

وكان يقول: العلمُ كذَرَّةٍ في فضاء عظمتِهِ،والذرّة كالعالَم في كتاب حكمته، إنَّ الأصولَ فروعٌ إذا تجلَّى جمال أوّليته، والفروعُ أصولٌ إذا طَلَعَتْ شمس آخرتِه. أستارُ الليل مسدولة وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل معزولة، ما هذه الوقعه والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟ وله هذه الأبيات في الحب والوجد الإلهي، وهي تعبّر عن حالةٍ من حالات وَجْدِهِ وشطحاته الصوفية يقول:

وُقُوفِي بِأَكْنَافِ العَقِيْقِ عُقُوْقٌ — إِذَا لَمْ أَرِدْ وَالدَّمْعُ فِيهِ عَقِيْقُ

وَإِذَا لَمْ أَمُتْ شَوْقَاً إِلى سَاكِنِ الحِمَى — فَمَا أَنَا فِيْهِ ادَّعَيْتُهُ صَدُوْقُ

أَيَا رَبْعُ لَعَلِّي مَا المَجْنُوْنُ فِي الهَوَى — سَواءٌ وَلا كُلُّ الشَّرَابِ رَحِيْقُ

وَلا كُلُّ مَنْ تلقَاهُ يلقَاكَ قلبُهُ — وَلا كُلُّ مَنْ يحنو إليكَ مَشُوقُ

تَكاثرتِ الدَّعْوَى عَلى المُحِبِّ فاسْتَوَى — أَسِيْرُ صَبَابَاتِ الهَوَى وَطَلِيقُ

ومن أقواله أيضاً:

أيّها الآمنون، هل فيكم من يصعد إلى السماء؟ أيّها المحبوسون في مطامير مسمّياتهم هل فيكم سليمٌ في الفَهْم يفهمُ رموز الوحوش والأطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه: أرني أنظر إليك فقد طال الانتظار؟

وقد أمضى الشيخ الأصبهاني حياته يعظ الناس، ثمّ اعتزلهم وأمضى ليله ونهاره في العبادة والصلاة والزهد إلى أن لاقى ربّه في بغداد سنة (٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٠م)، فدُفِنَ فيها وحضر جنازته خَلْقٌ كثيرون بكوا عليه وندبوا صفاته. رحمةُ الله عليه.

والحمْدُ لِمَنْ لَهُ الحَمْدُ، الوَاحِدُ الأَحَدُ الفَرْدُ، لا شبيهَ لهُ وَلا ضِدٌّ ولا نِدٌّ.



١٧ - قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ التَّنُوْخِيِّ (قَدَّس اللهُ سِرَّهُ)

هو الشيخُ الإمامُ، والعابدُ الزاهدُ، والأميرُ السيّدُ الماجِدُ، جمالُ الدينِ والدُّنيا عبدُ الله بن سليمان بن محمد بن جمال الدين حجِّي التنوخي[١] عاش يتيماً مع والدته وظهرت عليه دلائل التقوى والورع منذ صغره، وُلِدَ في ١٢ ربيع الأول من سنة(٨٢٠هـ ١٤١٧ م) وكان معتدل السمرة والرأس قوي البدن، عذب المنطق، فصيح اللسان، وقوراً ثابتاً، لا يرى بهجة إلاّ لربِّه، ولا يبذل مسعاه إلاّ لقربه. درس القرآن الكريم وختمه وحفظه غيباً. كان يرفض الحرام بكلّ أشكاله ولم يقرأ يوماً على ضوء مصباح فيه زيتٌ يشتبه أنّه حرام.

كان كثير الاعتناء بأخبار الأولياء والصالحين والزاهدين أمثال: سفيان الثوري، والفضيل بن عيّاض وعبد الله بن المبارك.. وغيرهم وكانت مكتبته تضمّ (٣٤٠) مجلّداً في علوم الدين والتاريخ والفقه واللغة والسيرة النبوية والتفسير.

وكان يدعو إلى سبيل الخير، وينهى عن الشهوات والخمور، يسهر الليل في طاعة ربّه وينام ثلثه ويقوم في الثلث الأخير لعبادته.

كان محبّاً مخلصاً لله، قانعاً راضياً بقضائه وقدره، غير معترض أو معاند، وقد ظهر ذلك عند وفاة ولده سيف الدين وهو في الثانية والعشرين من عمره حيث خرج للجموع متسلِّحاً بالصبر والقناعة، فوعظ الناس وناداهم بحفظ العقول والصبر.

وقد تجوّل الأمير السّيّد كثيراً في طلب العلم والمعرفة، وأقام في الشاغور اثني عشر عاماً، خالط العلماء والفقهاء والزهّاد، ولُقِّبَ بالسيِّد اعترافاً بسيادته على غيره من أهل زمانه، وكانت وفاته في ١٧ جمادى الآخر سنة (٨٨٤ هـ ١٤٧١ م)

(١):للاستزادةِ والإفادة حولَ سيرةِ الأَميرِ السيّدِ عبد الله التَّنوخي، راجعْ كتابَنا (كشف الستار)، الباب الثالث، الفصل الثاني، ص (٢٧١).

وكان لخبر وفاته رجَّةٌ عظيمة وفادحة عميقة ارتعدت له الفرائص وذُهِلَت العقول ودُفِنَ في لبنان في بلدة (إعبيه) وله قبر يزار حتّى يومنا هذا للتبارك به.

قِصَّةُ التَّنُوْخِيِّ مع إِمَامِ الجَامِعِ

رُوِيَ عن العابدِ الزاهدِ عبد الله التنوخي أثناء تواجده في الشـــاغور أنّه وبينما كان ما يزال مجهولاً من الناس وَمَالَهُ من كراماتٍ وحظوةٍ عند صــاحب العزّة والحظوة، وبينما اجتمع المصــلّون لأداء صــلاة الجمعة، دخل يؤدّي ما عليه من فروض واجتمع في ذلك اليوم خَلْقٌ كثيرون يريدون أداء الصلاة والاستماع للخطبة، فلمّا صعد إمام المسجد يُلقي خطبته يَعِظُ الناس فيها، ويحثُهم على العمل والاجتهاد، وصِـدْقِ اللّسـانِ والجنانِ، وكان الأمير العابد جالسـاً مع الناس يسـتمعُ وينظر مطرِقاً نحو الأرضِ، خاضـــعاً طائعاً لله، زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، ولمَّا أنهى إمام الجامع حَثَّ الناسِ على انتظام الصفوف، كَبَّربأعلى صوته: (اللهُ أكبرُ) حينها وقف التنوخي وتابع صلاته وانتظر الشيخَ المؤذِّنَ والإمام أن يُسـلِّما، ثمّ أقبل نحو إمام الجامع ووسـط حشـد المصـلِّين وقال له: عندما قلتُ الله أكبر، صَدَّقتَ بلسانِكَ وكذَّبتَ بقلبِك.

فدُهِشَ الشـيخُ من هذا الشـاب الذي يخاطبه بهذه اللهجة وأمام الجميع وهو على ما هو عليه من مكانة بين الناس، بينما هذا الشـــاب التنوخي لا يعرفه أحد حينها، وثار الناس وكثُر الهرج والمرج، فقال التنوخي: لو نطقتها بقلبٍ صادقٍ لاهتزّتِ الجبالُ وارتجَّتِ الأركان، لكنَّك نطقتها بلسانك المنافق لا من قلبك المؤمن. وهنا ثار الرجل وقال غاضباً لمكانته التي اهتزَّت أمام الناس: أنا أكثرُ إيماناً وصِدْقاً منك، ثمّ مَنْ أنتَ لتقاطعني وتحاسبني، وتَدّعي عليَّ ما تدّعي وأنا شيخٌ كبير قضيتُ عمري بالصلاة والعبادة، وأنتَ مازلت شاباً.

فقال التنوخي: أنا عبد لله خاضـــعٌ له، مُسَـــلِّمٌ له أمري، مفوِّضٌ قدري، وهأنذا أمام الجميع أدعوك لإثبات كذبك ونفاقك أو صدقك وإيمانك.

وحينها خاف الشـيخُ من افتضـاح أمره، لكنه لم يكن أمامه مجالٌ للتراجع أو الانسـحاب فذلك سوف يفضَحهُ أمام الناس، ثمّ قال للتنوخي: وكيف ستثبت قولك؟

قال الأمير السيّد: ليُصَلِّ كلّ منا صاحبه صلاة الجنازة، وَلْنَرَ ماذا يكون من أمرنا، وصِدْقِ صلاتنا وتكبيراتنا.

قال الشيخُ: لك ذلك ومن سيبدأ؟ قال: إبدأ أنتَ أولاً.

ثمّ تمدّد العابد عبد الله التنوخي على أرض الجامع وتباعد الناس قليلاً وراحوا يراقبون بلهفةٍ ما يحصل، وجَعَلَ إمام الجامع يصلّي صلاة الجنازة وجعل يرفع صوته ويكرّر عباراته حتّى انتهى، فنهض التنوخي وحمد الله وشكرَه، وقال للرجل:

تمدّدْ على الأرض ليرحمْكَ الله ويغفر لك ذنوبَكَ وكذبكَ، فتمدّدَ، وجعل الأمير يصلّي الرَّجُلَ صلاةَ الجنازةِ، ولمّا قال: (اللهُ أكبرُ) اهتزَّت أعمدةُ الجامع وجدرانه، فخاف الناس وشعروا برهبةٍ كبيرةٍ، ولمَّا وَصَلَ بقوله إلى: (معكم جنازة رَجُلٍ مُسْلِمٍ متوفَّى...) ارتعش الرجلُ الممدَّدُ وا ضطرب ثمّ هَدَأ بعدها. ولمَّا أنهى صلاتَه حَمَدَ ربَّه وشكرَه، ودَعَا للرجل بالرحمة والمغفرة، وقال للناس: قوموا إلى صاحبكم اغسلوه وكفّنوه ثمّ ادفنوه، فقد أنهيتُ صلاتَهُ.

فاقترب بعضُهم منه وحرَّكُوه فإذا هو جثّة هامدة، فخافوا وتعجّبوا ممّا حصل أمَامهم. فقال لهم التنوخي: الله يعلم مافي صدور الناس وما في قلوبهم، فاصْدِقُوا الإيمان، واملؤوا بالتقوى الجِنَان، واعبدوا الله في السرِّ والعَلاَن، وإيّاكم والنفاق والبهتان، واجعلوا حب الله زادكم وعبادته حالكم، وتقواه دربكم في كلّ مكان وزمان.

فقام الجمعُ وجهَّزوا الرجلَ ودعوا له بالمغفرة، ودفنوه، ثمّ عادوا للسيد العابد التنوخي يسألون خاطره، ويطلبون منه الموعظة والنصح.

وعاش بينهم فترة من الزمن يرشدهم ويحكم بالحق بينهم ويحلّ خلافاتهم، وكانت كلمتُه مستجابةً بينهم، ودعوتُه عند خالقه مقبولةً مستجابة. ثمّ غادر الشاغور إلى لبنان وبقي فيها عابداً زاهداً صابراً محتسِباً حتّى وافته المنيَّة سنة (٨٨٤ هـ ١٥٣٢م)، عليه رحمة الله ورضوانه.

وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ، مَالِكِ المُلْكِ ومُدَبِّرِ شؤُوْنِ الخَلْق.

١٨ - قِصَّةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ (قَدَّس اللهُ سِرَّهُ)

هو العابدُ الزاهدُ، محمد الكوكباني، وُلِدَ في قرية الشعيرة في وادي التيم سنة (٩٨٧ هـــ ١٥٦٧ م)، عاش حياته يتيماً في بلدة كوكبة حيث نُسِـبَ إليها، عمل برعي الماعز ليفي ضرورات الحياة وكان شغوْفاً بالعلم منذ صغره، وا ستطاع أن يتّ صلَ في تلك الفترة بالـ شيخ العابد محمد أبي عُبادة، فعمل عنده في زراعة الأرض وتربية القزّ. وقد برَع في علوم الدين وذاعَ صيتُه رغم حداثة سنِّه[١].

اشـــتهر بتقواه وأصـــبحَ مقصـــداً لكلّ طالب علمٍ وفقهٍ ودِيْنٍ، وكانت حياتُه غايةً في الزهد والتقشّـــف والترفّع عن مغريات الحياة لذلك اكتفى بخبزِ الشـــعيرِ غذاءً له وكان يقول: إنّ تعلّقَ الإنسان بالدنيا هو من الفضول.

كان لباسه من خشن الثياب ذات اللون الأزرق، وقد أمضى كثيراً من حياته منعزلاً عن الناس في جبل وادي التيم الذي ســمّي باســمه فيما بعد (جبل الشــيخ)، متعبداً ليله ونهاره متهجداً بصــوتٍ منكسرٍـ حزين، قد ألحّ عليه الناس كثيراً ليتواجد بينهم لتوجيه الوعظ والإرشــاد، فخصَّــهم بشــهور الـصيف حيث يفـسّر لهم آيات الله سبحانه وحكمته وا ستمر الـشيخ الفا ضل على حاله من العبادة والزهد والتقوى حتّى ضعف بدنه من الجوع الذي كان يُلْزِم به نفسه والسهر والعبادة، فمرض مرضاً شديداً حتّى لاقى ربَّه في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر شعبان من عام (١٠٥٠ هـ ـ ١٦٣٠ م) ودُفن في عين عطا في لبنان وأقام الناسُ فوق قبره ضريحاً يُزار حتّى يومنا هذا.

---

(١) للاستزادة حول حياة الشيخ الفاضل وأقواله راجع كتابنا (كشف الستار) الباب الثالث ـ الفصل الثالث ـ ص (٢٨٩).

قِصَّةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ مَعَ وَحْشِ الجَبَلِ

رُوِيَ عن الشيخ الفاضل (رضي الله عنه) أنَّه كان قد اعتزلَ الناسَ في الجبل في مغارة يقضي طوال أشهر السنة فيها متعبّداً، وحَدَثَ في أيّام الشتاء أن سقط ثلج كثير على ذلك الجبل، ولم تجد الحيوانات البريَّةُ والوحوشُ ما تأكله، فخرج وحش كاسر يبحث عن فريسةٍ يأكلها، فلم يجدْ شيئاً طوال أيّام كثيرة، فعانى من الجوع كثيراً وازدادت شراسته، وحدث أن اقترب الوحشُ من المغارة التي يتعبّد فيها الشيخُ الفاضلُ فاشتمَّ رائحة بَشَرٍ، فاقترب بسرعةٍ يريد أن ينقضَّ على مصدر الصوت، وكان الشيخُ يصلّي يتهجَّد بصوته المنكسر الحزين، وكان يتلو كثيراً من آهاته الحزينة التي تحملُ التذلل للخالق والانكسار أمامه والخضوع والسجود، فوقف الوحشُ وجلسَ يستمع، وكان الشيخ يقول: «آهٍ من ثقلِ الأوزارِ، آهٍ من قلّةِ الاستشعارِ، آهٍ من غَضَبِ الجَبَّارِ، آهٍ من المَتَابِ، آهٍ من ذَهَابِ الشَّبابِ، آهٍ من يومِ الحسابِ، آهٍ من عُظْمِ الخَطَا، آهٍ من الزللِ، آهٍ من خيبة الأملِ، آهٍ من قلبي ما أقساه، آهٍ من عملي ما أرداه، آهٍ من ربِّي كيف ألقاه، آهٍ من عَهْدِي كيف أنساه، آهٍ من عُظْمِ الصَّيْحَات، آهٍ من عملٍ قد فات، آهٍ من بُعْدِ الطَّريق، آهٍ من سَبْقِ الرفيق، آهٍ من عدم التصديق، آهٍ من ضعف اليقين، آهٍ من قلبٍ حزين...... »

فلمَّا انتهى الشيخ من تأوّهاته، ودموعه غطّت وجهه ولحيته كان الوحشُ قد رقَّ قلبه، فتحامَلَ على جوعه وأدار ظهره يريد العودة من حيث جاء، فناداه الشيخُ الفاضل: تعالَ يا صاحبي، مثلك أنا، أنتَ تبحث عن طعام تسدُّ به رمقك، وأنا أبحث عن خلاصي لأختم به حياتي. ثمّ قدّم له كسراتٍ من الخبز بلّلها بالماء فتقدّمَ الوحشُ فأكلها مطمئناً جالساً بين يدي الشيخ ثمّ غادره، وقد تعوّد أن يزورَ الشيخَ بشكل دائم فازدادت بينهما الألفة حتّى لاقى الشيخ ربّه، رحمةُ اللهِ عليه. وقيل أنّ هذا الوحش كان كاسراً خطيراً يهاجم كل من يصادفه ويفترسه، وقد قتل كثيرين ممن صعدوا الجبل، ولكنّه منذ أن التقى بالشيخ الفاضل صار أليفاً لا يهاجم أحداً. والله أعلم.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين.

١٩ - بَعْضُ قِصَصِ العُبَّادِ المَجْهُوْلِيْنَ (رضي الله عنه)

١ ـ قِصَّـةُ الشيـخ أَبي مَدْيَن مَعْ رُهْبَانِ الدَّيْرِ.

روي أنه في بلاد الأندلس كان الشـــيخ أبو مدين ذا مكانةٍ كبيرةٍ بين الناس, فكان يتكلّم بينهم ويَعِظهم بالحكمة وجوهر الكتاب الشريف, فكان يجلس بعد الفجر في مسجد الخضر في إحدى مدن الأندلس في مدينة قرطبة حيث يتحلق حول مجلسه الكثير من الخلق بعد أداء الفريضة, يستمعون لما ينطق به من حكم ومواعظ تليّن الصخر,وتبعد الكفر عن قلب المرء.

فسمع به رهبان من دير يعرف بـــ(دَيْر الملك),وكانوا سبعين نفراً فقالوا فيما بينهم: لنختر منا عشرة يذهبون حيث يُلْقي الشـــيخ أبو مدين مواعظه,لنرى مدى إيمانه وما يقال عنه من كرامات وحظوة عند الله.فجاء من أكابرهم عشرة رهبان وتنكروا في زيّ المسلمين ودخلوا المسجد مع الناس ولم يشـعر بهم أحد,فلما أراد الشـيخ أبو مدين البدء بكلامه وحديثه سـكتَ ولم يتابعْ، فاسـتغربَ الجميعُ المنتظرون سكوته، ثمّ دخلَ خيّاط، فقال له الشيخُ: ما الذي أبطأك عنّا؟

فقال الخيّاط: حتّى انتهيتُ من صنع الطواقي العشر التي أوصيتني بها البارحة وتقدّم الخياطُ ووضعها بين يدي الشيخ وعاد وجلس بين الجميع، فقام الشيخُ وحمل الطواقي بين يديه ومشى بين الحضور وصار يضع على رأس كلّ راهبٍ طاقيةً حتّى ألبسَ العشرةَ، فتعجَّبَ الناسُ من هذا التصرّف، ولم يعلموا السبب.

ثمّ عاد الشيخ لمجلسه وشرع بكلامه، بينما الرهبانُ ساهمون متعجّبون، لا يصدّقون ما حدث، وكان من جُمْلَةِ كلام الشيخ:

يا فقراءُ! إذا هَبَّت نسيماتُ التوفيق من جناب الحقّ على القلوبِ المُشْرِقَةِ أطفأتْ كلّ نور.

ثمّ تنفّس الشيخ فانطفأت قناديلُ المسجد، وكان عددها ثلاثين قنديلاً ونيّفاً. ثمّ سكتَ الشيخُ وأطرق نحو الأرض، فصمت الجميعُ ولم يتحرك أحدٌ لعظم هيبة الموقف، ثمّ رفع رأسه وقال: لا إله إلاّ الله، يا فقراءُ! إذا أشرقت أنوارُ العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاءت كل ظلمةٍ. ثمّ تنفّس الشيخ فاشتعلت قناديل المسجد، وعاد إليها نورها وإشعاعها، وتزايدت شعلاتها واضطربت حتّى كادت تلامس بعضها. وبدأ الشيخُ يفسّر للناس معاني آية السجدة فسجد الناسُ جميعاً، وسجد معهم الرهبان خشيةَ الفضيحة وانكشافِ أمرهم خاصّة بعد أن وضع على رؤوسهم الطواقي وظنَّ الناس بأمرهم الظنون. فقال الشيخ في سجوده: اللهمَّ إنّك أعلمُ بتدبير خلقك ومصالح عبادك، وإنّ هؤلاء الرهبان وافقوا المسلمين في لباسهم وسجودهم لك، وأنا غيّرتُ ظواهرهم، ولا يقدر على تغيير بواطنهم غيرك، قد أجلستَهُم على مائدة كرمك، فأنقذهم من الشكّ والكفر إلى نور الإيمان.

فما أن انتهى الشيخُ من صلاته و سجوده، ورفع الناس رؤوسهم من السجود، حتّى ذهب عن الرهبان الهجران والشك والصدود ودخلوا في دين الملك الواحد المعبود. فقاموا وأتوا الشيخ وتابوا على يديه واعترفوا بما كان من تدبيرهم وبكوا ثمّ أ سلموا ونطقوا الشهادتين، فكثر الهرج والمرج بين الناس من قدرة الله تعالى وبما خصَّ أولياءه من الكرامات والعطايا، وكان ذلك اليوم مشهوداً من أيّام قرطبة سمع به الخَلْقُ وصدَّقه المصدقون، وأمّا الضّالون الكاذبون فكذّبوا وأبوا التصديق، والله وحده القادر على هدي عباده إلى الطريق.

والحمد لله الولي الرفيق، وصلّى الله على رسوله، وآله النجوم الزهر ذوات البريق.

٢ ـ قِصَّةُ العَابِدَةِ صَفْوَانِيّة مَعَ المَلِكِ المُعَانِدِ

رُوِي عن جاريةٍ كانت تعبدُ الله الواحد القهّار، ولا تفترُ عن ذكره ليلاً أو نهاراً، وكان اســمها صــفوانية ذاتُ عفّةٍ وطهارةٍ ونفسٍ نقيَّة، وصِــدْق نِيَّة، تواظبُ على العبادة ولا تبيع آخرتها بدنياها. فغضب سيّدها من كثرة عبادتها وتوسّلها لله تعالى، ولم يكن مؤمناً صَادِقاً، ولا رجلاً صالحاً، فأَذِنَ في بيعها، وأعطاها للدلاّل وقال له: خُذْها وبِعْها، ونادِ عليها بكل العيوب.

فأخذها الدلاّلُ إلى مدينة أحد الملوك المعاندين الظالمين الموسـومين بالكفر والمعاندةِ والجبروتِ، وصَــارَ الدلاَّلُ ينادي عليها بكلِّ العيوبِ، وصَــادَفَ أنَّ موكبَ الملك مَرَّ في الســوق، والملكُ جالسٌ على كرســيِّه بجبروته وكبريائه فصــادف الدلاّل والجارية، فأعجبه منظرها وأراد شراءها فقال للدلاّل: بكم هذه الجارية؟

فقال: هي بعشرين دينار. فأمر الملكُ حاجبَه أن يعطي الدلاّل المالَ.
ثمّ قال للجارية: وما تعرفين من الصناعة؟
فقالت: صناعتي البيت كلّهُ.

فأمر الملكُ بدخولها بيت الحريم فدخلَتْ وصارتْ تخدمُ في البيت، ولسانُها لا يفترُ عن ذِكْرِ الله ليلاً ونهاراً، حتّى تعلَّقَ بها أهلُ الملكِ وأولادُه وعبيده وجواريه ودَعَتْهُم للإيمان بالله تعالى فوافقوا، فصاروا يعبدونه معها ويقولون مثلما تقول.

ثمّ حَدَثَ ذات يومٍ أن أخبر أحدُ الغِلْمَان الملكَ بالخبر،فأرسلَ الملكُ وراءها وقال لها: يا صفوانية! فقالت: نعم يا سيّدي الصغير. فقال لها متعجّباً: وهل لكِ سيِّدٌ كبيرٌ؟ فقالت: نعم. سيِّدي الكبير هو الله الواحد القهّار الذي هو خلقني وخلق الســموات والأرض وما بينهما في ســتّة أيام، وهو على كل شيءٍ قدير.

فغضب الملكُ منها ولم يشأ أن يظهره هذا الكلام بالضعف فقال: سنرى من مِنَّا السيّد الصغير ومن السيِّد الكبير، وسنرى كيف يحميكِ سيّدُكِ الكبيرُ.

وأضمر في نفسه شيئاً، ثمّ نادى على أحد الغلمان وقال له: أَحْضِرْ كيساً فيه ألف دينار. ففعل الغلامُ وأعطاه للملك، الذي قام بدوره بخَتْم الكيس وقال للجارية:

يا صفوانية! خُذي هذا الكيس واحتفظي به وحاذري عليه من الضياع.

فأخذتْهُ واحتفظَتْ به في حجرتها، ثمّ مضَتْ أيّام قلائل، فأمر الملكُ غلاماً أن يدخلَ غرفة الجارية ويحضرَ الكيسَ الذي فيه الدنانير دون أن يعلمَ به أحدٌ، فدخلَ الغلامُ وأحضرَ الكيس، فطلب منه الملكُ أن يسيرَ بالكيسِ إلى البحر ويعطيه لصاحبِ المركب ويطلبَ منه أن يسيرَ بعيداً عن المدينة، ثمّ يذري الدنانير في البحر ويثقب الكيسَ ويرميه. ففعلَ الغلامُ ما أمره به الملك. وقال الملكُ في نفسه: إن كان لهذه الجارية إلهٌ عظيمٌ يقدر على جمع الدنانير كما كانوا، فإنّي سأؤمنُ به، وإلاّ فإني سأقتلها وأقطعها إرْباً.

وطلبَ الملكُ من الغلامُ أن يأتيه بعد أن أخذ الكيس وأعطاه لصاحب السفينة، فلمَّا أتاه قتله بعد أن تأكَّدَ أن أحداً لم يعرف بما جرى ولم يَدْرِ بقصّةِ الكيس.

ثمّ إنّ الله سبحانه أمرَ الملائكة الموكّلين بالبحر أن يجمعوا الدنانير كما كانوا، ثمّ مرَّتْ سمكةٌ كبيرةٌ فابتلعت الكيس، ثمّ قدَّرَ الله تعالى أن جاء صيادٌ وطرحَ شبكته في البحر، فعلقت السمكةُ، وعندما رامَ الصيادُ رفعها لم يقدر على ذلك، فالتفت وراءه فرأى شيخاً بَهِيَ الصُّورة فقال له: أعِنِّي على سحب هذه الشبكة ولك نصف ما فيها.

فأعانه على سحبها، فطلعت السمكةُ في الشبكة، فأخذها الشيخُ للمدينة وباعها، فا شتراها الطبَّاخُ في قصر الملك وأعطاها للجارية صفوانية كي تنظف السمكة، فأخذتها وغسلَتْها وشقَّتها فوجدت الكيس في بطنها فعرفته وأخذته ووضعته في مكانه حيث وجدت الدنانير بمكانها، فحمدت اللهَ وتابعَتْ عملها، ثمّ مضتْ أيَّامٌ قلائل، فاستدعاها الملكُ وقال لها: يا صفوانية! آتيني بالكيس المملوء بالدنانير.

فقالت: بسم الله. ودخلَتْ وأحضرت الكيس وناولَتْهُ إيّاه، وعندما تأكَّد من الختم وأنّ الكيسَ هو نفسه الذي رماه في البحر، خرَّ مغشيّاً عليه، فلمَّا أفاق من غشوتهِ تكبَّر وتجبَّر ورفض أن يعبد اللهَ، وزادَ في غِيِّهِ إذ أمرَ بتجويع السِّبَاع

وتعطيشهم لثلاثة أيام,ثمّ أمر بإدخال الجارية عليها وأغلق الباب,وقال: إن أكلتها السباعُ نكون قد ارتحنا منها ومن كلامها, وإن نَجَتْ يكون إلهها عظيماً قادراً على حمايتها فنؤمن به, فلمَّا دخلت بين السباع, هاجت لجوعها وكادت تأكلها,لكن صفوانية قالت تدعو ربها: إلهي, يا عظيمَ العظماء, يا باسطَ الأرضِ ورافع السماء,أسألك أن تخلصني من هذه السباع إن كان لي في العمر بقية,وإن لم يكن أرجو أن تعجل موتي قبل أن تأكلني هذه السباع الجائعة المسكينة, وجلست وهي تذكر الله سبحانه ولا يفتر لسانها عن تسبيحه وذكره, وبقدرة الله تعالى استأنست بها السباع وصبرت على جوعها,وبعد أيام ثلاثة أمر الملك بفتح الباب لإخراج الســباع وما تبقى من الجارية, ولما رآها جالســة بينهم ورؤوســهم على ركابها, صرخ ووقع مغشــياً عليه, وبعد أن أفاق من غشــوته رفض أن يؤمن وتجبّر وتكبّر, فأمر بجلب حطب كثير, فأُحضر ثمّ قال لصفوانية: بحق سيدك الكبير الذي تعبدينه وتعتقدينه خالقك وخالق السموات والأرض وتعتمدين عليه في كل أمر,أوقدي التنور وضعي كل الحطب فيه.

فقالت: السمع والطاعة لسيّدي الصغير.

فأوقدت التنور ووضــعت الحطب فيه فزاد اشــتعاله وأججت ناره. ثم أمر بإلقائها في التنور, فقالت إلهي أنت تعلم حالي, وما أنا فيه وإن نفسي ــ لا تألف النار إلا بمحبتك, عليك توكلت وبك اســتعنت وبحبلك اعتصــمت,فلتكن مشــيئتك. ثمّ رمي بها في التنور وغطي عليها لثلاثة أيام وهي جالسة تذكر الله الواحد القهار, والنار نابتة من حولها ووروداً وأزهاراً, وبعد ثلاثة أيام جاء الملكُ وكثيرٌ من حاشــيته ليرى ما فعلته النار بالجارية، فأمر بفتح الغطاء، ففُتح فوجدَ الجارية راكعةً ســاجدةً فغشي عليه وصاح الجميعُ مدهوشين مؤمنين بقدرة الله تعالى، فلمَّا أفاق من غشوته آمن بالله إيماناً صــادقاً، وحَثَّ جميع شــعبه على الإيمان. وكان لهذه العابدة المؤمنة اليد الكبرى في دخولهم في دين الله، ثمّ عاشت هذه العابدة بينهم مدّةً تعبدُ الله حتّى وافتها المنية، رحمةُ الله عليها.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيْمِ، والخَيْرِ العميم الرحمَنِ الرحيمِ

٣ ـ قِصَّةُ المَلِكِ الجَاحِدِ وَتَوْبَتِهِ.

قيل أنَّه كان مَلِكٌ من المترفين وأربابِ النِّعَمِ الجِسَامِ، ليس له بغية في حياته إلاّ التلذّذ بالمأكولات والمشروبات والمنامِ، فكان لا يأكلُ إلاّ ألذّ المأكولات، ولا يلبسُ إلاَّ أفخر الثياب المذهَّبة، ولا يسكن إلاَّ في أروع القصور وأفسحها وأبهاها منظراً، حتّى أنَّهُ أمر بصنع سرير له من الذهب والفضة، وَرُصِّعَ بالدُّرِّ والجواهرِ، وزاد في استغراقه في ملذّات الحياة تكبُّراً وتجبُّراً أن جعل سريره الذهبي معلقاً بين الأرض والسماء كي يبقى مرتفعاً بين الناس وفوقهم، فيخاطبونه ورؤوسهم للأعلى ناظرة.

وحدث ذات ليلةٍ وبينما كان نائماً أنَّه رأى حُلْماً مهولاً أفزعه فوقع عن سريره مغشياً عليه فبادر إليه الغلمان والخدم والعبيد، ورفعوه إلى سريره حتّى أفاقَ من غشوته، وسألوه عمّا حصل له فقال: آتوني بالمفسّرين والمنجِّمين، وإلاَّ هلكتُ لا محالة. فلمَّا أتوه بالمفسّرين، سألوه عمّا رآه في منامه وأفزعه بهذا الشكل فقال:

(رأيتُ في المنام أنّي في بريَّةٍ قفراء لا نَبْتَ فيها ولا ماء، ولا حِسّ في هذه الفلاة أو إِنْس، وقد رأيتُ فجأة شخصين من بعيد يقتربان مني والنار المحرقة تخرجُ من أفواههما، وأنا أهربُ قدّامهما في مَسْلَكٍ ضيِّقٍ طويل لا أستطيعُ الخروج منه أو قطعَهُ، وكان شعري طويلاً بشكلٍ كبيرٍ جدّاً واسودَّ وجهي سواداً عظيماً، وكان على ظهري ثِقَلٌ كبيرٌ يكاد يكسرُ ظهري، ورأيتُ نفسي عرياناً من الثياب وبدني ملطَّخٌ برجيع جوفي) هذا ما رأيتُه وأفزعني وأقلق مضجعي، فما هو تفسيرُ ما رأيتُ؟

فقال بعضهم: هذه الرؤية ما هي إلاَّ أضغاث أحلام ليس لها معنى أو تفسير، ومنهم من قال: إنَّها من قِبَل النجوم والأفلاك، ومنهم من قال: إنَّها بسبب الإكثار من الطعام والخلط بين أنواعه الكثيرة ومنهم من قال: إنّها من الجنّ المواكيل بالإنسان لإقلاقِ راحته. ولم يُعْطِ المفسّرون للملك أي تفسير يريحه أو يخفّف من

فزعه وخوفه. وبقي الملك مدّةً طويلةً على هذه الحال يرى المنام كلّ ليلةٍ ويقع مغشـــياً عليه وينهضُ فَزِعَاً خائفاً، حتّى ضَعُفَ جِسمُهُ و ساءت أحواله وامتنع عن الأكل وكاد يهلك و صار كل من كان يحســده على عيشــه يحزن عليه. ثمّ صـادف أن مرَّ في المدينة نفرٌ من جماعة هذا الملك فوجدوا شــيخاً حكيماً وقد تحلَّقَ الناس حوله، وهو يفسّر لهم أحلامهم ويرشـــدهم ويعظهم، فاقتربوا منه وقالوا له:

السلام عليك أيُّها الشيخُ الحكيم.

فردَّ عليهم السلامَ و سألهم عن حاجتهم، فقالوا له: هل سمعت خَبَرَ المَلِكِ وما أ صابه من ذاك الحُلْم المخيف الذي يراه؟

فقال: نعم، وأعرف تفسير المنام الذي يراوده.

فقالوا متشوّقين: ولم لا تذهب إليه وتفسّره له عَلَّهُ يرتاحُ؟

فقال: لأنِّي أعلمُ أنّ هذا الملك سيكون أزْهَدَ أهل زمانه وأكثرهم عِلْمَاً وحُبّاً بالله والنّاسِ.

فقالوا: أيّها الحكيم! عرِّفْنَا تفسـير منامه حتّى نوردَهُ عليه عَلَّهُ يتَّعظُ بقولكَ ويشـفى من حالته السيئةِ.

فقال: أخبروه أنَّ البرّيَّة القفراء هي نار جهنَّم، والشخصين هما منكر ونكير، والمَسْلكَ الضيِّق هو الصراط المستقيم، وأمّا سواد وجهه فهو سواد وجهه يوم القيامة بين يدي الله تعالى، وأمّا طول شعره، فهو طُولُ حَسْرَتِهِ وندامتِهِ، وأمّا عُرْيه من الثياب، فهو عُرْيه من الحَسَنَاتِ، وأمّا الثقل الذي على ظهره فهو ثِقَلُ أوزاره وذنوبه، وأمّا كونه ملطّخ برجيع جوفه فهو أنّه يوم القيامة يتمنَّى الرجوع إلى الدنيا حتّى يعمل صالحاً فلا يقدر أن يُرَدَّ إلى الدنيا كما أنَّه لا يقدر رَدَّ الذي في جوفه إلى ما كان فيه. فقالوا: وبِمَ يزول عنه ذلك الذي ذكرتَ؟

فقال: بنزع ما كان عليه من الخزِّ والديباج، ولِبْسِ جُبَّةٍ من الصـــوف والتنزّه عن الأموال والأملاك. وكلّما اجتهدَ في الطَّاعات وَفِعْلِ الخيرات، وكلّما ابتعد عن

اللذّات والشــهوات والزينات، وزادَ اســتشــعاره لله تعالى في كل الأوقات ومراقبة جبّار الأرض والسموات وتقواه وحبّه حتّى الممات، زال عنه كل ذلك الذي هو فيه.

قيل: فعاد القوم مُسْرِـعين إلى ملكهم وأخبروه بخبر الحكيم وكلامه وتفســير المنام. فاتَّعَظَ الملكُ بقول الحكيم لعظيم ما أصــابه، وفعل كما أمره الحكيم وزاد على ذلك، فما مضــت مدّة يســيرة من الزمن حتّى تحسَّــنَتْ صحته، ورأى في المنام أنّه في ذلك المكان نفســه، وقد اخضرّت البريَّة وأزهرت، و صار فيها أنهارٌ جارية وقصورٌ عامرة وأشجارٌ مثمرة وأن في ذلك المكان شخصان كأنّهما قطعة من نور، وهما يكلِّمانه ويشيران إليه، فقال لهما: ما اسم هذا المكان.

فقالا: هذه الجنّة.

فقال: ليت شعري هل لي نصيبٌ هنا؟

قالا: نعم.

فقال لهما: وبأيّ شيء استحقّيتُ أنا ذلك؟

قالا: إن دُمْتَ على ما أنت فيه من الطاعة والعبادة.

فَداوَمَ المَلِكُ على هذه الحالة من التقشّف والتعبّد مدّةً طويلةً مواظباً مجتهداً فصار عالماً كبيراً وزاهداً وَرِعَاً يتوافد الناس عليه يستمعون كلامه.

والحمدُ لله الذي لا إله إلاَّ هو الحيّ القيّوم ملك المُلْك ورَبّ العرش العظيم.

٤ ـ قِصَّةُ الرَّجُلِ العَابِدِ وَاليَاقوتةِ الإِلَهِيَّةِ.

قيل كان في بلاد فارس رجلٌ قد اجتهد في عبادة ربّه، وزَهَدَ في دنياه وكانت له زوجةٌ صـــالحةٌ تساعده على شؤون الحياة والعبادة، وكانا يعيشان من عمل الأطباق والمراوح، حيث يعملان بالنهار، فإذا جاءت عشـــيَّةُ النهار ســـار الرجلُ بما يمكنه حَمْلُه من عملهما، ومشىـ في الأزقّة والطرق يلتمسُ مشـــترياً يبيعُ له ما صـــنعاه، فمرَّ بباب أحد أبناء الدنيا وأهل الرفاهية والجاه، فرأتْهُ امرأةُ صـــاحبِ الدَّار، وكان الرجلُ العابدُ مشرقَ الوَجْهِ جميلَ الصورةِ، بهيَّ الطلعةِ، فلمَّا رأتْهُ تعشّقت به، ومال قلبُها إليه ميلاً شديداً، وكان زوجها غائباً عن المنزل، فدعَتْ خادمةً لها وقالت: لَعَلَّكِ تحتالين في دخول هذا الرجل إليّ، فإنّي قد مِلْتُ إليه بكلّيتي. فخرجت الخادمةُ إليه ودَعَتْهُ لأن تشـــتري منه ما يحمل بيده من أطباقٍ ومراوح، وقالت له: ادخل واقعد في هذا الصِّوَان[1] فإنّ سيدتي تريد أن تشتري منكَ. فلمَّا صار داخلَ البيت أغلقتِ الأبوابَ، فخرجت سيّدتها إليه وجذبته من تلابيبه[2] وحاولت أَنْ تشدَّهُ إلى غرفتها وقالت له: كم لي وأنا أطلبُ خُلْوةً منك وقد عِيْلَ[3] صـــبري من أجلك، وكم طلبنَي من الملوك والأمراء فلم ألوي على أحدٍ.

كانت المرأة تقول هذا الكلام والرجلُ العابد لا يرفع رأســـه حياءً من الله عزّ وجلّ وخوفاً من عقابه، ثمّ فكّر في طريقةٍ يفلتُ نفســـه بها من الوقوع في المعصـــية والإثم، فقال لها: أريدُ أن أطلبَ منكِ شيئاً.

فقالت متلهِّفةً: اطلبْ أي شيء تريد.

---

(١) الصِّوان: القاعة أو الصّالة المغلقة الجدران .

(٢) التلابيب : مفردها تلبيب ويعني قبةُ الثوبِ وطاقتُهُ .

(٣) عِيْلَ الصّبْرُ : نَفَدَ وانتهى .

قال: أريدُ ماءً طهوراً وأصعد به إلى أعلى موضع في دارك أقضي به أمراً، وأغسل دَرَناً[1] ما لا يمكنني إخبارك به.

فقالت: إنّ الدار واسعة، ولها خبايا وزوايا، وبيت المَطْهَرة مُعَدٌّ.

قال: إنّما غرضي الارتفاع والعلو.

فصعَدتْ به إلى أعلى موضع في الدار، ودفعتْ إليه بآنية فيها ماء وتركتْهُ ونزلَتْ. فقام الرجل وتوضَّأَ، وصَلَّى ركعتين كاملة السجود والركعات، ثمّ صعد سطح المَنْظرة[2] في المنزل، ونظر إلى الأرضِ فرآها بعيدةً فخاف أن لا يصلَ الأرضَ إلاَّ وقد تمزّقت أشلاؤُه، وتفكَّر في معصية الله تعالى وعذابه، فهان عليه بَذْلُ نفسِهِ، فقال مناجياً ربَّهُ:

إلهي وسيدي، أنت ترى ما نَزَلَ بي ولا يخفى عليك حالي، وَمَا بَذلي لنفسي معصيةٌ لأوامركَ وإنّما سبيل نيلِ رِضاكَ، وأنتَ على نجاتي وخلاصي قدير، ثمّ أنشد:

أَشَارَ القَلْبُ نَحْوَكَ وَالضَّمِيْرُ ... وَسِرُّ القَلْبِ أَنْتَ بِهِ خَبِيْرُ

وَبَذْلُ النَّفْسِ أَصْعَبُ مَا يُلاَقى ... فَإِنْ تَرْضَى بِهِ فَهُوَ اليَسِيْرُ

وَإِنْ تُنْجِنِي وَتَمْنَحْنِي خَلاَصِي ... فَأَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمَلِي قَدِيْرُ

ثمّ رَمَى بنفسهِ من أعلى المنظرة، فأرسَلَ اللهُ سبحانه وتعالى مَلَكاً تَلقَّفَهُ على جناحهِ وأنزلَهُ إلى الأرضِ سالماً، فحمدَ الله تعالى على نجاتِهِ، وسارَ إلى زوجتهِ وكان قد أبطأَ عنها، فسألَتْهُ عمّا أخَّرَهُ وكيف رجع وما معه شيء من البضاعة، فأخبرها بما عَرَضَ له من الفِتْنَةِ وكيفَ رَمَى بنفسهِ وأنجاه الله من المعصيةِ والموتِ معاً.

---

(١) الدَّرَنُ : الوَسَخ أو ما يَعْلَقُ بالثوبِ وَغيرهِ مِنْ الأوْسَاخ .

(٢) المَنْظَرَةُ : أعلى نُقْطَةٍ في المنْزِلِ تُشْرِفُ وتُطِلُّ على الأرضِ .

فقالت: الحمدُ للهِ الذي صَرَفَ عنكَ المحنةَ، وأزالَ عنكَ الفِتْنَةَ. لكنَّ الجيرانَ قد تعوّدوا مِنَّا أن نُضْرِمَ النّار كلّ يومٍ، فإن رأونا الليلةَ دون نارٍ علموا أنّنا دون شيء، وإنَّ من شُكْرِ الله تعالى كَتْمُ ما نحنُ فيه، ومتابعةُ صَوْمِ هذه الليلة وقيامها. ثمّ عمدتْ إلى التنور وملأتهُ حطباً وأضرَمتْهُ ناراً، وقالت:

سَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ غَرَامِي وَأَشْجَانِي	وَأُضْرِمُ نَارِي كَيْ أُغَالِطَ جِيْرَانِي
وَأَرْضَى بِمَا أَمْضَى مِنَ الحُكْمِ سَيِّدِي	عَسَاهُ يَرى ذُلِّي لَدَيْه فَيَرْضَانِي
فَقُمْ لِنُؤَدِّي شُكْرَ مَا قَدْ أَنَالَهُ	فَأَعْظَمْ مِنْهُ لَوْ ترى صَرْفَ عِصْيَانِي
وَمَا يَفْعَلُ المَوْلَى هُوَ الخَيْرُ كُلُّهُ	فَيَا رُبَّ مَنْعٍ طَيُّهُ كُلُّ إِحْسَانِ

ثمّ توضَّأا وقامَا إلى الصلاةِ، وإذ بامرأةٍ من جيرانهم تستأذنها في أن توقدَ من نارها، فقالت لها: شأنُكِ والتنور، خذي منه شعلةً.

فلمَّا دَنَتْ من التنور نادتِ المرأةُ الجارةُ: يا أمّ الخير أدركي خبزك قَبْلَ أن يحترقَ.

فقالت المرأة الصالحة لزوجها: أسمعتَ ما تقول جارتنا؟

فقال: قومي وانظري الخبزَ.

فقامت ونظرت فإذا التنور مليء بالخبز الأبيض الناضج، فأخذت الأرغفة ودخلت بها على زوجها وهي تشكر الله تعالى وتحمده على ما أولى من الخير العميم والمَنِّ الجسيم. فأكلا وشربَا، وشكرَا اللهَ تعالى.

ثمّ قالت المرأة لزوجها: قُمْ بنا ندعو الله تعالى عسى أن يمُنَّ علينا بشيء يغنينا عن الكدِّ والتعب ويُعيننا على عبادته والقيام بطاعته.

فقام الرجل ودعا ربَّه وأمَّنتِ الزوجة على دعائه فإذا بسقف البيت قد انفرجَ ونزلت منه ياقوتة أضاء البيتُ من نورِهَا وإشراقها، فزادا الله تعالى شكراً وثناءً،

وسُرَّا بتلك الياقوتةِ سروراً كبيراً، وصَــلَّيَا ما شــاءَ اللهُ تعالى. فلمَّا جَنَّ[1] الليلُ ونامَا رأتِ المرأةُ في منامها وكأنَّها دخلتِ الجنَّةَ ورأتْ منابرَ كثيرةً مصفوفةً وكراسيَّ منصوبةً، فقالت: ما هذه المنابرُ؟

فقيل لها: هذه منابرُ الأنبياءِ والمرسلين.

وقالت: ما هذه الكراسيّ؟

فقيل لها: هذه كراسي الأولياء والصدِّيقين.

فقالت: وأين كرسي زوجي؟

فقيل: ها هو. فنظرتْ فإذا بجانبه ثَلْمٌ

فقالت: وما هذا الثَّلْمُ؟

فقيل لها: هذا مكان الياقوتة التي ناجيتم الله أن ينزلها عليكما.

فانتبهت المرأةُ من نومها وهي باكية حزناً على ما نقص من كرسيّ زوجها وثلمه بين كراسي الصدّيقين. فسألها زوجها: ما بكِ يا امرأة، وعَلاَمَ بكاؤكِ؟

فقالت: قُمْ معي لندعو الله أن يردَّ هذه الياقوتة إلى مكانها، فمكابدةُ الجوعِ، والمســكَنَةُ في الأيام القلائل أهون من ثَلْمِ كرسيك في الجنَّة بين أصحاب الفضائل.

وأخبرته بما رأت في نومها، فقام الرجل ودعا ربَّهُ أن يردَّ الياقوتة ويرزقه الصــحّة ليتابعَ عمله، ويستطيعَ عبادته وصلاته دون تقصير، فإذا بالياقوتة قد طارتْ صاعدةً من السقف وهما ينظران إليها فرحَيْن.

ثمّ شــاهدت المرأةُ المنامَ ذاتَهُ ونظرت إلى كرسيّ زوجها فوجدت أنَّ الثلمَ قد اختفى، فسُرَّــتْ بذلك وحمدَتْ ربَّها على ذلك، وظلاَّ على عبادتهما حتّى لقيَا الله تعالى. رحمةُ الله عليهما.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين، وَالصَّلاَةُ عَلى سيِّدِ المرسَلَين.

---

(١) جَنَّ الليلُ: أظلَمَ وزادَت عتمتُهُ .

٥ ـ قِصَّةُ العَابِدِ فِي المَغَارَةِ مَعَ السُّلْطَانِ.

رُوِيَ عن رجلٍ من الصالحين، متعبّدٍ لله في مغارةٍ، يقضي ليله ونهاره بالصلاة والقيام، لباسُه الصوف، ورداؤه الخوف، وقوتُهُ كل يوم قرص شعير يبعثُه الله له، وذات يومٍ دخل عليه رجلٌ من بعض المناطق وقد سمع به وشاع خبرُهُ بين الناس.

فقال الرجلُ للعابدِ: أريد أن أصحَبكَ على ما أنتَ فيه من الطاعة والعبادة.

فقال له: مرحباً بك، على شرط أن تصبر على العبادة وأن تطيعني فيما أقول لك، ولا تخالفني في أمرٍ وإن كان لك مجهولاً.

فقال: نعم. وإنّي واللهِ سأصبر، وليكن الله في قلبي ودربي، ومعاذ الله أن أخالفك.

فقسَمَ العبدُ قرصَ الشعير بينهما وقال: كُلْ ممَّا أنعمَ الله علينا واحمُدِ المولى وزِدْ في شكره.

ومرّتِ الأيَّامُ وهما على حالهما من العبادة والصلاة والطاعة حتّى جاء يومٌ قال العابد فيه لأخيه: أريدك أن تذهب إلى قصر السلطان وتخطب ابنته.

فقال له: وكيف يقبلُ السلطان أن يزوّجني ابنته، وأنا على هذه الحال المزرية، ومن أين أقدّمُ نقدها إذا زوّجني إيّاها، فلعلك لا تريدُ خيراً بهذا الأمر؟

فقال العابدُ: قلتُ لكَ ذلك وأراكَ تخالفني فيما أقول وأنت لا تدري ما يكون. فقال: لا خلافَ لأمركَ.

ثمّ مضى إلى دار السلطان ورَامَ أن يدخلَ القصرَ فطرده الحجّاب وأشبعوه ضرباً حتّى آلَمُوهُ، فعادَ إلى صاحبه وقال: انظر ما فعلتَ معي. لقد آلموني بالضرب وما قَدِرْتُ أن أصل إلى السلطانِ أو أن أكلمَه.

فقال العابدُ: اصبرْ وتوكَّلْ على الله.

فلمَّا بَرِئَ من الضرب وآلامه قال العابدُ له: عَاوِدْ إلى السلطان كما قلتُ لكَ واطلب ابنتَهُ للزواج.
فقال: يا أخي! مالي حاجة إلى ذلك، فإنَّهم يهلكوني هذه المرّة.

فقال: يجب أن تذهبَ كما أقولُ لكَ.

فقال: السمع والطّاعة ولو لن أرجعَ بعدَها.

ثمّ مضى إلى دار السلطان يريد الدخول، وتظاهَرَ بالحاجة فقال بعض الحجّاب خلّوه يدخل لعلّه مظلوم يريدُ أن يعرضَ شكواه على السلطان. فأدخلوه، فلمَّا وصلَ دعا للسلطانِ بطولِ العمرِ فقال السلطانُ: ما حاجتُكَ يا فقيرُ؟

فقال: قد بعثني أخي إليك لتزوّجني ابنتك.

فقال السلطان: ومَنْ أخوك وما حالتُه بين الملوكِ؟

فأجاب: أنا كما أخي، نسكنُ في مغارة نعبدُ فيها اللهَ.

فقال السلطانُ: وإذا زوّجتكَ ابنتي أتقدرُ أن تقدّم نقدهَا ومهرَها؟

فقال: إن شاء الله أفعل.

فقال السلطانُ وهو يريدُ السخريةَ منه بين وزرائه وحاشيته: إن كُنْتَ تقدِّمُ ما نكتبُ لكَ من نَقْدٍ،نزوّجكَ ابنتنا.

ثمّ كتبَ الملكُ من النقد الآلاف من الدنانير الذهبية، ومن القماش الغالي الثمن، والخيل والجِمَال والعبيد والجواري والشيء المعظّم من الذهب والفضّة والجواهر واللآلئ، وقصور شاهقة أبوابها من ذهب ومَفْروشة من الديباج والحرير والفُرُش الوثيرة.

وقال له: إن أحضرتَ ما كتبتُ لكَ فإنّي سأزوّجك ابنتي ومعك مهلة شهرٌ من الزمن.

فمضى الرجلُ إلى المغارة، وأخبر العابدَ بما طلبَه السلطانُ.

فقال العابدُ: لا تقلقْ وتوكّل على الله وامضِ إلى تلك المرجة خلف الرابية وانظر ما ترى، ثمّ اذهبْ إلى السلطان ثانية.

فمضى الرجلُ إلى المرجة التي ذكرهَا فوجدَ حارةً عظيمةً أبوابها من الذهب وفيها كلّ ما ذكر السلطانُ وأزيدُ، ثمّ توجّه من ساعته إلى السلطان وقال له: لقد حضّرنا ما ذكرتَ من نقد ابنتكَ.

فمضى السلطانُ مع وزرائه وأعوانه إلى المرجة وشاهدوا الحارة والقصور وما فيها من فرْشٍ وذَهَبٍ وجواهرَ تفوق قصر السلطان، فتعجّبوا منها، وسألوه كيف جهّزها بهذه السرعة وفق ما كتبَه السلطانُ.

فقال: هذا من فضل ربّي ومَنِّه، فهل ستفي وعدكَ لي؟

فقال السلطان وقد رأى ما رأى: طبعاً وهل سنجد لابنتنا من هو أكثر منك مالاً وجاهاً؟

ثمّ عمل له عرساً كما تعملُ الملوك وأدخلوا عروسه إلى تلك الحارة. وكان العابدُ قد أوصاه ألاّ يدخلَ فِرَاشَهُ قبل أن يدقَّ عليه الباب، إلاّ أن الرجلَ اندهش ممّا رأى من جمال بنت السلطان وما حوله من النعيم العظيم والذهب والحرير، فنسِيَ قول العابد وحلَّ زِنَّارَهُ، فإذا بأخيه العابد يدقُّ الباب عليه.

فقال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، لقد نسيتُ قولك وحللتُ زنَّاري.

فقال العابدُ: لا تبالي، انظر إلى هذا النعيم العظيم، فقال: نعم.

قال: أصِرْتَ سلطاناً؟

قال: نعم.

قال: أتشتهي مغارتي وعيشي أم هذا النعيم الزائل؟

فقال: معاذَ الله أن أبدِّل الباقي بالفاني.

فخرج عندئذٍ من الحارة تاركاً كلّ شيء، ونزع ما كان عليه من الحُلَلِ الثمينة وارتدى جُبَّةَ الصوف واتبع أخاه، ودامَا على حالهما من العبادة والتقشّف إلى أن لاَقا ربّهما، رحمةُ اللهِ عليهما.

وَالحَمْدُ للهِ ذِي الإِنْعَامِ والإِكْرَامِ، وعلى رُسُلِهِ كُلُّ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

٦ ـ قِصَّةُ وَزِيْرِ الخَلِيْفَةِ المَأْمُونِ.

رُوِيَ عن الخليفة العباسي المأمون أنّه عيَّن عنده وزيراً مدبِّراً لأمور دولته، ناصحاً له في شؤونه وحاجتهِ، وكان هذا الوزيرُ رجلاً صالحاً، عابداً، خائفاً من الله، فلمَّا كان في بعض الليالي تفكّر في خلاص روحه ونجاة نفسه، وكيفية خروجه من خدمةِ الملوك والسلاطين، والأعمال التي تورث معصية ربِّ العالمين، فترك خدمة المأمون وأقلع عن وزارته والتجأ إلى كهفٍ يتعبّد فيه اللهَ وَيَعْتزل الناس وشرورهم.

فلمَّا علم المأمون بذلك أرسلَ خلفه مَنْ استحضره، فلمَّا قَدِمَ عليه قال له: ما الذي شغَلَكَ عن خدمتي، وقطعك عن باب نعمتي، وكنتُ قد أطلقتُ يَدَكَ تفعلُ ما تُرِيدُ؟

فقال له: يا سيّدي لقد خدمتُ ملكاً أعزّ منك وأكرمُ.

فقال المأمون مستغرباً: وبِمَ عامَلَكَ هذا الملكُ خير ممّا عاملتُكَ به أنا؟

فقال: يا سيدي! الملكُ الذي أخدُمهُ عمل معي سِتَّ خصالٍ لمْ أُبصرها منك أبداً.

فقال: هاتِ أخبرنا بهذه الخصال الستّة التي قصّرنا فيها.

قال: الأولى: كنتَ إذا أردتُ الدخولَ إليك طلبتُ مستأذناً يستأذنُ لي، وبوّاباً يفتح الباب،وربّما كُنْتُ لا ترغبُ برؤيتي فتمنعني الدخول، أو تملُّ من حديثي فتأمرني بالانصراف. بينما الملكُ الذي اشتغلتُ بخدمتهِ لا يزال بابُه مفتوحاً لي ولِمَنْ قصدَهُ، لا يردُّ سائلاً ولا محتاجاً ولا يملّ حديثي ولا أملُّهُ.

والثانية: كنتُ إذا دخلتُ عندك وقفتُ يومي كلَّه أخدُمك وأقضي حوائجك، فلاتهتمّ بي وبوقوفي، ولا تطلبُ مني الجلوس لأسترح، والآن الملك الذي أخدمه بين كلّ ركعةٍ وركعةٍ يقول لي يا عبدي اجلس فاسترِحْ.

والثالثةُ: كنتُ إذا صِرْتَ تأكل طَعامَكَ أقف حتّى تنتهي وأنا أنظرُ إليكَ ثمّ تقول لي حين تشبع: كُلْ ما تبقّى وارفع الأطباق. والآن صِرتُ بخدمةِ ملكٍ آكلُ أنا وهو لا يأكلُ ولا يشرب.

والرابعةُ: كنتُ إذا دخلتُ عليك وقفتُ فوق رأسك ليلي كلّه أحرسُكَ حتّى تنامَ مرتاحاً مطمئنَّ البال، والآن الملكُ الذي أخدمُه أنام أنا وهو يحرسني وهو لا يغفل ولا ينام.

والخامسةُ: كنتُ أخافُ على زوال ملككَ فتزول نعمتي بزواله. بينما الملك الذي خدمتُهُ ملكُه لا يحولُ ولا يزولُ، بل هو دائمٌ باقٍ حيٌّ لا يموتُ.

والسادسةُ: كنتُ أخاف أن يسعى بي إليك سَاعٍ فتهلكني ظلماً وزُوْراً وتنسى أفضالي وأعمالي، والآن الملكُ الذي خدمتُه لا يقبل بي سَعْيَ الساعي ولا يخفى عنه خافية، ولا يضيّع عملاً من أعمالي حتّى ولو كان مثقال ذرّةٍ، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

فقال المأمون: امضِ سالماً إلى ملكك وفَّقَكَ لطاعته ورزقنا ما رزقك من ملاطفته.

فمضى وعاد إلى كهفه وتابع عبادته وزهده حتّى لاقى ربَّه، رحمةُ الله عليه.

والحَمْد لِمَنْ لَهُ الحَمْدُ وَحْدَهُ، وَبيدهِ ملكوتُ كل شيءٍ، وعليه يتوكلُّ عبدُهُ.



الباب الثالث

أَخبارُ الحُكَمَاءِ

١ - خَبرُ اسقِلبْيُوسَ الحَكِيْمِ.

٢ - خَبَرُ سُوْلُوْنَ الحَكِيْمِ.

٣ - خَبَرُ زِيْنُوْنَ الحَكِيْمِ.

٤ - خَبَرُ فِيْثَاغُورسَ الحَكِيْمِ.

٥ - خَبَرُ ذِيُوْجَانِسَ الحَكِيْمِ.

٦ - خَبَرُ سُقْرَاطَ الحَكِيْمِ.

٧ - خَبَرُ أَفْلاَطُوْنَ الحَكِيْمِ.

٨ - خَبَرُ أَرِسطُوْطَالِيْس الحَكِيْمِ.

٩ - خَبَرُ لُقْمَانَ الحَكِيْمِ.

١٠ - خَبَرُ العَزِيْر الحَكِيْمِ.

١١ - خَبَرُ سُطَيْحٍ الحَكِيْمِ.

١ - خَبَرُ اسْقِلبْيُوسَ الحَكِيْمِ

كان تلميذاً للنبي هرمس عليه الســـلام، وكان ينتقل معه في البلاد ولمّا خرج هرمس مع تلميذه اسقلبيوس من بلاد الهند إلى بلاد فارس، مروراً ببابل خلَّفَهُ هرمسُ فيها ليضبط الشرع فيهم.

ولمّا صــار في آخر عمره اعتلَّ ومرض مرضــاً شــديداً، فاجتمع إليه جماعة من الحكماء لعيادته، فلمّا رأى اجتماعهم عَلِمَ أنّ الهياكلَ والمعابد قد خَلَتْ منهم فقال لهم: أهذا ما كنتُ أوصـــيكم به، وأنهاكم عنه؟ لكنَّ اللهَ هو المســتعان عليكم، قد اســتعملتم الآراء الفاســدة لينفردَ كلُّ واحدٍ منكم بشيءٍ ويحصلَ له شرفٌ ليكون له فيه مرتبة، وأطعمتم جاهلاً من ملوككم،واخترتم الدنيا على الآخرة، ولو كنتُم تسلكون ما جاءَ به مَن اصطفاهُ اللهُ جلَّ اسمه واتّخذَهُ رسولاً إليكم، مُرتِّباً لشرائعكم نبيّ الله (إدريس: هرمس) كان أولى وأحمد عاقبة.

وقال لهم مَرَّةً: عهدي ذات ليلةٍ ونحنُ بحضرةِ النبيّ الأعظم (إدريس) ـــــ شركنَا اللهُ في صالح دُعائِه ـ ونحنُ على أثرِ ما كُنَّا عليه من العبادة للذي تجبُ علينا عبادته، إذ دخلَ علينا غِلمانٌ بأطباقِ هدايا حَسَنةِ المنظر، فعرضوها عليه فردّها ووضع خدَّه على الأرض وهو يقول: ربِّي أعطوني ما ليس لي، فخذهم بما جَنُوا على أنفسهم وعَليَّ، وغيِّرْهُمْ ولا تجمعْ لهم شملاً. فواللهِ لقد غيَّرهُم اللهُ وشُتِّتُوا فما اجتمعوا بعْدَها.

وكان اســقلبيوس الحكيم يقول: مَنْ عَرَفَ الأيَّامَ لم يغفلِ الاســتعدادَ. وإنَّ أحدَكُم بين نعمةٍ مِنْ بارئِهِ وبين ذنبٍ من عمله، وما يُصْلِحُ ما بين الحالتين إلاَّ الحمدُ للمُنْعِمِ والاستغفارُ من الذنبِ.

وكم من دَهْرٍ ذَمَمْتمُوهُ، فلمَّا صِرْتُم إلى غيرِهِ حمدتُمُوه! وكَمْ مِنْ أمرٍ يُغْضِبُ في أوائلِهِ ويُبْكِّي عند أواخره عليه!

والمتعبِّدُ بغيرِ معرفةٍ كَحمَّال الطاحونة: يدور ولا يبرح ولا يدري ما هو فاعل.

وقِيل له: صِفْ لنا الدنيا.

فقال: أَمْسِ أَجَلٌ وغداً أملٌ، واليومَ عَمَلٌ.

وقال مرّة: المُشْـفِقُ عليكم يسيـءُ الظنَّ بكم، والزاري[1] عليكم كثيرُ العيبِ لكم، وذو البغضـاء لكم قليلُ النصيحةِ لكم.

والحمْدُ للهِ العَزِيْزِ الحَكِيْمِ



(١) الزَّاري : زَرَى عَلَيْهِ أي عَابَهُ واستهزَأَ به . والزَّاري هُوَ الَّذي لاَ يُعِدُّ غَيْرَهُ شَيْئَاً وَ يُنكِرُ عَلَيْهِ فِعْلَهَ.

٢ - خَبَرُ سُوْلُوْنَ الحَكِيْمِ

هو سولون بن اكسيكاسطنيديس الحكيم، وُلِدَ في سلاميس، وكان من أهل أثينا مدينة الحكماء. ثمّ تسلَّمَ المُلْكَ فيها, كان لَسِنَاً لطيفَ الكلامِ أبيضَ الشعر، أزرقَ العينين، أقنى الأنف مستطيل اللحية، خميص البطن منحني الأكتاف حلو المنطق، على ذراعه الأيمن خالٌ كبير سـمّاه أهل أثينا (المُفرِّج). سار إلى مصر ولبث بها حيناً وسمع من الكهنة حِكَمَاً كثيرة وتعلَّم أشياء غامضة.

وضـعَ كُتباً كثيرةً فيها المواعظ والحِكَمُ المتعددّة الوفيرة، ووضَـع الشرـائع لأهل أثينا ونقض بها نواميس ذراقون المارق، ولم ينقض النواميس التي جاءتهم من فونيكس. ووضـعَ كتاباً فيه الأشـعارُ المنشِّطةُ إلى قتال الأعداء وذلك لحاجة كانت في ذلك العصر.

كان سـولون (صـاحب الشرـائع) أحد الحكماء السـبعة الذين عاشـوا في وقتٍ واحد وهم: تاليس،سولون، بطّاقوس، بارياندروس، خيلون، قلاوبولوس، بياس.

وقد حَدَثَ أنّ فتيةً مرُّوا يوماً بصـيادٍ فأعطوه قطعة نقدية وقالوا له: ألقِ الشـبكة في الماء، وما أصـعدتْهُ ببختهم فهو لهم. فأخذ المالَ وطرح الشـبكة في الماء فأصـعدتْ تمثالاً صـغيراً من الذَّهَب، فأزمع[1] الصـياد على منعهم إيّاه واحتجَّ عليهم بأنَّه اتّفق معهم على إخراج السـمك وليس المال والذهب، فاحتجّوا عليه أنّه شَرَطَ على نفسِـهِ أن يُطْلِعَ لهم ببختهم ما طَلَعَ. فلمَّا طالت المشـاجرة اتَّفقوا على أن يفوّضـوا أمرهم إلى الله فما أمرهم به نفَّذُوه، فأوحى إليهم أن ينطلقوا إلى الحكماء السـبعة ويقبلوا حُكْمهم، فأتوا بالتمثال إلى تاليس فوجَّهَ به إلى بياس الحكيم وقال لهم: إنَّه أحكمُ منِّي فبعث بياس بالتمثال إلى الحكيم الثالثِ، والثالثِ إلى الرابعِ، فلم

---

(١) أزْمَعَ : نَوَى وَقرَّرَ في دَاخِلِهِ .

يزلْ كل واحد يرسله إلى الآخر حتّى جَازَ على السبعة، فردّه السابعُ إلى سولون فأجابَ بأن يُجعَل التمثالُ في هيكل الإله، فوُضِع في هيكل أفولون (أبولو).

كان سولون جَدّاً لأفلاطون الحكيم من جهة أمِّه، مات بأرض غربةٍ هارباً من حُكم بسيطراطوس الملك الظالم وله من العمر سبعون سنة رحمةُ الله عليه.

سُئِلَ مرّةً: أيّما أحمدُ في الصِّبَا: الخوف أم الحياءُ؟

فقال: الحياءُ لأنّه يدلّ على عَقْلٍ، والخوفُ يدلُّ على لُؤْمٍ.

وسُئِلَ عن أصعبِ الأشياء على الإنسان، فقال: أن يعرفَ نَفْسَهُ ويكتُم سرَّهُ.

وقال مرّةً: أمور الدنيا والدين تحت شيئين، أحدهما تحت الآخر، وهما السيف والقلم، والأول تحت الثاني.

وسُئِل مرّة لِمَ لم تذكرْ في شريعتِكَ عقوبة مَنْ قتل أباه؟

فقال: لم أظنّ أن هذا شيءٌ يكونُ.

وقال لرجلٍ من الأغنياء: أمَّا مالي فلا يمكنُ أن يصيرَ في وقتٍ من الأوقاتِ لأحدٍ من غير إرادتي وإذا أعطيتُهُ بقيَ عندي بلا نقصان، فأمّا مَالُكَ فإنَّهُ يصيرُ لغيركَ وإن أعطيتَ منه شيئاً نقص، ولا فرقَ بينه وبين الفصوص التي يُلْعَبُ بها إذ كانت تتقلّبُ جوانبها لكل واحدٍ من اللاعبين بالإتفاق.

وسُئِل: كيف تُتَّخَذُ الأصدقاءُ؟

فقال: أن يُكْرَمُوا إذا حَضَرُوا ويُحْسَنَ ذِكْرُهُم إذا غابوا. وأ صيب ابنه بمكروهٍ، فجعل يبكي، فقال له رجلٌ: وَمَا يَنْفَعُ البكاءُ وأنتَ حكيمٌ؟

فقال: لأجلِ هذا أنا أبكي.

وقيل له: كيفَ يكونُ صَلاحُ المُدُنِ؟

فقال: إذا عَمِلَ الرؤساءُ العِظَامُ بالسُّنَنِ والشرائع، لم يَجِدْ مَنْ هو دونهم بُدَّاً أن يسيرَ سِيْرَتَهُمْ.

والحَمْدُ للهِ العَلِيْم الحَكِيْم، وَمَنْ يُؤْتَى الحِكْمَةَ فَقَد أُوْتِيَ خَيْراً عَظِيْماً.

٣ - خَبَرُ زِيْنُوْنَ الحَكِيْمِ

هو زينون بن طالوطاغورس من أهل إلياطيس، كانَ تلميذاً لإمباذوقليس كان كامل الأدب، شديد الحماية، خلَّف كتاباً واحداً في علم الطبيعة.

يعتبر زينون مخترع علم الديالكتيك أو كما يُسمَّى (الغوامض)، وهو رجلٌ أسمر، معتدل القامة، حَسَن الصورة، على خدّه خال، رافع رأسه إلى العلو، ذو أدب كثير، حلو المنطق، جيد العقل مات وله ثماني وسبعون سنة.

قال مرَّةً لتلامذته إن ذَهَبَ منكم شيءٌ فلا تقولوا ذهَبَ منَّا، ولكن قولوا رددناه، لأنّه لو كان لكم كنتُم مالكوه منذ كنتم، بل تمتَّعوا به إذا عندكم كالإنسان الساكن في داره إذا نزل فيها فهي له بيت وإذا خرج عنها فهو غريب عنها.

وأتاه رجلٌ فأعلَمَهُ أنَّ ابنه قد توفي، ولم يكن له ابنٌ غيره، فقال: لِمَ يؤخذ عليَّ أن وَلَدتُ ولداً ميّتاً، لا غيرَ ميِّت. فلا تخفْ موتَ البدن، ولكن خفْ موت النفس.

فقيل له: ولِمَ قلتَ ذلك والنفس الناطقة عندك لا تموت؟

فقال: إذا انقلبت النفس الناطقة من حَدّ المنطقي إلى حدّ البهيميّ ـ وإن كان جوهراً لا يبطل ـ فإنّها قد ماتت من العيش العقلي.

وإنّ حياة النفس عالية رفيعة بعيدة عن الموت، ولن تقع النفس في يد الموت إلاّ أن تدعوه إلى ذاتها وتُبدي له كامِنَها وتمكّنُهُ من عيبها فيعلم بذل كيف يتشبث بها.

ورأى فتىً محزوناً على شاطئ البحر يتلهَّف على الدنيا، فقال له: يا بُنيَّ! ما تلهُّفك على الدنيا؟

أرأيتَ لو كُنْتَ في غاية الغنى وأنتَ راكبٌ في البحر و سط اللجَّةِ[١] وقد أشرفتَ أنتَ ومالُكَ على الغرق، هل كان غايتك إلا النجاة بنفسك؟

---

(١) اللُّجَّةُ: مَاءُ البَحْرِ الكُثيرِ الوَاسِعِ المُضْطَرِبِ الأَمواجِ .

قال له الفتى: نعم.

وقال له: وكذلك لو كنتَ ملكاً وقد أحاط بك عدوّك ومن يريد قتلك وأخذ مَالِكَ وملكك، هل كانت غايتك إلاَّ النجاة بنفسك من القتل؟

قال: نعم.

قال زينون: فأنتَ المَلكُ وأنت الغنيّ الذي نجوت من البحر، فامتنع عمّا تفعله واقنع بما أنتَ عليه.

وكان يقول: لا ينبغي للعاقل أن يتزوج امرأة حسناء، فإنّها يكثر عشّاقها وتزهو على زوجها.

وقال: محبّةُ المالِ بَدْءُ البشرّ، وذلك أنَّ سائر الشرور متعلِّق بمحبَّةِ المالِ.

والحَمْدُ للهِ العَزِيْزِ الحَكِيْم.



٤ - خَبَرُ فِيْثَاغُورسَ الحَكِيْمِ

هو فيثاغورس بن منيسارخوس من أهل مدينة (صور)، وكان له أخوان الأكبر هو أوتو سطوس، والآخر طورينوس، وأمُّه هي بوثانس بنت أجقايوس من سكان مدينة (ساموس). وعندما تغلّب على صور قبائل محتلّة هاجر والد فِيْثَاغُورسَ إلى ساموس ملتمساً كَسْبَاً وعَيْشاً فأقام فِيْثَاغُورسُ مع أهله عند أخواله. وحَدَثَ أن زار فِيْثَاغُورسُ مع والده إيطاليا فأحبَّها ثمّ عاد بعد أن كبر وسكَنَها.

وفي ساموس تكفَّل رئيسُ الحُكماءِ فِيْثَاغُورسُ منذ صغره وعلَّمه الموسيقا والآدابَ واللغةَ، ثمّ وجَّهَ به إلى ملطية وأ سلمه إلى الحكيم (أنا كسيماندروس) ليعلّمه الهندسة والمساحة والنجوم، فلمَّا أتقن فِيْثَاغُورسَ هذه الصناعات اشْتدَّ حبُّه للعلوم والحكمةِ، فسافر بلداناً عديدة طالباً الحكمةَ القديمة، فقصد مصر الفرعونية وعاشر الكهنة وتعلَّم منهم الحكمة وحَذِقَ لُغتَهم وأتقن كتابتَهم وخطَّهم بأشكاله الثلاثة[1]، ثمّ ترك مصر وقصد هرقلة وصاحَبَ ملكها فترة من الزمن، ثمّ تركها متوجِّهاً إلى بابل وخالط حكماءها وتعلَّم على يد كبير حكماء بابل (زراباطا) عِلْمَ الطبيعة (سَمَاع الكيان) واطّلَعَ على كتاب (أوائل الكلّ) لأرسطو فكمُلَتْ فضائل وحِكَمُ وعلومُ فِيْثَاغُورسَ.

ثمّ قصد سورية وأخذ عن الحكيم (فاراقوديس)، ورجع إلى ساموس ودرسَ على يد الحكيم (قراقوليو)، ثمّ ا شتاق إلى مصر فذهب إليها وقصد مدينة (عين شمس) بعد أن كتب إلى ملك مصر الفرعون (أماسيس) لكنّ الكهنة استقبلوه مُكْرَهِين لذلك أخذوا في امتحانه زماناً فلم يجدوا

عليه نقصاً ولا تقصيراً، ثمّ وجّهوا إلى كهنة (مَنَف) كي يبالغوا في امتحانه فامتحنوه امتحاناً قاسياً فلم يجدوا

(١) كان في مصرَ خطٌّ خاصٌّ بالكهنةِ ويُسمى الهيْروغليفيّة وخَطُّ العَامَّةِ ويُسَمّى الديموتيقيَّة، وَخط الملوك .

عنده مَعِيباً ولا أصــابوا له عثرة يســتطيعون من خلالها وضــع الحجّة عليه لإبعاده عن مصرــ فبعثوا به إلى أهل (ديوســبولس) وعندما لم يجدوا طريقاً إلى إدحاضــه عرضــوا عليه فرائض صــعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها فتكون لهم حجّة في إبعاده وكلّ ذلك خوفاً على مكانتهم عند الملك بعد أن رأوا من علومه ومعارفه ما رأوا،لكنّ فِيْثَاغُورسَ قَبِلَ فرائضــهم فاشــتدَّ إعجابهم منه، فلمّا وصل خبره إلى الملك زاد إعجابه به فمنحه من المكانة ما لم تعط لغريب عن مصرَ مِنْ قَبْلُ.

ثمّ عاد بعد مدّة من إقامته في مصرــ إلى ســاموس وبنى له منزلاً كان يعلِّم الناسَ فيه، فتوافد الناس عليه من كلّ حَدْبٍ وصــوب يأخذون من علومه وحكمته. وكان له خارج المدينة مغارة يأوي إليها للعبادة مع بعض أصحابه المقرَّبين.

ولمَّا أتتْ عليه أربعون ســنة وهو مازال في ســاموس وحيث أنّ ملكها كان طاغياً ولم يســتطع فِيْثَاغُورسُ أن يغيِّرَ أيَّ شيء فرحل إلى إيطاليا ومنها إلى قراطونيا فلمّا رأى أهلُها حُسْــنَ منطقه ونبلَهُ ومنظرَهُ، وسَـعَةَ علمِهِ وصِـحَّةَ سـيرتِهِ مع تكامل خصـاله وفضـائله انقادوا له انقياداً أعمى، فألزمهم سيرة القدماء ووعظهم بالصالحات واجتمع النساء مع الرجال لسماع حِكَمِهِ ومواعظه فعَظُم مجدُهُ، وكَبُرَ شأنُه وانتشر خبرُه حتّى أنّ عامَّة الملوك وَرَدُوا عليه وسمعوا حِكَمه وعلومه.

وكان غذاء فِيْثَاغُورسَ عسلاً وسمناً، وعشاؤه خبز شعير وبقولاً نيّئةً ولم يكن يأكلُ من اللحم إلاَّ ما كان من أضـحية الكهنة ممّا يُقرّب لله تعالى فلمَّا صـار هو رئيس الكهنة أصـبح يتغذّى بالأطعمة البسيطة غير المجوّعة وغير المعطِّشة.

وحَدَث ذات يوم أن قامَ رجلٌ من أهل قرطونيا اسمه قولون وتطاول على فِيْثَاغُورسَ متكبّراً بمالِهِ وحســبِهِ وجاهِهِ وتغطرســه، فقام فِيْثَاغُورسُ بزجره أمام الناس ودعاه للتأدّب لخلاص نفســه، فحقد قولون على فِيْثَاغُورسُ وأزمع على قتله، وعندما اجتمع فِيْثَاغُورسُ بأصــحابه مودِّعاً لهم قبل ســفره هجم قولون المتكبّر مع رجاله عليهم وقتلوا منهم أربعين شخصاً وهرب الباقون، فصار قولون يبحث عنه لكن أصحابه أخرجوه إلى لوقروس، وكان قولون قد نشر الأكاذيب عن

فِيْثَاغُورسَ واتهمه بالكفر فلمَّا وصـــل فِيْثَاغُورسُ المدينة ذهب إليه بعض مشـــايخها وقالوا له: (أمَّا أنت يا فِيْثَاغُورسَ فحكيم فيما نرى، وأمّا الشناعة عنك فقبيحة جدّاً، لكنّنا لا نجدُ في نواميسنا ما يلزمك بالقتل، ونحن متمسّكون بشرائعنا، فخُذْ مِنّا ضيافتَكَ ونفقةَ طريقك وارحل عن بلدنا بسلام).

فرحل عنها إلى (طارنطا) فوجد قوماً من أهل (قرطونيا) فكادوا أن يخنقوه لكنّه هرب إلى (ميطابونطيون) مع بعض أصحابه وتكاثرت الهيوج في البلاد بسببه، فدخل هيكل (الأشنان) فتحصَّن فيه وأصـــحابه، ولبث فيه أربعين يوماً، لكن جماعة قولون ضربوا الهيكل بالنار فلمَّا أحسَّ أصـــحابه بذلك عمدوا إليه فجعلوه في وســطهم وأحدقوا به ليوقوه النار بأجســادهم، وعندما امتدّت النار في الهيكل وصــــلت إلى الجميع فماتوا ومات فِيْثَاغُورسُ معهم رحمة الله عليه، تاركاً خلفه مئتين وثمانين كتاباً، وكان نقش خاتمه: (شَرٌّ لا يَدُومُ خيْرٌ من خيرٍ لا يدومْ). وكان فِيْثَاغُورسَ يقول:

كما أنّ بَدْءَ خلقنا ووجودَنا من اللهِ تعالى، هكذا ينبغي أن تكون نفوسُنا منصرفةً إلى اللهِ. وإن أحببت أن تعرفَ الله سبحانه وتعالى فلا تصرفْ عنايتك إلى معرفة الناس، فإنّه قد يمكنك أن تعرف الله باليسير من الكَلِم، وليس لسانُ الحكيمِ متقدّماً عند الله تعالى بالتكرمة ولكن أفعاله وأعماله.

وقال: الحكمة لله خالصــة فمحبَّتُها متّصــلة بمحبة الله تعالى ومَنْ أحبّ الله تعالى عَمِل بمحابِّهِ، ومَنْ عمل بمحابِّه قَرُبَ منه ومَنْ قرُبَ منه نجا وفاز، وليس الضحايا والقرابين كرامات لله تعالى ذكره لكن الاعتقاد الذي يليق به يكتفى به في تكرمته، وليس لله تعالى في الأرض موضعٌ أولى به من النفس الطاهرة. وما أنفع للإنسان أن يتكلّم بالأشياء الجليلة النفيسة، فإن لم يمكنه فليسمع قائلها.

وقال: لا تدنِّسْ لسانك بالقذْفِ، ولا تصغِ بأذنيك إلى مثل ذلك.

وقال: لا تساعد عينيك للنوم قبل أن تتصفَّحَ الأفعال التي فعلتها في نهارك فتقفَ على الموضع الذي زَلَلْتَ فيه بما ينبغي أن كنْتَ زللْتَ وعلى ما فعلته مما كان ينبغي أن لا تفعله، وعلى ما كان ينبغي أن تفعله ولم تفعله فمتى كُنْتَ قد أتيتَ مكروهاً

فليُذْعِرَنَّكَ، ومتى كُنْتَ قد أتيت رضـــياً، فليبهجنَّكَ فإنَّ ذلك يوطِئُ لك ما يقرّبك إلى الفضـــيلة الإلهية.

ونظرَ مرَّةً إلى رجلٍ عليه ثياب فاخرة يتكلَّم فيَلْحَنُ[1] في كلامه فقال له: أمّا أن تتكلَّم بكلامٍ يشبه لباسك، أو تلبسَ لباساً يشبه كلامك.

والحَمْدُ للهِ العَزِيْزِ الحَكِيْم.



(١) يَلْحَنُ : لَحَنَ القَارِئُ في القراءةِ، وَالمُتَكَلِّمُ في كَلاَمِهِ، أيْ أَخْطَأَ في الإِعْرَابِ وَخَالَفَ وَجَهَ الصَّوَابِ في اللُّغَةِ.

٥ - خَبَرُ ذِيُوْجَانِسَ الحَكِيْمِ

هو ذِيُوْجَانِسَ بن دقليديوس، من أهل أثينا، كان حكيم أهل زمانه زاهداً متجرّداً من مُتَعِ الدنيا حتّى لُقِّبَ بـــــ (المتجرّد)، متخلِّياً لا مسـكنَ له ولا مأوى إلاَّ حيث أجَنَّهُ الليل[1] يصـدُقُ على نفسـه ويرفعها عَمَّا ينحطّ إليه الملوكُ والسُّوْقَةُ[2]. فقنِعَ بثوبين من الصُّوفِ فلم يَزَلْ ذلك حَالُهُ إلى أن فَارَقَ الدُّنْيَا.

أرسله أهل أثينا إلى الاسكندر المقدوني برسالةٍ، ففَضَّها عليه فقال الاسكندرُ: ما الذي يرضيهم عنِّي؟

فقال: لا أحسَبُ يرضيهم عنك إلاَّ موتُكَ.

ومَرَّ به الاسكندرُ ذات مَرَّةٍ فوجده جالساً في مكانٍ يطلبُ فيه الشمسَ في يوم شتائي، فقال له: سَلْ مَا حاجَتُكَ؟

فقال: حاجتي إليك التنحِّي عَنِّي كي تصلَ الشمسُ إليَّ.

وقيل له: لو اتَّخذتَ لك بيتاً تأوي إليه ليلاً وتستريح فيه نهاراً!

فقال: إنّما إلى البيتِ يحتاجُ مَنْ قَصَدَ الاستراحةَ، وأنا استرحتُ إذ ليس لي بيت يشغلني ويبعدني عن غايتي.

ورأى رجلين صديقين حميمين، فلمَّا سأل أحدهما عن الآخر، قال له: هو صديقي وأعزّ عليّ من روحي.

فقال له: وَلِمَ أنتَ غنيٌّ وهو فقيرٌ.

سُئِلَ: كيف ينبغي للإنسان ألاَّ يغضب؟

---

(١) أجَنَّهُ الليل : يُقَالُ جَنَّ الليلُ أيْ أظلَمَ، وَأجَنَّهُ الليلُ أيْ أدْرَكَهُ بَعتْمَتِهِ وَظُلْمَتِهِ .
(٢) السُّوقَةُ : الرّعِيَّةُ مِنَ الناسِ وَأوْساطُهُم .

قال: فليكن متذكِّراً في كلّ وقتٍ أن ليس يجب أن يُخْدَمَ فقط، بل وأن يَخْدُمَ، وأنّه ليس يجب أن يُطَاعَ فقط بل وأن يُطيعَ، وأنَّه ليس يجب أن يُحْتَمَلَ بل وأن يَحْتَمِلَ، وأنَّه ليس يجب أن يُصْـــبَرَ عليه بل وأن يَصْبِرَ، فإنَّه إن فَعَلَ ذلك قَلَّ غَضَبُهُ.

ودخَلَ إلى الاسكندر المقدوني فوجد عنده شاعراً يمدحُهُ، فأخرج خبزاً كان في جيبه وأقبلَ يأكلُ.

فقيل له: ماذا تعمل ألاَ تستمعُ للشاعر في مَدْحِهِ الاسكندرَ؟

فقال: أصنعُ ما هو أنفع من استماع الكذب.

فأمرَ الملكُ لبعض الجماعة وللشاعر بأوانٍ فضيَّة وله بمثل ذلك، فأبى أن يأخذها، فقال له الملكُ: الكلبُ إذا ضَرَبَهُ صَاحِبُهُ اتَّبَعَهُ.

فقال: أيُّها الملكُ! إذا ضَرَبَهُ صَـــاحِبُهُ نَفَرَ منه، وإذا جوَّعَهُ لوَّح له غيره بخبزٍ فتبعه، ومن جَمَعَ لرعيّته مع المحبّة رأياً صالحاً، جمعوا له مع المحبَّةِ الطاعةَ.

وشَتَمَهُ رَجُلٌ فَظٌّ أمام جماعةٍ، فقيل له: لِمَ لا تغضبِ؟

فقال: لَسْتُ أغالِبُهُ بأمرٍ، الغالبُ فيه أنْذَلُ الفريقين، بل قد نَطَقَ بما فيه فكلُّ إناءٍ ينضحُ بما فيه، ثمّ فإنَّ كلامَهُ لا يخلو من وجهين: إمّا أن يكونَ صـــادقاً أو كاذباً، فإن كان صـــادقاً فما ينبغي لي أن أغضبَ عليه من الحقِّ، وإن كان كاذباً فبالحَرِيِّ أن لا أغضب إذا لم أكنْ على ما قال.



٦ - خَبَرُ سُقْرَاطَ الحَكِيْمِ

هو سُقْرَاطُ (سُقْرَاطيس) بن سقرونسقس، وُلِد ونشأ ومات بأثينا، ومعنى اسمه سُقْرَاطيس: (المعتصم بالعدل)، ولَمَّا أُلْزِمَ التزويجَ على عادة اليونانيين بإلزام الأفاضلِ الزواجَ ليبقى نسله بينهم، طَلَبَ الزواج بامرأةٍ سَفِيْهَةٍ[1] لم يكن لها شَبَهٌ في السلاطة والحُمْقِ ليعتاد جهلها والصبَر عليها، وقدرَ أن يتحمَّل جهل العامّةِ والخاصَّةِ. كان رجلاً أبيضَ أشقرَ، جيّدَ العظام، ضيّقَ ما بين المنكبين، سريعَ الجواب، كثيرَ التوحُّدِ، قليلَ الأكلِ والشربِ، شديدَ التعبّد، يكثر من الأسفار وذكر الموتِ.

كان رجلاً يُقَدِّسُ الحكمةَ ويُعَظِّمُهَا إلى حدٍّ أنَّه أَضَرَّ بِمَنْ بعدَهُ حيث أنّه رفض استوداع الحكمة في الصحف والقراطيس تنزيهاً لها عن ذلكَ، وكان يقول: « إنّ الحكمة طَاهِرَةٌ، مقدَّسَةٌ، غيرُ فاسدةٍ، ولا دَنِسَةٍ فلا ينبغي لنا أن نستودعَها إلاَّ الأنْفُسَ الحَيَّةَ وننزّهَها عن الجلودِ الميّتةِ ونصونَها عن القلوبِ المتمرّدةِ ».

لذلك فإنّ سُقْرَاطَ لم يصنّف كتاباً، ولا أملى على أحدٍ من تلاميذه ما أثبتَهُ في قرطاسٍ، وإنّما كان يلقِّنُهُم علمَهُ تلقيناً.

وكان سُقْرَاطُ تلميذاً للحكيم طيماوس فسألَهُ وهو صبي مرَّةً: لِمَ لا تَدَعُنِي أُدوِّنُ ما أسمعُ منكَ من الحكمة؟

فقال له: ما أوثقكَ بجلود البهائم الميّتة وأزهدكَ في الخواطر الحيّة! هَبْ أنّ إنساناً لقيَكَ في طريق فسألكَ عن شرف العلم، هل كان يُحْسِنُ أن تحيلَه على الرجوع إلى منزلك والنظر في كُتُبِكَ؟ فإن كان لا يحسن فالْزَمِ الحِفظَ. فَلَزَمَهُ سُقْرَاطيس.

---

(١) السَّفيْهُ: مَنْ يَسُوءُ تَصرُّفُهُ ويكونُ بعيداً عن الحِلْمِ والصَّبْرِ.

وكان زاهداً في الدنيا غيرَ مبالٍ بها. وكان ملوك اليونانيين إذا حاربوا أخرجوا حكماءهم في أسفارهم، وحَدَثَ أن خَرَجَ ملك أثنيا فأخرج معه سُقْرَاطَ لبعض مهمّاته، وكان سُقْرَاطُ يأوي في عَسْكَرِهِ ذلك إلى زير[9] مكسور يستكين من البرد، فإذا طلعت الشمسُ خرجَ منه فجلس عليه يستدفئ بها ولأجل ذلك سُمِّيَ (سُقْرَاطُ الجُبّ) فمرَّ به الملك وهو على الزير فوقف وقال له: مَا لَنا لا نراكَ يا سقراط، وما يمنعك من المسير إلينا؟

فقال: الشغلُ أيُّها الملك!

فقال: بماذا؟ قال: بما يُقيمُ الحياة.

قال: فَسِرْ إلينا فإنَّ هذا مُعَدٌّ عندنا أبداً.

فقال: لو علمتُ أيّها الملكُ أني أجدُ ذلك لم أَدَعْهُ.

قال الملكُ: بلغني أنَّكَ تقولُ إنّ عبادة الأصنام ضارّة.

فقال سُقْرَاطُ: لم أقلْ هكذا، وإنّما قلتُ إنّ عبادة الأصنام نافعة للملك ضارّة بسقراط، لأنّ الملكَ يصلح بها رعيتَهُ ويستخرج بها خراجه، وسقراط يعلمُ أنّها لا تضرّه ولا تنفعه.

فقال الملكُ: هل لك حاجة؟

قال: نعم! أن تصرفَ عنان دابتك عَنّي فقد سترتني جيوشك عن ضوء الشمس. فدعَا له الملكُ بكُسوةٍ فاخرة من ديباج وحريرٍ وجواهر ودنانير كثيرة.

فقال سُقْرَاطُ: أيّها الملكُ وَعَدْتَ بما يُقيمُ الحياةَ، وبذَلْتَ ما يقيمُ الموتَ، ليس لسقراط حاجةٌ إلى حجارة الأرضِ وهشيم النبتِ، ولُعَابِ الدودِ، اعلمْ أيُّها الملكُ أنَّ الذي يحتاج إليه سقراط هو معه حيث توجَّهَ.

وكان سُقْرَاطُ يرمز في كلامه مثلما كان فيثاغورس وهذه الرموز يقدّمها لذوي العقول النيّرة المتفتِّحةِ بالحكمةِ، ومن أقوالِهِ المرمَّزَةِ:

(٩) الزِّيْرُ : الخَابيَةُ أو الوعاءُ الكبيرُ مِنَ الفَخّار .

«عِنْدَمَا فَتَّشْـــتُ عَنْ عِلَّةِ الحياةِ وَجَدْتُ المَوْتَ، وَعِنْدَمَا وَجَدْتُ المَوْتَ عَرَفْتُ حِينَئِذٍ كَيْفَ يَنْبَغي أنْ أَعِيْشَ».

ويقصـد بقوله هذا أنَّ الذي يريدُ أن يحيا حياةً إلهيَّةً ينبغي أن يُميتَ نفسَـهُ من جميعِ الأفعالِ الجســـميّةِ على قدرِ القوّةِ التي مُنِحَهَا، فإنَّهُ حينئذٍ يتهيَّأ له أن يعيش حياةَ الحقِّ وقال: «تَكَلَّمْ بِاللَّيْلِ حَيْثُ لاَ تَكُونُ أَعْشَاشُ الخَفَافِيْشِ» ويقصد أنّه ينبغي أن يكون كلامك عند خلوتك لنفسِكَ وأن تجمعَ فكرك، وامنع نفسك أن تطلع في شيء من الأمور الهيولانيات.

وقال: «أُسْدُدْ خمْسَ الكُوَى لِتُضِيءَ مَسْكَنَ العِلَّةِ». أي أغمض حواسّك الخَمْسَ عن الجَوَلاَن فيما لا يُجدي لتضيء نفسك بالحكمةِ.

وقال: «اِمْلأ الوِعَاءَ طِيْبَاً». أي أودِعْ عقلَكَ بياناً وفهماً وحكمةً. وقال: «اَفْرِغِ الحَوْضَ المثلَّثَ من القِلاَلِ الفَارِغةِ » ويقصدُ بهذا القول: أَبْعِدْ عن قلبكَ جميع الآلام العارضة في الأجناس الثلاثة من قوى النفسِ التي هي أصل جميع البشر.

وقولُه: «لاَ تَأْكُلِ الأَسْـوَدَ الذَّنَبَ» ويقصـد احذر الخطيئة التي تجرّ على الإنسـان عواقِبَ سـوداء وخيمة.

وقولُه: «عِنْدَ المَمَاتِ لا تَكُنْ نَمْلَةً». ويقصـــد عندما تريد أن تفني نفسَـــكَ بالحقيقةِ والمعرفة فلا تقتنِ ذخائر الحسن ولا تفكّر بالمادّيات.

وقوله: «يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّه لَيْسَ زَمانٌ مِنَ الأَزْمِنَةِ يُفْقَدُ فِيه زَمَانُ الرَّبيعِ». ويقصـــد: لا يوجد وقتٌ محدّد لتعلُّم الحكمةِ، ولا مانعَ لك في أي زمان ووَقْتٍ من اكتساب الفضائل.

وقوله: «اِفْحَصْ عَنْ ثَلاَثِ سُـبُلٍ فَإِذَا لَمْ تَجِدْهَا فَأرضَ أَنْ تَنَامَ لَهَا نَوْمَ المُسْـتَغْرِقِ». ويقصـــد ابحث وتعلّم في ثلاثة علوم هامةٍ لك، عِلْمِ الأجسـام: الفَلَك والطبّ والفيزياء، وعِلْمِ ما لا جسـمَ له: المنطق والفلسـفة والحكمة، وعِلْمِ الذي هو موجود وإن كان لا جسـم له فهو موجود مع الأجسـام: ما وراء الطبيعة والإلهيات، وما صَعُبَ عليك فهمُه وتعلُّمُهُ فارض بالإمساكِ عنه.

وقوله: «لَيْسَتِ التّسْعَةُ بأكْمَلَ مِنْ وَاحِدٍ » ويقصد أنّ العشرةَ هي العقد من العدد، وهي أكثر من التسعة، وإنّما تكمل التسعةُ لتكونَ عشرةً بالواحد، وكذلك الفضائل التسع تتمُّ وتكمُلُ بخوف الله عزَّ وجلَّ ومحبَّتِهِ ومراقبتهِ.

وقوله:«اِقْتَنِ بِالاِثْنِي عَشَرَ اِثْنَتَي عَشْرَةَ».

ويقصد اقتنِ بالاثني عشر عضواً في جسمكَ البرَّ والفضائل والأعضاءَ الاثني عشرَ وهي:

العينان والأذنان والمنخران واللسـان، واليدان، والرجلان والفرج، وبالاثني عشرـ شـهراً اكتسِـبْ أنواع الأشياء المحمودة المكمِّلَة للإنسان في تدبيره ومعرفته في هذا العالم.

وقال أيضاً: «اِزْرَعْ بالأسْوَدِ واحْصُدْ بالأَبْيَضِ».

ويقصـــد أَقْدِمْ على العلم والخير والبرّ ولو تحملتَ الصـــعابَ والدموعَ فإنكَ تزرعُ ما ســـوف تحصُده بالسرور والفرحةِ والرضا وهو المقصود بالأبيض.

ولمَّا سألَهُ أهل دهره عن عبادة الأصنام صَدَّهُم عنها وأبطلَها ونهى عنها، وأمرهم بعبادة الواحد الصـــمد البارئ الخالق العالم بما فيه، الحكيم القدير، وليس عبادة الحجر المنحوت الذي لا ينطق ولا يســـمع ولا يُحَسُّ بشيـــءٍ من الآلات، وحضَّ الناس على فعل الخير وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكرات.

فلمَّا عَلِمَ الكهنة والأراكنة[10] ما قصدَ من دعوته حَاكموهُ من خلال القُضاة الأحد عشَرَ في أثينا فحكموا عليه بالموت ولكنَّ الملكَ لم يستطع مَنْعَ القُضَاةِ أو مخالفتهم فقال له: اختر أي قتلةٍ شئت.

فقال: بالسم.

وقد تأخَّر قَتْلُ سُقْرَاطَ لشهور وهو في سجنه بسبب تأخر وصول المركب من هيكل أفولون إلى أثينا، وكان أصحابه وتلاميذه يزورونه طوال سجنه، ولمّا وَصَل المركبُ وحانتِ اللحظةُ الحاسمة بكَّرَ إليه أصحابه وتلاميذه وقد أُزيلت القيودُ عن

(١٠) الأرَاكِنَةُ:مفردها أراكون وهو الرّاهب أو الكاهن عند اليونان .

رجليه، فنزل سُقْرَاطَ عن السرير وقعد على الأرض وقصَّ عليهم كثيراً من العلوم الإلهيَّة والأسرار الربَّانية، ولمَّا فرغ قال: أمّا الآن فأظنُّه قد حضر ــ الوقت الذي ينبغي لنا أن نستحمَّ فيه ونصلِّي ما أمكننا ولا نكلِّفُ أحداً حمَّام الموتى، فإنَّ الأمارماني (القضاء والقدر) قد دعانا ونحن ماضون إلى زيوس (ربِّ الأرباب)، وأمَّا أنتم فتمضون إلى أهاليكم، ثمّ نهض فدخَلَ بيتاً فاستحمَّ وصَلَّى وأطالَ اللبث، ثمّ خرج فدَعَا بولده ونسائه فودّعهم وأوصاهم وصرفهم. ثمّ دعا خادم الأحدَ عَشَرَ، فقال له الخادمُ: يا سُقْرَاطُ! إنَّكَ جريء مع ما أراه منك، وإنَّك لتعلمُ أنِّي لستُ عِلَّة موتِكَ وأنَّ عِلَّة موتك هم القضاة الأحدَ عشرَ، وأنا مأمورٌ مضطرٌّ إليه، وإنَّكَ لأفضلُ من جميع مَنْ صار إلى هذا الموضع، فاشرب الدواءَ بطيبة النفسِ واصبر على اضطرار اللازم.

ثمّ ذرفت عيناه الدموعَ، فقال له سُقْرَاطُ: تفعلُ ولَسْتَ بِمَلُوم. ثمّ تناول سُقْرَاط السمّ، فلمَّا رآه أصحابه قد شربَهُ عَلَتْ أصواتهم بالبكاء والنُّواح، فأقبلَ عليهم سُقْرَاط يلومُهم ويَعِظُهم قائلاً: إنّما صَرَفْنَا النساء لئلاَّ يكون هذا منهم.

فأمسكوا عن البكاء حياءً منه وقصداً للطاعةِ على مضض، وأخذَ سُقْرَاطُ في المشي حتّى ثقُلَت رجلاه فتمدَّد على الأرضِ، فقال له بعض أصحابِه: يا إمامَ الحكمةِ، ما آذى عقولنا إلاَّ أن تُبعدَ عنا عقلك فاعْهَدْ لنا.

فقال: خذوا طباعَكُم بالقنوع من بدء معرفتها، فإنكم تعرفون الشكر عند الزيادة ويطيب عيشُكم، ولا تستشيروا رُسُلاً سوى قلوبكم فإنَّ الزمان لا يؤمن أن ينصرف عنكم بحاشيتهِ العادلة، كما ينصرف عليكم بحاشيته الجائرة. ولا تستصْغروا الأمر إذا وَرَدَ عليكم صغيراً وهو قابل للنماء والكبر، ورَبِّ صديقَكَ بالمحبَّةِ كما يُربَّى الصغير ولا تُظهرْ له مودَّتَك دفعة واحدة فإنّه متى رأى منك تغيُّراً أعقبَك بالعداوة، وتجنَّب الحَرَدَ فإنَّه يضيّعُ المودّةَ ويهتُكُ السِّتْرَ والشَّرَفَ والفَضيلةَ، واستعملوا المحبّة وارتضوا المعاملة بوزن القَصاص تسلمُ أنفسُكم من الأشرار، وتقربوا من الأخيار. ثمّ شخص بصَرُهُ وقال: أسلمتُ نفسي إلى قَابِض أَنْفُسِ الحُكَماءِ.

ومات وله من العمر مئة وبضع سنين. رحمةُ اللهِ عليه.

والحَمْدُ للهِ العَزِيْزِ الحَكِيْم.

٧ - خَبَرُ أَفْلَاطُوْنَ الحَكِيْمِ

هو أَفْلَاطُوْنُ بن أر سطن اليوناني، أمُّه من نَسْل سولون الحكيم صاحب الشرائع، ومعنى اسم أَفْلَاطُوْنَ (العميم الواسع)، اشتُهِرَ بسائر المناطق والأقاليم، وكان يُدْعى بـ (معلِّم الأرض، رئيس الحكماء، الحكيم الأكبر)، وله مؤلَّفاتٌ كثيرة دينيّة وطبيعية.

نَشَأَ ببلاد اليونان نشوءاً حَسَناً ثمّ صار تلميذاً لسقراط الحكيم، سافر كثيراً وتنقَّل بحثاً عن المعرفة الدينيَّة والحكمة الرَّبانية، وأخذ عن فيثاغورس وسقراط، وصار معلماً لأرسطوطاليس.

وقد مَرَّ به رجلٌ وهو يغرس شجر الزيتون وقد صار شيخاً كبيراً فقال له: يا سيّدي أتغرسُ شجر الزيتون وأنتَ في آخر عمركَ؟

فقال له: لئن أتركُ الدنيا بعد مماتي لأعدائي أحبُّ إليَّ ممَّا أحتاجُ في حياتي لأصدقائي.

ومن وصيّتِهِ لأرسطوطاليس قوله: اعرِف اللهَ وحَقَّهُ، وَلْتَكُنْ عنايتكَ بالعلم والتعليم الصالح أكثر من عنايتك بغذائك يوماً بيومٍ، ولا تسأل اللهَ عزَّ وجلَّ فيما لا يدوم لك أن تفعله، ولا ينبغي أن تهوى حياة صالحة فقط، بل ولا موتاً صالحاً، ولا تُعدُّ الحياةُ والموتُ صالحَيْن إن تكسَبْ بهما البرَّ. تذكَّرْ ما كُنْتَ وإلى أينَ مصيركَ ولا تؤذيَنَّ أحداً فإنَّ الأشياءَ زائلةٌ، وليسَ الحكيمُ التامُّ مَنْ فَرِحَ بشيءٍ من هذا العالم، أو جَزِعَ لشيءٍ من مُصَابه.

أدِمْ ذِكْرَ المَوْتِ والاعتبارَ بهِ، وتُعرَفُ خَسَاسَةُ المرء بكثرة كلامه فيما لا ينفعه، وإخباره بما لا يُسأَلُ عنه ولا يُرادُ منه. ومَنْ فكَّر بالشرِّ لغيره فقد قَبِلَ الشرَّ من نفسهِ. لا تؤخِّرْ إنالة المحتاج إلى غدٍ فإنَّكَ لا تعرف ما تُعَرض له في غدٍ. أَعِنِ المُبْتلي إن لم يكنْ سوءُ عملِهِ أبلاَهُ.

لا تحكمْ قبل سـماع الخصـمين، ولا تَكُنْ حكيماً بالقول فقط بل كن حكيماً بالعمل فإنَّ الحكمةَ التي بالقول تبقى والحكمة التي بالعمل تنفعك في العالم الآتي وليس الشرـف عندَ اللهِ إلاَّ بالأعمال الصالحة الحكيمة، وإنَّ التعبَ في البرِّ يزولُ ويبقى البرُّ.

اذكرِ الميزانَ العَدْلَ واخضعْ للأدبِ فإنَّك لا تدري متى الرحلةُ، واعلمْ أن ليس في عطايا الله تعالى وتقدَّسَ شيءٌ من الحكمةِ خيرٌ من معرفتهِ على الحقيقةِ.

كافِ بالخيرِ واصـفح عن الشرِّ، تحفَّظ في كلّ وقت وتذكَّرْ وافهمْ أمركَ واعقِلْهُ. احببِ الحكمة وانصُتْ للحكماء وأطعِ السلطانَ، ولا تمتنعْ في وقتٍ من الأوقاتِ من الأدبِ الحَسَنِ، ولا تفعل شيئاً في غير وقتهِ، ولا تقلْ قولاً لا يُنْتَفَعُ بهِ، الزَمْ في كلِّ شيءٍ العَدْلَ والاستقامةَ.

وكانَ أَفْلاَطُوْنُ يقولُ لتلاميذهِ: الذي يعلِّمُ الخيرَ ولا يفعله بمنزلةِ من بيده سراجٌ يضيء لغيره. والمَلِكُ كالنهرِ الأعظمِ تسـتمدُّ منه الأنهار الصـغارُ، فإنْ كانَ عَذْباً عَذُبَتْ، وإنْ كانَ مَلِحَاً مَلَحَتْ. والفضـائلُ الإلهيَّةُ أَربعُ: العدلُ والحِلْمُ والعفَّةُ والشـجاعةُ، فبالعدل يظهرُ الحقُّ وبالحِلْمِ يُكْسَـبُ الحَمْدُ، وبالعفَّةِ تكمُلُ المروءةُ وبالشجاعةِ تُقهَرُ الشهوةُ.

الأشرارُ يتبعونَ مساوئَ النّاس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذبابُ المواضِعَ الفاسدةَ من الجَسد ويتركُ الصحيحَ منه.

ينبغي للملكِ أن يبتدئ بتقويم نفسِهِ قَبْل أن يشرعَ في تقويم رعَاياه وإلاَّ كان كمَنْ رامَ استقامةَ ظلٍّ مُعْوَجٍّ قبل تقويم عوده. قبيح على الملِكِ السُّـكْرُ لأنَّه حارسُ المملكة ومن القبيح أن يحتاجَ الحارسُ إلى مَنْ يحرسُهُ.

وكان أَفْلاَطُوْنُ من أنصـار عَدَم تَدْوِيْنِ الحكمةِ بالكُتُبِ والقراطيس لكنَّه كان يحميها عن الجاهلين باسـتخدامها بأقوالٍ تسـتعصِي، إلاَّ على الحكيم المجدِّ في دراسـتها مُسـانداً بذلك رأيَ معلِّمِه سقراط. وكان يخاطبُ العامَّةَ بنصائح قريبةٍ لأفهامهم حيث كان يقولُ: أصلِحوا أنفسَكم تَصْلُحُ لكم آخرتُكم، ومَنْ بَدَأَ

بنفسِهِ فسَاسَها أدركَ سياسةَ الناسِ. والإفراطُ في النصيحة يهجم بصاحبها على كثير من الظنَّةِ. والدواء تقديرُ الغذاء، والحِميةُ أن تدَعَ في الشـهوةِ بقيةً. وكما لا يحبُ أن يُتمغَّصَ من صـوت الحمارِ إذا نهقَ، والغرابِ إذا نعقَ فكذا يجبُ أن لا يُحقَّرَ بكلام الجاهل إذا تكلَّمَ، فكلُّ حيوانٍ يصـوِّتُ بما في طبعه.

أَنْعَمُ الناسِ عيشـاً من كَفَّ وعَفَّ ورضي من النِّعَمِ بما قُسِـمَ، وأعقلُهم من نظرَ واعتبر، ووُعِظَ فازدجرْ. ولا ينبغي للمؤدَّبِ أن يخالطَ مَنْ لا أدبَ له، كما لا ينبغي للصـاحي أن يخالِطَ السـكرانَ. العقلُ حياةُ الرُّوحِ والعِلمُ حياةُ العقل، والسـؤالُ حياةُ العلم. والعقلُ أفضـلُ المواهب الروحانية، والعافية أفضـلُ المواهب الجسـدية. وكما النارُ لا تقوى إلاَّ بمِدَاد الحطبِ، كذلك العقل لا ينمو إلاَّ باكتساب الأدب، والحكمةُ جلاءُ العقلِ كما المرآةُ بغيرِ وجْهٍ لا تأتي بصورةٍ كذلك الرَجُلُ بغير حكمةٍ لا يأتي بفضـيلةٍ. ويروى عن أَفْلاَطُوْنَ أنَّهُ ماتَ بِعِلَّةِ الإسـهال مع غزير علمه وحكمتهِ وذلك دليل على قدرة الله سـبحانه وأنّه ما من إنسـانٍ إلاَّ وسـيذوق كأس الموتِ مهما أُوتي من علمٍ ومعرفةٍ بالطبِّ والحكمةِ، وعندما عَرَضَ له المرضُ واشـتدَّ عليه قيل له: أنتَ أبرأتَ من هذه كثيرين، فلِم لا تبرئ نفسك منها؟

فطلب إناءً فيه ماءٌ، فلمَّا أُحْضِرَ بين يديه رَقى فيه قليلاً فجمدَ الماءُ، فقال: (أكلتُ من هذا كثيراً فما أفاد)، وهو يقصد أنّ التقديرَ يبطلُ التدبير، وقد أوصى أهل المدينة أن يدفنوه عند موته بالمدينة، وطالما قبره موجود فيها فلن يحلّ بها وباء. فلمَّا مات ـــ رحمةُ الله عليه ـــ تمّ دفنه بالمدينة في قبرٍ معظم، فلم يحلّ بالمدينة أيّ وباء، حتّى أرسـل ملك رومية بعد فترةٍ من الزمن مَنْ تلطَّف واحتال حتّى دخل القبر وسرق جسد أَفْلاَطُوْنَ[1] إلى رومية فدفنه ملكها وعظماؤها في كنيستها العظمى فوقع في المدينة (قونية) وباء سنتها أودى بحياة الكثيرين.

---

(١) وَ يَقُولُ بعضُهم أنَّ الرجُلَ لمْ يَسْرِقْ كَامِلَ جَسَدِ أَفْلاَطُوْنَ وَإنَّما حزَّ رأسَهُ وَقطعَهُ وَهَرَبَ بهِ .

٨ - خَبَرُ أَرِسْطُوْطَالِيْس الحَكِيْمِ

هو أَرِسْـطُوْطَالِيْس أو(أَرِسْـطاطَالِيْس) بن نيقوماخس، ومعنى اسـمه (الكمالُ الفاضـلُ)، والدُه كان رجلاً ماهراً في الطبِّ، وُلِدَ أرســطو في مدينة « اســطاغيرا » جنوب مقدونيا، وعندما بلغ ثماني سنوات من عمره حملَه أبوه معه إلى أثينا، فضمَّه إلى الشعراء والبُلغاء والنحويين، فأقامَ متعلِّماً منهم تسـعَ سـنين، فتعلَّمَ عِلْمَ المحيط (علم اللســان) لحاجة جميع الناس إليه لأَنَّه الأداةُ والمَرْقَى إلى كلّ حكمةٍ وفضيلةٍ، والبيانُ الذي يتحصَّل به كلُّ عِلْمٍ.

وعندما جَحَدَ بعضُ الحكماء عِلْمَ النحويين اللغويين وعنَّفوا المشــتغلين به رَدَّ عليهم أَرِسْــطُو بقوله: (إنَّه لا غنى للحكمة عن علمهم، لأنّ المنطقَ أداةٌ لعلمِهم، وإنَّ فصلَ الإنسان على البهائم هو بالمنطق، فأَحقُّهم بالأُنسـيَّةِ أبلغُهم في منطقِه وأوصـلُهم إلى عبارةٍ ذات نفســه وأوضـعُهم لمنطقه في موضعه وأحسنهم اختياراً لأوجزه وأعذبه. ولأنَّ الحكمةَ أشرفُ الأشياء فينبغي أن تكونَ العبارةُ عنها بأحكامِ المنطقِ وأفصحِ اللهجة وأوجز اللفظ).

ولمّا استكملَ أَرِسْطُو عِلْم الشعراء والبلغاء قصدَ العلوم الأخلاقية والسياسية والطبيعية والإلهية فانقطع إلى أَفْلاَطُوْنَ وصارَ تلميذاً ومتعلِّمَاً منه وله يومئذٍ سبع عشرة سنة وأقام يتعلّمُ منه عشرين سنة سماعاً من فمه.

وكان أَفْلاَطُوْنُ يحبُّ أَرِسْـطُو ويُجِلُّهُ ويفضِّـلُهُ على سـائر تلاميذه، وعندما كان يجلس أَفْلاَطُوْنُ ليُحدِّثَ الناسَ يقولُ: انتظروا حتّى يحضرَ العقلُ. فإذا حَضَرَ أَرِسْطُو يقولُ: تكلَّموا قد حضَرَ العقلُ.

كان أَرِسْـطُو أبيض قليلاً، حَسَـنَ القامةِ، صـغيرَ العينين، كثَّ اللحيةِ، أشـهل العينين، أقنى الأنف صـغيرَ الفم، عريضَ الصـدر، يسرـع في مشـيته إذا خلا بنفســه، يبطئ إذا كان مع أصـحابه، ناظراً في الكتب لا يهدأ، يقف عند كل كلمة

ويُطيلُ الإطراقَ عند السؤالِ، ينتقلُ في أوقات النهار نحو الفيافي والأنهار، محبَّاً لا ستماع الألحان وللاجتماع بأهل الرياضيات وأصحاب الجَدَل، معتدلَ المَلْبَسِ والمأكلِ والمشربِ.

ولمّا هَلَكَ أَفْلاَطُوْنُ خرجَ أَرِسْــطُو إلى (لوقيون) بأثينا، واتَّخَذَ له داراً لتعليم الحكمةِ لعَشْرِــ سنواتٍ، وعندما قام عليه رجلٌ من عُبَّادِ الأصنام و شنَّعَ عليه، خشي أن يفعلوا به كما فعلوا بسقراط الزاهد، فترك أثينا إلى بلده وأقبل على العناية بمصــالح الناس ورَفْد الضــعفاء، وكان جليلَ القَدْر بين الناس، ولمّا مات صيَّروهُ ودفنوه في ندوة التشاور التي كانوا يجتمعون فيها للمشاورة في جلائل الأمور وكانت هذه الندوة تُســمَّى (الأَرِسْــطُاطَالِيْس) وصــاروا يزورون قبره ويســتريحون إليه حيث تُذَكَّى عقولهم ويُصح فكرهم وتَلْطُف أذهانهم. صنف أر سطو كثيراً من الكتب في المنطق والأخلاق والقول الإلهي والهندسة وبلغ مجموع كتبه ما يزيد على المئة.

وعندما عَذَل أَفْلاَطُوْنُ تلميذَهُ أَرِسْطُو على إظهار الحكمة وتصنيفها في الكتب أجابه معتذراً:

«إنَّما أبناء الحكمة وَرَثَتُها، فلن ينبغي أن ينجســوها وأمّا أعداؤها والزاهدون فيها فلن يصــلوا إليها لجهلهم بما فيها ورغبتهم عنها، ونفارهم منها لقُسْرِهَا عليهم، وقد حصَّنْتُ له الحكمة ــــ مع إباحتي إيَّاها ـ تحصيناً منيعاً لئلاً يَتسوّرها السفهاءُ ولا يصل إليها الجهلاءُ ولا يتناولها الأشقياء، ونظَّمتُها نظماً لا يعبأُ به إلاَّ الحكماء ولا ينتفعُ به الجحدةُ الكَذَبَةُ».

وماتَ أَرِسْطُوْطَالِيْس وله من العمر ثمان وستون سنة رحمة الله عليه.

وكان يقول: الشــكرُ واجبٌ للهِ تعالى، والمَنُّ له ســبحانه على البَرِيَّةِ، والطول من عنده! وإيّاه أحمدُ وهو ملجئي وبه أســتعينُ على المُهِمِّ في كبير أمري وصــغيرهِ، وشــكري له شُــكْرُ مَنْ يعرفُ مِنَّتَهُ عليه ولا يحصيــ نِعَمَهُ لديه، ومن يقولُ: إنَّهُ واحد لا أوَّل له ولا زوال لمُلكِه، أنشــأَ الخليقة لا من موجودات، وأحدثَها لا من متقدِّمات، خلق الرؤوسَ الأُوَال كيف شــاء، وبرأَ الطبائعَ الكليَّةَ من تلك الرؤوس على ما شاء.

الحمدُ للهِ الذي ســوّى الخليقةَ ونضّـــدَها وحلاَّها حليةً لا تتغيّر، وفطرهَا على أهنَأ الفطَرِ، إيّاه عَبَدَ الأوَّلون، وإليه قصـدَ الملوكُ المشـهودون وأشـار الحكماءُ العالِمون، الحمدُ لله الذي قسـمَ البَريَّةَ كيف شـــاء فانفردَ بكلّ ما فعله كما أحبَّ وجعل ما في الســـماء دائمَ الحركةِ، وثبّت له في ذلك القوّة التي لا يقاس إليها شيء، وجعلَ حركةَ الكواكب لإظهار كيفيات ما في العالم، وصـــيّر التغيّر والانقلاب على حالة واحدة وقدَّم بعضاً على بعضٍ فكلّ بيده ومن عنده، لا نقص لما أثبته ولا دوم لما فرّقَهُ.

وقال: الحمدُ للهِ الذي سَـــبَقَ الكيفيَّة والماهيَّة، وتعالَى عن جميع الأينيات والمحدودات والموصوفات. فأنشَأ به كلَّ موصوفٍ وأعادَ كلَّ المتجانساتِ، الذي أظهر اشتراك الأشياء واتِّفاق ما أنشأَ بتوحيده وانفراد قدرته، وأثبتَ اختلاف الرِيَّة بقوته وسعة قدرته، لا مثالَ لقدرته ولا قرين لقوَّتِهِ، ولا أمدَ لملكهِ ولا زوال لربوبيته ولا معاند لأمره ولا خلل في خلقه، فكل الممدوح دونه وكل القياســـات منحطة من جلاله، ارتفع عن التوهّم وعَلاَ على كلّ ممدوحٍ فله الحمد كما هو أهله.

وقال: اعْلَمْ أنَّه لا شيء لكَ إلاَّ ما نلتَ من جميلِ الذِّكْرِ ورضـــوان الخالق تعالى ذكرُه، فإنَّكَ إن وثقت به في حقّه عليكَ وقَاكَ شرَّ من دونه.

وقال أيضاً: اِعْلَمْ أنَّكَ غيرُ مستصلحٍ رعيَّتك وأنتَ فاسدٌ، ولا مرشدهم وأنتَ غاوٍ، ولا هاديهم وأنت ضال، فكيفَ يقدِرُ الأعمى أن يهديَ، والفقيرُ أن يُغْنِيَ والذليلُ أن يُعِزَّ والضعيفُ أن يقوّي!

واعْلَمْ أنَّه ما استصلحَ المستصلِحُ غيَرَهُ إلاَّ بصلاح نفسهِ، ولا أفسدَ المُفْسِدُ سواه إلاَّ بفسادِ نفسِه. فإن رغبت في صـلاح مَنْ وُلِّيْتَ أمره فابتدئ بصـلاح نفسـك، وإن أردتَ دَفْعَ العُيوبِ عن غيرك فطَهِّرْ منها قلبَكَ فإنَّكَ لا تقدرُ على تطهير غيرك وقد دنَّستَ نَفْسَكَ كبُعْدِ المُتَطبِّبِ من إبراء غيره من دائِهِ.

وقال أَرِسْـطُو أيضـاً: احذَرِ الحِرْصَ (البخلَ)! فأمّا ما هو مصـلحك ومصـلح على يديك فالزهدُ. واعلَمْ أنَّ الزهدَ باليقين، واليقينَ بالصبر، وأنَّ الصبرَ بالفِكْر. فإذا

فكَّرْتَ في الدنيا لم تجدها أهلاً لأن تكْرِمَها بهوانِ الآخرة، لأنَّ الدنيا دارُ بلاءٍ ومنزلُ قُلَعة.

وقال أيضاً: احذرِ الشهواتِ! وليكن ما تستعينُ به على كَفِّهَا عَنْكَ علْمُكَ بأنَّ الشهواتِ مُذْهِلَةٌ لفضلكَ، مهجنةٌ لرأيك، شائعةٌ لغرضك، شاغلةٌ لكَ عن عظيم أمرِكَ لأنّها لعبٌ، إذا حَضَرَ اللعِبُ غَابَ الجِدُّ، ولا يقوم الدِّيْن ولا تصلح الدنيا إلاّ بالجدِّ، وإن نازَعَتْكَ نفسُكَ إلى الشهوات واللهو فَغَالِبْهَا أشدَّ المغالبةِ وامتَنِعْ منها أشدَّ الامتناع، وليكنْ مرجِعُكَ منها إلى الحقِّ، فإنَّكَ متى تتركُ شيئاً من الحق فلا تتركه إلاّ إلى الباطل، ومهما تترك من الصواب فإنّما تتركه إلى الخطأ.

وقال: وإيّاكَ والكذبَ فإنَّ الكذَّابَ لا يكذبُ إلاَّ من مَهَانةِ نفسِه وسَخَافَةِ رأيِه، وجهالةً منه بعواقبِ مضرَّةِ الكذْب عليه. واعلمْ أنَّ أقلَّ ما ينزِلُ بالكذّاب إذا عُرِفَ به أن يقولَ فلا يُصدَّق وهو صادقٌ، ولا يحكُمُ وهو عادل، ولا يبرأُ وهو نظيف ثمّ يصيرُ في البُعدِ من بغيتِهِ والانحياد عن قصده بمنزلةِ مَنْ أراد الشرقَ فتوجَّه إلى الغربِ.

وقال: إنّ العلم حياةٌ، وإنَّ الجهلَ موتٌ، وعِلْمُ الحكيم بما يأتي من الأعمال أحيا أعمالَهُ، وجهلُ العامَّةِ بما يأتون أماتَ أعمالهم وأضاعها وصاحبُ الحسنة الضائعة قد نوى الحسنةَ فأخطأها، وصاحبُ السيئةِ قد نوى السيئة فأدركها، فقد جمعَهما الخطأ ولأحدِهما فضلٌ بالسيئةِ.



٩ -ـ خَبَرُ لُقْمَانَ الحَكِيْمِ

هو لُقْمَانُ بن عنقاء بن سدون، ويُقال: لُقْمَانُ بن ثاران بن سدون، وكان نوبياً من أهل «أيلة». أعطاه الله سبحانه وتعالى الحكمةَ، ومَنَعَهُ النبوَّةَ. كان عبداً أسودَ عظيمَ الشفتين.

أتاهُ رجلٌ ذات يومٍ وهو في مَجْلِسِ أُنَاس يحدِّثُهم فقال له: ألستَ الذي كُنْتَ ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا...؟

فقال لُقْمَانُ: نعم!

قال: فما بلغ بِكَ ما أرى؟

قال: صِدْقُ الحديثِ والصمتُ عمَّا لا يعنيني.

وقيل في الروايةِ ذاتِها: جاءَهُ رجلٌ فقال له: أنتَ لُقْمَانُ راعي الغنمِ الأسودُ؟

قال: نعم! أمَّا سوادي فظاهرٌ، فما الذي يعجبك من أمري؟

قال: وَطْءُ الناس بِساطَك وغَشْيُهم بابَكَ ورضاهم بقولك.

فقال: يا بْنَ أخي! إنْ صنعتَ ما أقولُ لك كُنْتَ كَذَلكَ.

قال: ما هو؟

قال: غَضِّي بصري، وكفِّي لساني وعِفَّتي مَطْمعي، وحفظي فرجي، وقيامي بعدّتي ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وترْكِي ما لا يعنيني، فذاكَ الذي صيّرني كما ترى. وكان لُقْمَانُ الحكيم كما ذكر أبو الدرداء (رضي الله عنهما) رجلاً جسيماً جريئاً، سَكِيْتَاً طويلَ التفكيرِ، عميقَ النظر، لم ينَم نهاراً قطّ ولم يرَهُ أحدٌ يبصُقُ أو يتنخخُ ولا يبوِّلُ ولا يتغوَّطُ ولا يغتسلُ، ولا يعبثُ ولا يضحكُ ولا يُعيدُ منطقاً نطقَهُ إلاَّ أن يقولَ حكمةً يستعيدُها إيَّاهُ أحدٌ، وكان قد تزوَّجَ ووُلِدَ له أولاد فلمَّا توُفُّوا لم يبك عليهم.

وَرَدَ ذكرُ لُقْمَانَ في القرآن الكريم[1] في سورة خاصة (لُقْمَان) وفيها كلامُ لُقْمَانَ ومواعظُهُ لابنه، حيث كان أوَّلُ ما وعظَهُ به أن نَهَاهُ عن الشِّرْكِ بالله تعالى، ثمّ الإحسانُ إلى الوالدين حتّى ولو كانا مشركَيْنِ دون إطاعتهما في الكفر والعصيان، ونهاه عن ظلم الناس ولو بحبَّةِ خردل، وَدَعَاهُ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على حُكْمِ الله فما بَعْد الصبرِ إلاَّ الفرجُ، وعدم التكبُّر والتجبُّر على الناس والتبخترِ في المشية، ودعاه إلى عَدَمِ التكلُّفِ في رَفْعِ الصَّوْتِ أثناءَ الكلام.

ومن جملة ما قالَ لُقْمَانُ لابنه: يا بُنيّ! إيَّاكَ والتقنُّعَ فإنَّه مخونةٌ بالليل مذمَّةٌ بالنهار، وإنَّ الحكمةَ أجلَسَتِ المساكِيْنَ مجلسَ الملوك. إذا أتَيْتَ ناديَ قومٍ فأدمهم بسهم الإسلام (يعني شاركهم بالسلام) ثمّ اجلس بناصيتهم فلا تنطق حتّى تراهم نطقوا، فإنْ أفاضُوْا في ذِكْرِ اللهِ فأَجِلْ سهمك معهم وإن أفاضوا في غير ذلك فحوِّلْ عنهم إلى غيرهم.

يا بُنَيَّ! اتخذْ طاعةَ اللهِ تجارةً تأْتِكَ الأرباحُ من غير بضاعة. اتَّقِ اللهَ ولا تُري الناسَ أنَّك تخشى الله ليكرموكَ بذلكَ وقلبُكَ فاجرٌ.

يا بُنَيَّ! لا ترغبْ في وِدِّ الجاهل فيرى أنَّكَ ترضى عمله، ولا تُهاوِنْ بِمَقْتِ الحكيم فيزهدُه فيكَ، أَلا أنَّ يدَ اللهِ على أفواه الحكماء لا يتكلّمُ أحدهُم إلاَّ ما هَيَّأَ الله له.

---

(١) قَالَ تَعَالَى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {١٢} وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ {١٣} وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ {١٤} وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {١٥} يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {١٦}) سورة لُقْمَان

يا بُنِيَّ! ما ندمتُ على السـكوت قَطّ، وإن كانَ الكلامُ من فضَّـةٍ فالسـكوتُ من ذَهَبٍ. اعتزلِ الشرَّ يعتزلْكَ فإنَّ الشرَّ للشرِّ خُلِقَ. مكتوبٌ في الحكمةِ يا بُنْيَّ! إيّاكَ والرَّغبَ فإنَّ الرغبَ كُلَّ الرغبِ يبعدُ القريبَ من القريبِ ويُزيلُ الحِكَمَ كما يزيلُ الطربَ، إيَّاكَ وشدَّةَ الغضبِ ممحِقَةٌ لفؤاد الحكيم.
يا بُنيَّ اختر المجالسَ على عينكَ، فإذا رأيتَ المَجْلِسَ يُذكَرُ فيه الله عزَّ وجلَّ فاجلسْ معهم فإنَّكَ إن تكنْ عالماً ينفعْكَ علمُكَ، وإنْ تكنْ غبياً يعلموكَ وإنْ يَطَّلِع اللهُ عليهم برحمةٍ تُصـــيبُكَ معهم. ولا تجلسْ في المجلسِ الذي لا يُذكَرُ اللهُ فيه، فإنَّكَ إن تكُ عالِماً لا ينفعُكَ علمُكَ، وإن تكنْ غبياً يزيدوك غباءً، وإن يطلع اللهُ إليهم بعد ذلك بسُخطٍ يصيبُكَ معهم.

يا بُنيَّ! لا تغبطوا امرأً رَحْبَ الذراعين يسفكُ دماءً المؤمنين فإنَّ له عند اللهِ قاتلاً لا يموتُ.

ومات لُقْمَان وله من العمر ثلاثٌ وثمانون ســـنةً بعد أن تركَ خلفه حِكَماً وأقوالاً كثيرة حفظها الزمانُ والعقول المتفتّحة، ودُفِنَ في مدينة أيلة من بلاد النوبة وبُنِي فوق قبره ضريحٌ امَّحت آثاره في يومنا، وتشـيرُ بعضُ الكتاباتِ إلى أنَّ لُقْمَانَ عاش قبل الإســلام، وما نزول ســورةٍ باســمه إلاَّ لأنَّهُ تمتّع بأخلاق كريمة وخصال محمودة هي التي نزل القرآنُ الكريمُ يُحييها، هي أخلاق المؤمن المسلم في كل حين رحمةُ الله عليه.

والحَمْدُ لِمَنْ بِيَدِهِ المُلْكُ والحِكْمَةُ.



١٠ - خَبَرُ العَزِيْر الحَكِيْمِ

هو عَزِيْرُ بن سورخا بن سوريق بن عَدْيَا بن أيوب ، ويرجع نسبه إلى هارون بن عمران، شقيق النبي موسى (عليه السلام). وقد تعدّدتِ الأخبار إن كان عَزِيْرُ نبيّاً أو رجلاً صالحاً حكيماً، والثابتُ والراجحُ لدينا هو ما أثبتَهُ عبدُ الله بن سلاّم أنَّ عَزِيْراً هو عبدٌ صالحٌ أماتَهُ الله مئةَ عام ثمَّ بعَثَهُ للناس ليكونَ آيةً على قدرة الله سبحانه وتعالى في إعادة الأمواتِ وبَعْثِهِمْ، وقد حدثت قصَّتُهُ قبل قصّةِ أصحاب الكهف بسنواتٍ طويلةٍ.

وممّا يذكر في خبر موتهِ وبَعْثِهِ أنَّه خرج ذاتَ يومٍ إلى ضيعةٍ له، فلمَّا حانَ وَقْتُ الظهيرةِ دَخَلَ خربةً وهو على حمارهِ ليحتمي من الحرِّ، فنزل عنه ومعَهُ سلَّةٌ فيها تين وأخرى فيها عِنَبٌ، فاعتصرَ العنبَ في قَصْعَةٍ[1] معه، ثمّ أخرج خبزاً يابساً من جيبه فألْقَاهُ في القَصْعَةِ ليبتلَّ ليأكلَهُ، ثمّ استلقى على قَفَاه وأسندَ رجليه إلى الحائط، فنظرَ إلى سقفِ تلك البيوتِ الخَرِبَةِ ورأى ما فيها وهي ثابتة على جدرانها رغم تداعيها وقد مات أهلُها وبادوا وصاروا عِظَاماً باليَةً فقال متعجِّباً دون أن يشُكَّ في قدرة الله سبحانهُ: كيفَ يُحيي الله هذه العِظَام بعد موتها[2]؟!

فبعث الله مَلَكَ المَوتِ فقبضَ روحَهُ، فأماتَهُ مئةَ عام، فلمَّا أتتْ عليه مئةُ عامٍ، وقد حدثَتْ أمورٌ كثيرةٌ في قومه بني إسرائيل في تلك الفترة الطويلةِ، أرسلَ اللهُ

(١) القَصْعَةُ:إِنَاءٌ يُوضَعُ بِهِ الطَّعَامُ، أصغَرُ من الطنجرةِ يُصْنَعُ مِنَ الألمينيوم أو النحاس.
(٢) قَالَ تَعَالَى:(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٥٩}) سورة البقرة .

مَلَكاً إلى عَزِيْر، وقد صــارت عظامُه باليةً فَخَلَقَ قلبَهُ وعينيه ليعْقِلَ وينظر كيف يُحييه اللهُ، ثمَّ جمعَ اللهُ عظامَهُ وكَسَــاها لَحْمَاً وشــعراً وجلداً، ثمّ نفخ فيه الروحَ، كلُّ ذلك و عَزِيْرٌ يرى ويعقلُ، فاستوى بعدها جالساً فقال الملاكُ له: كم لبثْتَ؟

قال: لبثتُ يوماً أو بعض يومٍ، وذلك أنَّ الله ســبحانه أماتَهُ عند الظهيرة وبعثَهُ في آخر النهار والشــمس لم تَغِبْ، فقال له المَلَاكُ: بل لبثْتَ مئةَ عامٍ، فانظرإلى طعامِكَ وشرابكَ (الخبز اليابس، وعصير العنب).

فنظر فإذا هما على حالهما لم يتغيَّرا. ومازال التين والباقي من العنب غضًين، فأنكر عَزِيْرفي قلبه، فقال له: أأنكرتَ ما قلتُ لكَ؟ انظر إلى حمارِكَ.

فنظر فإذا عظامُه قد بليَتْ وصــارت نَخِرَةً، فنادى المَلَكُ عظامَ الحمار فأقبلتْ من كلّ ناحيةٍ، ثمّ ألبَسَــها العروقَ والأعصــابَ ثمّ كَسَــاهَا اللحمَ ثمّ أنبتَ عليها الجِلدَ والشــعْرَ، ثمّ نفخَ فيه المَلَكُ فقام الحمارُ رافعاً رأسَهُ وأذنيه إلى السماء ناهِقاً يظنُّ القيامةَ قد قامتْ، كلُّ هذا وعَزِيْر ينظرُ بعينيه ويرى قدرة الله ســبحانه فقال له المَلَكُ: أرأيتَ قدرة اللهِ كيف جمع عظامَ حمارِكَ وركَّبها ثمَّ كَسَــاهَا لحماً، مثلما جمع عظامَكَ مثلما يجمعُ عظامَ الأَوَّلِين والآخرين يومَ القيامةِ. فقال عَزِيْر وقد آمنَ بقلبهِ أنَّ الله قادرٌ على كلّ شيءٍ. ثم قام عَزِيْر وركبَ حمارهُ وعادَ إلى بلدتهِ فلم يعرفْ أحداً، إذ قد تغيَّر الجميعُ، وأنكره الناسُ ولم يعرفوه إذ أنّ الله أماتَهُ ابن أربعين ســنةٍ ولمّا بَعَثَهُ أبقاه ابن أربعين، فكان يســيرُ بين الناس دون أن يعرفهم وقد تغيروا ومات مَنْ مات، وهَرِمَ مَنْ بقي وكان طفلاً يومها فلمَّا ذهب إلى منزلِهِ وجدَهُ قد تغيَّر كثيراً، ووجدَ عجوزاً عمياء قاعدةً أمامه وقد أتى عليها من العمر مئةٌ وعشرون سنةً. وكانت هذه العجوز أَمَةً[1] بنتَ عشرين عندما خرج عَزِيْر من بينهم ولم يعرفوا مكانَهُ، فقال لها: يا هذِه! أهذا منزلُ عَزِيْر؟ قالت: نعم! هذا منزله، ثمّ بكتْ وقالت: ما رأيتُ أحداً منذ فترةٍ طويلةٍ جدَّاً يذكرُهُ، وقد نَسِيَهُ النَّاسُ.

(١) الأَمَةُ: هِيَ المَرْأَةُ أَوْ الفَتَاةُ العَبْدَةُ الرَّقِيْقَةُ الجَارِيَةُ، ضِدّ المَرْأَةُ الحُرَّة.

فقال: إنّي أنا عَزِيْرُ، كانَ اللهُ قد أماتني مئة ســـنةٍ ثمّ بعثني فقالت: ســـبحان الله! فإنَّ عَزِيْراً فقدناه منذ مئة سنة ومنذ حينها لم نسمعْ له ذِكْراً.

فقال مؤكِّداً: أنا عَزِيْر حقّاً. قالت: إنَّ عَزِيْراً رجلٌ مســـتجابُ الدعوةِ يدعو للمريض وصـــاحب البلاء بالعافية والشفاء فينالهما، فادْعُ اللهَ أن يرُدَّ عليَّ بصري حتّى أراكَ فإن كُنْتَ عَزِيْراً عرفتُكَ.

فَدَعَا رَبَّهُ ومَسَــحَ بيده على عينيها فصَّــحتَا، وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذنِ اللهِ. فأطْلَقَ الله رجليها فقامَتْ صحيحةً، فنظرت وقالت: أشهدُ أنَّكَ عَزِيْرُ. ثمّ ذهب عَزِيْرُ معها إلى مجلس القوم وفيه ابنه وقد جاوز المئة والثماني عشرة سنة، وأولادُه شيوخٌ في المجلس، فنادتِ الجاريةُ فيهم: هذا عَزِيْرٌ قد جاءكم.

فكذّبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم العمياءُ الكســـيحةُ، قد دَعَا لي عَزِيْرٌ ربَّهُ فردَّ عليَّ بصري وأطلقَ رجليَّ، وهو يقول إنَّ الله أماتَهُ مئة ســـنة ثمّ بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا عليه ينظرونه، فقال ابنُه: كان لأبي شامةٌ (خالٌ) سوداء بين كتفيه فكشف عَزِيْرٌ عن كتفيه فرأى الجميعُ الشامةَ السوداءَ. ثمّ قال بعضـــهم: لم يكن فينا أحد يحفظ التوراة غيرَ عَزِيْرٍ، وقد حرق بختنصّر التوراةَ ولم يبقَ منها شيء إلاّ ما حفظ بعضها الرجالُ، فاكتبها لنا إن كنتَ عَزِيْراً.

فقال عَزِيْر: كان أبي سروخا قد دفَنَ نســخةً من التوراة زمان بختنصّر في مكان لا يعرفه غيري، فقوموا معي نستخرجها.

فانطلقوا معه إلى المكان، فحفره واســـتخرج نســـخة التوراة، لكنَّه وجد الورق قد عَفِنَ وبَلِيَ الكتابُ ودَرَسَ. فقالوا بعد أن تأكّدوا من صـــحَّةِ أقواله، أَمْلِها علينا ما دُمْتَ تحفظها ونحن نكتبها وننســخها ثمّ نحفظها ونصــونها، فجلس عَزِيْرٌ في ظلّ شــجرة وجميع بني إسرائيل حوله وأمرهم أن يحضروا أقلاماً وقراطيس وحاول أن يســتجمع ذاكرته لكنَّه بَدَأ ينسَى بعضــها، فناجى ربَّهُ ليســعفَهُ، فأنزل الله ســبحانه من الســماء شــهابين دخلا جوفَ عَزِيْرٍ فتذكّرَ التوراة، ثمّ شرع يُمليها عليهم حتّى أتمَّها.

وقد عاش عَزِيْرٌ بين قومه شاباً ابن أربعين، وأولاده وأحفاده شيوخٌ، عاش بعد هذه الحادثة عدّة سنوات ثمّ أماته اللهُ سبحانه في بلدة يُقال لها (سايراباذْ) ودُفِنَ فيها. وقال أبو حاتم السجستاني في خبر عَزِيْرٍ بين قومه عدّة أبياتٍ منها:

وَأسـوَدَ رَأْسٍ شَـابَ مِنْ قَبْلِهِ ابْنُـهُ ... وَمِـنْ قَـبْـلِـهِ ابـنُ ابـنِـهِ فَـهُـوَ أكَـبرُ

يَرَى ابْنَـهُ شَـيْخَـاً يَـدِبَّ عَلى عَصَـا ... وَلِـحْـيَـتُـهُ سَـوْدَاءُ وَالـرأْسُ أَشْـقَـرُ

يَعُـدُّ ابنُـهُ فِي النَّـاسِ تِسْـعِين حجَّـةً ... وَعِشْرِـيْـنَ لاَ يَـجْـرِي وَلاَ يَـتَـبـخْـتَرُ

وقد وَهَمَ بنو إسرائيل في عَزِيْرٍ وبالغوا في وصـفه والحديث عنه بعد أن رأوا ما حصـل معه، وكيف أملى عليهم التوراة، فقالوا أنَّه ابن اللهِ، وذلك أنَّ نبيَّهم موسى (عليه السـلام) جاء بالتوراة مكتوبة على رُقُمٍ فخَّاريَّة ولم يحفظْها، بينما عَزِيْرٌ أعادها حِفْظَاً ووَحْيَاً، وهذا وَهْمٌ وكُفْرٌ أثبَتَهُ القرآنُ الكريمُ، فعزيرُ رجلٌ صـالحٌ وليس حتّى نبيّاً ألهمه الله الحكمةَ وأجرى قصَـتَه على الألسُـنِ ليكونَ آيةً للنَّاسِ وعبرةً لمن يعتبر إذ جاء في قَولَه تَعَالَى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَـارَى الْمَسِـيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {٣٠})

سورة التوبة



١١ - خَبَرُ سُطَيْحٍ الحَكِيْمِ

هو الربيعُ بن ربيعة بن مسـعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن الأزد، كان يسـكنُ في الجابية. ويروي ابن عبّاس عن سُطَيْح فيقولُ:

«لم يكنْ شيء من بني آدم يُشبه سطيحاً، إنّما كان لحماً على وَضَم، ليس فيه عظم ولا عصب إلاّ في رأ سه وعينيه وكفّيه، وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه، قدم إلى مكّة وعاش فيها حتّى مات ليلة وُلد الرسول العربي محمد(صلى الله عليه وسلم)».

ورغم ما في هذا الكلام من مبالغة قد تبدو واضـحة بقوله: (ليس فيه عظم ولا عَصَـب) إذ من غير الممكن أن يكون بشري دون عظام تحملُ جسمه وأعصاب تغذي الخلايا بالأوامر العقلية، خاصة وأنّ سـطيحاً كان حكيماً عاقلاً راجح الفكر ثاقب الرؤية، ولكن يبدو أنَّه كان صـاحب جسـمٍ ليّنٍ مَرِنٍ يسـتطيعُ اتخاذ وضـعيات صـعبة يعجز معظم الناس عن القيام بها، وهذا ما دفع بعض الناس إلى المبالغة بالوصـف والكلام غير الدقيق. وعندما قَدِمَ سُـطَيْح الحكيم إلى مكّة تلقّاه جماعةٌ من رؤسـاء قريش (عبد شمس، وعبد مناف أبناء قصي بن كلاب) فامتحنوه في أشياء كثيرة فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عمّا يكون في آخر الزمان فقال:

خُذُوا منّي ومن إلهامِ الله إيَّاي، أنتم الآنَ يا معشرـ العرب في زمان الهرمِ، سـواءٌ بصـائركم ومصائر العجمِ، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأُ من عقبكم ذَوُو فَهْمٍ، يطلبون أنواعَ العِلْمِ، فيكسرون الصَّنَم ويتبعون الروم ويقتلون العجم ويطلبون الغنم... ثمّ قال:

والباقي الأبد، والبالغِ الأمدِ ليخرجنَّ من هذا البلَدِ، نبيٌّ مهتَدٍ، يهدي إلى الرشـدِ، يرفضُ يغوثَ والفند، يبرأ من عبادةِ الضـدد، يعبد رَبّاً انفرد، ثمّ يتوفّاه اللهُ بخير دار محموداً، من الأرض مفقوداً وفي السماء مشهوداً. ثمّ أنشدَ:

عَلَيْكُم بِتَقْوَى اللـهِ فِي السِّرِّ والجَهْرِ	وَلاَ تَلْبِسُـوا صِــدْقَ الأَمَانَةِ بِالغَدْرِ
وَكُوْنُوا لجَـارِ الجَنْـبِ حِصْـنَـاً وجُنَّـةً	إِذَا مَـا عَرَتْـهُ النَّـائبـاتُ مِنَ الـدَّهْرِ

وقد وَرَدَ خبرُ سُطَيْح مع ابن اخته عبد المسيح بن عمر بن قيس الغسَّاني عندما طلبَ كسرى منه أن يعرفَ خبر ارتجاس الإيوان و سقوط الشرفات وخمود النيران، وقد اهتزَّ عرش كسرى والقاعة التي يضع فيها عرشه، وسقط كثير من شُرفات قصرِهِ وأطفئت النيران في المعابد الفارسية، وقد حصل ذلك ليلة مولد الر سول الكريم محمد (صلى الله عليه و سلم)، فا ستدعى كسرى عبد المسيح الغسّاني وكان في بلاط كسرى وطلب منه أن يعرفَ سبب ما حصل، فذهب إلى خاله سطيح و سأله عما حصل، فقال سطيح ((يا عبد المسيح على جملٍ مَشيح، أُتي سُطَيْح وقد أوفي على الضريح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صــعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعَتْ دَجْلَةَ وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكلّ ما هو آتٍ آت)).

وعندما عاد عبد المسيح وأخبره بكلام سُطَيْح وأنَّ مُلْك فارس سيزول بظهور نبيّ عربي، وأنّه سيكون ذلك بَعْدَ تملُّك عدد من ملوك فارس يماثل عدد شرفات قصره، أربع عشرة شُرْفَة، فاطمأنَّ كسرى لطول المدّة وأنّه دام له في ملكه عشرين سنة ولن يكون ما قال سُطَيْح إلاّ بعد مئات السنين ولكن مات كسرى ومَلَك بعده عشرةُ مُلوك في غُضُون سنتين. وقد حصل ما قاله سُطَيْح وزال مُلْك فارس بعد ظهور الإسلام.



الباب الرابِع

إشْرَاقَاتٌ نُوْرَانِيَّةٌ

١ ـ أسرار البسملة وخواصها.

٢ ـ شرح أسماء الله الحسنى.

٣ ـ حكم ومواعظ.

١ - أَسْرَارُ البَسْمَلَةِ وَخَوَاصُّهَا

إنَّ الله ســبحانه وتعالى أودع في البســملة (بســم الله الرحمن الرحيم) من الأسرار من عَلِمَها وعَرَفَها لم يحترق بالنار. وقد أجمع العارفون بالله والعلماء بحقيقة الإيمان أنّه يُستَحَبُّ الابتداء بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل أمرٍ ذي بالٍ وكذلك روى أبو هريرة عن النبي محمد (صــلى الله عليه وســلم) أنّه قال: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه ببِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيمِ فهو أبترٌ» ومعنى أبتر أنَّه ناقص غير كامل.

ورُوي أنَّ الكُتبَ المنزلةَ من السماء إلى الأرض مئة وأربعة: صُحفُ النبي شيت ستّون، وصُحُفُ إبراهيم ثلاثون، وصُــحُفُ موسى قبل التوراة عَشرــ، والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن (والله وحدُه أعلمُ بعددها) ومعاني كلّ الكتب مجموعة في الفرقان (القرآن)، ومعاني القرآن مجموعة في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في البســملة، ومعاني البســملة في بائها، ومعنى الباء: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون، فالباء هي متعلّق القدرة، إذ هي تجرالأسماء باتصالها بأوائلها، وهي أول مراتب القدرة وتعني إشارة إلى بهاء الله سبحانه وتعالى، وهي مفتاح اسمه (بصير).

ورُوي أنَّ (بسم الله)لمّا نزلتْ اهتزَّ العرش لنزولها، وقد زادتِ الملائكةُ في التسبيح لله سبحانه ربِّ العرش العظيم، وخرَّتِ الجبال على وجوهها، واهتزَّت السموات وتزلزلت الأرضون، و سكنتِ الرياحُ، وهاجتِ البحار، ورُجِمَتِ الشــياطين من الســماء، وأقســم ربُّ العزّة والجلال أن لا يُذكر اســمه على مريض إلاَّ شُــفي، ولا على شيءٍ إلاَّ بورك فيه. وكانت البســملة (بسـم الله) مكتوبة على جبهة إسرافيل (عليه السلام) وجبهة آدم من قبل أن يُخلق بخمسمئة عام، وعلى جناح جبريل (عليه السلام) يوم نزوله على إبراهيم لإنقاذه من النار التي رُمي بها، وعلى كَفّ عزرائيل (عليه الســـلام) وعلى عصا موسى يوم انفلق له البحر، وعلى لسان عيسى حين تكلَّم في المهد وكان يتلوها على الموتى فيحيون بإذن الله تعالى، وعلى خاتم سليمان للسيطرة على الرياح

والجن والطيور والحيوانات، وهي مكتوبة في أوّل كل سـورة من القرآن الكريم فهي فصـلٌ بين القرآن وآيةٌ من كلِّ سُـوَرِهِ[1]، وعدد حروفها تسـعة عشرـ حرفاً على عدد الملائكة الموكلين بالنار (الله أعلم) فالباء هي بهاء الله ومفتاح اسـمه (بصـير)، والسـين أصـل الأسـماء وهي مفتاح اسـمه تعالى (سـميع) وهي سـناء اللهِ، الميم هي ملكوتُ الله ومجدُه، ومفتاح اسـمه تعالى (مليك)، والألف هي أزليّة الله، ومفتاح اسـمه (إله) واللّام هي لُطفُ الله، ومفتاح اسـمه (لطيف)، والهاء هداية الله، ومفتاح اسـمه (هادي)، والألف في الرحمن هي أمر الله واللام أم المُلك وهي مفتاح (لا إله إلاّ الله)، والراء رحمةُ الله ومفتاح ا سمه (رحمن)، والحاءُ حكمةُ الله ومفتاحُ ا سمه (حكيم) والنونُ نعمةُ الله ومفتاح اسـمه (نافع)، والألفُ في الرحيم هي إرادة الله ومفتاح (أشـهد ألاَّ إله إلاَّ الله)، واللامُ (له المُلك) والراءُ رزقُ الله الذي لا ينفد، ومفتاح اسـمه (رازق و رزّاق)، والحاءُ حَنَانُ الله على مخلوقاته ومفتاح ا سمه (حَنَّان)، والياء عَطَاءُ الله ومفتاح التوا صل لله وهي بداية النداء (يا) والمِيْمُ هي نعمة الله وعطاؤه ومفتاح اسمه (مانع ومعطي).

وفي كلمة (بسم) الباء معناها: بي كان ما كان وبي يكون ما يكون، وا سم هو الا سم المضمر الذي يدل على أنَّ ما بعدها الاسـم الأعظم وهو الله لأنَّ الاسـم الأعظم هو الجلالة، وهو قطب الأسـماء ومحورها وجميعها تعود وترجع إليه. وهو أي (الله) كالعَلَم في الأسـماء ومحورها وهو لا يأتي نكرة مطلقاً ولا يمكن حذف (ال) منه لأنها من أصل حروفه، بينما أي اسم آخر كالرؤوف مثلاً يمكن أن يأتي نكرةً (رؤوف)، واسـم (الله) معرفة بلفظه ومعناه لأنك إذا سُـئِلْتَ: مَنْ الرحمن؟ فتقول: الله. ومَنْ الرحيم؟ فتقول: الله، ومن القيّوم؟ الله....

فكل الأ سماء تضاف إليه وتُعرف بالجلالة وعُلوّ رفعته، وا سم (الله) له شرف زائد على الأ سماء كافّة، فلو أزلنا الألف منه يبقى (لله) أي كل شيء له يعود ويرجع، وإذا أزلتَ اللام منها بقي (لَهُ) أي له الملك والحكم والجبروت، ولو حذفت اللام

(١) كُلّ سـور القرآن الكريمِ تبدأُ بالبسـملة، عدا سُـورة التوبة لأنَّ الله سـبحانه وتعالى يتبرَّأ في أوّلها من المشركين، بقوله تعالى: (بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ {١}).

بقت (هـُ هُوْ) تدلُ على الذات الصمدية الفردية لله سبحانه وتعالى، فكلّ حرف منه قائمٌ بذاته، بينما أي ا سم آخر لو أزلتَ منه حرفاً أو أكثر أبطلَ معناه. فا سم (الله) هو الا سم الأعظم حروفهُ لم تختلّ رغم حذف بعضها بقيت تدلُّ على الذَّات المكرّمة سبحانه له العزّة والبقاء.

وا سم (الله) أوّله الألف وهو أوّل الحروف، وأوَّل الأعداد وأوَّل الآحاد. فهو فَرْد في صنعته، أحدٌ في عدده، يشير إلى أحديّة سرّه الذي خضعت له الموجودات. وآخره حرف الهاء وهو يشير إلى توحيد الألوهية وهو لا يوجد في غيره من الأسـماء المختومة به و(الله) أربعة حروف: ألف ولامان وهاء، لأنَّها الطبائع الأربعة: (ماء، هواء، تراب، نار)، والأقطار أربعة: (شرق، غرب، شـمال، جنوب) وملائكة التسبيح أربعة (جبريل، ميكائيل، إسرافيل، عزرائيل عليهم السلام).

وفي البسملة الاسم هو (الله)،والرحمن والرحيم نعتٌ له نفسه فهو رحمن الدنيا، رحيم الآخرة. وعبارة (الحمد لله رب العالمين) تقابل (بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيمِ). حيث بـسم الله تقابل الحمد لله، الرحمن الرحيم تقابل ربّ العالمين.

وكذلك عبارة (بسـم الله) تقابل التشـهُّد، حيث أنَّ بسـم تقابل أشـهدُ، والله قبالة أنَّ لا إله إلاَّ هو، ومراتب الملائكة قبالة الرحمن، ومراتب أولي العلم قبالة الرحيم. وللبسـملة خواص كثيرة ومنافع جمَّة للناس، قال النبي (صلى الله عليه و سلم): «**مَنْ قرأَ بِـسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيمِ وكان مؤمناً حَقَّاً سبَّحت معه الجبال واستغفرت له، ولم يسمع تسبيحها**».

وقال العارفون والمتحقّقون: إذا قال العبدُ (بسـم الله) قالت الجَنَّةُ: لبَّيك وسُـعديك، اللهمّ إنَّ

عبدَك فلاناً قال: (ــ) فتثقل حـسناتهم على سيئاتهم. ومن كانت هي ابتداء كلامه ملفوظة ومكتوبة

ثقُلت حسناته لأنه لو وُضعت السموات والأرضون وما بينهن وما ناسبهن في كفّة والبسملةُ في الكفّة الأخرى لرجحت البسـملة عليهن. وقد جعلها سـبحانه أمناً من كلّ بلاء، وحرزاً من الشـيطان الرجيم. فعلى المرء أن يكثر من تلاوتها عند النوم والاستيقاظ وتناول الطعام والدخول والخروج من المنزل وفي كل عملٍ يقوم به فيرزقه الله البركة فيما يعمل ويبعد عنه الفشل. والله أعلم.

٢ - شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى

إنَّ أسماء الله تعالى ليس لها حصر أو عدد، ولكن أعظمها وأجلّها هي التي ذكرها الله سبحانه في كتاب القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَى:

((وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٨٠})) الأعراف

وسنحاول في هذا البحث التفصيل في معاني أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين وشرحها وذكر منافعها لِمَنْ واظبَ على تلاوتها في نهاره وليله و الله سبحانه لا ينسى من رحمته مَنْ يذكره، وشرح هذه الأسماء سوف نتناوله بدايةً من الناحية اللغوية فالفلسفية فالعرفانية التوحيدية وما سنذكره من مواظبة على ذكرها هو من وصايا الأولياء والعارفين المتحقّقين، والله المستعان فيما نسعى وعسى أن يوَفّقنا وأن يعفو عنّا إن أخطأنا ويهدينا إلى عِلْمِهِ الذي لا ينضب وبحر جوده الذي لا يَنْفَد، معتمدين في هذا البحث على كتابين هامّين للإمام الشيخ العارف البوريني الذي توسّع في شرح معانيها وهما: (علم الهدى وقبس الاهتداء في شرح أسماء الله الحسنى)، (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، وكذلك كتابه الجامع النافع (شمس المعارف الكبرى).

١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الله):

هذا الاسم هو الاسم الأعظم، وقد اختلف العارفون وعلماء الفقه بكونه مشتقاً أم لا. فمنهم من قال إنَّه غير مشتق لأنّ العرب كانت تشتقّ الأسماء من بعضها، إلاَّ هذا الاسم لم يَرِدْ عند العرب مشتقّاً من غيره. قال العارف الجنيدُ (رضي الله عنه):

«مَا عَرَفَ اللهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَعْطَى الخليقةَ الأَسْـمَاءَ تَشْـتَقُّ بَعْضَـهَا مِنْ بَعْضِـهَا، وبَقِيَ اِسْـمُ اللهِ لاَ يعرفُهُ إِلاَّ الله »

لذلك كان العرب يكتبون في صحائفهم باسمك اللهمَّ.

ومنهم من قال أنّه مشتقّ من التَّوَلُّه (الفَزَعُ)، ومنهم من قال أنَّه مشتقّ من عبارة (إله ولا إله) وهو الذي يُفزع إليه في الحوائج وفي المصائب. والله أعلم.

وفي حروفه (ا ل ل هـ) حرفان ساكنان وهما (ا ل) الأولى، وقد كُتبت الألف الأولى همزة لضرورة المنطق. والألف لا توصـف بالحركة ولا السـكون وهي منفصـلة عن الأوليات والنهايات وهي ليسـت مفتقرة إلى التعريف وهي إشـارة للذّات الإلهيَّة. واللاّم الأولى في كلمة (الله) تدل على العهد الميثاقي الذي أخذه ســبحانه على مخلوقاته بخطابه (ألســتُ بربّكم؟ قالوا: بلى). واللاّم الثانية لتعهّد النظر، والثالثة للميثاق الإيماني يوم الدنيا لقبول التكليف الشرــعي (الأديان والشرــائع الإلهيّة) والهاء لتمام الأمر يوم الآخرة لجميع الأولين والآخرين.

فكانت هذه الحركةُ أربعة عشر حرفاً (ا ل ف   ل ا م   ل ا م   ا ل ف   هـ ا) أوّلها ألف وآخرها ألف، فالألف واللامان أربعة، تضربـ في ٣ تكون ١٢، وها اثنان صـار المجموع ١٤ حرف، والسـموات والأرضون ١٤ فالألف الأولى دلالة الذات، والثانية دلالة الصفات، والها دلالة أسماء الإشارة لبواطن الأسماء.

فالألف في دلالة المخلوقات هي العقل لتقدّمه على من ســواه، واللام هي الروح من نســبة العقل، واللام الثانية المنطق (القلب)، والهاء هي الذات.

٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (هُوَ):

معنى (هُوَ) هيبة حقيقة اليقين، والإنســان إذا أخذ نَفَســاً نطق باطنه بالهاء،وإذا أخرجه نطق بالهاء وبذلك تكون الهاء سرٌّ من أسرار الله في نفسِ المخلوقات وحياتهم. وأما الواو التي تُنطَقُ بإشمام الشفتين (شَمُّهما ومَدّهما للأمام) فهي سِرُّ الحرارات في المخلوقات ولذلك تُنطق (هو) فتتَّصِلُ الحياة ونَفَسُها بسِرِّ الحرارات والإمداد فتكتمل دائرة الأجل. والله أعلم.

٣ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّحْمَنُ):

لغوياً هو مشــتق من الرحمة فهو صــفة مشــبّهة باســم الفاعل، ومعنوياً: مأخوذة من الرحمة والرأفة، وعرفانياً: الرحمةُ تســـتدعي مرحوماً، وكلّ مرحوم يحتاج إلى راحم، والراحم والرحمن باطن الرحيم، وظاهر الألوهية، والألوهية باطن الرحمن، فالله سبحانه رحمن الدنيا والآخرة و قَالَ تَعَالَى:

((قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـــــــنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْـــمَاء الْحُسْـــنَى...{١١٠})) الإسراء

والرحمنُ اسم لا يُسمّى به إلاَّ الله سبحانه، أما الرحيم يُطلَقُ على غيره حيث أطلَقه تعالى على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما قال:

((لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُــولٌ مِّنْ أَنفُسِــكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ {١٢٨})) التوبة ١٢٨

والنبيُّ إنسانٌ مخلوقٌ أُطلق عليه اسم رحيم، وهو اسم يُطلَق على الإنسان الذي غلبت عليه الشفقة والرحمة. والله أعلم.

٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّحِيْمُ)

لغوياً مشــتقٌّ من الرحمة وهو صــفة ثابتة ومبالغة من الراحم، وهو مشــتقّ من الرحمة التي شملت العموم والخصوص، عرفانياً: الرحمةُ التي برزت في دار الدنيا كلّها إلى يوم القيامة، قَالَ تَعَالَى:

((...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـــاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ {١٥٦})) الأعراف

ورحمة الله بعباده في الدنيا تختلف عن رحمته بهم في الآخرة. والرحمة العامة للعبادة بإعطائهم الرزق والمُلك في الحياة، والرحمة الخاصّة منحهم النبوّة، والرحيم من الصفات الثابتة لأنّها تتعلّق بالآخرة، ومن أكثر من ذِكْر اسم الرحيم رزقه الله حُسْن الأخلاق وأبعد عنه الشهوات الذميمة، وهيَّأ الله سبحانه له الناس المليئة قلوبهم بالرحمة تسعى نحوه. والله أعلم.

٥ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المَلِكُ):

هذا الاسم مشتق من المُلْكِ ومعناه الذي يتحقّق له كل شيء وينتهي إليه كل شيء، ولا يكون ذلك إلاَّ لله. وإنِ احتوى مُلكهُ على عَالَمِ المُلْكِ والملكوت والجبروت. وحروفه الثلاثة (م ل ك) لها دلالات عرفانية، فالميم ظاهر للحروف ولها شـكل إحاطي يتلقَّى سِرّ الهاء، ومن أجلِها خلَق اللهُ الكرسي لأنَّه إحاطة بصورة مناجاة الموجودات،وخلق من نورها اللَّوحَ وخصَّه من الكلمة العليا، وهي متعلقة بقوائم العرش، واللام حرف أمر الله به عالم الجبروت ولمَّا ثقلَ عملُه بأنوار الملكوت لم يجدْ مَنْ يتلقَّى منه فأبرز الله عالَم الكاف من باطن اللام الذي يُعرف بـ كُنْ، وخلَقَ منه عالم المُلْكِ بأسرار الجبروت وأسرار الملكوت. ومَنْ أكثر من ذكر اسـم المَلِكُ أعطاه الله سـبحانه الهيبة ورَفَعَ من قَدْره، وسَخَّر له القلوب وقضى حوائجه.

٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (القُدُّوْسُ):

ومعناه المنزّه عن النقائص وهو الموصـوف بالكمال والتقديس، والتقديس بالنسـبة للعبد هو الطهارة وبالنسـبة للبقاع مثل البيت المقدّس الخالي من الشرك والكفر، والله تعالى لمَّا خَلَقَ الحاملين للعرش من الملائكة، والمحيطين بالكراسي والمتصرّفين بالقلم والمتخصّصين بتصفّح اللوح جعل لهم أنواعاً من الأذكار والتسبيحات وكذلك جَعَلَ لأهل السموات السبع وأهل الملأ الأعلى، فكان ذِكْرُ أهل الملأ الأعلى والسموات السبع: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ»، وأهل الكرسي ذِكْرُهُم «سُبُّوحٌ

قُدُّوسٌ »، وأصحابُ اللوح ذِكْرُهم: «قُدُّوسٌ سُبُّوح رَبُّ المَلَائِكَةِ والرُّوْح» ومن معاني اسم القُدّوس: العُلوّ في لطائف الجبروت الأعلى الذي جَلّت أنوارُه عن الإدراك.

ومَنْ أكثر من ذِكْر اسم القُدُّوس كُشِفَتْ له العوالم العلوية وخَلّص الله نفسه من الحرام والإثم. والله أعلم.

٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (السَّلَامُ):

ومعناه السالمُ في نفسه عن سِمَات المحدثات وفي صفاته عن صفات المخلوقات، وذلك لا يكون إلاَّ لله تعالى، فهو سبحانه مَنْ لا يدركه وصف ولا تصل إليه سِمَةٌ فالسلامة من الشبه منه وإليه تكون. قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «اللَّهُمَّ أنتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، وَإِليكَ يعودُ السَّلَامُ، تباركْتَ وتَعَاليتَ يا ذا الجلالةِ والإكرام»، وليس هناك سلامة صادرة إلاَّ من اسمه تعالى السَّلَامُ، وهو في حق العبد إسلامُ خواصّ وإسلام عوام، وإسلام الخواص قوله تَعَالَى:

((فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ....{١٢٥})) الأنعام

وإسلام العوام قوله تَعَالَى: ((أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {٨٣})) آل عمران

فقد جعل الله سبحانه الإسْلامَ مضافاً إليه. وحقيقة الإسلام تسليمُ الجسمِ للأعمال، والفكرِ للأفكار، وتسليمُ النفس بمخالفة الهوى وتسليمُ الأرواح للتذكّر مع إقامتك باليقظة الحقيقية.

ومَنْ أكثر من ذكر اسمه تعالى السلام خلَّصَهُ الله سبحانه من الوسواس ورزقه العدل والسلام وقضى حوائجه. والله أعلم

٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُؤْمِنُ):

لغوياً: هو المُصَـدِّقُ بالإسـلام، وبالاصـطلاح هو الذي يُعزى إليه كلّ أمر،ومحل الإسـلام الصَّـدْرُ (عالم الكرسي)، والقَلْبُ هُوَ محلُّ العناية الربّانية والتجلّي وهو محل الإيمان (العرش) ومحلّ الروح. قَالَ تَعَالَى:

((لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ......{٢٢})) المجادلة

والإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللّسان وعمل بالجوارح، وحقيقة الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورُسله وبالقدر ولقاءِ الله حقّ، وأنَّ الساعة لا ريب فيها، وأنّ الله يبعثُ مَنْ في القبور. وإيمانُ الأسرار بالمعرفة، وإيمان العقول بالعلم، وإيمان الروح بالكشـــف، وإيمان النفوس بالتحقيق وإيمان القلوب بالإخلاص لله وإيمان الأجسام بالأفعال.

ومَنْ كتب اسمه تعالى ولازَمَ ذكره فإنَّ الله تعالى يبرئه من كل مرض وضيق. والله أعلم

٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُهَيْمِنُ):

مشـــتق من الهيمنة ومعناها الســيطرة، فالمهيمنُ هو القائمُ على خلقه بأعمالهم ومحياهم ومماتهم، وبعثهم ووجودهم. وهو اسـم جامع للإسـلام ودليل الظاهر والباطن وحروفه الخمسـة (م هـ ـ ي م ن) جمعت حروف الملكوتيات ولطائف الأكوان فالميمُ من حروف الملكوت، والهاء عبارة عن اسـم (هُوَ) وهو حقيقة النفس والياءُ سِرُّ الألف المتولّدة عن الصمت وهي من حروف العقل، والميمُ الثانيةُ تشـير إلى الملكوت الأعلى، والنون إشـارة إلى حقيقة العلم لأنّه باطنه. وقد جعل الله سـبحانه الأمرَ العليَّ

مهيمناً على العقل، والعقلُ مهيمناً على الروح، والروح على النفس، والنفس على الحركات، وهي على الســكتات وهي على الحروف، والحروف على المعاني، وهي على الأسرار لذلك ربط العالَم وجعلَ الأشياء مرتبطة ببعضها والجميعُ ممتدٌّ منه. فالألف مهيمنة على الباء، والباء على التاء...

ومن أكثر من ذكره لاسم (المهيمن) رزقه الله الهيمنة ونال رتبة الكشف على حقائق المعلومات ويفتح الله عليه عقله لتلقّي المعارف والإشراقات. والله أعلم.

١٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَزِيْزُ):

لغوياً مشتق من العزّة والمَنَعةِ ومعنى العزيز هوالخطير الذي لا مثيل له، وإليه تشدَّ الحاجات، فهو الغالب القاهر الذي لا يُغلب ولا يُقهر، والعِزَّةُ هي أصـــل البقاء، لأنّ الحق تعزَّز بالبقاء ووهب العزّة وبالبقاء في الجنّة للمؤمنين، وعزّة ر سوله بالحياة الأخروية وذلك بنور النبوّة الخا صّة بالر سالة، والر سالة هي كلام الله سبحانه، وكلامه باقٍ ببقائه. والعلماء الوارثون لهم العزّة النبويّة، وحياة القوم وحقيقتها في الإيمان، وحياة القلوب في خدمة الله، وخدمة الله بمحبّة الله، وحياة الأجســـام بالقيام بأوامر الله.

ومن أكثر من ذكر اسمه تعالى (العزيز) وهبه الله العزة والهيبة بين الناس. والله أعلم.

١١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الجَبَّارُ):

لغوياً مشتقّ من الجَبْرِ والقَهْرِ وهو كالجابر والقاهر لكنّه أكثر مبالغةً. واصطلاحاً هو الذي يمضي حُكمه على طريق الإجبار في كلّ واحدٍ ولا يُدافعه حَذَرُ حاذرٍ، وهو الله ســبحانه الجبّار المطلق الذي يجبر كل أحدٍ، والجبّارُ تعالى هو سِرُّ الجبر والقهر، ولولا ذلك لاختلّ النظام في الكون، وما يُطلق على البشر من هذا الاسـم إنّما هو جبّار على البعض دون البعض وليس أمام الله سـبحانه جبّار فهو قاهر المتجبّرين.

ومن أكثر من ذكر اســـمه تعالى (الجَبَّارُ) قهر خصـــومه وأعداءه وزاد من قَدْرِهِ عن الأكابر والحكام. والله أعلم.

١٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُتَكَبِّرُ):

ومعناه الذي يرى كلَّ شيءٍ حقيراً بالإضافة إلى ذاته ولا يرى الكبرياءَ إلاَّ لذاته، فنظره لغيره نظرة الملوك إلى العبيد، ولا يكون ذلك إلاَّ لله تعالى. وكلّ من رأى الكبرياء لنفســـه كان جاهلاً. فالمتكبّر المطلق هو الله ســبحانه وذلك أنّه لمّا خلق ســبحانه السـموات والعُلى والأرضـين السـفلى قبل إيجاد الموجودات وأظهر عجائب المصــنوعات قبل ظهور التقدير وترتيب التدبير أبرز من أنواره نور كبريائه في الإيجاد الأول فخافت السمواتُ والأرضون فرقاً، ثمّ انزعجت قلقاً، وهامت فيضاً وفوقاً، ثمّ بَسَطَ عليها من أنوار الرحمةِ فأثبتت له في عالم التوحيد. وإذا أراد الله ســـبحانه بعبد خيراً بصَّرَـه بهيبة كبريائه ثمّ يمدّه بعين الرحمة فيعظُم فرحاً بما أنعم الله عليه.

ومن خواص هذا الاســـم أنّ مَنْ يكثر من تلاوته يرى عظمة الخالق وكبرياءَهُ فيزداد تواضـــعاً. والله أعلم.

١٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الخَالِقُ):

مشـــتقّ من الخَلْق والصُّـــنْعِ والإبداع، فهو صـــانع وهو خالق على الدوام في كلّ لمحةٍ وخطوةٍ ســـبحانه وتعالى، والخَلْقُ هو الإبداعُ المخترعُ من غير مثال، وعالَم الملكوت والمُلْكِ هو الاختراع. وقد خلق الله سبحانه وتعالى السموات السبع وجعلها حُجُبَ الأنوار، وخلق الأرضين السبعة وجعلها خُزَّانَ نِعَمِهِ وظلمة حُجُبِ رحمته، وجعَلَ في كلّ أرضٍ نوعاً من العذاب، وآلات العقاب لأهل المعاصي والطغيان. قَالَ تَعَالَى:

((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ {٥٤})) سورة الروم

((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانـتا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ {٣٠})) سورة الأنبياء

ومن خواص هذا الاسم المكرَّم أنَّ من واظَبَ على تلاوته وطلَبَ حاجته من الله تحقَّقتْ. والله أعلم.

١٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَارِئُ):

مشتق لغوياً من البَرْء وهو الخَلْقُ على غير مثال: فالبارئ هو الخالقُ لأنّه هو الذي أوجد الخَلْقَ من ترابٍ.

قَالَ تَعَالَى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُـدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُـيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَـمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {٦٧})) غافر

والتراب يطلقه العربُ على ثَرَى البرية، والثرى هو التراب، والبَرِيَّة هم الخَلْقُ. وقد جعل الله سـبحانه أرواح أهل الجنّة بأجسـادٍ تماثل أجسـادَ أهل النار، والمقصـود أنَّ التباين هو في العلويات (الأرواح) وليس في السـفليات (الأجسـاد) فمَنْ صَـفَتْ نفسـه في قالب النور في صـفة الرحمة خرجت مطمئنة، ومَنْ طغتْ نفسُـه في قالب الظلمة خرجت أمّارةً بالسـوء وانطبعت بالظلمة، وقد جَبَلَ الله سبحانه أجسام أهل السعادة على الخدمة لله، وأجسام أهل الكفر جُبِلَتْ على الشقاوة والغفلة. قَالَ تَعَالَى:

((فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَـيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّـعَّدُ فِي السَّـمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٢٥})) الأنعام

ومَنْ وَاظَبَ على تلاوة هذا الاســم شرحَ الله صــدرهُ وهداه للإيمان ووفَّقَهُ فيما يعمل. والله أعلم.

١٥ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُصَوِّرُ):

مشــتقّ من التصــوير، وهو الإيجاد الثاني بعد الخَلْق، فالخَلْق هو الإيجاد الأول على غير مثال، والتصوير هو منحُ الخَلْقِ الصورة المميّزة له عن سواه، والمصور المطلقُ هو الله تعالى المميّز للشيء عن سواه المشكّل له تمام الاختصاص على النوع الإرادي وأظهرَ الله سبحانه قدرته على الإيراد الأوّل بالإيجاد في اليوم الأول بقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ)[1]، وفي اليوم الثاني كان الإبراز والتصــوير بقوله تعالى: (ثُمَّ صَــوَّرْنَاكُمْ)، وبين هذين اليومين ما لا يعلمه إلاّ الله. فالخَلْقُ هو إيجاد القدرة. وبقوله تعالى: (فَسَوَّاكَ)[2] يريد الباطن وهو محل التسوية والتبديل في اليوم الثاني، واليوم الثالث كان الطور الثالث في قوله:

(فِي أَيِّ صُوْرَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)[3]، فالأرواح صورة الحق والصُّوَرهي صورة الروح ولم تحيا إلاَّ بنفحةٍ من الله، ونفحتُه سرّ الحياة، والصُّوَر قسـمان: ظاهرة يبرز الشـكل منها، وباطنة تدرك بعين البصـيرة، ومَنْ أكثر من تلاوة الاسم قضى الله حاجته. والله أعلم.

١٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَهَّابُ):

مشــتق من الوَهْب والعطاء دون مقابل أو عَوضٍ أو غايةٍ، فالوهَّاب هو المعطي دون أغراض، فعندما تكثر العطيات والصِلاَت يُسمّى صاحبها وَهَّاباً. وليس إلاَّ الله تعالى وَهَّاباً من غير عوض، وقد وهَبَ الله سبحانه الإنسان السمع والنظر والشمّ

---

(١): الأعراف ١١: قَالَ تَعَالَى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ {١١}).

(٢): الإنفطار ـ الآية ٧.

(٣) قَالَ تَعَالَى:(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ {٧} فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ {٨}) الانفطار.

والذوق والعافية والمشيئة والإيجاد، وكمّل الإنسان بالخليقة ليُجيب الدّاعي. وقد عُرِضَت الأمانة على السـموات والأرض والجبال فأَبَيْنَ حملها، وحَمَلَها الإنسـان محلّ التجلّي، والعقل محلّ المعارف، والنفس محلّ الخواص.

ومن لازم على تلاوة هذا الا سم أغناه الله عن المخلوقات وفتح له أبواب الرزق وفتح له خزائن الغيب وسهّل له حفظ العلوم الإلهية. والله أعلم.

١٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّازِقُ):

مشـتقّ من الرزق، فالرازق هو الذي خَلَقَ الأرزاق والمرزوقين، وخَلَقَ لهم أسـباب التناول للأرزاق، وهو الرازق المطلق (الله). والرزق قسمان: ظاهر وباطن. فالظاهر هو قوة الأجسام بواسطة التكليف العقلي، واقتصـار دوره في المشـيّة في أسـباب النبات، وهو محدود مآلهُ إلى الفناء في أسرع وقت. و الله سـبحانه لمَّا أوجد الأشـياء وخَلَقَ العقلَ نورانياً جَعَلَ قوتَهُ (قوّة العقل) للعلم و الفهم لأنّه أوّلُ مخاطب في أول رتبةٍ وأول نشأةٍ. ولمّا خلَقَ الله سبحانه الأرواح من الحياة، أقامها بسرِّ الأمر (كُنْ)، فالأمرُ كالنظر للأ شباح، وهي من عوالم الأرواح كالأ شباح. والحياة للأرواح كالعظيم للأ شباح. ورزق النفوس هو سرّ التصرـيف في عالم الشـهادة، بسرِّـ ما أودع الله فيها من دقائق العلوم وأسرار الموجودات، وهي مرآة الصُّوَر (أي النفس) علويها وسفليها، وكلّ صورةٍ يبرز لها حقيقة وهذا غذاؤها.

ورزق القلوب من رزق الباطن، فالقلبُ هو محل التصرـيف بحروف ترتيب المعاني القائمة بالنفس الصـادرة عن الروح الواردة عن العقل. ورزق الباطن باقٍ للأبد متَّصـلٌ بالحقيقة الربَّانية. ورزق أهل الباطن والأرواح الملكوتية من السماء، ورزق أهل الأجسام التكليفية والدرجات الحقيقية من الأرض. وأهل التحقيق الذين ارتقوا عن رزق أهل السـموات والأرض هم أهل القرب وخواص الأصفياء، فرزقهم من حيث لا يشعرون بما في الأكوان علويها وسفليها. قَالَ تَعَالَى:

((... إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {١٧})) العنكبوت

وأيضاً قَالَ تَعَالَى:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {٣})) فاطر

ومن أكثر من ذكر اسمه الرازق سَهَّل الله له الرزق وفتح له كل باب مغلوق. والله أعلم.

١٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الفَتَّاحُ):

لغوياً مشتقّ من الفتح، وعرفانياً هو الذي يفتح الأبواب الحقيقية، ويفيض بالفتح على الجميع، والفتح قسمان: فتح عِلْمٍ، وفتحُ كلِّ شيءٍ غامضٍ. والفتّاح الذي يفتحُ مغاليقَ الملكوتِ لبصائر أوليائه. ويفتح أبوابَ الرحمةِ للمؤمنين، ويفتح الغيوبَ للأنبياء، قَالَ تَعَالَى: ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١})) الفتح

وعَلَّم العبدَ أن يصبرَ حتّى يفتح له مغاليق المشكلات الإلهية واللطائف العلوية الملكوتية، وأن يطلب من الله أن يُيَسِّرَ له فهم ما يعسر على الخلق من العلوم اللدنية وبواطن الأسرار. ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم فتح الله له العلوم ويسَّرَ له فهم أسرار الحياة والدنيا. والله أعلم.

١٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَلِيْمُ):

مشتقّ من العِلْم. وهو مبالغة من العَالِم. وليس هناك عليمٌ مطلق إلاّ الله سبحانه. فهو العالِمُ بصنعِه وكمالِه، يحيط بكلّ شيءٍ ظاهراً وباطناً أوّلاً وآخراً، وهذه صفةُ البارئ جلّ ذكره. وعلم الله لا يُحصى، وعلمُ المخلوقين يعلمونه بما قدّره الله

لهم ليجدوا به القربى إلى الله تعالى. و الله سبحانه جعل ملكوت الأنوار، وجعلَ ما قَيَّد بأسمائه الشريفة وهي قائمة في الملكوت وكلّ اسم مقابل الآخر، وهي كالفطرة. ثمّ خلقَ الجبروتَ والمُلْكَ وخلقَ الملائكة من أنوار العرش، وخلقَ ملائكة الحروف بأنوار الكرسي، وخلقَ ملائكة عالَم الشهادة من نور اللوح لأنَّه قام بالأسماء والأفعال.

ومَنْ أكثر من ذكر هذا الاسم الشريف وكان بليد الذهن رزقه الله العلم وفتح عقله على العلوم وحفظ كل ما سمعه. والله أعلم.

٢٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (القَابِضُ):

مشتقّ من القَبْض ويعني الأخذ والإرجاع، فالقبضُ هو الذي يقبضُ الأرواح من الأجسام عند النقلةِ (الوفاة)، ويبسطها في الأشباح يوم الرجعة (البعث)، وهو المُوجِدُ لِمَا لم يكن مسبوقاً بمثله عادة والأشياء بدأت منه وإليه تعود ولمّا كان إليه البدء والعَوْد، وكلّ واحدٍ منها طرفاً لصاحبه: كالأوّل والآخر، والظاهر والباطن. ولمّا أراد الله سبحانه أن يخلقَ آدمَ أمر جبريل أن يقبضَ من الأرض قبضةً فنزل وأراد أن يقبضَ منها، فأقسمتْ عليه بربِ الأرض والسماء ألاَّ يفعل فامتنعَ و صعدَ، فأمرَ اللهُ إسرافيلَ أن يفعل ذلك فأقسمتْ عليه فامتنع، وكذلك ميكائيل. فأمرَ الله عزرائيل باسمه القابض فلمَّا نزلَ إلى الأرض أقسمت عليه فقال لها بقوةٍ قهريةٍ: أليسَ الذي نفسي ـ بيده هو الذي أرسلني؟ فقالت: نعم. قال: إذاً أغضبُكِ ولا أعصيه. ثمّ قبض منها قبضةً و صعدَ إلى السماء فتصاغرت الأرض ونقصت فقال الله سبحانه: كُنتَ أنتَ مُظْهِرَ القبضَ وأنتَ تقبضَ الأرواح. ومن أكثر من ذكر اسمه القابض قبضَ الله عنه ألسنة الخلق وعيونهم الحاسدة. والله أعلم.

٢١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَاسِطُ):

مشتقّ من البَسْط بمعنى الزيادة والإمداد. والباسط هو الذي يمدّ الأرواح في الأشباح يوم الرجعة. والله سبحانه يقبض بالسكون ويبسط بالحركة. وقبض الله

بواطن أهل الشمال بين حقائق الإيمان، وبَسَط قلوب أهل اليمين لأنوار الإيمان، وشرح صدورهم لقبول الإ سلام، وقبض الله سبحانه الجماد بالجمود ليوم النمو والازدياد، وقبض الليل بقدم الحركات وبَسَــطَ النهار بظهور الحركات، وقبض الباطن في عالم الأمر وهيبته وبَسَــطَ الخَلْقَ في عالم رحمته. ويتقرب الإنسان إلى الله سبحانه باسم القابض والباسط بأن يقبض نفسَهُ عن الشهوات، والجسم عن المحرّمات واللســانَ عن الكلام الفاحش، والنظرَ عن المحرّمات والأذن عن الغيبة، واليد عن الحرام والقلب عن المعاصي، والعقل عن التفكير بغير حقائق الله، والروحَ عن الالتفات عن الخالق، والسرَّــ عن كشف أسرار الله.

ومن يكثر من تلاوة اســمه تعالى الباســط بَسَــطَ اللهُ العلومُ الإلهية أمامه وأطلعه على حقائق الملكوت. والله أعلم.

٢٢ ـ شَرْحُ اِسْمِيهِ تَعَالَى (الخَافِضُ) (الرَّافِعُ):

الخافض هو الذي يخفض الكفّار بالانتقام[١] . والرافع هو الذي يرفع المؤمنين بالإســعاد، ويرفع أولياءه بالقُرْبِ ويخفض أعداءَه بالبعدِ، ومَنْ رفَع مشاهدتَهُ عن المحسوسات وهمَّتهُ عمَّا يشاركه فيه البهائم كان ممّن رفعَهُ الله، ولا يخفض ولا يرفع إلا اللهُ وهو الذي رفع الســموات وخفض الأرضــين ورفع الأفلاكَ وقدَّرها.

ومَنْ أكثر من ذِكْرِ هذين الاسمين رفعَ الله قدرَهُ بين الخلائق وسهّل له الرزق ويكون مُهاباً عند الجميع، وخفض رؤوس أعدائه وقهرهم. والله أعلم.

٢٣ ـ شَرْحُ اِسْمِيهِ تَعَالَى (المُعِزُّ) (المُذِلُّ):

المُعِزُّ مشـتقّ من العزّة، المُذِلُّ مشـتقّ من الذُلّ، و الله سـبحانه هو المُعِزُّ يؤتي المُلك من يشـاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، والمُلْكُ في الخلاص

(١) إنّما يكون الرفع والخفضُ بالدَّرَجات، فهو والحالة هذه رفعٌ وخفضٌ معنوي وَلَيْسَ حِســيّ، فالرفعُ عِزَّة والخفضُ ذِلّةٌ ومَهَانةٌ .

عن ذلّ الحاجة وقهر الشهوة في وصمة الجهل، فمن رُفع الحجاب عن قلبه شاهَدَ الحضرة ورُزِقَ القناعة حتّى يستغني عن جميع الخلق.

ومن مدّ يده للخلقِ حين احتاج إليهم تسلّط عليه الحرصُ حتّى لا يقنع بالكفاية ويحصل له الاستدراج حتّى تتغيّر نفسُه ويبقى في ظلمة الجهل. فالعزّة للمؤمنين بالرضا، والذل للكافرين بالبعد عن بابه، و الله سبحانه أعزَّ العلماء بالمعارف، والشهداءَ برفع الدرجات، وأذلَّ المشركين بالطرد عن بابه والبعد عن أحبابه.

ومن أكثر من ذكر هذين الاسمين رفع الله قدره وأذلَّ أعداءه. والله أعلم.

٢٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (السَّمِيْعُ):

مشتق من السَّمَعَ، وهو مبالغة من السامع، فالسميعُ الذي لا يعزب[١] عن إدراكه مسموع وإن خفي كلّ شيء بسر التنزيل أرق من ذلك، ويدرك حركة الهباء في بهيم الظلم ويسمع مناجاة المناجين في ضمائر الأسرار، فمن لم يدقِّقْ نظره فيه لا شك يقع في محض التحقيق.

ومَنْ أكثر من ذكره صفا سمعه لكلام الحق وعطف قلوب الناس بالطاعات إليه. والله أعلم.

٢٥ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَصِيْرُ):

هو الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة تحت الثرى، منزَّهٌ عن حَدَقَةٍ وأجفانٍ، ومقدَّس عن انطباع الصورة في ذاته كانطباعها في حدقة الإنسان، والبصر الحسّي مقهورٌ قاصرٌ لأنّه يشاهد المحسوسات عاجزٌ عن مشاهدة البواطن والأسرار والهواجس والخواطر والأرواح والضمائر.

وإنما أودع الله سبحانه البصَرَ في الإنسان لأمرين: أوّلهما ليشاهد آيات الله سبحانه وعجائب مخلوقاته، والثاني ليعلم أنّه بمَرآةٍ من الله فيلزمه الحيرة في

---

(١) يَعْزبُ : يَبْعُدُ وَيَغِيْبُ .

حركاته وسكناته. ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم الشريف أعطاه الله سبحانه قوةً في بصره وبصيرته ويجد حلاوة الإيمان بالمراقبة. والله أعلم.

٢٦ ـ شَرْحُ اِسْمِيْهِ تَعَالَى (الحَكَمُ) (الحَكِيْمُ):

مشتق كلاهما من الحكمة التي هي عبارة عن المعرفة، وليس شيء أفضل من العلم بالله، والطرق الموصلة إليه، والحكمة صفة من صفات الذات يظهرها العقل. والحكمة ستّة أقسامٍ: حكمة في السّر وحكمة في العلانية، وحكمة في الروح، وحكمة في النفس، وحكمة في القلب وحكمة في الجسم. قَالَ تَعَالَى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {١})

الحديد

فحكمة السرّ هي الإيجاد الأوّل الذي اختصّ به الحقّ في إبداعه العوالم على قدر ما شاء من معرفته أن يهديهم ليعرفونه، فليس يعرفه عارف إلاَّ بقدر السرّ الذي أودعه الله فيه حتّى قبل الإيجاد وشاهد الحكمة.

ومن أكثر من ذكر هذين الاسمين رزقه الله سبحانه الفهم والحكمة والله أعلم.

٢٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَدْلُ):

ومعناه الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور، ومَنْ لم يعرف العدل لم يعرف فعله، وهو مرتبة المقرّبين، وهو ينظر الأشياء على حقيقتها ويرى منتهى السموات إلى طباق الثرى حتّى ينظر الأكوان، ولم يرَ شيئاً في الكون إلاّ وقام عليه ميزان العدل وذلك بإقامة الحجّة والعدل.

وقد خلقَ الله سبحانه الموجودات على مقام الاعتدال، وأقام الأجسام وهي أربعة عناصر منها ما هو بسيط ومركّب فالماء والتراب مركّب، والنار والهواء بسيط. ثمّ خلقَ السموات جواهر شفّافة قائمة بذاتها، ووضع الأرض في أسفل السافلين وجعل

فوقها الماءَ، والهواءُ فوق الماء، والســموات فوق الهواء لانتظام العالم، ومَنْ عَلِم أنَّ الإنســان مركَّب وهو جرم صـغير وفيه انطوى العالم الأكبر فهم سرَّ التركيب والنشـأة. والعالِمُ عليه أن يعدل في صــفات نفســه وأن يجعلِ العدل في الجوارح وفي أهله وولده. قَالَ تَعَالَى في ســورة الإسراء: ((وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً {٣٦}))

ومَنْ أكثر من ذكر اسمه تعالى العدل رزقه اللهُ الاستقامة والعدل. والله أعلم.

٢٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (اللطِيْفُ):

مشــتقّ من اللطافة وهي ضــد الكثافة، واللطيف هو الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضــها ثمّ يسلكُ في اتصاله، فإذا اجتمع الفعل في العقل واللطف في الإدراك، ثمّ خفي اللطف، ولا يصل إلى كمال ذلك في العالم من هذا اللطف إلاَّ الله سبحانه. وإنَّ لطفه في الأفعال في دقائق الأ شياء لا يدخل تحت حَصْرٍ ـ والبارئ جَلَّ وعَلاَ أوجد الموجودات وبَسَـطَ نور هذه الأسـماء على خاصّـة عباده المؤمنين، لأنَّ اللطيف اختصّ باللطف بعباده المضافين إليه.

ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم فرّج الله عنه ما تعسَّر عليه. والله أعلم.

٢٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الخَبِيْرُ):

هو الذي لا يعزب عنه خفي بواطن الأسرار، ولا تتحرّك ذرّة إلاّ عنده خبرها، وهو المطَّلِعُ على خفايا المُلْكِ والملكوت، العالِمُ ببواطن الموجودات فلا تتحرك ذرة ولا تنشــقُّ حبَّة إلاَّ وقد أحاط بها علمُه وقدرُه، والخبير والعليم لهما ذات المعنى.

ومن أكثر من ذكرهما فتح الله عليه العلوم والمعارف الإلهية. والله أعلم.

٣٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَلِيْمُ):

مشتقّ من الحِلْم والأناة والصبر، والحليم هو الذي لا يعجّل بالعقوبة على من عصاه، وهو من صفاته تعالى.

وهو الذي يرى معصية العصاة ولا يشعر بالغضب، وهو من لا يقوم إلاّ بطور باطني، والبارئ تعالى جعل نمو العقل باطناً كما جعل نمو الأجسام ظاهراً حسيّاً. ورتّب أطوار التركيب كما رتّب أطوار الترتيب، والعقلُ ينمو بالتفرقة بين معاني إدراكه من حقائق الأسماء.

والروحُ يتزايد نموُّها حسب قوّة الشوق في الطالب وتتفتّح بصيرة الروح لتتلقى من العقل أنوار المعلومات وموازين الحقائق لأسمائه تعالى.

والعقل ينمو بما خصَّهُ الله بأنوار المعلومات وموازين الحقائق لأسمائه تعالى، كما ينمو بما خصَّهُ الله بأنوار الذات.

ومن أكثر تلاوة هذا الاسم أزال الله عنه الخلقَ السيء ومنحه الحِلْم والأناة في الأفعال والأقوال. والله أعلم.

٣١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَظِيْمُ):

هذا الاسم من موضوعات أسماء الأجسام، وفيها ما يدرك الأجسام المحسوسة فلا يحاط به الأرض كما لا يحيط به البصر كالسماء وما فيها وما هو أعظم منها،ويتوهّم بصائر العقول والملكوت والعرش والكرسي،ومنها ما لا يتصـــوّر أن يحيط العقل بكُنْه ذلك، والكرسي لا يحاط به، والعظيم المطلق هو الذي جاوز حدّ العقول وهو الله تعالى.

ومن أكثر من ذكر اسم العظيم مع اسم العلي رفع الله قدره بين الناس ونال ما يريد في الحياة. والله أعلم.

٣٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الغَفُوْرُ):

ومعناه الذي يغفر لعباده ما تقدّم من ذنوبهم وما تأخَّر شرط التوبة الصـــادقة التي لا رجعة بعدها للذنب. والغفور مشـــتق من الغفران وهو مبالغة، لأنَّ الله ســبحانه واســع الرحمة والمغفرة بعباده، ويغفر لهم ولو كانت ذنوبهم عدد أمواج البحار ورمال القفار

ومَنْ أكثر من تلاوة هذا الاسم الشريف دفع الله عنه غضب الملوك والحكّام، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. والله أعلم.

٣٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الشَّكُوْرُ):

الشـكورُ والشـاكِرُ لهما المعنى ذاته من حيث الصـفة، والشـكور مبالغة، وهو الذي يعطي على ســائرِ الطاعات كثيرَ الدرجات، ويُعطي بالعمل القليل نعيماً كثيراً، ويجدرُ بالمؤمن أن يكون شـــاكراً لربّه، حامداً له نِعَمَهُ عليه التي لا تُحصىــ وكلّما زاد المؤمن من شـكره لله، زادَ الله نِعَمَهُ عليه. قَالَ تَعَالَى:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ {٧}). إبراهيم

ومَنْ أكثر من ذكر اسـمه تعالى الشـكور بارك اللهُ في رزقه وأدام عليه نِعمه وأبلغَهُ مأربه. والله أعلم.

٣٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَلِيُّ):

ومعناه الذي رتبةُ ليس فوقها رتبة، والعلوُّ إما أن يكون علُواً حِســيَّاً كالدَّرج الصــاعدِ، وإمّا أن يكون علوّاً في مراتب المعقولات، كالتفاوت بين السـبب والمسـبّب، والكامل والناقص. و الله سـبحانه علّوه ليس مكانياً ولا زمانياً لأنه سبحانه وتعالى بعيد عن الإدراكات والمو صوفات، لا يحدُّهُ مكانٌ ولا يَحُوطُهُ زمانٌ

وإنّما علوّهُ علوٌّ عن الإدراك بالحواس والعقول، وعُلُوٌّ عن التشبيه والتصوير. سبحانه ليس كمثله شيء.

ومَنْ أكثر من تلاوة هذا الاسـم رفع الله قدره ووصـله بالخيرات وزرع الهيبة والطاعة في قلوب الخَلْق له. والله أعلم.

٣٥ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الكَبِيْرُ):

هو ذو الكبرياء، والكِبَرُ عبارة عن كمال الذات. كما أنَّ كمالَ الوجود يرجعُ إلى ذاته أزلاً وأبداً وكلّ موجود مقطوع بَعَدمٍ سابقٍ ولاحقٍ فهو ناقصٌ، ويُقال للإنسان الذي طالت مُدَّتُهُ كبيراً ـ أي كبير السن ـ مع كون مُدَّتِهِ محدودةٌ، فالدائم الأزليّ الذي يستحيل عليه العَدَم، أولى أن يكون كبيراً، وليس إلاّ الله سـبحانه الذي له الكبرياء وكمال الذات وهو الذي يسـتحيل عليه العَدَمُ فسـبحانه هو الكبير حَقّاً وليس جِسْمَاً.

وفي التكبير (الله أكبر) تعني أن الله ســبحانه أكبر من أن يقارن بغيره من المخلوقات فهو أكبر من أن تقارنه بالكون والدنيا والسـموات والأرضـين وهي كلّها من مخلوقاته فسـبحانه عن كل قولٍ بعيد عن الحق والإيمان.

ومَنْ أكثرَ من تلاوة هذا الاسم رفع الله قدره وحفظه من كل أمر فيه شر. والله أعلم.

٣٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَفِيْظُ):

وهو الذي صـان بحفظهِ المتضـادَّات والمتقاربات بعضـها عن بعض، كما حَفِظَ بين الماء والنار، والحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة. قَالَ تَعَالَى:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً {٤١})) (فاطر ١٤)

أي أنَّ الله سبحانه يحفظُ السموات أن تسقطَ على الأرضِ. و قَالَ تَعَالَى:

(إِن كُلُّ نفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ {٤}) الطارق

والإنسان الذي يحفظ أوقاته وحركاته وسكناته ويترك الاعتراض على أمر الله، يحفظه الله من وساوس الظاهر والباطن.

ومن أكثر تلاوة هذا الاسم حفظه الله من الحسد والحقد. والله أعلم.

٣٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُقِيْتُ):

هو مشتقّ من القُوت أي الطعام والغذاء، والمقيتُ هو خالق الأقوات، وبذكره تلبثُ الأرواح العلوية، وفي باطن الأمر هو المُقيت بأنواع المآكل للكائنات، وهو سر الشبع ومقيت الأجساد بأنواع الأطعمة لإقامة البيّنة وثبوت الرمق وهو مقيت الأرواح بذكر الله والعقول بالسعي لمعرفته.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم أعانه الله على ما يريد من أعمال، ومَن كتب هذا الاسم بخطٍ حَسَنٍ وعلّقه في مكان حَلّت فيه البركة. والله أعلم.

٣٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَسِيْبُ):

هو الكافي, والكفاية هي المحاسبة على الأفعال والخواطر, فيكون بمعنى فاعل, والحسيبُ من كان له حِسْبَةٌ (كِفَاية) والاسم لا يليق إلاَّ بالله تعالى,لأنَّ الكفاية يفتقرُ إليها المكتفي لثلاثة أحوال: الوجود، دوام الوجود، ليس غيره في الوجود.وليس في الوجود غير مفتقر لذلك إلا الله سبحانه. والله سبحانه قد حَسِبَ الإنسان وكَفَلَهُ من يوم كان نطفةً وقد تكفَّلَها اللهُ سبحانه لتخرجَ موافقةً لنوعها, وبعد أن خَرَجَ للنور أخرجَ له من ثدي أمّهِ لبناً فيه غذاءٌ, وألهمَهُ عند الجوع أن يبكي فترضعه الأمُّ, ثمّ رزقه العقلَ ينشأُ ويتطور معه في كل طَوْرٍ ومرحلة. فالله سبحانه حسيب كلّ إنسان وهو نعم الوكيل قَالَ تَعَالَى:

((...وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً {٨١}))

الأحزاب

ومن أكثر من ذكر اسمه تعالى الحسيب كَفّ اللهُ شرّ أعدائه عنه ونجاه من المصائب. والله أعلم.

٣٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الجَلِيْلُ):

ومعناه الموصوف بنعوت الجلال والجمال،فالله سبحانه جَلَّتْ ذاتُه عن التشبيه بشيءٍ من جليل الأجســـام أو التمثيل بصـــفات الأنام، وإنّما هو موصـــوف بجلال الكبرياء والمُلْك، وله الكمالُ الذي لا يناسبه كمالٌ، وله الجَلالُ الذي لا يضاهيه جَلاَلٌ،فسبحان من له العزّة والجلال الباقي الأزلي.

ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم رفَعَ اللهُ قدرَه ووهبَه هيبةً عند الخلائق. والله أعلم.

٤٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الكَرِيْمُ):

ومعناه الذي إذا قدِرَ عَفَا، وإذا وَعَدَ وفى، وإذا أعطى أغنى، وليس ذلك إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

والكَرَمُ الأوّلُ لله ســـبحانه هو نعمةُ الإيجاد وامتدادُ الروح وأَخْذُ الميثاقِ وإخراجُ العالَمِ من العدمِ إلى الوجود، والكَرَمُ الثاني قَيْدُ العقلِ، ثمّ تكرّمَ بوصـــول الدعوة النبوية للناس وظهورُ الحكمة الشريفة ووقوع ذلك بقلوبنا وإيماننا به.

ومن كَرَمِهِ ومبالغته في الكَرَم أن يعبُدَ الكافرُ غيره فلا يعاجله بالعذاب, ويرى العاصين ويمهلهم. وقد تكرم الله سبحانه علينا بأن جَعَلَ للحَسَنة عشرة أمثالها, ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ بمثلها.

ومَنْ أكثر من تلاوة هذا الا سم فتح الله له أبواب الخير, ومنَحَه الهيبة بين الناس وزاد في رزقه. والله أعلم.

٤١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّقِيْبُ):

ومعناه الذي يراعي سرائرَ السرـائرِ و اللحظات, دائمُ الوجود في شــهودها لا يُحدُّ بزمانٍ ولا مكانٍ, وليس ذلك إلا الله تعالى. وقد جعل البارئ سـبحانه لمّا خَلَقَ الخَلْقَ في السـماء رقيبَ الفَنَاء في التوحيد, وفي دار البرزخ جعل عليهم رقيباً, وفي الذر (الفِطْرة) جعل عليهم رقيب الأمانة, وفي الحشرـ جعل عليهم رقيب التجلّي, وفي الحياة الدنيا جعل رقيب وعتيد المكلّفين بكتابة الأعمال. قال تعالى:

((وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {١٢٣})) هود

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم رزقه الله الفهم والخير وحببَّ الناس به. والله أعلم.

٤٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُجِيْبُ):

هو الذي يجيبُ السـائلين ويغيث المسـتغيثين ويُجيب المضـطرّين وليس ذلك إلاّ الله سـبحانه يسـتحي أن يردَّ عبدَهُ صِـفْرَاً، فينبغي للعبد أن يكون مجيباً له في جميع أوامره ولا يخالفه فيما أمره به ونهاه عنه وفيما نَدَبه له وَدعاه إليه وبما أنعم عليه.

ومَنْ أكثر من ذكر هذا الاسم استجاب اللهُ له دعاءه وجلب له الخيرات. والله أعلم.

٤٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَاسِعُ):

وهو مشـتقّ من السِّـعَة وهي تضـافُ تارةً إلى العالَم وتارةً إلى مولانا الخالق سـبحانه، فأمّا من جهة العالَم فإذا اتَّسَعَ وأحاط بوجوده والإدراكات بحقائق المعلومات بأن يضاف إلى الإحسان والإنعام وكيف ما وقع عليه بالتقديس وأظهرته العبارة، فإنّه هو الواسـعُ والمطلقُ فإن نُظِر إلى عِلْمه فلا نهاية له من جميع المعلومات

بأن ينفد لجاري الأكوان لو كانت مداداً، ويفني نبات الأرض إذا كانت أقلاماً لكلماتِهِ العليا وأسمائه الحُسنى،وهو الواسع العظيم، قَالَ تَعَالَى:

((...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ {٧}))   غافر

والواسع للعبد حَظّه منه سعةُ الأخلاق والعلم والكشف والباطنِ. ومَنْ أكثر من ذِكْر هذا الاسم هانت عليه الصعاب. والله أعلم.

٤٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَدُوْدُ):

وهو الذي يحبُّ الخيرَ للخَلْق، فيُحْسِن إليهم ويثني عليهم، وهو قريب من معنى الرحيم، والودود هو الله سبحانه الخير المطلقُ، والعبد الذي يمنَحه الله هذه الصفة يحبّه الجميع ويرتفع قدره بينهم وكذلك من واظب على ذكره. والله أعلم.

٤٥ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (المَجِيْدُ) (المَاجِدُ):

المجيدُ والماجدُ لهما المعنى ذاته، إلاّ أنّ المجيد مبالغة، ومعناه الشريف الذي ذاتُه جليلة كثيرُ النوال، وشريفُ الذات مع حُسْن الفِعَال هو المجد، فكلاهما بمعنى الجليل الكريم، فالله سبحانه ليس غيره جليل الذات يعطي دون مقابل ولا ينتظر من عبده حَمْداً والحمدُ والشكرُ من العبد أولى لمن له المجد والعزّة والبقاء.

ومن أكثر من ذكر هذين الاسمين جَلَب الله له الرزق والرفعة. والله أعلم.

٤٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَاعِثُ):

هو المفرّج عن المضطرين، ومجيب دعاء السائلين وليس ذلك إلاّ الله سبحانه والدّاعون لله أربعة: دَاعٍ مقرون دعاؤه بالاضطرار فتُجاب دعوته، دَاعٍ يدعو بلسان مقاله ولم تشتدّ أزمته فذلك اقترن دعاؤه بالإخلاص فيُرزق الصبر على المعضلات، وثالثٌ اشتدّت فاقته ولم يجد إلاّ الله فيغيثه الله بالدعاء، ورابعٌ يسألُ الله أن يكثر

عليه من الدنيا ويوسّع رزقه وأجله، فذلك مغرور لأَنَّه اشتغل وشغل وقته بشيءٍ لا يليق بدعاء الله، والأفضـــلُ أن يدعو الله أن يبارك له في رزقه ويوفقه للعمل الصـــالح، وإغاثة المؤمنين, و الله سـبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه بصـدق نِيَّةٍ وإخلاص طويَّةٍ،وقد يكثُر المرءُ من الدعاء لَكنّ الله ســـبحانه لا يســـتجيب له لأنّه يعلم ما في قلبه من نفاق أو إيمان حتّى وإن أظهر الإيمان والدعاء بالقول.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم أنقذه الله سبحانه من الغفلة والشدّة. والله أعلم.

٤٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الشَّهِيْدُ):

مشتقّ من المشاهدة والشهادة، ومعنى الشهيد يرجع لمعنى العليم من خصوص إضافته إلى عالمِ الغيب والشهادة، والغيبُ عبارة عمّا بَطُنَ والشهادة عبارة عمَّا ظهر، والله سبحانه هو الشهيد على كلّ ذرّةٍ بما أظهرت في عالم الغيب والشـــهادة، وبما جرى القلم به في اللوح المحفوظ من الشـــقاوة والسـعادة للناس، وقد جعل الله سـبحانه الملائكة شـاهدة على أعمال البشر، وهي التي تشـهد لمنْ يُقتل في سبيل الله أنّه شهيد، وفي يوم الحساب يجعلُ الله سبحانه كلَّ عضوٍ في جسم الإنسان شاهداً عليه فيما فعله في حياته.

ومن واظب على تلاوة هذا الاسم سهّل الله له الأمور الخفية ورزقه البركة في المال. والله أعلم.

٤٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَق):

وهذا الاســم الشرــيف هو ســيف الله على الأرض، الذي يقطع به جبال الباطن، والحقُّ ضــدُّ الباطلِ وكلِّ ما عبَّر عنه. وكل ما في الوجود إمّا حقّ أو باطل وذلك على وجه الإطلاق. والواجب المطلق بذاته، والحق من حيث إيجاده حقّ، وإن المعقول لا يكون خالياً من كونه حقاً أو باطلاً، واللهُ سبحانه أبرز الموجودات على ما يشاء

وأبرز لكلّ موجود اسماً، وبَسَط معنى اسمه على الموجودات فأقبلت على التوحيد بالفطرة.
ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم قضى الله أموره. والله أعلم.

٤٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَكِيْلُ):

هو الذي توكل له الأمور كلّها، يديرها كيفما شـــاء، وهو على قســـمين: قســـم توكل إليه بعض الأمور فذلك ناقص، وقِسْـــم توكل إليه كل الأمور فذلك كامل وهو الله تعالى والوكالة تعني الكفالة، ومَنْ نَظَرَ إلى إصلاح باطنه وتحقَّقَ قَصْدُه أرسل اللهُ له نورَ الشبع وطمأنينة الاستغناء. والتوكّلُ على الله يجب أن يرافقه عمل واجتهاد واعتماد على الله وليس المقصود ترك العمل واللجوء للكسل بحجّة التوكّل على الله فيصبح والحالة هذه تواكلاً وليس توكّلاً.

ومَنْ أكثر من ذكر اســـمه تعالى الوكيل مع الاعتماد الصـــادق على الله رَزَقَهُ الله المعرفة الكبيرة والعلوم والرزق الحلال. والله أعلم.

٥٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (القَوِيُّ):

معناه صاحب القوّة التامّة والمبالغة الكاملة. والقوّة والقدرة صفتان لموصوف بهما، قَالَ تَعَالَى:

((وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً {٢٥})) الأحزاب

((وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً {٢٧})) الأحزاب

و الله سـبحانه لمَّا أوجدَ الأشـياءَ للحكمةِ التي قدَّرها، والسرِّ الذي أرادَهُ والمشـيئة التي أرادها من وجودهم، مَنَّ الله سـبحانه عليهم بقوّةٍ وقدرةٍ وتجلّى عليهم بعظمتِهِ وجلالتِهِ وأمَرَهم بتوحيده، فاهتزَّ العرشُ لهيبته إلى أن أفاضَ عليه من القوى الإلهية ما قوي به على توحيد الحقّ.

ثمّ أخذَ الكرسي وعظمته واتسـاع أرجائه وتجلّى عليه بعظمتهِ ورهبتهِ فاضـطربَ وَهَانتْ صُـوَرُ الموجوداتِ في باطنه إلى أن أظهرَ عليه من اســـمه تعالى (القوي) قوّةً قَوِيَ بها عَلَى توحيد الله، ثمّ خلقَ القلمَ وأمرَهُ بتوحيده وأفاض عليه من قوّتهِ ما قوِيَ به على توحيده، وخلقَ اللّوحَ المحفوظ وأمرَهُ بتوحيده بعد أن أظهرَ عليه من قوّتهِ ما قدّره على توحيده، ثمّ خلَقَ الســموات والأرضـــين وأمرها بتوحيده فلمْ تُطِقْ بل هامَتْ في بحار الهيمان إلى أن وَهَبَها اللهُ نوراً من أنوار قوّته وجبروته فوحَّدتْهُ، وكذلك الأنفسُ والأجسـامُ والعقولُ والقلوب والصـدور كلُّها خاضـعة لقوّتهِ وجبروته وبقوّتهِ وحّدتْه.

ومَنْ أكثر من ذكر هذا الاسـم الشريـف سـهَّل الله له أبواب القوّة في جسـمهِ وعقلهِ وحواسـه. والله أعلم.

٥١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المَتِيْنُ):

لاَ يُطْلَقُ هذا الاسـم إلاَّ على من تسـمَّى به إذ أنَّ المتانةَ والصـلابةَ لا تكونُ إلاَّ للأجسـامِ والحقُّ منزَّهٌ عن ذلك، والمعنى اللائق به أنَّ القوَّةَ تدلُّ على القدرة، والمتانةَ تدلُّ على شـــدّةِ القوّةِ، واللهُ سـبحانه مُتِمٌّ قَدَرَهُ وبالغٌ أمرَهُ، فهو تام القدرة، ومن حيث أنّه شـديد القوة والقدرة وكان المتين في ذلك قريباً من معاني القدرة.

ومَنْ أكثر من تلاوة هذا الاسم نال القوة وحماه الله من الضعف والشياطين. والله أعلم.

٥٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَلِيُّ):

هو المتولي أمر عباده، وهو بمعنى المجيب المعطي لأوليائه. قَالَ تَعَالَى:

((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ {١١})) محمد

والوليُّ هو القريبُ، فالله سبحانه هو الذي ينزلُ الغيث، و ضعَ رحمتَهُ بالإيمان في أ صل القلوب بعد أن كانت نيرانُ الكفرتلتهمها، وجعلها بقَدْرِ قواها، مَنْ أشرقتْ إلى الاحتياج لله أنزلَ عليها غيثه وقوّاها بالإيمان الموصــلِ للحقيقة والنجاة. ومَنْ ناجى ربَّه بهذا الاســم يعطيه اللهُ الولايةَ بينَ الناسِ والهيبةَ في قلوبهم، ويفتح له أبواب الخيرات. والله أعلم.

٥٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَمِيْدُ):

هو المحمودُ المُثْنَى عليه بما أثنى على نفســه، وذلك معنى الجلال والجمال والكمال. والحمدُ هو حقيقة البقاء وسرّ الدار الدائمة، وذلك أنّه حَمَدَ ذاتَهُ لذاته، وأمَرَ عرشَــهُ أن يحمدَهُ، فحمدهُ، وأمرَ كرســيَّه أن يحمده فحمدهُ بالنســبة لما فيه من عَدَدِ الموجودات. وأمرَ القلمَ أن يحمدَهُ فحمدَهُ بالنســبة لما فيه من عَدَدِ رحمتهِ، وأمرَ الســموات والجنَّةَ والنار أن يحمدوهُ فحمدوهُ، ثمّ جمعَ اللهُ حَمْدَ الأوّلين والآخرين في أم القرآن (سورة الفاتحة) كما أن الحمد في الجنّة هو أم النعيم والبقاء. قال تعالى:

((دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٠})) يونس

والحمدُ على أربعة أقســام: حَمْدُ تعظيمٍ، وحَمْدٌ على كلِّ حالٍ، وحَمْدُ اللهِ على إلهامهِ الحَمْدَ لخَلْقِهِ، وحَمْدُ اللهِ تَعَالى لنفسِــهِ. والمتقرّب للهِ بهذا الاســم يلازمُ الحمدَ لله على كلّ حال، فالحمدُ للهِ على صحّةِ الأَجسامِ والحمدُ لله على صِحَّةِ العقل، والحمدُ لله الذي أوجدنا وَلَمْ نَكُ قبلاً شيئاً. ومن أكثر من ذكر اســمه تعالى الحميد رفع الله قدرهُ وســهَّل الأمور الصعاب عليه، وخفَّفَ عنه المُصَاب. والله أعلم.

٥٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُحْصِي):

معناه العالِمُ بالشيــء جملةً وتفصــيلاً، وهو بنفس معنى العالِم والعليم. واللهُ هو المحصيـ بخفيّات الأمور والموجودات قبل وجودها على الصور والمثال. وهو العالم

بمثاقيل الشهوات والعرش والكرسي والحُجُبِ العوالي وعدد النجوم وأوزان الأفلاك الثقال وأوزان الأرض والجبال، وقطر البحار والأمطار وعدد جميع الحيوانات وأوراق الأشـــجار والرمال والأحجار والإنس والجان وعدد ما يصدر عنهم من أنفاس.

ومن أكثرَ من ذكر هذا الاسم فتح اللهُ عليه المعارف والعلوم وأطلعه على حقائق الأشياء. والله أعلم.

٥٥ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (المُبْدِىءُ) (المُعِيْدُ):

المُبْدِىءُ هو الذي يوجدُ ما لم يكنْ مســـبوقاً بمثله. المُعِيْدُ هو الذي يعيدُ من العَدَمِ إلى الوُجود. والله تعالى هو الذي أوجد الخَلْقَ والكونَ من العَدَمِ ولم تكن موجودة من قبل فأوجدها بـ شكل ليس له شـبيه، وهو الذي يعيد الأشـياء التي أزالَهَا إلى الوجود، فالأشـياء كلّها منه بدأت وإليه تعود. ومَنْ لازم ذكر اسمه تعالى المُبْدِىءُ يطلعه اللهُ على حقائق الإبداعات ويحقّق له النجاح في كل ما يعمل.

ومن لازم ذكر اسـمه تعالى المعيد رَدَّ اللهُ عليه ما أضـاعَهُ ورفع قدره وفتح عليه أبواب الخيرات والعلوم اللدنيّة وشرح صدره وهداه للإيمان. والله أعلم.

٥٦ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (المُحْيِي) (المُمِيْتُ):

المحيي مشـتق من الحياة ومعناه المُوْجِدُ من العَدَمِ، والمميتُ من الإماتةِ مشـتق ومعناه مُعْدِمُ الوُجود. فلا خالق محيي ولا مميت إلاّ الله سـبحانه، وهو خالقُ الموتِ والحياةِ حتماً على العبادِ للابتداء بما يختار من الصلاح والفساد، وقدّر لكل أحدٍ رِزْقَهُ وأجَلَهُ، وأقواماً بالمعاصي وجازاهم بالخزي والأخذ بالنواصي، وقدّر أقواماً بالطاعات وأثابهم بالعزّةِ والجنَّةِ والسرور.

ومَنْ داوم على ذكر هذين الاسمين المكرّمَيْن فتح الله له أبواب الخير. والله أعلم.

٥٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الحَيُّ):

مشـــتق من الحياة والحيُّ هو الباقي الأبد الذي لا يموت، ومعنى الحيّ الحركة ظاهراً وباطناً فتظهر بذلك القدرة والحكمة، وهو الفاعل المدرك لحياة كل مخلوق وهو الحيّ الأزليّ ضـــد الموت والفناء والزوال، وهو الباقي الأبد الذي لا يطلع عليه شيء من الغنى والفقر لشيـــءٍ، وهو القديم الجبّار أبدى الوجود بالذات، سرمدي[1] النعوت والصفات، هو الله سبحانه واهب الحياة. قَالَ تَعَالَى:

((هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٦٥})) غافر

ومَنْ أكثر من ذكر هذا الاسـم المبارك يحيي الله قلبَهُ بالإيمان وأنفاسـه بالذكر ويقضي حاجته. والله أعلم.

٥٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (القَيُّومُ):

هو مبالغة من القيام، والقائم. والقيّوم هو الذي يقوم به كلّ موجود حتّى لا يتصـور الأشـياء بدوام وجوده الأبد، فهو القيّوم لأنَّ قوامه بذاته، وقوام كل شيء بعوالم، ولا يظهر تجلّي هذا الاسـم إلاَّ في الآخرة، فالله أقام عوالم ملكوت السـموات والأرض على عالم المُلْكِ بقيّومته وتدبير الأطوار بقيّومته.

وأقام العقول وأقام العالم الملكوتي والفطرة وأخذ الميثاق وأقام الأجساد والأرواح والجنة والنار.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم المعظّم عطف الله عليه قلوب الناس ومنحه الوقار والقبول. والله أعلم.

---

(١): السَّرْمَدِيُّ: هو الباقي الدائمُ الأزليُّ.

٥٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَاجِدُ):

هو الذي لا يفوته شيءٌ ممّا لا بدّ منه، وكل ما لا بدّ منه من صفات الألوهية وكمالها موجود.

والله تعالى عند هذا الاعتبار واحدٌ واجدٌ مطلق. وهو موجدُ الأشياء من العدم.

ومن أكثر من تلاوة هذا الاسم المبارك أرشده الله تعالى إلى أصل الموجودات وكشف له الأسرار في المخلوقات، وأدام عليه الخيرات والرزق. والله أعلم.

٦٠ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الوَاحِدُ) (الأَحَدُ):

الواحد اصطلاحاً هو أوّل الأعداد. والأحدُ هو الذي لا يتجزّأ كالجوهر الفرد، وهو الواحدُ الذي لا ينقسم ولا جزء له، كالنقطة لا جزء لها. والله تعالى واحد يستحيل عليه أن يكون جوهراً منقسماً، والذي لا يثنّى ولا يُجمع فهو لا نظير له ويمكن أن يكون في كل وقتٍ، فهو الله سبحانه وحده لا شريك له. قَالَ تَعَالَى:

((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {١} اللَّهُ الصَّمَدُ {٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ {٤})) سورة الإخلاص

وهذان الاسمان هما لله تعالى وحده. فمن أكثر من ذكرهما رزقه اللهُ المعرفةَ والعلم. والله أعلم.

٥٦ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (القَادِرُ) (المُقْتَدِرُ):

معناهما واحدٌ وهو ذو القدرة، لكنَّ المقتدرَ أكثر مبالغة، والقدرة عبارة عن المعنى الذي وُجِدَ به الشيء، والمقتدرُ بتقدير الإرادة والعلم، والقادرُ هو الذي إن شاء فَعَلَ. فاللهُ تعالى قادر على قيام القيامة إلاَّ أنّه لو شاء أقامها الآن، وإن كان لا يُقيمها لأنَّهُ لم يشأهَا، لِمَ جرى من سابق علمه من تقدير أجلِهَا ووقتِها. والله سبحانه مخترعٌ لكلّ موجود اختراعاً انفرد به ومستغنٍ عن مُعَاونةِ غيره في ذلك. وأمّا العبدُ

فله قدرة في الجملة لكن ليست مثل تلك القدرة بل يخترعُ المقدورات بواسطة قدرته وجميع أسباب الوجود المقدورة.

ومَنْ داومَ على ذكر هذين الاسمين شفاه الله من العِلَل وقهر أعداءَه. والله أعلم.

٦٢ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (المُقَدِّمُ) (المُؤَخِّرُ):

المُقَدِّمُ هو الذي يقرّب منه عبادَهُ المؤمنين، المُؤَخِّرُ هو الذي يبعد عنه الكفّار ويؤخّر مراتبهم. فقد قرَّب اللهُ تعالى أنبياءَهُ وأولياءَهُ بقربِهِ وهدايتهِ لهم، وأخَّرَ أعداءه بإبعادهم وضربَ الحجابَ بينه وبينهم، والتقدّم قد يكونُ في المكان أو في الرتبة، وهو مضاف لا محالة إلى متأخّره، ولا بدّ فيه من قصدٍ هو الغاية بالإضافة إليه لتقدّم ما تقدَّم وتأخُّر ما تأَخّر، والقصدُ هو الله تعالى. والتقديم والتأخير في الرتبة فيه إشارة إلى أنّه تعالى لم يتقدّم من تقدَّم بعلمه بل بتقديم الله إياه، وكذا المتأخّر، قَالَ تَعَالَى:

((إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ {١٠١})) الأنبياء

ومَنْ أكثرَ من تلاوة هذين الاسمين جَعَلَ اللهُ له الهيبة والمحبّة في قلوب الخَلْق ورفعَ قدره وأمدّه بعلومٍ إلهية. والله أعلم.

٦٣ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الأَوَّ لُ) (الآخِرُ):

الأَوَّلُ: هو الذي يكون أوّلاً بالإضافة إلى شيء. الآخِرُ: يكونُ آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان، ولا يتصوّر أن يكون الشيء الواحد من وَجْهٍ واحدٍ بالإضافة إلى شيءٍ واحدٍ أوّلاً وآخِراً.

بل إذا نظرتَ ترتيب الوجود، ولاحظتَ سلسلة الموجودات المدركة لله تعالى بالإضافة إذ أوّل الموجودات بكمال ا ستعداد الوجود منه، وهو موجود بذاته، والجميع ا ستعداد للوجود من غير. وإذا نظرتَ من ترتيب سلوك السالكين إليه فهو

آخر، إذ هو آخر ما ترتقي إليه درجات العارفين، فهو آخرٌ بالإضافة إلى السلوك، أوّلٌ بالإضافة إلى الوجود فمنه المبدأ أولاً، وإليه المصير أوّلاً وآخراً.

فالأوّليةُ صفةٌ ذاتيةٌ وتوحيدٌ لوجودِهِ، والأُخرويةُ صفةٌ قائمةٌ لخلقهِ وبقائه بعد فنائهم كما كان قبل وجودهم، فالأوليّة إخبار عن قِدَمِهِ تعالى والأُخروية إخبار عن استحالة عَدَمِهِ.

ومَنْ أكثر من تلاوة هذين الاسمين نال المحبة والقبول عند الناس، والله أعلم.

٦٤ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الظَّاهِرُ) (البَاطِنُ):

الظَّاهِرُ هو الذي إن طلبْتَهُ بطريق الاســـتدلال وَجَدْتَهُ، وهذا إخبارٌ عن قدرتهِ تعالى. والبَاطِنُ هو الذي لا يدرك بالحواس وهو إعلامٌ بحكمتهِ تعالى. واللهُ ســـبحانه اســـتعبد مخلوقاته بالظاهر والباطن، عندما قال تعالى:

((وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ {٥})) سورة البينة

فالعبادةُ من حيث العمل الجســـماني هي ظاهرة، ومن حيث الخلاص القلبي هي باطنة، والعبادة الباطنة دون الظاهرة هي بقوله تعالى:

((وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ {٢١})) الذاريات

والعبادة بالظاهر دون الباطن هي بقوله تعالى:

((أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ {١٧})) الغاشية

ومَنْ واظب على ذكر هَذين الاسمين (الظاهر والباطن) نوّر اللهُ قلبه وأعطاه كل ما تمنَّاه. والله أعلم.

٦٥ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الوَالي) (المُتَعَالِي):

إنّ اسمه تعالى الوَالي لم يردْ في القرآن الكريم، ومعناه: مالكُ الأشياء والمستولي عليها والمتصرّف فيها بمشيئته وأمره، ينفذ فيها حكمه ويجري عليها أمره، فإنّه جلّ وعَلاَ منفرد بتدبيرها، وهو المنفذ للتدبير بالتحقيق والقائم عليها بالإدامة والإبقاء.

المُتَعَالِي ورد في القرآن الكريم، وهو مشتق من العلو، مع مبالغة وله نفس المعنى من الاسم (العليّ).

ومن أكثر من ذكرهما زاد الله من قدره. والله أعلم.

٦٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البِرُّ):

هو الحقُّ والخيرُ والبرُّ المطلقُ وهو الذي منه كُلُّ مسرَّةٍ وإحسانٍ، ويكونُ العبدُ برّاً بقدر ما يتعاطى من البِرِّ ولاسيّما بوالديه ومعلميه وضعفاء أهله وعشيرته، وبِرُّ الله تعالى ولطفه بعبده المؤمن أن جعلَهُ من أهل اليمين وألهمه الإجابةَ على الرضا عنه، وبِرُّهُ تعالى بأن أرسل الرُّسُل والكتب المنزَلة ورزق الأنبياء القبول عنده وهذا من أعظم البِرِّ، وألهم عبده بالقيام بالشرائع وسخّرَ له ما في السموات والأرض. قَالَ الله تَعَالَى:

((وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {١٣})) سورة الجاثية

ومن بِرِّه تعالى بالإنسان أن ستر قبائح فعله عن الملائكة باستغفاره فعليه أن يبِرَّ قلبَه بالإخلاص، والنفسَ بالمخالفات للشهوات، فالنفوس إذا بررتها بالأعمال الصالحة تظهر لكَ أوصافها.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم فتح الله بكلام الحكماء والعارفين. والله أعلم.

٦٧ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (التوَّابُ):

مشتق من التوبة، وهو مبالغة معناه الذي يسهِّلُ أسباب التوبة لعبادِهِ مرّةً بعد مرَّةٍ، بِمَا يُظهِرُ إليهم من آياته ويسوق إليهم من تنبهاته، ويطلق عليهم من تخويفاته وتحذيراته. قَالَ تَعَالَى:

((وَهُوَ الَّـذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّـيِّئَـاتِ وَيَعْلَمُ مَـا تَفْعَلُونَ{٢٥})) سورة الشورى

والتوبةُ مقبولةٌ إذا أقلَعَ المرءُ عن الذنوب كبيرها وصغيرِها، وعزمَ على أن لا يعود لها، ورَدَّ المظالمَ إلى أهلها. ومَنْ أكثر من ذكر اسـمه تعالى (التوَّاب) تابَ اللهُ عليه وغفر ذنوبه وفتح له أبواب الرزق. والله أعلم.

٦٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُنْتَقِمُ):

هو الذي يقصـم ظهور العُصَـاة، ويشـدّد العقاب على الطُّغَاة بعد الإنذار والإعذار، وهو أشـدُّ انتقاماً من المعاجلة بالعقوبة. فإنّ من عاجَلَ بالعقوبة لم يمضِ في المعصية فلم يستجبْ غاية الإنكال في العقوبة. والمحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله، وأعداء الأعداء، وهي نَفْسُ الإنسـان فإنّه يَنتقم منها إذا تركت العبادة واتَّجهتْ نحو المعاصي وذلك بإجبارها على العودة للعبادة وترك ما كانت تحبّه.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم نصَرَهُ اللهُ على أعدائه وانتقم له منهم. والله أعلم.

٦٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (العَفُوُّ):

ومعناه الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من معنى اسـمه تعالى (الرحمن الرحيم) والغفران ينشأ في السرِّ، والعفو ينشأُ عن المحو، والمحو أبلغ من السرِّ، وحظّ العبد من هذا لا يخفى، وهو أن يعفوَ عمَّنْ ظلمَهُ ويُحسِنَ إليه والله

تعالى محسِـــنٌ على الإطلاق، ولا يعجّل بالعقوبة للعُصَـــاة والكفّار ويتوب عليهم ويعفو عنهم بفضله وكرمِهِ.

ومَنْ أكثر من ذكرهذا الاسم الكريم أمَّنَهُ الله من ظلم الناس. والله أعلم.

٧٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّؤُوفُ):

ومعناه ذو الرأفة، وهي شـــدّة الرحمة، والرؤوف بمعنى الرحيم. فالله ســـبحانه هو الموجود والحيّ القيّوم ذو الرحمة الواسـعة التي وسـعت كل شيء، فهو يُضـاعف الحسـنات ويرفع المؤمنين بالدرجات، رؤوف بعباده، حتّى الكفَّار منهم، لأنّه يعلمُ مقدار ضـعفهم، ويبقي باب رحمته مفتوحاً أمام العصاة حتّى يتوبوا.

ومَنْ أكثر من تلاوة هذا الاسم المبارك غرس الله الرأفة بقلبه ومنحه العطفَ. والله أعلم.

٧١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (مَالِكُ المُلْك):

ومعناه الذي ينقل مشـــيئته في خَلْقِهِ كيف شـــاء، أو كما يشـــاء إيجاداً وإعداماً، وبقاءً وفناءً. والمالك يعني القادرُ التامُّ القدرة، والموجودات ملكُه، ومالكُها يعني قادرها، والمُلْكُ يعني الحُكْمَ والإرادة، والموجوداتُ كلُّها مملكةٌ واحدةٌ لأنَّها مرتبطة بعضها ببعض. فَبَدَنُ الإنسان رغم كثرةِ أعضائهِ واختلافها لكنّها متعاونة على تحقيق العَرَض المدبّر الواحد وهو حقيقة الإنسان.

والعالَمُ رغمَ اتّساع أعضائه فهي متعاونة على مقصود واحدٍ وهو الغاية التي اقتضاها الوجود الإلهي. فالله سـبحانه مالِكُ المُلْكِ بقدر ما اقتدر القدرة الإلهية مطلقاً. واسـم (مالك المُلك) هو اسـم الله الأعظم كما جاء في بعض الروايات والأحاديث.

فمَنْ أكثر من ذكره نالَ الرفعةَ والرزق والعفو وكلَّ ما طلبه، شرط الإكثار والمواظبة على التلاوة مع إخلاص النيّة لله سبحانه. والله أعلم.

٧٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (ذو الجلال والإكرام):

الجلالُ هو صفةُ ذاتِهِ، الإكرامُ صفةُ فعلِهِ المقتضية على خلقِهِ. واسمه تعالى (ذو الجلال والإكرام) مختصّ بكرامةِ العالَم الآدميّ. قَالَ تَعَالَى:

((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً {٧٠})) الإسراء

والإكرام هو الإنعام على عبيده الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر بإســباغ النعم وتتابع الآلاء والفضــل العميم. وتكرّم الله ســبحانه على عباده المؤمنين بأن أقامهم على خدمته وعَلَّمَهم أســباب قدرته، وأشهدهم حقائق درجاتهم في حياتهم.

وجلاله سبحانه عمَّ جميع الأكوان بهيبة جلاله ورهبته وعظمته إلى يوم القيامة.

ومَنْ واظب على هذا الاسم المعظّم رزقه الله الهيبة والرفعة. والله أعلم.

٧٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المُقْسِطُ):

هو الذي ينصــف المظلوم من الظالم، ويرد كيد الظالم في نَحْرِهِ، أو يرضى المظلوم من الظالم، وذلك غاية العدل والإنصــاف ولا يقدر على ذلك إلاَّ الله تعالى. والله ســبحانه المحيط بدقائق ما كان وما يكون في العوالم، المُطَّلِعُ على ما تخفيه النفوسُ في الصــدور، وما تظهره الأفعال والأقوال في جميع الأمور. وإنّ الله سبحانه يحب من عباده المتحلّين بهذا الاسم. يقول تعالى:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٩})) سورة الحجرات

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم أطفأ اللهُ غضَبَهُ وغضبَ الناس عليه. واللهُ أعلم.

٧٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الجَامِعُ):

هو المؤلِّفُ بين المتماثلات والمتضـــادّات والمتباينات. وجَمْعُ اللهِ بين المتماثلات من حيث جَمَعَ الخَلْقَ الكثير من الإنسان على وجه الأرض ويحشرهم في صعيدٍ واحدٍ.

وجَمَعَ المتباينات من الســموات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والمعدن، وهي مختلفة الأجناس، ويجمع بين كل الأ شكال والألوان والطعوم والأصناف، وجمعَ الكُلَّ في العالم، وجمعَ المتضـــادّات بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوســـة في أمزجة الحيوانات، وهي من المتنافرات المتضادّات.

ومَنْ أكثرَ من تلاوة هذا الاسم الشريف جَمَعَ اللهُ بينه وبين أحبابه الغائبين. والله أعلم.

٧٥ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الغَنِيُّ) (المُغْنِي):

الغنيُّ هو الذي لا يحتاج إلى غيره في شيءٍ، لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا اتّفاق له بغيره، بل يكون منزّهاً عن العلائق. والله تعالى هو الغنيّ المطلق، وبغناه يصـــيرُ مَنْ شـــاء غنياً. والمغني هو الذي لا حاجة له إلى أحدٍ من الخَلْقِ أصلاً. قَالَ تَعَالَى:

((يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّـهِ وَاللَّـهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ {١٥})) سورة فاطر

الله ســبحانه جَعَلَ الغنى في الإنســان، في غنى نفســه، فقد يكون الإنســانُ فقيراً جداً، ولكنّه مستغنٍ عن كلّ ما هو له ـ عدا الله سبحانه ـ فيصبح عند الفقراء والناس غنيّاً متحمّلاً. قَالَ تَعَالَى:

((لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ {٢٧٣})) سورةالبقرة

أمّا الإنسان الراكض خلف الدنيا، الذي انقطعت صلته بربّه فهو فقير إلى العالم ويدعى بينهم فقيراً.

ومن أكثر من ذكر هذين الاسمين أغناه الله عن الناس وبارك له في رزقه وأعطاه البركة في الأعمال والأفعال والأرزاق. والله أعلم.

٧٦ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (المَانِعُ):

هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخالفه من الأسباب المعدَّة للحِفظ، فالمانع قريب من معنى اسمه تعالى (الحفيظ)، فَمَنْع إضافة السبب المُهلك إلى الشيء هو حفظٌ إلى المحسوس عن الهلاك وهذا مَنْعٌ.

فالمنعُ إيراد الحِفْظ، والحفظُ إيراد المنع. فكلُّ حافظٍ مانعٌ وليس كلُّ مانعٍ حافظاً إلاّ إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع الأسباب المهلكة.

ومن أكثر من ذكر هذا الاسم مَنَعَ الله عنه كلَّ شرٍّ أو عدوٍّ يريدُ إيذاءه. والله أعلم.

٧٧ ـ شَرْحُ اِسْمَيْهِ تَعَالَى (الضَّارُّ) (النَّافِعُ):

هو الذي يصدرُ منه الخير والشرّ، والنفعُ والضرُّ، وكلُّ ذلك منسوب إلى الله تعالى، إمّا بواسطة الملائكة والإنسِ والجمادات أو بغير واسطة. فلا السمُّ يقتلُ ويضرُّ بنفسه، ولا المَلَكُ والإنسانُ ولا الشيطان أو شيء من المخلوقات أو الكواكب أو غيرها يقدّم خيراً أو شرّاً أو ضُرّاً بنفسه، بل ذلك أسبابٌ مسخّرةٌ لا يصدّ عنها إلاّ ما سُخِّرتْ له، وإذا حَمَلَ ذلك بالإضافة إلى القدرة الإلهيّة، فالقلم بالإضافة

للكاتب، والإنسان لن ينالَ ممّا سطّر القلم خيراً أو شرّاً، بل بما هو مسخّر للقَلم في يد الله تعالى. وإنّ الإكثار من تلاوة اسمه تعالى النافع يجلب الخيرات والرزق. والله أعلم.

٧٨ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (النُّورُ):

هو الظاهرُ الذي ظَهَرَ كلّ الظهور، فإنَّ الظاهر في نفسه، المُظْهِر لغيره سُمِّي نُوراً، والنور قسمان: جسمي ومعنوي. فالنورُ المحسوسُ هو نورُ البصر وقد أودعَ اللهُ فيه كما أَوْدَعَ لذوي البصائر في أعين قلوبهم سرَّ التدبير والاعتبار فيظهر على حاسة البصر، ونوره ينقسم على: نور القلب ونور الإيمان ونور النفس ونور الروح ونور العقل ونور السرّ ونور الكشف.

فمن فاض عليه النور الإيماني قَبِلَ التكاليف الشرعية والأوامر الإلهية. وإذا قابلتْ عيونُ قلوبهم النورَ الإيماني كشفَ الله لهم عِلْمَ المُلْكِ وعالمَ تركيبهم وما أودعَ اللهُ في أطوارهم.

ونور النفس من نور الروح، فمن استقامت نفسُه بالطاعة والطهارة قابلتْ نورَ الروح من الله تعالى. ونورُ العقل من نور السِرِّ، فمَنْ استقامَ عقلُه عرف دعاء ربِّه وخالقه، وأسقطَ مَنْ سِوَاه حتّى ينظرَ بوجه السرِّ ويشاهد عجائب الملكوتيات.

ونور السرِّ من نور القرآن، فمَنْ ظهرَ سرُّه من ملاحظة الأعيان والغنى عن الخَلْق يتلقّى من أنوار التحقيق وحقائق المعارف وأنوار التجلّيات هذا النور الذي يسبح في أنوار القرآن، ونور القرآن هو نور الله تعالى وهو الكشف الأعلى. قَالَ تَعَالَى:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً {١٧٤})) النساء

((اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.... {٣٥})) النور

ومن أكثر من تلاوة هذا الاســم المكرّم أنار اللهُ قلبَه بالإيمان وأكســبَهُ الهيبةَ والوقارَ بين الناس واستجابَ دعاءه. والله أعلم.

٧٩ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الهَادِي):

هو الذي فَطَرَ الذرّ[١] وهَدَى إلى معرفته حتّى أُجيبَتِ الدعوةُ وقد أضــافَ اللهُ ســبحانه الهدى إليه، بقوله تعالى:

((وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ{٧٣})) آل عمران

ومَنْ سَلَكَ طريقاً إليه فقد هَدَى واهتدى. واللهُ سبحانه هَدَى كلّ مخلوقٍ لمعرفته بدلائل إتقان صــنع المخلوقات، وهَدَى العاصي إلى معرفته، وهدى الأطفال في صــغرهم إلى الارتضــاع، والطيرَ إلى الالتقاط في بقاع الأرض. ومن يلازم تلاوة هذا الاسم يهدي الله قلبه إلى العمل الصالح. والله أعلم.

٨٠ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَدِيْعُ):

هو البديع في ذاته لا يماثله أحد في صفاته ولا في حُكْمٍ من أحكامه، وأمرٍ من أوامره، فهو البديع المطلق، وليس بديع إلاّ الله تعالى. قَالَ تَعَالَى:

((بَدِيعُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَــاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {١٠١})) الأنعام

فالله تعالى بديعُ الســموات والأرض وجميع المخلوقات بغيرِ مثالٍ، وقد اخترعهم بلا معينٍ ولا شريكٍ ولا دليلٍ ولا عمادٍ.

(١) الذَّرُّ : الخَلْقُ أو الخَلِيقَةُ . وفَطَر الذَّر يعني أنشــأه لأوّل مرَّةٍ على غير مثال ســابق أو صــورة مماثلةٍ

ومَنْ لازم ذكر هذا الاسـم فتَحَ اللهُ عليه المعرفة للإبداع وفتح قلبه وعقله لسرِّ الله في إبداعه. والله أعلم.

٨١ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (البَاقي):

هو الذي لا ينقطع وجودُهُ أبداً، وهو واجب الوجود لذاتهِ، ولكنّه إذا أُضـيف إلى الذهن كان أتمّ للا ستقبال فيسمّى باقياً، وإذا أُضيف إلى الماضي يُسمّى قديماً. والباقي هو الذي لا ينتهي تقديرُ وجوده بالماضي فهو أوّل أزليّ. والواجب الوجود بذاته يتضمّنُ جميع ذلك. والله سبحانه لم يتغيّر من ذاته شيءٌ قبلَ خَلْق الزمان ولم يكن للزمان عليه جريان ويبقى بعد الزمان على ما هو عليه. فالله سبحانه وتعالى هو الباقي الصمد القيّوم الأزليّ الحي الباقي في الأزل بعد زوال الأسباب والعلل.

ومن داوم على ذكر هذا الاسم فتح الله عليه أبواب الخير والمسرّات. والله أعلم.

٨٢ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الوَارِثُ):

هو الذي ترجع إليه الأملاكُ بعد فناء المُلاَّك وذلك هو الله تعالى. وهو الباقي بعد فناء الخلائق أجمعين وإليه يرجع كلُّ شيء ومصيره، وهو القائلُ سبحانه والمُجيب بقوله تعالى:

﴿ (يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {١٦}) ﴾ سورة غافر

وقد ظنَّ الأكثرون ظنوناً لأنفسـهم مالكاً ومُلْكاً فَكشـفَ لهم في ذلك ليروا حقَّ اليقين وهي حقيقة ما يُكْشَف لهم.

ومن لازم ذكر هذا الاسم أورثه الله كلَّ ما يريد من نعيم وخيرات. والله أعلم.

٨٣ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الرَّشِيْدُ):

هو الذي تساق إليه الأمور فيُحْسِنُ تدبيراتها إلى غايتها على سُنَنٍ واحدةٍ من غير إشارةٍ إلى مشير ولا إرشاد مرشدٍ، وليس ذلك إلاَّ الله تعالى وهو الذي أرشد الخلائق إلى هدايته بالرشد والصواب والسداد، وألْهَمَ الذاكرينَ التوفيقَ بالإقبال والاعتماد عليه.

ومن لازم ذكر هذا الاسم أرشده اللهُ إلى الخير ووَفّقَهُ في حياته. والله أعلم.

٨٤ ـ شَرْحُ اِسْمِهِ تَعَالَى (الصَّبُوْرُ):

هو الذي لا تحملُهُ العَجَلَةُ على المُسَارَعةِ إلى الفعل قبل أوانه، بل يترك الأمور بقَدْرٍ معلوم ويجريها على سُنَنٍ معدودةٍ، ولا يؤخّرها عن أجلها المقدور، ولا يقدّمها على أوقاتها، ويودع كلّ شيءٍ في أوانه على وَجْهٍ اقتضاه من الحكمة الإلهية. وهو على أقسامٍ: صَبْرُ الرُّوْحِ هو التلقّي لنعيم الجِنَان، وصَبْرُ القلب على ما أودعه الله تعالى، وصَبْرُ العقلِ على ما يقتضيه الدليلُ من الأفعال، وصَبْر الجسم على ما يقاسي من الأمراض والعِلل. والعبدُ لا يُسمّى صبوراً لأنّه مقهورٌ عند العَجَلَةِ، والحقّ تبارك وتعالى منزّهٌ عن العَجَلة، ولم يكنْ أحدٌ أكثر صبراً من الله تعالى، فهو ينظرُ العاصين في معاصيهم وهو قادر على إهلاكهم ولا يعذّبهم بذلك في الدنيا بل يمهلهم.

ومن داوم على ذكر هذا الاسم أصلح اللهُ حاله وصبَّر قلبَهُ على صعاب الأمور، والله أعلم.

تَمَّتْ شُرُوْحَاتُ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى بِحَمْدِ اللهِ وَمنِّهِ.

الباب الثالث

حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ

ذكرت الكتبُ المقدسـة كثيراً من المواعظ على لسـان ربِّ العزَّةِ والجلالة سـنذكر منها في هذا الفصـل بعضـاً من المواعظ والحِكَم تحملُ الكثير من النفع لذوي الاعتبار، ولقلوبٍ مَلأها حُبُّ الله وخشيتُهُ، ولعقولٍ صَفَتْ من كَدَر المادّة و سعت نحو الخالق البارئ، سبحانه فهو لطيفٌ بعباده، قد دعاهم إليه رِفْقَاً بهم وهو مستغنٍ عن جميع المخلوقات. والحمد لله.

يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:

يا عبدي! وعزّتي وجلالي، وبهائي وكمالي! إنّي أعلمُ بكَ من حَالِكَ، وقبيح فِعَالِكَ ما لو عَلِمَ به أهلُكَ لَبغضوكَ، أو عَرَفَ به معارفُكَ أو جيرانك لَهَجَروكَ، وإخوانُكَ لَرجموكَ، أو رؤوكَ على تلكَ الحالةِ وأنتَ مريضٌ ما عَلَّلُوكَ، أو ميّتٌ ما كفَّنوكَ، وأنا أسترُ عليكَ فلا يَطّلعُ عليه غيري ولا يعفوه سواي، ولا يضّرني ذلك ولا يبعدني منكَ إذا أبَيْتَ. ولو أعرضتُ عنكَ ساعةً واحدةً، أو وكَّلْتُكَ إلى سواي لحظةً واحدةً لَمَزَّقَتْ بكَ كلُّ ممزّقٍ، وزَلزلتْ بكَ الأرضُ، وتدكدكَتْ بكَ الجبالُ، ومحتْكَ الآثارُ، واختطفتكَ الذئابُ، وافترستْكَ السباعُ، وذرتْكَ الرياحُ، لكنّي أُمهلُكَ بحلمي، وأسترُ عليك بكرمي، وأجودُ عليكَ بنِعَمِي ولا أعاجِلُكَ بنِقَمي، عَلَّ يَعْطِفُكَ عليَّ افتقارُكَ وحاجتُكَ إليَّ، وتذكّرُكَ وقوفكَ بين يديَّ فتستحي من قبيح فعلك وجرأتِكَ عليَّ.

يَا عَبْدِي!

تفعلُ سيئةً بعد سيئَةٍ، وقبيحةً بعد قبيحةٍ، ورذيلةً بعد رذيلةٍ، وخَزيةً بعد خزيةٍ أنا أستحي منكَ حياءَ الكَرَمِ، وأنتَ لا تستحي منّي حَيَاءَ النَّدَمِ.

يَا عَبْدِي!

هل رأيتَ مولىً يستعطفُ عبدهُ ويدعوه إليه ويَلْطِفُ بالسؤال عليه، كأنَّه ذو حاجةٍ إليه. وها أنا أوصلك بكتبي وأراسلُكَ برُسُلي وأنتَ تعصي أمري، وتكذّبُ رُسُلي، لقد رضيتُكَ بنقصِكَ أما ترضاني بكمالي، وقد أحببتُكَ على قبحِكَ أفما يعجبُكَ جمالي؟ أما ترضاني أن أكون لك أنيسا أما يكفيك أن أكون لك جليساً، أين تجدُ مثلي حبيباً، وأين تجدُ أشفق مني طبيباً.

يَا عَبْدِي!

إن كُنْتَ لي طالباً وفيَّ راغباً، فما بَيْننا حجابٌ ولا عَلى أبوابنا بوّابٌ أنا الذي إذا دُعِيَ أجاب، أنا الذي أجتبي إليَّ من أشاء وأهدي إليَّ مَنْ أناب، أنا الذي أخبرتُ عن كرمي، وأنا الغفّار لِمَنْ تابَ، فلَسْتُ بعيداً مِنْكَ، ولا محجوباً عنك ولكن أنتَ حِجابُ نَفْسِكَ، هي تحجبُكَ عنّي وتبعدُكَ منّي، لأنَّها تدعوك إلى حُضُوضها وتتقاضى منك حقوقها، وتستعبدُكَ في منافعها وسهواتها وتستخدمك في مصالحها ولذّاتها، ومَنْ هو خادمٌ لغيري وعبدٌ لِسِوَاي فهو محجوب عنّي لا أنا منه ولا هو منّي. فيا عبدَ نفسِهِ! إذا كُنْتَ مستعبَداً لشهواتكَ مستخدمَاً لشُبهاتِكَ قائماً بمألوفاتِكَ جارياً على قبيح عاداتكَ، نهارُكَ مثل البهائم هائم، وليلُكَ وقتَ الغنائم نائم فمتى تُرضي ربَّاً دائماً، متى تتفرّغ لخدمتي ومتى تشاهد جلوتي، ومتى تصلُحُ لمحبَّتي.

يَا عَبْدِي!

المحبّةُ لا تحتملُ المزاحمةَ، والعبوديةُ لا تقتضي الشركةَ، فمن كان يرجو لقاء ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشرِكْ بعبادة ربِّهِ أحداً. يا عبدي مَن ادّعى محبّتي فأوّل شيءٍ يفتقدُ نفسَه، فإنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأرواحهم بأن لهم الجنة. يا عبدي ما تعرّفتُ إليكَ إلاَّ لتُدْبِرَ عن سواي، وما آثرتُكَ على كلّ شيءٍ إلاَّ لتتركَ كلَّ شيءٍ من أجلي.

يَا عَبْدِي!

إذا فاتكَ كلُّ شيءٍ كُنْتُ لكَ عِوضــاً عن كلّ شيءٍ، فأنا كلّ شيءٍ وســواي لا شيء يا عبدي! كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهي. ما خلقتُ كلّ شيءٍ إلاّ ليَدُلَّكَ عليَّ، فإذا اشتغلتَ بما يَدُلُّكَ عليَّ يا مسكينُ فمتى تصلُ إليَّ؟

يَا عَبْدِي!

ما وصَلَ مَنْ وَصَلَ إلاَّ بإعراضهِ عن الكونين، وبَيَّن نِيَّتَه عن البينِ، وغيَّبَ نِيَّتَهُ عن الكيف والأين.

١ ـ مَجْمُوْعَةٌ مِنَ المَوَاعِظِ عَنْ لِسَانِ اللهِ تَعَالَى.

المَوْعِظَةُ الأُوْلَى:

يقول الله عزَّ وجلَّ: عجبتُ لمَنْ أيقنَ بالموتِ كيف يفرحُ، وعجبتُ لمَنْ أيقنَ بالحســاب كيف يجمَعُ، وعجبتُ لِمَنْ أيقنَ بالآخرةِ كيفَ يســتريحُ، وعجبتُ لِمَنْ أيقنَ بالدنيا وزوالها كيف يطمئنُّ إليها، وعجبتُ لِمَنْ هو عالِمٌ باللســانِ جاهلٌ بالقلب، وعجبتُ لِمَنْ يشــتغلُ بعيوب الناس ويترك عيوب نفســه، وعجبتُ لِمَنْ يعلمُ أنّه يموتُ ويدخلُ القبرَ وحدَهُ ويحاسَــبُ وحدَه كيف يســتأنِسُ بالنّاس لا إله إلاّ أنا حقّاً حقّاً....!

المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ:

يقول الله تبارك وتعالى: شَهِدَتْ نفسي أن لا إله إلاَّ أنا وحدي لا شريك لي، ومحمّد رسولي، ومَنْ لم يرضَ بقضائي ولم يصبرْ على بلائي، ولم يشكرْ نعمائي ولم يقنع بعطائي فليعبدْ ربّاً سوايَ، ومَنْ أصبحَ حزيناً على الدنيا فكأنّما هو

ساخطٌ عليَّ، ومَنْ شكا مصيبةً فقد شكاني، ومَنْ دخل على غنيٍّ فتواضَعَ له من أجل غِنَاهُ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلْثُ دِيْنِهِ، ومَنْ لَطَمَ وجهَهُ على ميِّتٍ فكأنَّما حاربني، ومَنْ لم يبالِ من أي باب يأكلُ لم أبالِ من أي باب أدخلَهُ جهنّم، ومَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ وَرَّثْتُهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ، ومَنْ طال أملُه لم يخلص عَمَلُهُ.

المَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ:

يقول الله تبارك وتعالى: يا بْنَ آدمَ اِقنَعْ تَسْتَغْنِ واتركِ الحَسَدَ تسترحْ، واجتنبِ الحرامَ يخلص دينُكَ، ومَنْ تركَ الغيبةَ ظهرتْ محبَّتُهُ، ومَنْ اعتزل عن الناس سَـلِمَ منهم، ومَنْ قلَّ كلامُهُ كَمُلَ عَقْلُهُ، ومَنْ رَضِيَ بالقليل فقد وَثَقَ بي، يا بْنَ آدم! أنت بما تعلَمُ ما تعملُ فكيفَ تطلبُ عِلْمَ ما لَمْ تَعْلَمْ.

يا بْنَ آدم أنت تعملُ للدنيا كأنّكَ لا تموت غداً، وتجمعُ كأنّك مخلَّداً. يا دنيا! احرمي الحريصَ عليكِ، واتبعي الزاهدَ فيكِ، وكوني حُلوةً في أعين الناظرين.

المَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ:

يا بْنَ آدم! من أصبحَ حزيناً على الدنيا لم يزددْ من اللهِ إلاَّ بُعداً وفي الدنيا إلاَّ كَدَّاً، وفي الآخرة إلاَّ جُهْداً، وألزمَ اللهُ قلبَهُ همَّاً لا ينقطعُ عنه أبداً. يا بْنَ آدم! كُلُّ يومٍ ينقصُ من عُمرِكَ وأنتَ لا تعلم، وآتيك برزقكَ كُلَّ يومٍ وأنتَ لا تحمدُ لا بالقليل تقنعُ ولا بالكثير تشبعُ.

يا بنَ آدمَ! ما من يومٍ إلاَّ ويأتيكَ رزقُكَ، وما من ليلةٍ إلاَّ وتأتيني الملائكة من عندِكَ بعملٍ قبيحٍ، تأكلُ رزقي وتعصـيني وأنت تدعوني، خيري إليكَ نازلٌ وشرُّكَ إليَّ طالعٌ، فنِعْم المولى أنا، ونعمَ النصـيرُ أنا لَكَ، وبئسَ العبدُ أنت لي، تسألني فأعطيكَ وأستُرُ عليك سوءةً بعد سوءةٍ، وفضيحةٍ بعد فضيحةٍ وأنا أسـتحي منك وأنت لا تسـتحي مني، تنسـاني وتذكرُ غيري وتخافُ الناسَ وتأمَنُ منّي، وتخاف مَقْتَهُم ولا تخاف من غضبي.

المَوْعِظَةُ الخَامِسَةُ:

يقول الله تبارك وتعالى: يا بْنَ آدمَ لا تكُنْ مِمَّنْ يقُصُّ التوبةَ ويطوِّلُ الأملَ ويرجو الآخرةَ بغير عَمل، يقولُ قولَ العابدين، ويعملُ عملَ المنافقين، إن أُعْطِهِ يقنعْ وإن أمنعْ لم يصـبرْ، يأمرُ بالخير ولم يفعلْه، وينهي عن الشرِّ ولم ينتهِ عنه، يحبُّ الصـالحين وليس منهم وينتقصُ المنافقين وهو منهم، يقولُ ما لا يفعلُ ويفعلُ ما لا يؤمرُ، سَـيَتَوَفَّى وما يُوَفِّي، يا بْنَ آدمَ! ما من يومٍ جديدٍ إلاَّ والأرضُ تخاطبُكَ في قولها، تقولُ لكَ: يا بْنَ آدمَ تمشي على ظهري ومصيرُكَ إلى بطني، وتضحكُ على ظهري ثمّ تحزنُ في بطني وتأكلُ الشهواتِ على ظهري ويأكُلكَ الدّودُ في بطني.

يا بْنَ آدمَ! أنا بيتُ الوحدةِ وأنا بيتُ الظلمةِ وأنا بيتُ الحيلةِ فاعمرني ولا تخرّبني.

المَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ:

يقول الله تبارك وتعالى: يا بْنَ آدم ما خلقتكُم لأُستكثرَ بكم من قِلَّةٍ، ولأستأنِسَ بكم من وَحْشَةٍ، ولا لأستعين بكم بل خلقتكُم لتعبدوني طويلاً، وتشكروني كثيراً، وتسبّحوني بُكرةً وأصيلاً يا بْنَ آدم لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وحُرَّكُمُ وعبدَكم، وإنسَـكَمُ وجِنَّكم اجتمعوا على طاعتي مازاد في مُلكي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم وحيَّكم وميِّتكم وصـغيركم وكبيركم اجتمعوا على معصـيتي ما نقَّص ذلك من مُلْكي مثقال ذرَّةٍ. ومَنْ جاهَدَ فإنَّما يجاهدُ لنفسِـهِ إنَّ الله غنيٌّ عن العالمين. يا بْنَ آدمَ كما تؤدّي وكما تعمَلُ يُعْمَلُ معك.

المَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ:

يقول الله تبارك وتعالى: يا عَبيدَ الدنانيرِ والدَّراهمِ إنِّي خَلَقْتُها لِتَأْكلوا بها رزقي وتلبسـوا بها ثوبي وتسـبِّحوني وتقدّسـوني، ثمّ أراكم تأخذون كتابي فتجعلونه وراء ظهوركم وتأخذون الدنانير والدّراهم فتجعلونها فوق رؤوسكم. ورفعتُم بيوتكم وخفضتُم بيوتي فلا أنتم أَخيارٌ ولا أنتم أحرارٌ بل أنتم عَبيدُ الدنيا وجُمَّاعُ

أموالِهَا، مَثَلُكم مَثَلُ القبورِ المُجصَّــصــةِ يُرى ظاهرُهَا مليحاً وباطنُها قبيحاً. وتحبّوني بألســنتكم الحلوةِ وأفعالِكُم الجميلة، وتباعدوني بقلوبكم القا سية الخبيثةِ. يا بن آدم أخلِصْ عملكَ ولا تـ سألني، وأنا أُعطيكَ أكثر ممّا تطلب من السائلين.

المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بْنَ آدم لم أخلقْكُم عَبَثَاً، ولا خلقتُكم سُـــدًى وما أنا بغافلٍ عَمَّا تعملون، ولن تنالوا ما عندي إلاَّ بالصبرِ على ما تكرهون في طَلَبِ رضاي، والصبرُ لكم على طاعتي أيسرُ لكم من عَذَابِ الآخرةِ.يا بْنَ آدمَ كلُّكُمُ ضَـــالٌ إلا مَنْ هَدَيْتَــُهُ وكلُّكُم هَالِكٌ إلاَّ من نجَّيْتُهُ، وكلُّكم سَيِّءٌ إلاَّ مَنْ عَصَمتُهُ، فتوبوا إليَّ أرحمُكُم ولا تهْتِكُوا أسرارَكم عند مَنْ لا يخفى عليه سِرُّكم.

المَوْعِظَةُ التَّاسعَةُ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بْنَ آدم تلعنونَ المخلوقِينَ فترُدُّ اللعنةُ عليكم. يا بني آدمَ اســتقامت السَّمواتِ بالهَوَاءِ بِلا عَمَدٍ باسم واحدٍ من أسمائي، ولا تستقيمُ قلوبُكم بألفِ موعظةٍ مِنّي.

يا أيُّها الناسُ كما لا يَلينُ الحجرُ الناقِعُ بالماءِ، كذلك لا يؤثّرُ الوعظُ في القلوب القاســيةِ. يا بني آدمَ تشــهَدُون أنَّكُم عِبَادُ اللهِ ثمّ تعصُــونَهُ، وكيف تزعمون الموت حقّاً وأنتم له كارهون، وتقولون بألسنتِكُم ما ليس في قلوبكم وتحسبونَهُ هَيِّناً وهو عند اللهِ عظيمٌ.

المَوْعِظَةُ العَاشِرَةُ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا أهل الكتاب قد جاءكم برهانٌ من ربِّكم وشفاءٌ لما في الصدور، فإن لم تحـ سِنُوا إلاَّ لِمَنْ أحـ سَنَ إليكم، ولا تَـصِلُوا إلاَّ مَنْ وَا صَلَكُم، ولا تكلِّموا إلاَّ مَنْ كَلَّمَكُم، ولا تطعموا إلاَّ مَنْ أطعمَكُمْ، ولا تكرموا إلاَّ مَنْ أكرمكم فليس لأحدٍ فَضْلٌ.

إنّما المؤمنين الذين آمنوا باللهِ ورســـوله الّذينَ يحبُّونَ مَنْ هَجرَهُمْ ويُكرِمُون مَنْ أهانَهُم، وإنّي عليمٌ خبيرٌ.

المَوْعِظَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا أيها الناسُ إنّما الدنيا دار مَنْ لا دارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ له، ولهَا يجمَعُ مَنْ لا عَقْلَ له، وبهَا يفرحُ مَنْ لا فَهْمَ له، وبها يَمْرَحُ مَنْ لا يقينَ له، وعليها يَحْرِصُ مَنْ لا توكُّلَ له ويطلبُ شَهَواتِها مَنْ لا معرفة له.

مَنْ أراد نِعْمةً زائلةً وحياةً منقطعةً فقد ظَلَم نفسه وعَصَى ربَّهُ ونَسِيَ الآخرةَ وَغَرَّتْهُ دُنياه وأراد ظاهِرَ الإثم وباطنَه إنَّ الذين يكسَبُونَ الإثم يخسرون بما كانوا يفترون.

يا بني آدمَ! راعوني وتاجروني وعاملوني و سَلِّفُوني فربحكم عندي ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر، ولا تنقصُ خزائني ولا ينفد ما عندي وأنا الوَهَّابُ الكبيرُ الكريمُ.

المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بني آدم اذكروا نِعْمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعَهْدي أُوْفِ بعَهْدِكم وإيَّاي فارهبوني، وكما لا يُهْتَدَى إلى السبيل إلاّ بدليل، فإنه ليس طريقٌ إلى الجنة إلاَّ بالعلم.

وكما لا تجمعون المالَ إلاّ بالنصـبِ كذلك لا تدخلون الجنة إلاّ بالصـبر على عبادتي، وتقرّبوا إليَّ بالنوافل واطلبوا رضـــاي برضى المســـاكين عنكم وارغبوا في رحمتي بمجالس العلماء فإنَّ رحمتي لا تفارقهم طرفة عين.

يا بنَ آدم! اسـمعْ ما أقولُ: مَنْ تكبَّر على مسـكينٍ حَشَرْتُهُ يومَ القيامة على صـورة الذئب، ومَنْ تواضَعَ على العالِم رفعتُهُ في الدنيا والآخرة، ومَنْ هَتَكَ سِتْر مُسْلمٍ هتكْتُ سِترَهُ سبعين مَرَّةً، ومَنْ أهان فقيراً فقد بارَزَني بالمُحاربة، ومَنْ آَمَنَ بي صَافَحَتْهُ الملائكة في الدنيا والآخرة.

الْمَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بنَ آدم! كم من سراجٍ قد أطفأَتْهُ الريحُ، وكم من عابدٍ أفسَـــدَهُ العُجْبُ، وكم من غنيٍّ أفسَدَهُ الغِنَى، وكم من صحيحٍ أفسَدتْهُ العافيةُ، وكم من عالِم أفسَدهُ العِلْمُ، فلولا مشايخٌ رُكَّعٌ، و شبابٌ خُشَّعٌ، وأطفالٌ رُضَّعٌ، وبهائمٌ رُتَّعٌ، لجعلتُ السموات من فوقكم حديداً، والأرض صفصافاً والترابَ رماداً، وَلَمَا أنزلتُ عليكم من السماء قَطْرَاً، وَلما أنبتُّ لكم في الأرض من حَبَّةٍ ولصَبَبْتُ عليكم العَذابَ صَبَّاً.

الْمَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بنَ آدم! أطيعوني بقَدْرِ حاجتكم إليَّ، واعصوني بقَدْرِ صبركُم على النار ولا تنظروا إلى حالكم المتأخّرة، وأرزاقكم الحاضرة، وذنوبكم المستترة، وكلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وجهي، ولي الحكْمُ وإليّ ترجعون.

الْمَوْعِظَةُ الخَامِسَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بنَ آدم! دِينُكُمْ لحمُكُم ودَمُكُمْ، إنْ صَـــلُحَ دِينُكُمْ صَـــلُحَ لحمُكُم ودَمُكُمْ، وإنْ فَسَدَ دِينُكُمْ فَسَدَ لحمُكُم ودَمُكُمْ، ولا تكونوا كالمصباحِ يحرِقُ نَفْسَهُ ويضيءُ للناس.

يا بنَ آدم! أخرجْ حُبَّ الدنيا من قلبكَ فإني لا أجمعُ حُبّي وحُبّ الدنيا في قلبٍ أبداً، وأرفِقْ في الرزق، فالرزق مقســـومٌ، والحريصُ محرومٌ، والبخيلُ مذمومٌ والنعمةُ لا تدومُ والأجلُ مَعْلُوم، وخيرُ حكمةٍ خشـــيةُ الله، وخيرُ الغنى القناعةُ، وخيرُ الزاد التقوى وخيرُ ما أُتي في القلوب اليقينُ وخيرُ ما أعطيتُم العافيةُ، وشرُّ سلاحكم الكذبُ وشرُّ النصيحة النميمةُ، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد.

المَوْعِظَةُ السَّادسَةَ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا أهل الكتاب لِمَ تقولون ما لا تفعلون، وَكَمْ تُنْهَوْنَ فلا تنتهون وكَمْ تجمعونَ مالا تأكلون وكَمْ تؤخِّرون توبةً يوماً بعد يومٍ وعاماً بعدَ عامٍ أعندكم من الموت أمانٌ، أم بينكم براءة من النار، أم تحقَّقْتُم بالجنان أم بينكم وبيني عهدٌ...؟!.

بَطَرَكُم النعيمُ وأفسدكم الإحسانُ وغرَّكمُ من الدنيا طولُ الأمل، فاغتنموا الصحَّةَ والسلامةَ فأيَّامُكم معلومةٌ وأنفاسكم معدودةٌ وأسراركم مكشوفةٌ وأستارُكم مهتوكةٌ، فاتَّقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون، وقدِّموا لأنفسكم ما بقي في أيديكم.

المَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بْنَ آدمَ! اِعملْ بما أمرتُكَ به، وانتهِ عمَّا نهيتُكَ عنه، يا بْنَ آدمَ! قولُكَ مليحٌ وباطنُكَ قبيحٌ فأنتَ مع الهالكين، يخادعون الله وما يخادعون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون، يا بْنَ آدمَ لا يدخلُ الجنَّةَ إلا مَنْ تواضعَ لعظمَتي وقَطَعَ النهار بذكْرِي وكَفَّ نفسَهُ عن الشهوات من أجلي، فإنِّي آوي الغريبَ وآمنُ الفقيرَ، وأُكْرِمُ اليتيمَ وأكونُ كالأبِ الرَّحُوم، فمن كانت هذهِ صفتَهُ كُنْتُ له مجيباً إذا دعاني، وإنْ سألني أعطيتُهُ.

المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بْنَ آدمَ! لِمَ تتنكَّرُ لي وإلى متى تكفُرُ بي، وإلى متى تتناساني ولم أستوجبْ ذلكَ، ولستُ بظلاَّمٍ للعبيد، وإلى متى تجْحَدُ نعمتي وليس لكَ ربٌّ غيري، وإلى متى تستخفُّ بكتابي ولم أكلِّفْكَ ما لا تطيقُ، وإلى كم تُجافيني ولم أجافيك وإذا مرضْتَ فأيُّ طبيبٍ يشفيكَ من دوني وكم شكوتني وأسخطتَ قَضَايَ عليكَ، فإذا أرسلتُ السماءَ عليكم مِدْراراً قُلْتُم مطِرْنَا بهذا النجم وأنا الذي

أنزلتُ عليكم، ورحمتي قَدَرٌ مقدورٌ مكيولٌ معدودٌ موزونٌ، وإذا وَجَدَ أحدُكم قُوْتَ ثلاثةِ أيامٍ وقال: أنا بِشَرٍّ، ولستُ بخيرٍ فقد جَحَدَ نعمتي.

ومَنْ مَنَعَ الزكاةَ مِنْ مَالِهِ فقد استخفَّ بكتابي وإذا عَلِمَ وَقْتَ الصَّلاةِ ولم يفرَغْ لها فقد غفل عنّي.

المَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا بْنَ آدمَ! اصبرْ وتواضعْ، أرفعك، واشكرني أزيدكَ، واذكُرني أذكركَ وا ستغفرني أغفر لك وادْعُني أ ستجبْ لكَ، وتُبْ إليَّ أَتُبْ عليكَ وا سألْني أُعْطِيكَ، وَصِلْ رَحْمَكَ أزِدْ في أجَلِكَ، واطْلُبِ العافيةَ بِطُوْلِ الصحّةِ والسلامةِ والوحدةِ والإخلاصِ في الوَرَعِ والرغبةِ في التوبةِ والغِنى في القَنَاعة.

يا بْنَ آدمَ! كيفَ تطمعُ في جَلاَءِ القَلْبِ مع كَثْرَةِ النومِ، وكيف تطمعُ في الحِلْمِ مع الدنيا، وكيفَ تطمعُ في الجنَّةِ بلا عَمَلٍ صَالحٍ.

المَوْعِظَةُ العُشْرُوْنَ:

أَيُّها النَّاسُ! لا عيش كالتدبير، ولا وَرَعَ كالكَفِّ عن الأذى، ولا شفيع كالتوبةِ، ولا عِبَادةَ كالعِلْمِ، ولا صَلاَةَ كالخَشْيَةِ ولا ظَفَرَ كالصَّبْرِ، ولا سعادة كالتوفيق، ولا زَيْنَ أزيْن من العقلِ، ولا رفْقَ آنَسُ من الحِلْمِ.

يا بْنَ آدمَ! تفرَّغْ لعبادتي أَمَلأْ قلبَكَ غِنَىً وأبارِكْ في رزقِكَ وأُحِلُّ في جسمِكَ راحةً، ولا تغفلْ عن ذكْري فإن تَفْعَلَ أملأْ قَلْبَكَ فَقْرَاً وبَدَنَكَ تَعَبَاً ونَصَباً، وصَدْرَكَ هَمَّاً. ولو أبصرْتَ ما بقي من عمرِكَ لَزهِدْتَ فيما بقيَ من أَمَلِكَ.

يا بْنَ آدمَ! بعافيتي قَوِيْتَ على طاعتي، وبتوفيقي أَدَّيْتَ فريضتي وبرزْقي تقوَّيْتَ على معصيتي، وبمشيئتي ما تشاءُ لنفسكَ، وبنعمتي قُمْتَ وقَعَدْتَ، وفي كَنَفِي أمسَيْتَ وأصبَحْتَ، وفي فضْلي عِشْتَ وفي نعمتي تقَلَّبْتَ وبعافيتي تحمَّلْتَ، وتنساني وتذكر غيري فلِمَ لا تشكرني.

المَوْعِظَةُ الحَادِيَةُ وَالعُشْرُوْنَ:

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

يا بْنَ آدمَ! الموتُ يكشــفُ أسرارِكَ، والقيامةُ تتلو أخبارَكَ، والعذَابُ يهتِكُ أســتارَكَ، فإذا أذنبْتَ ذَنْباً فلا تنظرْ إلى صِــغرِهِ ولكنْ أنْظُرْ إلى عَظَمَةِ مَنْ عَصَــيْتَ وإذا رُزِقْتَ رِزْقاً فلا تنظرْ إلى قِلَّتِهِ ولكن انظُرْ إلى رِزْقِكَ وتحقَّقِ الذَّنْبَ الصــغيرَ فَإِنَّكَ لا تدري بأيِّ ذَنْبٍ عصــيتَهُ، ولا تَأْمَنْ مَكْرِي فَإِنَّ مَكْرِي أخفى عليكَ من دبيبِ النملةِ السوداء في الليلةِ الظلماءِ.

يا بْنَ آدمَ! هَلْ عَصَيْتَني فذكَرْتَ غَضَبي، وهل أَدَّيْتَ فريضتي كَمَا أَمَرْتُكَ؟ وهل آسَيْتَ المسكين من مَالِكَ، وهل أحســنْتَ إلى مَنْ أســاءَ إليكَ؟ وهل عفَوْتَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ؟ وهل واصَــلْتَ من حَرَمَكَ؟ وهل لاطفْتَ مَنْ خَانَكَ وَهَلْ كَلَّمْتَ مَنْ هَجَرَكَ، وهل أَدَّبْتَ وَلَدَكَ وهَلْ أرضــيْتَ جيرانَكَ؟ وهل ساءَلْتَ العلماءَ عن أمْرِ دِيْنِكَ؟ فإنِّي أنظرُ إلى قلوبكم لا إلى صُوَرِكم ومحاسنكم، وأرضى بهذه الخِصال منكم.

المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ وَالعُشْرُوْنَ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتَنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ) مَا مَثَلُ العِلْم بلا عَمَلٍ إلاَّ كَمَثَلِ البَرْقِ بلا مَطَرٍ ومَثَلِ القَوْس بلا وَتَرٍ، وَمَثَلُ المالِ بلا زكاةٍ كَمَثَلِ مَنْ يزرع المِلْحَ، ومثلُ العِلْم عند الأحمقِ كَمَثَلِ الدُّرِّ والجواهر عند البهائم، ومَثَلُ القلب القاسي مع العلم كَمَثَلِ حَجَرٍ ناقعٍ في الماء، ومَثَلُ الموعظةِ عند مَنْ لا يرغب فيها كَمَثَلِ مُزَمِّرٍ بين القبور، ومَثَلُ الصَّــدقَةِ من الحرام كَمَثَلِ مَنْ يغســلُ قَذْرَةً عن ثوبه ببَوْلِهِ، ومَثَلُ الصــلاةِ بلا زكاةٍ كمثَلِ جُثَّةٍ بلا رُوْحٍ، ومَثَلُ العَمْلِ بلا تَوْبةٍ كَمَثَلِ البِنَاءِ بلا أساسٍ.

يا بْنَ آدمَ! لا يستقيمُ دِيْنُكَ حَتَّى يستقيم لسانُكَ، ولا يستقيم لسانُكَ حتّى تستحي من رَبِّكَ. يا بْنَ آدمَ! أكْثِرِ الزَّادَ فإنَّ الطريقَ بعيدٌ وَجَدِّدِ القيامَ للهِ فإنَّ

الصراطَ دقيقٌ وأخْلِصِ العملَ فإنَّ الناقِدَ بصيرٌ. وبقْدرِ مَيْلِكَ للدنيا أخرِجُ محبَّتي من قلبكَ فإنِّي لا أجمعُ حُبّي وَحُبَّ الدنيا في قلبٍ واحدٍ أبداً.

يا بْنَ آدمَ! تورَّعْ تعرفني، وارجِعْ تراني، وتجرَّدْ لعبادتي تصل إليَّ فأنا الله لا إله إلاَّ أنا لا شبيه لي، ولا سلطان كسُلْطاني فأنا الربُّ فاعرفوني، وأنا المُنْعِمُ فاشكروني، وأنا الحافِظُ فاحفظوني، وأنا الناصر فاستنصروني، وأنا الغافر فاستغفروني وأنا المقصودُ فاقصدوني، وأنا المعطي فاسألوني، وأنا المعبود فاعبدوني، وأنا العليمُ فاحذروني، فلو أحببتم عبادتي كَمَا تحبُّونَ الدنيا لأكرمُتكُمْ كرامةَ المُرْسَلين، فلا تُمِيْتُوا قلوبَكم للدنيا فزوالها قريب.

٢ ـ مَوَاعِظُ وَحِكَمٌ مُتَفَرِّقَةٌ.

١ـ أَوْحَى اللهُ سُبْحَانَهُ إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:

أنْزِلْني من نفسكَ كَهمِّكَ واجْعَلْني ذُخْراً لكَ في معادِكَ،وتقرَّب إليَّ بالنوافل أُحبُّكَ ولا تُوَلِّ غيري فأخذلُكَ، اصبرْ على البلاءِ وَارْضَ بالقضاءِ وكُنْ لَمَسَرَّتي فيك، فإنَّ مَسَرَّتي أن أُطاعَ فلا أُعصى، وكُنْ منِّي قريباً وَأَحيي ذِكري بلسَانِكَ ولْتَكُنْ مودَّتي في صدرِكَ، تيقَّظ من ساعات الغَفْلةِ،واحكمْ في لطيفِ الفِطْنَةِ، وكُنْ لي راغباً راهباً، وأَمِتْ قلبَكَ في الخَشْيَةِ لي، وَرَاعِ الليلَ لحقِّ مَسرَّتي، وأظْمِ نهارَكَ ليومِ الريِّ عندي ونافِسْ في الخيرات جهدَكَ، واعترفْ بالخير حيث توجَّهْتَ، وقُمْ في الخلائق بنصيحتي، واحكُمْ في عبادي بعَدْلي، فقد أنزلْتُ عليك شفاءَ وسواس الصدور من مرضِ النسيانِ وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ولا تكُنْ حَلْسَاً كأنَّكَ مقبوضٌ وأنتَ حَيٌّ تتنفَّسُ.

يا عيسى بن مريم! ما آمنَتْ بي خليقةٌ إلاَّ خشعَتْ، ولا خشعَتْ إلاَّ رَجَتْ ثوابي، فأشهدُكَ أنَّها آمنةٌ من عقابي ما لمْ تُغيِّرْ أو تبدِّلْ سُنَّتي. يا عيسى بن مريمَ البكر البتول! إبكِ على نفسِكَ أيَّامَ الحياة بكاء من وَدَّع الأهلَ وقَلاَ[1] الدنيا وترك اللَّذَّات

(١) قَلا : تَرَكَ وَكَرِهَ الشيءَ كُرْهاً شديداً .

لأهلها، وارتفعت رغبتُه فيما عند إلهه، وكُنْ في ذلك قليل الكلام، وتُفْشِي السلام، وكُنْ يقظان إذا نامت عيون الأبرار حَذَار ما هو آتٍ من أمْرِ المَعَاد، وزلازل شـــدائد الأهوال قبل أن لا ينفع أهلٌ ولا مالٌ، واكحلْ عينك بملول الحزن إذا ضحك البطّالون، وكن في ذلك صـابراً محتسـباً، فلو رأتْ عيناك ما أعددتُ لأوليائي الصالحين ذاب قلبُك وزهقتْ روحُك.

٢ ـ قَالَ هِرمِسُ الهَرَامِسَة عليه السلام:

اعلموا واستيقَّنوا أنَّ تقوى الله هي الحكمةُ الكبرى والنعمةُ العظمى، والسببُ الدَّاعي إلى الخيرِ والفاتحُ لأبواب الفَهْمِ والعَقْلِ، لأنَّ اللهَ ســبحانه لمَّا أحبَّ أولياءه وعباده وَهَبَ لهم العقلَ، واختصَّ أنبياءَهُ ورُسُـلَهُ برُوحِ القُدْسِ فكشــفَ لهم عن سرائرِ الديانةِ وحقائقِ الحكمةِ لِيَنْتَهُوا عن الضــلال ويتَّبعوا الرشاد.

وقال:

استشعروا واتَّبِعوا الديانة، وعَوِّدُوا أنفسَكم الوقارَ والسكينةَ، وتحلَّوا بالآداب الحسنةِ الجميلةِ، وتَروُّوا في أموركم ولا تعجلوا ولاسـيما في مجازاة المسيء، واجعلوا الحياةَ مَلْءَ وجوهكم والخيفة من اللهِ حَشْوَ جنوبكم، وتدبَّروا بالصحة والاستقامة واحذروا الندامة، فبسلوكِ هذا السبيل تصيرُ النفسُ حُرَّةً مُعْتَقَةً من رِقِّ الجهالةِ وعبودية الحداثةِ.

وقال:

تأدَّبوا بآداب الله التي دعاكم إليها وأمركم بحفظِهَا، واتَّبعوا الحكماءَ والعلماءَ وخُذوا عنهم الفضـائلَ، ولتكُنْ شـهواتكم مصرـوفة إلى طلب الحمد واسـتحقاق المدح، ولا تصرـفوها إلى الشرـور ومَقَابح الأمورِ، وتحرَّزوا واهربوا من المآكل والمشارب الخبيثة، واجتنبوا المكاسب الدنيوية فإنّها وَإنْ ملأَتْ أكياسـكم من المال فإنَّها تُفرِّغُ قلوبكم من الإيمان، وعوّدوا أنفسـكم إكرامَ الأخيار والأشرار، أمَّا الأخيارُ فمن أجل خيرهم، وأمَّا الأشرار فمن أجل استكفاف شرِّهم.

وقال:

لا تحبُّوا كثرةَ الضــحكِ والهَزْلِ، ولا تظنُّوا بالناس، وإنْ ظهرتم على أحدٍ من عاهة أو عورةٍ أو حالةٍ مذمومةٍ فلا تعيبوه ولا تضــحكوا منه واعتبروا وارجعوا إلى الله فإنَّ البشر ــيةَ وأنتم من طينةٍ واحدة خُلِقْتم، وليس الضــاحك يأْمَنُ أن يناله مثله، والواجب عليكم إذا رأيتم ذا البلوى أن ترفعوا أنظاركم إلى الله سبحانه وتحمدوه على العافية.

وقال:

أكثروا من الصــمت في المحافل، ولا تُطْلِقُوا ألســنتكم بحضرــة المتحفِّظين عليكم بما عَسىــ أن يجعلوه ســلاحاً يضرــبونكم به. ولا يمكن أن يكون الإنســانُ عادلاً وهو غير خائف من الله عزّ وجلّ، وإنّما يكون العدلُ عدلاً إذا ا ستكثروا من خشيةِ الله وبذلك يكسبون روح القدس يوم القيامة وتفتح لهم أبوابُ الفردوس وعالمُ النور حتّى تســيحَ أنفســهم مع النفوس المطهَّرةِ العادلةِ مع الله ســبحانه وتعالى والمستحقّة للحياة الدائمة الأبديّة.

وقال:

نَفِّسُــوا عن المكروبين، وفَرِّجُوا عن المحزونين، وافتدوا الأسرى وعَالجوا المرضى واكْسُــوا العورات، وأضــيفوا الغرباء، وأطعموا الجياع واسْــقُوا العِطَاشَ وعَزُّوا أهل المصــائب وخلِّصُــوا المظلومين ممَّن ظلمَهم.

ولا تز يدوا المحزونين حُزناً ولا تصــيروا لهم مع خطوبِ زمانهم عوناً، بل سَــلُّوهم وعزُّوهم وعاونوهم وعا ضدوهم ووا سُوهم بالقول الحَسَنِ والفِعْلِ الجميل وإن كانوا ممَّن سَلَفوكم الإ ساءة فاغفروا لهم واقتصروا على ما نالهم من العقوبة.

وقال:

لا ينبغي لطالب الحكمةِ أن تكون طِلْبَتُهُ إيَّاها ورغبتهُ فيها لثَوابٍ عليها، وثَمَنٍ لها، ولكن ينبغي له أن يكون ذلك رغبةً منه لنفسه فيها لفضلها على كل شيء

سواها. ومَنْ فَضَّلَ العلماء وقصد العدل واستفاد العمل الصالح واجتهدَ في طلبِ الحكمة وتزيَّن بالآداب أصاب ما يرغب فيه من خير الدنيا والآخرة.

وقال:

ما أقلَّ المعرفة مع غلبة الشهوة، وما أكثر منفعة قلّة المعرفة مع مَلْكِ الشهوة.

٣ ـ قال بعضُ الحكماء:

علامةُ التوبة أربعٌ: الإقرار بالذنب والندم عليه، والرجوع عنه، وعدم العودة إليه.

وعلامةُ التوبةِ النَّصوح ثلاثٌ: حُب الخَلْوةِ، وإسبال الدمعة، والمحاسبة للنفس عن كلّ شهوةٍ.

وقال بعض العلماء:

فما العجيبُ ومَا الأعجبُ، وما القريبُ وما الأقرب، وما الـصعبُ وما الأصعب، وما الواجبُ وما الأوجبُ؟

فأمَّا العجيبُ فهي الدنيا، والأعجبُ المتعلِّقُ بها رغم فنائها، وأمَّا القريبُ فالقيامة قريبة، ولكنَّ الموتَ منها أقربُ، وأمَّا الصـعبُ فالنزول إلى القبر صَـعْبٌ ولكنَّ النزولَ بلا زادٍ إليه أصـعبُ، وأمَّا الواجبُ فالتوبةُ واجبةٌ ولكنَّ المبادرةَ إليها أوجبُ.

قيل لفيثاغورس الحكيم:

مَنْ الذي يَسْلَمُ مِنْ مُعَاداة الناس؟

فقال: مَنْ لم يظهرْ منه خيرٌ ولا شرٌ.

فقيلَ: وكيف ذلكَ؟

قال: لأنّه إنْ ظهرَ منه خيرٌ عَاداهُ الأشرارُ، وإن ظهر منه شرٌّ عادَاه الأخيارُ والأُوْلى أفضلُ.

وكان معروف الكرخي يقول: الدنيا أربعة أشـــياء: المالُ والكلامُ والطعامُ والمنامُ. فأمَّا المالُ فهو يُطغِّي، وأمَّا الكلامُ فهو يُلهِّي وأمَّا الطعامُ فهو يُقسِّي، وأمَّا المنامُ فهو يُنْسِّي.

وقال كَعْبُ الأحبار:

حفظتُ اثنتي عشرةَ كلمةً وعلَّقتُها على عنقي فأنا أنظرُ إليها كلَّ يومٍ ثلاث مرَّاتٍ.

* الأُولى:

يقول اللهُ تعالى يا بن آدمَ لا تخفْ من ذي ســلطانٍ ما دام ســلطاني، وســلطاني موجود لا ينفدُ أبداً.

* الثانية:

يا بْنَ آدَمَ لا تخفْ فوات الرزق ما دامت خزائني، وخزائني مملوءة لا تنفدُ أبداً.

* الثالثة:

يا بْنَ آدَمَ لا تأنسْ لغيري إذا وجدتني، فمتى طلبتني تجدني فاطلبني تجدني.

* الرابعة:

يا بْنَ آدَمَ أنا وحقِّي، لَكَ محبٌّ، فحقّي عليك أن تكون لي محبّاً.

* الخامسة:

يا بْنَ آدَمَ لا تأمَنْ مكري حتّى تجوز صراطي.

* السادسة:

يا بْنَ آدَمَ خلقْتُ الأشـــياءَ كلَّها من أجلك وخلقتُكَ من أجلي، فلا تهتك ما خلقتُهُ من أجلي فيما خلقتُهُ من أجلِكَ.

* السابعة:

يا بْنَ آدَمَ كم تغضب عليَّ من أجل نفسِكَ، ولا تغضب على نفسك من أجلي.

* الثامنة:

يا بْنَ آدَمَ كلٌّ يريدُكَ له وأنا أريدُكَ لكَ وأنت تفرُّ منِّي، يا بْنَ آدَمَ ما أنصفتني.

* التاسعة:

يا بْنَ آدَمَ كما لا أطالبُكَ بعمل غدٍ فلا تطالبني برزق غدٍ.

* العاشرة:

يا بْنَ آدَمَ لي عليك فريضةٌ، ولك عليَّ رزقٌ فإن خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك.

* الحادية عشرة:

يا بْنَ آدَمَ إن رضيتَ بما قسمتُ لكَ أرحتُ قلبَك وبدنَك، وإن لم ترضَ بما قسمتُ لك سلَّطتُ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البريَّةِ..

* الثانية عشرة:

يا بْنَ آدَمَ وعزّتي وجلالي لن تنال إلاَّ ما قسمتُ لك.

٤ ــ وقال الاسكندر

مررتُ بقومٍ فقلتُ لهم: مَنْ أنتم؟

قالوا: مؤمنون.

فقلتُ لهم: ما علامة الإيمان عندكم؟

قالوا: نصبر على الضرّاء ونشكرُ على السرَّاء ونرضى بمواقع القضاء.

فقلتُ لهم: أرى أعماركم طويلة وأرى صُورَكم حسنةً وأموالكم كثيرة ولا أرى بينكم فقيراً، وبيوتكم دون أبواب ولا أرى لكم حاكماً، وقبوركم على باب دوركم ومعابدكم بعيدة عن بيوتكم؟ فقالوا: إنَّ الله طوَّلَ أعمارَنا حيث أطعناه وخدمناه حقَّ خدمته، وعندما صَفَتْ قلوبنا لبعضنا ومشينا على سمة التواضع فالله سبحانه حَسَّنَ صُوَرَنا، وأمَّا كثرة أموالنا والبركة بأرزاقنا حيثُ تَعِبْنا على الرزق الحلال وتجنَّبنا الحرام، ومن قولك ليس بيننا فقير، فَكُنَّا إذا افتقر أحدٌ مِنّا جمعنا

له دراهم من الجميع وأغنيناه ولم يشـــعرْ أحدٌ بفقرنا فَكُلّنا مَكْفِيينَ من الدنيا، ومن قولك أنَّ دُوْرَنَا ليس لها أبواب فلأنَّه ما بيننا لصوص ولا نسرق مال الناس ولا أحدٌ يَسْرِقُ مَالَنا فمن أجل ذلك مواشـــينا بالفلاة ناشرة، ومن قولك أن ليس بيننا حاكم لأنَّه ما مِنَّا أحدٌ يقاتل أحداً ومن أجل ذلك ليس أحدٌ يقاتلنا، مقيمين على طاعة المَلِك القدير لم نحتجْ لقاضٍ ولا حاكمٍ ولا وزيرٍ، ومن قولك أنَّ قبورَنا على باب دُورنا لأنّنا وجدنا في كتبنا وعلى لســـان أنبيائنا أنَّه مهما كان القبر قريباً يُذكِّرُ الحيَّ بالموتِ، ومن قولك أنَّ معابدنا بعيدة لأنَّنا وجدنا في كتبنا أنَّه مهما كَثُر الســـعي إلى المعابد كَثُرت الحسنات، فلأجل ذلك عِشْنا في أهدأ بالٍ وأحسنِ حَالٍ نحمد العليّ المتعالي.

٥ ـ وقيلَ مَرَّ سلمانُ الفارسي (**عليه السلام**) على راعي غنم فقال له:

ماذا معك من العلوم أيُّها الراعي؟

فقال: معي خمسُ كلماتٍ، وزدني منك خمساً أُكملُ بها علومي.

فقال له: وماذا معك لأزيدك؟

قال: يا سيّدي! الأولى: لا أستعملُ الكذبَ والصدقُ موجودٌ.

والثانية لا أستعملُ الحرامَ والحلالُ موجودٌ

والثالثة: لا أذكرُ عيوبَ الناسِ والعَيْبَ فيَّ.

والرابعة: لا أعصي الله وهو يراني

والخامسة: لا أجحدُ نعمةً وهو يكفيني.

فقال له (**عليه الســـلام**): لقد حويْتَ علم الأوّلين والآخرين، فَدُمْ على الخمسِ كلمات التي معك فليس عليها مزيد.

٦ ـ قيل عن امرأةٍ لها أيتام

وما عندها شيءٌ من الدنيا تسدُّ به جوعهم فتوجّهت إلى عبد العزيز بن مروان لتُحضرَ لهم شيئاً يأكلونه في تلك الليلة وقالت له: عندي أيتامٌ لا يملكون ما

يأكلونه الليلة وهم صــغارٌ لا يصــبرون على الجوع، فهل عندك شيءٌ على نيَّةِ الخير ولك الأجر والثواب من الله؟

فنادى على الحاجب وقال له: خُذْ هذه المرأة إلى بيت المال وَدَعْهَا تأخذ ما تريد.

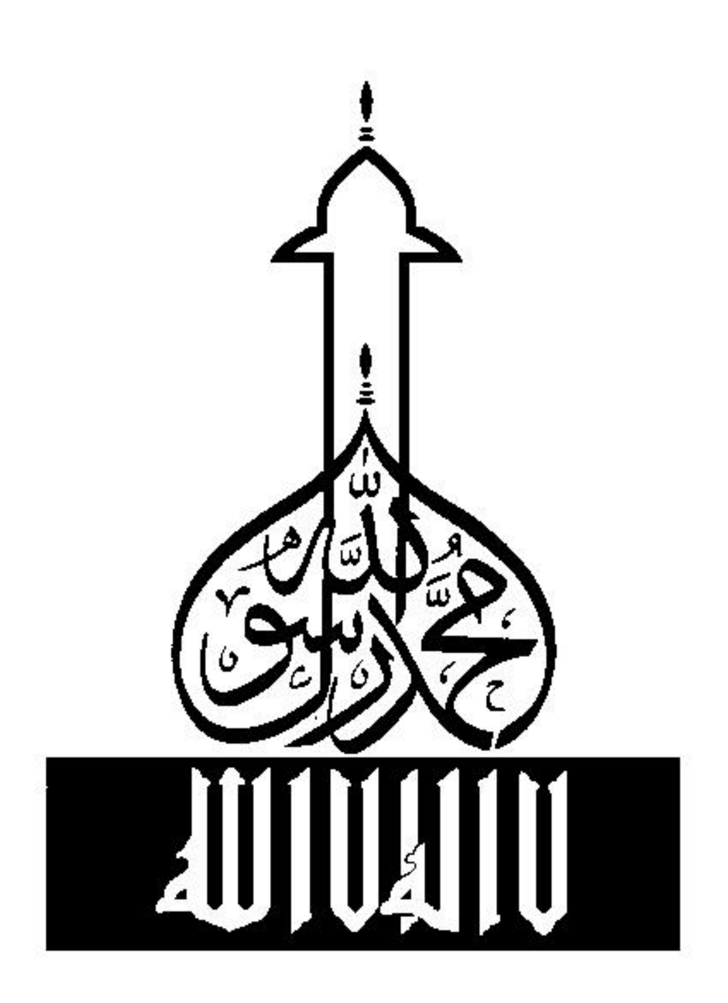
ففعَلَ ذلك، فدخلتْ بيتَ المالِ وأخذتْ درهمين، فقال الحاجبُ لها: خُذِي ما تريدين فهو جائز لك.

فقالت هذين الدرهمين كفاية، واحدٌ نشــتري به العشــاء، والآخر لغداء يوم الغد ثمّ انصرـفت، فلمَّا أتت الأولادَ قالوا لها: وما أحضرت لنا من عند الملك؟

فقالت: أحضرتُ درهمين، دِرْهَمٌ لعشاء الليلة، والآخر ندَّخرهُ لغدَائنا غداً.

فقالوا: يا أمّاه ما أحسنتِ بما فعلْتِ، أبقي درهم العشاء، وأمَّا درهم الغد فرُدِّيْهِ إلى عبد العزيز يباتُ على ذِمَّتِهِ ولا يَبَاتُ على ذِمَّتنَا، وفي هذا كفاية لنا، والمتكفِّلُ بالأرزاق حيٌّ لا يموت، كما رزقَنَا هذه الليلة قادر أن يرزقنا غيرها وهو أكرم الأكرمين.

فقامت المرأة فردَّتْ الدرهم للملك وعادت لأولادها بالعشاء.


محمد رسول الله
لا إله إلا الله

المَرَاجِعُ

حَسْبَ وُرُوْدِهَا في الكِتَابِ

١ ـ القُرآنُ الكَرِيْمُ.

٢ ـ الكِتَابُ المقَدَّسُ (العَهْدُ القَدِيْمُ وَالعَهْدُ الجَدِيْدُ).

٣ ـ المُعْجَمُ المَدْرَسِيُّ ـ مُخْتَارُ الصِّحَاحِ ـ القَامُوسُ المُحِيْطُ.

٤ ـ عُجَالَةُ المُنْتَظِر في شَرْحِ حَالِ الخَضِر ـ ابْنُ الجَوْزِي.

٥ ـ البِدَايَةُ والنِهَايَةُ ـ ابن كثير الدِّمشقي ـ الجزء ٢-٣-٤-٥.

٦ ـ مِنْ قِصَصِ العَرَبِ ـ محمد أحمد جاد المولى ورفاقه.

٧ ـ وفَياتُ الأَعْيَانِ ـ ابْنُ خِلَّكَان ـ الجزء ١-٢-٣.

٨ ـ رَابعَة العَدَويَّة والحَيَاةُ الرُّوْحِيَّةُ في الإِسْلاَمِ ـ طَه عبد الباقي سُرور.

٩ ـ الرِّسَالَةُ القُشَريَّةُ ـ أبو القَاسم عَبْدُ الكريم بن هَوَازن القُشَيْرِي.

١٠ ـ تَذْكَرَةُ الأَوْلِيَاءِ ـ فَرِيْدُ الدِّيْنِ العَطَّار.

١١ ـ صَفْوَةُ الأَصفِيَاءِ ـ ابْنُ الجَوْزِي.

١٢ ـ أسرَارُ الحِكَمِ وَمَحاسِنُ الكَلِمِ ـ بِشْرُ بْنُ فَاتِك.

١٣ ـ شَمْسُ المعَارِفِ الكُبْرَى ـ الشيخ أحمد بن عليّ البوني.

١٤ ـ عِلْمُ الهُدَى وَقَبَسُ الإِهْتِدَاءِ في شَرْحِ أسماء اللهِ الحُسْنَى ـ البوني.

١٥ ـ المَقصَدُ الأَسنى في شَرْحِ أسماء اللهِ الحُسْنَى ـ البوني.

١٦ ـ بعْضُ مخطوطاتِ مَذهَبِ التوحيدِ.

الفهرس